دموع جبل

رواية

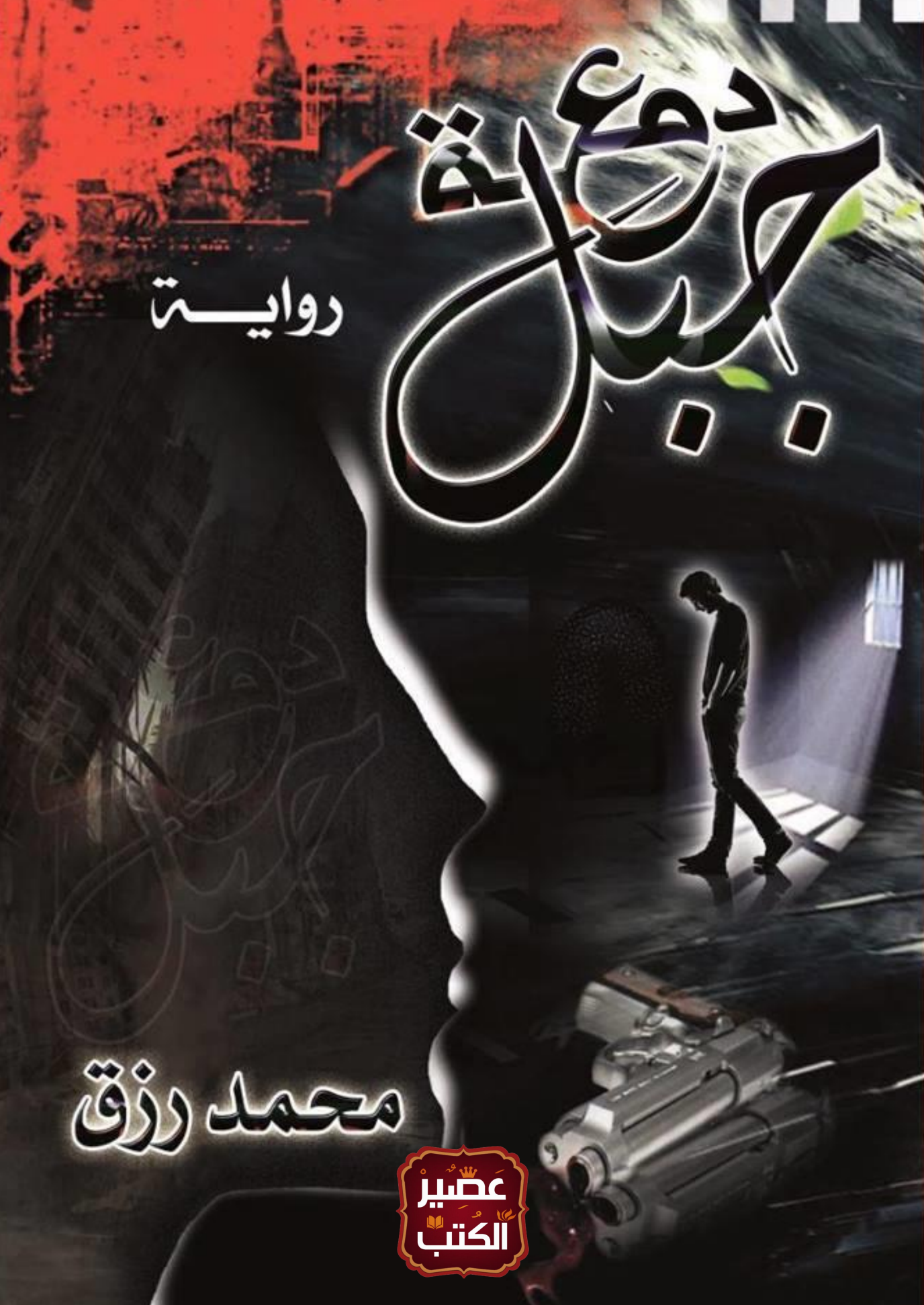

محمد رزق

عصير الكتب

رواية

دمعة جبل

محمد رزق

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

رواية

دمعة جبل

المؤلف :محمد رزق

نشر في :مارس 2017

تصميم غلاف:محمد رزق

تقييم وتصحيح:منى دراوي$ أحمد ضياء

تنسيق داخلي : عصير الكتب للنشر الالكتروني

إهداء

* * *

قَلِيْلُونَ هُمْ الّذيّنَ يَلْمَسُونَ فِي أَرْوَاحِنَا وَتَرَاً..

يَعْزِفُونَهُ لَحْنَاً خَالِدَاً

هَؤلاءِ يِبْقُونَ كَطَابِعِ بَرِيدٍ عَلَى رِسَالَةٍ عَتِيْقَةٍ..

قَلِيْلُونَ هُمْ مَنْ يَغْرِقُونَ فِي تَفَاصِيْلنَا..

فَنَغْرِقُ فِي احْتِرَامِهِم..

هَؤلاءِ.. نَظَلُ مُمْتَنينَ لَهُمْ حَتى آَخِرُ نَبْضَة.

لو أننا استيقظنا في الصباح ووجدنا أن الجميع صاروا من نفس السلالة والعقيدة واللون، لاخترعنا أسبابًا أخرى للتفرقة قبل حلول المساء!

#جورج_آيكن

الفصل الأول

القاهرة.. يوليو 2008

ها قد استدار الزمان دورته الكاملة وعاد لنقطة البداية.. رحى صخرة عملاقة تدور على هذا الكيان المدفون بين الأموات في قبورهم، اليوم أُكملُ خريفي الثالث والثلاثون.. لم يعد هناك أوراقاً في أغصان شجرة حياتي حتى تتلاعب بها رياحه.. عوامل التعرية اجتمعت حتى نجحت في نحت صخرة عملاقة ترقد في هذا المكان القديم قِدَمِ هذا الجبل الرابض بجوارنا.

* * *

أنا "حاتم".. أحد ساكني مقابر الأحياء.. أعيش وحيداً في إحدى هذه المقابر ليس لي مكان آخر.. تسلمت حُكم الزمان ببقائي في هذا السجن منذ زمن بعيد.. مضي من الحكم اثني عشر عاماً بالكمال والتمام، ولكن متي سينتهي؟ حقاً.. لا أعلم!

نُطِقَ بالحكم يوم أن غادرت أمي عالمنا وما لبث أبي حتى اتخذ هو الآخر نفس القرار، غير عابئين بي ولا بمصيري.. وكأنهما قررا أن ينعما سوياً بحياة ربما يَسْعدان فيها، تاركين لي هذا الإرث من الشقاء.

اثنا عشر عاماً وأنا في هذا المكان الموحش بظلمته ليلاً، المتخم بالبشر نهاراً.. معادلة شبه مستحيلة ومعضلة من معضلات الزمان لم يتجرأ أحد النوابغ أن يجتهد ليجد لها حلاً..

ملايين الكائنات تعيش في هذا المستنقع من برك المياه وأكوام القمامة وانعدام الحياة، إلا من بقايا فتات تلقيه لهم الأيام حتى تعايرهم به في وقت لاحق.. لا أحد هنا يمكن أن يستحق لقب إنسان.. مكان يبتعد عن كوكب الأرض بملايين السنين الضوئية.. لا يربطه بالعاصمة سوي خريطة متهالكة ملقاة في أحد أدارج موظف مترهل البطن يجلس في مكتب عتيق موروث من مماليك العصر الماضي، فقط هي نقطة سوداء في جبين قاهرة المعز.

مقابر الأحياء هكذا يطلقون عليها.. منطقة تَعُجُ بكل أنواع وأشكال وأجناس البشر.. عمرها من الزمان واحد وأربعون عاماً فقط، لكنها أضحت خلالها نقطة تَجَمُعْ لخرير سيول الحرب.. سكنها أهالي السويس المُهَّجَرين من حرب 1967.. كان أبي وأمي من هؤلاء المنتقلين على عربات الجيش العملاقة.. خرجوا من ديارهم يحملون على أكتافهم الذكريات.. فقط الذكريات هي ما سُمح لهم بها مع بعض أحلامٍ بِغَدٍ أفضل..

اللعنة على الحروب تقتله بلا هوادة ومن يبقى على قيد الحياة تقتله بدم بارد.. تقتله وهو على قيد الحياة كَسُمٍ طويل الأجل تبثه أفعي محمومة لا تلقي بالاً بمن يتألم من سُمِها.. آلاف البشر يتنفسون من ثقب إبرة ضيق ويشربون من كوبٍ واحدةٍ لا تكاد تحلم يوماً بخصوصية.. ليس لهم حلم، ولا يتطلعون لغد.. إنما كل أملهم أن يمر يومهم بلقمةٍ وشربةِ ماءٍ ودخان سيجارةٍ مقتسمة بينهم في سهرةٍ صباحية لا تخلو من اعترافات مبتذلة عن أسرار بيوت لا يجب البوح بها.. كل شيء يمكن أن تراه في هذا الكون تم جمعه في مشهد واحد في هذا المكان..

ما أن يبزغ ضوء الفجر حتى تسمع دبيب البشر يخرجون من جحورهم ينطلقون بحثاً عن فتات خبزٍ يسدون به جوع ليلة طويلة قضوها في ظلام مطبق.. عمال، لصوص.. طلاب، أطباء.. مهندسين، حرفيين.. تجار مخدرات.. بلطجية، منحرفين.. مشايخ وقساوسة.. نساء وأطفال.. أغنياء بشكل فاحش وفقراء بشكلٍ موجع..

عالم كامل يتحرك من سُباته مع أول ضوء للنهار.. ينتشرون في الشوارع كسرب نمل يبحث عن فتات يمده بقوة يستكمل بها تظاهره بأنه على قيد الحياة.. عرباتِ الفولِ المتناثرة كقطع حلوى ملقاة على الأرض يحتويها النمل في مجموعات لعلهم يحصلون منها على بعض الرحيق يمدهم بقبلةِ حياة يكملون يومهم عليها..

عدد لا بأس به من صنابير المياه المتناثرة في مراكز الطرقات تكاد تحصيها من بعيد، يجتمع حولها النساء كل صباح يتصارعون على بعض قطرات ماء شبه نظيف، يقيمون عليها يومهم.. مكان لا يفصله عن قاهرة المعز سوي خطوات.. لكنك تقطعها كرحلة هجرة كريستوفر كولمبس في اكتشافه الأمريكتين؛ ثلاثة وثلاثون عاماً حفرت كل طرقة ومنزل في ذاكرتي، كخريطة كنز قديمة في صندوق من الأبنوس العتيق المغلق بقفل أكله الصدأ.. لا أعلم لماذا أستمر في هذا المكان.. لم يعد لي ما أبقى من أجله، ربما تبقيني بعض الذكريات التي ورثتها.. أو أسباب أخرى..

لم أكن أملك من حطام الدنيا سوي هذا البيت الرابض في سكون في ظل هذا الجبل العملاق.. جبل المقطم.. الشاهد الأول على تاريخ مصر.. لكن حارتنا لم تنل من شرف هذا التاريخ كله إلا حصاراً من عدوان غاشم استوطن المهاجرون من نيرانه أرضها، وكأن جنود الاحتلال أقاموا جدارًا عازلًا حولها فحرَّموا على أهلها أن يدخل إليهم أي مظهر من مظاهر الحياة.. وكأنها رسالة من الوالي إلى مطاريد الحرب.. لقد

فررتم من دياركم قاصدين الأمان، وها نحن نصدر حكمنا عليكم بأن تلقوا مصير ذويكم.. الموت البطيء مع الشغل والنفاذ..

حصار كامل كحصار أطفال العراق بعد حرب الخليج.. لا أعلم كيف لهذه القوة البشرية أن تستكين في خنوع لهذه المذلة الموجعة، هذه الحياة البائسة التي لا تختلف كثيرا عن الموت.. بل إن من يحصل له شرف الموت يخرج كملاكم يترنح أنقذه الحكم بدق جرس نهاية المباراة غير عابئ بالنتيجة.. المهم أن يتوقف سيل اللكمات المنهمر على جسده من كل اتجاه.. فقط كل آماله أن ينتهي عذابه وتنتهي المباراة حتى ولو كان النتيجة غير مرضية.. فبكل الأحوال ستكون غير مرضية.. ربما للكثيرين، فهناك أهل الصلاح، وهناك من هم أشد خطرًا على البشر من جنود إبليس نفسه..

* * * * * * * * *

الدويقة – منشية ناصر – القاهرة .....

ليلة جديدة من ليالي الخريف القاسية، تأتي بعد يوم اعتيادي، لا جديد.. أكل وشرب، عمل وصراخ، رتابة وملل.. أصبحت أيامي كلها تَمُر بإيقاع ثابت لا تغيير فيه منذ أن رحل والداي.. كنت وقتها قد أكملت خريفي الحادي والعشرون، أحمل شهادة دبلوم التعليم الفني الصناعي.. أعمل في ورشة أبي حيث أعيد تدوير النفايات البلاستيكية التي تحملها إلي المنطقة كل يوم عربات الزبالين حيث أطلق على الشارع نفس الاسم (حي الزبالين) هذا الحي الذي أخذ سمعة عالمية بسبب (الأم تريز)* التي سكنت به منذ سبعينيات القرن الماضي وحتى هذا اليوم.. وهي الآن تستعد للاحتفال بعيد ميلادها المائة..

لم تكن "الأم تريز" وحدها تستطيع أن تغير من واقع الحياة المرير والمؤسف الذي تعيشه هذه المنطقة.. رائحة قمامة ومخلفات وشوارع نتنة.. مياه بالطلب وكهرباء مسروقه بسلك واحد يمتد كأفعى أناكوندا بين المنازل، لا تتنازل عن حقها في فريسة من الأطفال بين الحين والآخر، تلتهمهم بلا هوادة أو رحمة.. هكذا كان الحال والكل قد ارتضي به..

---

* **(الام تريز):** راهبة كاثوليكية ولدت في 16 نوفمبر 1908 ببلجيكا، فرنسية الجنسية، وقد أعطيت الجنسية المصرية عام 1991 تكريمًا لها. وهبت حياتها لمحاربة الفقر في البلدان الفقيرة وكانت تسمى بالأم تريزا الثانية. ببداية سبعينيات القرن الماضي بدأت مشروعاتها التنموية في مصر وتحديدًا بمنطقة حي الزبالين. وفى سن الـ85 رحلت بناء على أمر من رهبنتها لكي يستفيد منها الرهبان من خبرتها في الأعمال الخيرية في الدول النامية، تركت مصر وعادت إلى فرنسا حيث استقرت في دير في الجنوب. توفيت في 20 أكتوبر 2008 في كاليان.

أنفاس لاهثه تتصارع من أجل لقمة العيش.. منازل متلاصقة إلى حد أنك تسمع بكاء الأطفال.. أنين النساء وأزيز الأسِرة ليلاً، تَصَارُع الملاعق المعدنية في أطباق خاوية وارتطام أواني يؤْذِنُ برحيل ما كانت تحتويه إلى مثواه الأخير.. كأنهم يعيشون معك في نفس المنزل.. لا خصوصية ولا كرامة ولا آدمية.. بيئة لا تبَّشِر أبداً بأن يخرج من بينهاٌ إنسان صالح.. ولكن دائمًا من الصخر يخرج الورد.

اثنان وعشرون عاماً قضتهم "الأم تريز" في حي الزبالين قادمة من عاصمة النور والجمال.. إلا أنها ومعها جمعيتها الخيرية لم تستطع تغيير الواقع، فنمط الحياة المتسارع وتخاذل الحكومات جعل الأمر شبه مستحيل.. فقط استحقت المنطقة بأسرها لقب مقبرة الأحياء بدون منازع..

كان من الواضح أن الحكومة تعرف جيداً حرمة المقابر وأهلها فلم تحاول أبداً أن تزعجهم أو تؤرق نومتهم لأي سبب.. فتركتهم وشأنهم، يُقْتَل من يُقْتَل ويُعَذب مَن يُعَذب.. مخدرات، زنا محارم، دعارة مقنعه، تجارة محرمة وغير محرمة.. كل شيء تحت سماء هذه المنطقة مجاز.. ولا يسود هنا سوى قانون واحد.. هو قانون الغاب ((البقاء للأقوى)).

رحلت "تريز" ومعها ذكرياتها وأحلامها، نسيها البشر وتناساها العالم وتذكرها التاريخ.. لم تأبه المنطقة وأهلها برحيل "الأم تريز" رغم ربع قرن من الزمان في خدمتهم، فقط بعض عبارات الحزن والألم والنحيب المصطنع لدقائق تعد على الأصابع.. فقد رحلت إلى بلدها فرنسا.. ومنها إلى الأمجاد السماوية لترقد بسلام في سماء الرحمة بعيداً عن صخب العيش وآلام الحياة..

****

6 سبتمبر 2008 الساعة 9: 00 صباحاً

يستيقظ العالم على فاجعة ومأساةٍ إنسانية.. دمعةٌ نزلت من جفن الجبل على مساكن النمل، فحطمتها دون رحمة أو شفقة.. لم أكن أعلم أن الجبل الذي عشنا نستأنس به ونعيش في كنفه سيأتي عليه اليوم ويمل عشرتنا ويقرر أن يعيش بعض الوقت في هدوء وسلام..

رائحة الموت تحاصر المكان، جثث وبقايا بشر متناثرة.. نباشو قبور يبحثون عن أي شيء حي وسط الأموات.. قتلى وجرحى في كل مكان والأهالي يصارعون الموت وينتشلون الضحايا في مشهد يصنف من أسوء المشاهد في تاريخ مصر الحديث.. دمرت الصخور ما يقرب من 150 منزلا خرج منهم نحو 300 مصاب، بينما رضي ما يقرب من 500 آخرين بمصيرهم تحت الأنقاض.. لكن العجيب أن الدولة استقبلت الخبر كأنه انتصار السماء.. عدالة السماء تنزل على أرض الدويقة لكي تخلص الحكومة من كابوس أفقر أحياء القاهرة..

لم أُفِقْ من الكابوس الذي استمر فقط للحظات غبت بعدها عن الوعي وعن الحياة.. مئات من الجرحى ملقون على بعضهم كأسماك ألقتها شباك سفينة عملاقة على ظهرها تنتظر قرار التجميد للأبد.. تمنيت أن ألحق بمن رحلوا لكني للأسف خرجت.. خرجت لكي ألقي مصيراً لم أكن أحلم يوماً بأسوأ منه.. رغم ما كنت أحمله في صدري من حزن وقهر على حالي ومآلي، إلا أني الآن أعود للنقطة صفر.. مع عامي الثالث والثلاثون أقف عارياً كيوم ولدتني أمي.. لا مال ولا بيت ولا أهل ولا حتى ملابس.. صفر.

مخيمات ومساكن جديدة وشقق هي حصيلة ما ألقته الحكومة على مسامع المكلومين دون أن يتحقق منها شيء.. قررت ساعتها أن أرحل، لن أنتظر حلماً مبهماً أو سراباً واهياً، قررت أن أعتزل حياة النمل وأخرج إلى سطح الأرض، تركت كل شيء واكتفيت فقط ببعض نظرات الشفقة وعبارات المواساة جمعتهم في جعبتي مع بعض أموال من فتات ما جادت به خزانه مسجد المنطقة الصغير.. بالفعل كان الأموات أوفر حظاً منا نحن الأحياء.. على أقل تقدير وجدوا مكاناً يوارى سوأتهم وكفوا من مذلة السؤال وانكسار الحاجة..

لم تطل الحكومة البحث ولا التنقيب.. قامت بكل دم بارد وأعصاب تفوق سفاح كرموز وريا وسكينة بتسوية الأرض على من تحتها، آلات عملاقه وجرافات تهيل أكوام التراب على ما تبقى من أنقاض البيوت وسط نواح وعويل من فقدوا ذويهم تحت هذه الأكوام المتراكمة من الأتربة والبنايات التي قتلت أصحابها.. تم تحويل المكان إلى مقبرة جماعية.. ساعتها فقط قررت أن اقتلع جذور شجرتي البائسة من هذه الأرض.. فلم يعد لي مكان ولا مأوي ولا عمل ولا زوجه ولا ولد ولا أهل ولا أي شيء.. اليوم قررت الرحيل إلى عالم الأحياء..

الفصل الثاني

جئت لا أعلم من أين.. ولكني أتيت..
ولقد أبصرت في الدنيا طريقاً فمشيت..
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت..

كلمات كتبها العبقري إليا أبو ماضي وغناها العندليب الأسمر في فيلم الخطايا.. كلمات كُتبت من أجلي.. وكأن الزمان أراد أن يواسيني، فألقي إليَّ بهذه الكلمات يرددها صوت الكاسيت المهترئ في إحدي جمال الصحراء الملقبة مجازاً بسرفيس المناطق العشوائية..

كتلة من الصاج تصدر أزيزاً وصريراً مزعجاً ناهيك عن آلام المفاصل وتكسير العظام واحتراق الأعصاب الذي لم يكن عندي أي قدرة على تحملها من الأساس.. فلاش باك لشريط حياتي يمر سريعاً أمام عيناي.. كمحتضر تقف على رأسه الملائكة تنتزع روحه وتذكره بما قدَّم من أعمال.. ضجيج وأصوات مزعجة مع ضربات متتالية من ملاكم محترف يحاول إسقاطي بالضربة القاضية.. ترنَّحتُ دون أن أسقط.. لكمات مباشرة جعلت الدم يقفز إلى قمة رأسي.. كلمات الشيخ "صالح" تقفز أمام عيناي، صوته أسمع صداه بكل أرجاء جمجمتي وكأنه يتحدث إلى من ميكروفون المسجد.. نظرات الشفقة والألم والمواساة التي جمعتها معي في جعبتي لم تكفني حتى ألملم ما حل بي من ألم لا يحتمل..

أقف الآن أمام إحدى البنايات، عمارة مكونة من أربعة طوابق ويعلوها غرفة وحيدة مع بعض الكراكيب، يسكنها صديقي الوحيد الذي كان ذات يوم أحد الجثث

المتحركة في طرقات مقابر الأحياء، لكنه آثر الصعود لأرض الميعاد، حيث القاهرة والأضواء والمياه والكهرباء..

"سمير إبراهيم" زميل دراسة ومن المهَجَّرين الذين لفظتهم نيران الحرب إلى براثن القاهرة تطحنهم بين ثنايا أنياب لا ترحم أي ضعيف...

"سمير" كان ذو شأن.. فالحارة كانت تلقبه دكتور "سمير"، مع أن علاقته بالطب لا أساس لها في الوجود، ولكنه اكتسب هذه الصفة لعمله بأحد معامل التحاليل الطبية، حيث العالم الذي لم أره طيلة حياتي إلا قليلاً.. لم تتعدي علاقتي بهذا العالم سوي دقائق يمكن أن تحصي بدقة، وعدا ذلك كنت أستقي معلوماتي عن القاهرة من أفلام ومسلسلات التلفزيون ومن كتابات معشوقي الأول نجيب محفوظ (ابن الحتة).. فأنا عاشق متيم بكل ما كتب نجيب محفوظ ولأفلام الفهد الأسمر أحمد زكي.. لا أعلم السبب، ربما للشبه الكبير بيني وبينهما.. فنشأتي في الحارة وتفصيلاتها جعلتني أرتوي من نهر نجيب وملامح وجهي جعلتني أنهل من كأس الفهد الأسمر فأنا أحمل نفس الوجه الأسمر النحيل والشعر المجعد ونفس الجسم، حتى أني في سن المراهقة كنت أطلق على نفسي "مستر كراتيه" نسبة لأحد أفلام أحمد زكي المشهورة...

ارتقيت السلَّم قاصداً السطح.. كانت العمارة تقع في منطقة صقر قريش، لا تبعد كثيرا عن الدويقة ولكنها على الأقل في منطقة أكثر أمنًا.. تبعد عن النمل وصخور المقطم ومقابر الأحياء...

استقبلني "سمير" بحفاوة بالغة، فقد كان يعيش بمفرده بعد أن انفصل عن زوجته وترك لها ابنته الوحيدة "سارة"، وها أنا أنضم إليه حتى نكمل أضلاع مثلث الجحيم،

حيث كنا نحن وثالثنا الألم.. ثلاث توائم متشابهة ولدنا من أرحام مختلفة، جمعتنا الشدائد وفرقتنا الأيام، وها هي تعيد وتجمع شملنا من جديد..

لم يكن استقبال "سمير" بالشيء الغريب فما عهدته إلا صديقاً وفياً.. ابن بلد جدع.. هو من طلب مني أن أنتقل إلى العيش معه وتحت إصراره وعدم وجود مأوي آخر انسحبت بهدوء من مقبرتي وانتقلت إلى العيش برفقته..

ألقيت بجسدي المتهالك على كنبة أسيوطي بجوار سور السطح.. فقط جسدي فلم أعد أمتلك غيره، فهذه روحي واريتها التراب مع ما تبقى من حطام أيامي الخالية.. ما أن لامس جسدي الكنبة حتى أجهشت بالبكاء.. دموعي أحس بها لأول مرة منذ اثني عشر عاماً.. كنت أعتقد أن عيناي قد اعتلاها الصدأ، فلم تزرف دمعة واحدة منذ رحيل أبي وأمي، ولكنها الآن تعود للعمل مرة أخري.. دموع تنساب على خدي تحرقه وكأنها أنابيب من النابلم يشق أخدوداً في وجنتي يمزقها..

- إيه بس!! وحِّد الله يا أخي.. أنت مؤمن والمؤمن مصاب، ثم أنا بصراحة مبسوط..
- مبسوط فيَّا يا "سمير"؟
- والله مبسوط يا أخي، شوف أنا إتحايلت عليك بس إنك تيجي تزورني ولاَّ تبات معايا ليلة واحدة تشم نفسك فيها بعيد عن الحارة والقرف اللي أنت كنت عايش فيه ده..
- أهي جت لوحدها يا عم، بس ياريت مكونش ضيف تقيل عليك!
- تصدق أنت دمك تقيل فعلاً.. والله أنت زعلتني.. إيه يابني دا إحنا متربيين سوا.. وأمك الله يرحمها في مقام أمي.. وكل المرمطة دوقناها سوا.. لولا بس

الجواز والخروج من الحارة مكنتش فارقتك ثانية.. وعهد الله أنت أكتر من أخويا يا "حاتم"..

- تعيش.. ربنا أعلم بالقلوب، المهم طمني، ها تساعدني ألاقي شغل؟

يضرب "سمير" كفيه استغراباً: لسه رجليه ملمستش الأرضية ويقولي شغل.. يا عم شغل إيه بس الوقتي، بص.. أنت ضيفي ثلاث أيام.. آه، الأصول كده.. بعدهم نبقى نتفاهم في موضوع الشغل والكلام ده.. الوقتي قوم بقى غير هدومك، عندك كل حاجة جوه في الفيلا بتاعتي..

- كمان لبس، كده كتير والله..
- قوم ياعم فك كده وخد دش، وغير هدومك، عندك ترنج لسه زيرو والله شاريه جديد.. وانجز بقى علشان الأكل هيبرد، أنت مش عارف ده عمايل مين..
- أنت اتجوزت ولا إيه؟
- ياخي تف من بقك، فال الله ولا فالك، جواز إيه بس.. إنجز بس علشان أفطمك ع الحوار كله.. بس متتأخرش.. دي الملوخية بالأرانب والبيرة المشبرة، أكل المزاج كله..
- بيرة إيه يا "سمير"، أنت مبطلتش؟
- أبطل إيه! دي إزازة البيرة وحتة الحشيش لولاهم كنت سلمت نفسي من زمان، دول اللي بيصبروني على بلاوي الدنيا، روح بس وأنا مستنيك بلاش لكاعة..

أولي خطواتى نحو منزلي الجديد.. منزل لم أعهده ولم أألف ملامحه ولا تفاصيله.. لكنه أصبح مأواي الآن ليس لدي بديل.. دخلت الغرفة ذات الباب الخشبي

الكبير.. متوسطة، متواضعة.. لكنها تحوي كل ما يحتاجه شخص بسيط، ثلاجة صغيرة وبوتجاز وتليفزيون ورسيفر، سرير معدني كبير وفي أقصي يمينها باب صغير يظهر في نهاية خندق يمتد لبضع خطوات.. ينتهي بحمام صغير.. كانت الغرفة مظلمة إلا من شعاع ضوء يخترق حاجز الشباك الخشبي وآخر يتسلل من فتحة الباب..

ألقيت بجسدي المنهك تحت شلال المياه المندفع من خرطوم معلق على الحائط، أرخيت جفوني وتركت جسدي للماء يعبث به كيفما يشاء.. خرجت بعدها إلى المنتظر على السطح أمامه صينية كبيرة من الألومنيوم تحمل وجبة من الطعام كنت بحق في أشد الاحتياج لها.. بجانبها وقفت زجاجتان خضراوان من البيرة وبعض الأكواب الفارغة.

– ياااه يا "سمير"، بجد أنا حاسس إني طالع من مدفن، الدش ده فوقني كتير..

– مد إيدك بقى، بسم الله.. وقولي إيه رأيك..

لم أكن أحتاج إلى دعوة.. فرائحة الطعام والتعب والجوع جعلوني نهماً كأني لم أري طعاماً منذ سنوات: الله، الله، اممممممم إيه يابني مين الأستاذ اللي عامل المعجزة دي؟

– أحكيلك بقى بس واحنا بنحبس..

كزوج من الأسود ألقي أمامهم ذبيحة منحورة، كنت آكل بنهم شديد، كان الطعام رائعاً تظهر فيه لمسة خبير في فنون الطهي، مع كثير من الكرم في التجهيز.. كنت بحق أحتاج إلى هذه الشحنة الغذائية الدسمة حتى أعيد شحن بطارية جسدي التي فقدة كامل طاقتها في أيامي الأخيرة..

أنهينا طعامنا.. بعدها جلس "سمير" على حافة الكنبة مشبكاً قدماه مشعلاً سيجارته ينفض دخانها في دوائر مع جرعات متتالية من زجاجات البيرة المثلجة ليحبس آثار هذه الوجبة الدسمة..

- شوف ياعم "حاتم"، أنا سبت الحارة من زمان لما اتجوزت، ولما طلقت جبت نفسي وجيت على هنا وسبت شقتي لمراتي والبت، صاحبة البيت ست زي الفل، جوزها ميت وابنها مسافر ليبيا.. ست كمَّل بجد، وجدعه، وقفت معايا أول ما جيت وكل العفش اللي في الفيلا بتاعتي من عندها، هي كراكيب ملهاش لازمة، بس توشكر على كل حال، غيرها لو شاف الواحد شلن بياكلوه..
- يعني إيه، يعني أديتك كل ده ببلاش؟ لله والوطن، أكيد في مقابل؟ متقنعنيش إن حد بيعمل حاجة لله الوقتي؟
- بص.. هي الحكاية سهلة، هي وحدانية والبيت 4 أدوار كل دور شقه فيها عيلة، وأنا وحداني فبنرمي حمولنا على بعض، لو عاوزة حاجة.. ناقصها حاجة.. الشهادة لله ست بميت راجل، وأنا باستجدعها.. وكتير بنسهر مع بعض نشرب شويه شاي، بناخد حس بعض.. كده يعني..
- طب متتجوزها وتنزل تسكن تحت بدل البرد ما يكسر عظامك..

رفع "سمير" يده التي تحمل زجاجة البيرة في وجهي معترضاً: ياعم لا.. مينفعش دي أكبر مني بكتير دي في الخمسينات، بس بنت عز مش باين عليها السن وربنا..

- آه.. أنا كنت فاكرها صغيره وهتعيش دور "شكري سرحان" في شباب امرأة وبتاع..

– سيبك من الأفلام اللي هارسة مخك دي.. إلا قولي أنت متجوزتش ليه لحد دلوقتي، أنت كبرت يا "حاتم"، ومتزعلش مني بقى أنت اتأخرت..

ألقيت بجسدي للخلف ثم مددت قدماي مطلقاً تنهيدة كادت تحرق "سمير": أنت عارف إني قافل الموضوع ده نهائي، وياريت منتكلمش فيه..

– يااااااااه.. براحة ياعم التنين هتولع فينا.. إوعي تكون بسبب اللي حصل، لا يا صاحبي أنت كبرت ومش حادثه عبيطة تخليك تعمل كل ده.. تروح واحدة يجي ألف غيرها

عبثاً حاول "سمير" أن يخرجني من دوائر ذكرياتي المغلقة، فقد كان هو الآخر محاصراً مثلي تماماً وربما أكثر مني.. كلانا مطعونً بنفس الخنجر المسموم، تجثم على صدورنا الذكريات بثقل صخرة الجبل التي طردتني مشرداً قاطعةً كل ما كان يصل بيني وبين الماضي..

** ولاء مبروك.. أجمل فتيات الحارة بل منشية ناصر بل القاهرة بأسرها، لم يختلف اثنان عليها، أنثي كما وصفت الأنثى في كتب الغزل القديم.. لم تختر من بين الشباب غيري حتى تتعلق به غير مصغية لعبارات الإطراء والغزل وإلى كل الإغراءات من كبار وشباب.. تعلقنا بقصة حب قيصريه إن شئت أن تصفها.. سنوات مرت ولم تستطع أن تمحي أثر هذا الجرح الغائر المرسوم كوشم قديم في جانبي.. لم يمح أثره الزمن ولم يجدي معه الكي بالنار كما فعل "رشدي أباظة" عندما أراد أن يزيل وشم "نعيمه عاكف" في فيلم تمر حنه.. لم يكن الجرح منها، بل كان الجرح لي ولها.. اشترك في حبها كثيرون ولكن واحداً فقط قرر أن يقتنص فاتنة قاهرة المعز لنفسه غير مصغي لما سمعه عن خطبتنا..

**"الوزير"، أو هكذا أطلق على نفسه، بلطجي بدرجة مسئول دبلوماسي، علاقاته برجال المباحث جعلت له سلطة ونفوذ تتعدي رجال الشرطة أنفسهم، نصّب نفسه والياً على هذه المقاطعة.. الحاكم الذي لا يرد له أمر ولا يُكسر له رأي.. صبيانه كثيرون كلهم من عتاة الإجرام والسوابق.. قرر أن يستأثر بها لذاته.. لكنها رفضت، لم تمنعه الخطبة المعلنة بيننا في أن يعلن أمام الجميع أن "ولاء" من اليوم هي زوجته والفرح يوم الخميس المقبل.. لم ينتظر موافقة منها ولا رأي أهلها.. كان يضمن أنه لا معارضة ولو حتى شكليه..

تحركت ولم أسكت، ولكن للأسف وقتها لم أكن أدرك أنني أعيش وسط مقابر الأحياء.. لم يتحرك أحد ولم ينكر هذا لا كبير ولا شيخ ولا قسيس، "الوزير" لا دين له...

اعترضته، عنفته.. أخبرته بأني ذكراً مثله من حقي الدفاع عن شريكتي وأنه قد تعدي منطقة نفوذي.. لم أكن أدرك أن قانون الغاب يحتم على الذكر أن يدخل معاركاً مع غرمائه لكي يفرض سيطرته على منطقة نفوذه.. نعم إنه قانون عالم الحيوان.. لكن "الوزير" لم يكن يعترف بأي قوانين، لا حيوان ولا إنسان..

عشر دقائق تم جمعها في ملف أسود مختوم بلون الدم ومحفوظ في أحدي زوايا الجزء المظلم من ذاكرتي.. لم أرد يوماً أن أعود وأنفض عنه الغبار واستخرجه.. لكن كلمات "سمير" جعلت الموقف برمته يعود ويمر من أمام عيني كفيلم قصير..

"الوزير" وهو جالس على المقهى وأنا أقف أمامه أثرثر بكلمات لا أعتقد أنه استمع لأي منها، ولو على سبيل العلم بالشيء.. لم يُخْرج بوصة الجوزة من بين شفتيه.. أنفاس متلاحقة ودخان أزرق كثيف لحشيشه راقدة يتفنن بإحراقها على

جمرات نارٍ مستعرة.. تنتفض فتخرج منها شعلة النار مع دخان كثيف يتحول إلى جدار عازل بيني وبينه.. ينفث هذا الدخان في وجهي مباشرة كرد مباشر على كلامي الذي لم يسمع منه شيء..

كاد قلبي أن يتوقف من الخوف حينما التف حولي رجاله، مع ضحكات سخرية من الجميع.. تخللتها أيادي تحاول استنفار همتي ببعض نغزات بآلات حادة في أنحاء جسدي.. لم يتحرك "الوزير" من مكانه، لكني من خلف سحابه الدخان رأيتها.. إنها "ولاء".. تقف خلفه تمسكها إحدى السيدات من شعرها.. و"الوزير" ينظر إليَّ ضاحكاً في سخرية..

- إيه ياواد يا كراتيه، أنت بجد صدقت نفسك إنك ممكن تاخد مراتي؟ أنت يلاّ معرفتش إني فرحي بعد بكره، ليه الهلفطة والكلام الناقص ده، بدل ما تبقى ابن بلد وتيجي تبارك!
- أجبته في حدة: يا "وزير" "ولاء" دي خطيبتي وأبويا.....
- الله يرحمه بقى.. خلي النايم مرتاح متقلبش عليه.. طب عليَّ الحرام لو أبوك ذات نفسه كان واقف مكانك كده، مكان ها يعجبه الهبل بتاعك ده..
- يعني إيه يا "وزير"، مش هتجَّوز "ولاء"؟ طيب نخيرها..

ضرب " الوزير" كفيه استغراباً: اللهم طولك ياروح! نخير مين ياعم إنت! بقولك دي مراتي.. أنت البعيد غبي ولا إيه! روح يابني على بيتك وشوف أكل عيشك بدل ما تدّبَح هنا.. ولاّ أنت وحشك أبوك الحاج؟ تحب نوصلك له بدل مانت عايش لوحدك كده؟

قطرات متناهية الصغر من العرق برزت على جبيني، مسحتها بيدي المرتعشة قبل أن أستجمع قوتي لأخوض الجولة الأخير.. لربما تأتي بفائدة: يا "وزير" "ولاء" خطيبتي ومش هاسمح لأي مخلوق إنه ياخدها..، ما تتكلمي يا و"لاء" إنتي ساكته ليه؟

– هايقولي خطيبتي تاني، أنت حمار؟

اخترقت صرخته كل حجب الصوت واستقرت في صدري صاحبها جرح غائر في جنبي الأيمن، لم أشعر به إلا والدماء تنزف منه متجاوزة ملابسي ويدي التي لم تفلح إن تمنع هذا الدم.. جثوت على ركبتي.. وقتها لم أشعر بما حدث، ثواني أغمضت عيني، بعد أن دارت بي الأرض وانطبقت على رأسي السماء..

أفقت بعدها في غرفة مستوصف المسجد وشريط قطار قديم مرسوم بخيط أسود يشق طريقه في جانبي الأيمن، هذه العلامة التي تركها لي "الوزير" كهدية حتى لا أفتح فمي مرة أخري.. ومع خروجي من المستوصف كانت "ولاء" في بيت "الوزير"، وانتهت المعركة بقرار بعدم مغادرتي الحي لأي سبب، وأن أبقى في بيتي وورشتي ولا أنتقل للعيش في أي مكان، ولم يكن لي خيار ثاني.. فقد كان القتل هو مصيري لو فكرت، لذا قررت أن أصمت كباقي الشعب، يصمت ويدعوا على الظالم ولا يفكر في غده إلا بعد أن ينقضي يومه.

ومرت السنوات ومع كل يوم أشعر بذل يطبق على صدري وأعينٌ تتربص حركاتي وترصدها، كل مساءٍ أمد يدي أتحسس جرحي الغائر الذي التأم من خارجه ولكنه ظل ينزف طيلة هذه السنين الطويلة دون توقف.. كنت أتجرع مرارة القهر والظلم بلا ونيس ولا مواسي.. لم أجرؤ بعدها أن أتحدث مع أحد في أمر الزواج، رغم عروض

كثيرة تلقيتها من الجيران والمعارف.. إلا أنني مع كل عرض وكل فتاة تعجبني أشعر بوخزة في يميني وأنياب تنهش فيه دون رحمة ولا هوادة..

لم أسعد في حياتي كيوم سعادتي بخبر مقتل "الوزير" بعد خمس سنوات، ماتت خلالها "ولاء" وهي في آلام مخاضها الأول.. ولحقها "الوزير" بعد أن غدر به أحد رجاله، أو هكذا قيل..

وهكذا الحياة اقتل تقتل.. اظلم تُظلم.. كما تدين تدان.. لكني لم أفق من جرحي رغم اختفاء كابوس "الوزير" وكأني كل ليله أرقب روحه تقف على باب حجرتي ترمقني بنظرات بطش وجبروت لا أملك إلا أن أدفن رأسي في سريري كنعامة تدفن رأسها في الرمال حتى لا يراها الأعداء.. ومرت سنين عمري بين وحدة مظلمة وعمل رتيب ممل، هكذا مرت سنوات حياتي....

- هاااااااااااااي.. "حاتم" روحت فين ياعمنا؟
- ها.. معلش يا "سمير" أنا معاك...
- معايا مين يا سيدنا، دا أنت ولا اللي خد حقنه بنج.. ولا حاسس بحد ولا بكلام.. طيب ما ترد السلام طيب متحرجناش..

** "أم رامي".. سيدة في أواخر العقد الرابع من عمرها، ذات وجه بشوش مستدير، متوسطة الطول، على قدر كبير من الجمال، جسم ممشوق لا يتناسب مطلقاً مع سنها.. فالسيدات بعد فقد الزوج والأولاد تهمل في نفسها وخصوصاً في المناطق الشعبية.. ترتدي حلايا ذهبية وقرطاً دائرياً موديل السفيرة عزيزة، سلسلة ما شاء الله تحتل مساحة كبيرة من صدرها، كانت تشبه "ناديه الجندي" في فيلم الباطنية، لم ينقصها سوي حجر الشيشة على مقهى بلدي ويترمى الرجال تحت قدميها..

انتفضت واقفاً حتى أرد التحية: معلش متأخذنيش.. أهلاً وسهلاً.. أكيد إنتي "أم رامي".. "سمير" حكا لي عنك..

- وأنت "حاتم".. صح؟ "سمير" حكا لي عنك كتير.. حمد لله على سلامتك وربنا يعوض عليك يا ابني..
- هو "سمير" ده بيحكى بس.. مبيعملش حاجة تانيه، "سمير" حكا لي، "سمير" حكا لي.. طيب وأنتم بقى مين فيكم هيحكيلي؟؟
- قولي يا "حاتم"، اعتبرني أختك الكبيرة، أنت عايش إزاي وفين وعملت إيه في البيت بتاعك؟؟

طأطأت رأسي.. رفعت يدي لأمسح هذه القطرات الصغيرة التي بدأت تظهر على جبهتي كقطرات ندى على ورقة خضراء في أول النهار: بيت إيه بس، ما راح البيت وكل حاجة، حتى معرفتش آخد أي حاجة.. رجعت من المستشفى بعد يومين لقيت الدنيا هايصة والناس بتلطم وتصوت ومحدش عارف راسه من رجليه واللوادر بتاعت الحكومة مسوية البيوت بالتراب حتى بالناس اللي فيها.. سحبت نفسي من سكات وبيّتْ كام يوم في الجامع لحد ما "سمير" جاني وقالي أجي أقعد معاه هنا، وأديني هرخّم عليه كام يوم لحد ما ربنا يرزقني بأي شغلانه ومطرح أرمي فيه جتتي..

- شغلانتك عندي ياعم، أنا اعرف مطعم محترم فاتح تحت المعمل اللى بشتغل فيه.. كانوا عاوزين شباب للعمل.. هتركب بطه صغيرة بصندوق وتطلع توصل طلبات.. أنا عارفك قرد في السواقة ولا نسيت دي كمان يا عم كراتيه؟؟
- الله يكرمك يا "سمير"، من الصبح ننزل نشوفه..

– حلو.. أدي مشكلة الشغل اتحلت إن شاء الله.. وأديك هتقعد مع "سمير" تاخد بحسه وتونسه.. وربنا يرزقك ببنت الحلال اللي تسعدك بقى وترتاح.. ومتعملش زي المجنون صاحبك اللي مقضيها دِش طول الليل.. والنبي ما هايفلح..

ضحكات وقفشات وحكاوي بدأت "أم رامي" و"سمير" في سردها.. آملين في إدخالي عالمهما الجديد؛ ساعات مرت دون أن أشعر.. لم ينقطع الحديث إلا لفترات قصيرة وللعشاء الذي أعدته "أم رامي" بنفسها على شرف ضيفها الجديد..

الآن فقط أشعر أن القدَّر قد أظهر بعضًا من شفقته على حالي؛ ففي اليوم الذي يُكتب لي الخروج من مقبرتي.. يسوق لي القدر هذا الصديق وهذه المرأة..

انتهى اللقاء.. غادرت بعده "أم رامي" متجهة لشقتها ودخلت مع "سمير" إلى فيلته لأقضي أول ليلة لي خارج مقابر الأحياء بعد ثلاثة وثلاثون عاماً.. أول ليلة أنام فيها بعدما صافحت القمر المسيطر على سوداء السماء، ينشر ضوء نفوذه على الأرض، كأني لأول مرة أري فيها ضوء القمر.. كان دائماً يختفي خلف ظل الجبل الكبير الرابض بجواري.

مرت ساعات الليل وأتى الصباح، لم أتذكر أنني قد نمت هكذا في عمري كله.. كان الصباح مختلفاً، أشعة برتقالية تغزو المكان، منظر لم أعتد عليه من قبل.. الساعة الآن تشير إلى السابعة والنصف؛ يوم جديد بدون صيحات بائعين ولا دبيب نمل.. ولا صرخات النساء من أجل قطرات ماء.. ولا نواح بائعين.. فطور سريع خرجت بعده مع صديقي إلى حيث عملي في عالمي الجديد..

كل شيء جديد.. لبس جديد، محمول جديد بسيط الحال لكن يفي بالغرض.. لم أركب جمل الصحراء هذه المرة.. ركبت سرفيس حقيقي.. انتهي بنا المطاف في شارع يوسف عباس بمدينة نصر، محلات كبيرة وطرقات نظيفة وديكورات فخمة.. لأول مرة أشعر وكأني على قيد الحياة.. دخلنا إلى المطعم المنشود، كانت الساعة تشير للتاسعة والنصف صباحاً.. لا زبائن، فقط عمال يجوبون المكان كل يعرف دوره ويقوم به في صمت، مع بعض الصيحات المتفرقة من هنا وهناك..

يستقبلنا على بعد خطوات من باب المطعم شاب وسيم وأنيق ونظيف: أؤمر يا فندم..

- والله إحنا جايين علشان الإعلان اللي أنتو عاملينه علشان عمال توصيل..
- آه.. تمام، بس المطلوب واحد بس مش اتنين..

يتدخل سمير ليمسك بدفة الحوار: تمام إحنا عارفين، أنا "سمير" شغال في معمل التحاليل في نفس العمارة فوق، وده "حاتم" صاحبي هو اللي هايشتغل معاكم..

- أهلا "حاتم"، يا ترى اشتغلت قبل كده في توصيل الطلبات..
- أنا كلمت "مدحت" بيه، هو عنده علم..

لحظات ودخل رجل طويل القامة ذو شارب ودقن دوجلاس مشذبه بعناية، يرتدي قميصاً أزرق ورابطة عنق.. يعلو جيب قميصه الأيسر قطعة نحاسية منقوش عليها (مدحت صادق)..

- أهلا يا "سمير"، هو دا "حاتم" اللي كملتني عنه مش كده؟
- تمام يا "مدحت" بيه، يارب يكون له نصيب معكم والله جدع ابن حلال ولو تعرف ظروفه مش هتمانع أبداً.. بالعكس دا ممكن ترقيه كمان..

ابتسم "مدحت" في تعجب!: أرقيه من قبل ما يشتغل.. ماشي يا سيدي، تعالي يا "حاتم"..

التفت نحو أحد العاملين يستدعيه بإشارة من يده: يا "صفوت".. تعالى؛ خد بطاقة "حاتم" صورها وشوف له يونيفورم مقاسه وحصلني على الإدارة..

في تلك اللحظة غمزني "سمير" بعينه اليمنى بإشارة كمن يحاول أن يجذب أنثي في حديقة عامة.. كان يريد أن يخبرني بأن كل الأمور تسير على خير ما يرام.. بالفعل مكان نظيف لم أعتد على مثل هذا المستوي من النظافة والرقي.. الجميع يتكلم بصوت منخفض.. لا صراخ، لا سِبَاب، لا شتائم مقززة.. إنها الحياة.. بضع خطوات كانت تفصلنا لكي نصل ثلاثتنا إلى مكتب متوسط الحجم لكنه فخم ومرتب بعناية.. جلس "مدحت" خلفه وجلست مع "سمير" على كراسي مقابله..

أمسك "مدحت" ببعض الأوراق على مكتبه بعدما جلس متصنعًا اهتمامًا: قولي يا "حاتم " إنت بتدخن، بتشرب حاجة، يعني ليك مزاج أو كيف مثلاً ؟

اعتدلت في جلستي وأنا أنظر إلى "سمير" المتعجب، فقد كان السؤال غريباً بعض الشيء، قضيت على توتري واندهاشي بسعال بسيط قبل أن ألتفت إلى مستر "مدحت": لا والله يادوب الشاي وبس..

- طيب ممتاز.. شوف بقى، أنا هسلمك لمدير الشيفت، هتستلم لبس جديد.. وهيتعمل لك إثبات شخصية خاص بالمحل والفرع اللي أنت تبعه، طبعا أنت فاهم؟
- أكيد يا بيه فاهم..

- لا بص مفيش بيه، فيه مستر "مدحت".. ماشي.. مش هتنزل الشغل النهارده طبعاً؛ هتنزل الأول تشوف وتدَّرب يومين.. على ما تفهم الشغل بس ياريت تلقط بسرعة.. إحنا مش بنشغل حد كده أبداً لأن اسمنا كبير ومش بنقبل غير بالخبرة وبس.. لكن علشان خاطر أبو سمير حبيبنا، هنعمل معاك الواجب..

ابتسم "سمير" ابتسامة النصر والظفر بغنيمة ثمينة: ألف شكر يا "مدحت" بيه وهو ده العشم والله.. مش هوصيك على "حاتم"، وأنا هاطلع المعمل لو في أي حاجة رن عليَّ بس..

- إن شاء الله مش هحتاج حاجة.. مستر "مدحت" فيه البركة..
- تمام.. أسيبكم بقى وأشوف شغلي؛ سلام..

يرحل "سمير" ويتركني أواجه عالمي الجديد بمفردي.. عالم جديد بكل ما تحمله الكلمة من معني؛ عمال منظمون كتروس في ماكينة ألمانية، دقة وسرعة.. فتيات تمر كالنسمة لا تكاد تشعر بهن.. وشباب منهمكون في تجهيز الطلبات الواردة بالهاتف.. رائحة طعام غير ما كنت أعتقد.. بالطبع تغيرت وجهة نظري عما كنت أتناوله طيلة حياتي، وما يضعه أهل المنطقة في أفواههم ظناً منهم أنه طعام..

مرَّت الساعات سريعة لا أكاد أتخيل ما يحدث؛ تحولٌ غير منطقي من الأسود المظلم إلى الأبيض الناصع، ساورتني شكوك قوية أني لن أستطيع تحمل هذه الصدمة من التغيير الكامل من النقيض للنقيض والتي ربما يرفضها عقلي المرتكز على كومة من البلاستك المهترئ القادم من أكوام القمامة.. أعوام طويلة قضيتها بين رائحة ومنظر القمامة بالتأكيد ستظل محفورة في ذاكرتي وشخصيتي ما دمت حيا..

بدَّلت ملابسي واستمعت في إصغاء تامٍ لكل كلمة خرجت من بين شفاه المستر "خالد"، مشرف الشيفت الذي سأعمل معه.. رجل مهذب مهندم في العقد الثالث من عمره.. شيك ومتناسق القوام.. مهتم بكل تفاصيل ملامحه ومظهره، لم يترك شيئاً إلا وحدثني عنه.. بعدها سلمني لأحد العاملين في التوصيل حتى ألازمه لمدة يومين فقط لكي أعرف طريقة العمل وبعدها أعلن بيان استقلال جمهوريتي الجديدة على أرض الأحلام.

أيام ثلاثة مضت في سرعة البرق، تغيرت حياتي برمتها بشكل أدهشني أنا شخصياً.. لم أكن أعلم حقيقة ما يحدث! أهذه هدية السماء لما مر بي سنوات طويلة؟ أم أنها مجرد فرحة لا تلبث أن تعود الأمور إلى وضعها كما كانت.. صراع يحيط بكياني.. يحاصر أفكاري.. يقض مضجعي.. لا أريد أن أستسلم لفكرة أنها غمسة في أنهار الجنة قبل أن أعود أدراجي إلى قاع الجحيم...

هل أستسلم أخيراً لحياتي الجديدة؟ هل أطلق العنان لمخيلتي تبني آمالًا عريضة وأحلامًا تنسيني آلام سنوات عجاف عشتها وسط المقابر؟ الانتكاسة هنا ثمنها باهظ جدًا لن أستطيع تحمله.. أخاف من فكرة تربض على أنفاسي، تحرق كل خلايا مخي المشتعل بجمر ذكريات قاسية.. بدأ كل شيء يتغير حتى ملامحي وأسلوبي.. تغيير سريع جداً، لم يمهلني حتى أن أعيد ترتيب نفسي من الداخل، فرض عليَّ فرضاً قصرياً..

يستقبلني مستر "خالد" بابتسامة عريضة ملؤها العجب بما حصلّت من مستوى جيد في فترة زمنية قصير: خلاص ياعم "حاتم"، أنت النهارده هتطلع أوردرات لوحدك.. ورينا همتك يا بطل، متنساش كل كلمة وحركة لازم تلتزم بيها، أنت مُرَتَّبَك كوم واللي هتطلع بيه من الزباين كوم تاني خالص، عارف.. بشوية سهوكه وحركات

تعمل أضعاف مرتبك ده، والمهم قبل كل ده متنساش القاعدة الأهم (أنت نحلة وسط زهور، مش نملة جوه جحور) حفظتها...

لم أستطع إخفاء ابتسامتي ونشوتي التي ظهرت جلية على تقاسيم وجهي: تمام يا مستر "خالد"، فهمت كل كلمة وطول الليل بأدرب نفسي لحد أنا نفسي مبقتش مصدق إني أنا!

إنها المرة الأولي.. اختبار عملي حقيقي على أرض الواقع.. ركبت دراجتي البخارية.. رتبت صندوق الطلبات، احتفظت بالفاتورة.. انطلقت وكأني أحلق في الفضاء مطلقًا ذراعي في الهواء، كأني طائر يحلق في ملكوته الخاص..

سريعاً وصلت للعنوان المنشود، راجعت الأوردر ونفذت كل ما تعلمته بدقة متناهية حتى لا أقع في أخطاء، ثلاثة وثلاثون عامًا بين أكوام القمامة كفيلة بأن تمسح أي ملمح من ملامح الآدمية من وجه أي إنسان.. لكنى الآن أدركت الجميل الكبير الذي قدمه لي "الوزير".. فعزلتي وبعدي عن الناس جعلتني أحتفظ بقدر كبير جداً من شخصيتي الأصلية دون تغيير كبير..

أخيرًا.. أقف أمام أول اختبار.. جسدي تنتابه رعشة لا إرادية جعلت مثانتي تنفعل معلنة تمردها بإشارات استغاثة وهمية.. تبعتها يدي برعشة لم أستطع أن أخفيها، ظهرت قصرًا عني مع تلامس أصبعي مع زر الجرس.. دقائق وفتح الباب بقدر صغير، رأس أنثوي يخرج من جانب الباب المعلق بسلسلة المزلاج حتى لا يخرج عن سيطرة صاحبته العشرينية.. ثم أغلق مرة أخري.. دقائق ويفتح مرة ثانية، لكن بدون السلسلة هذه المرة، لم تنطق الفتاة بأي كلمة، فقط أخذت الطلبات وأعطتني المال

وأغلقت الباب.. حتى بدون كلمة شكراً؛ لم أتعجب الأمر كثيراً فقد أُخبرتُ بكل أنواع الاستقبال..

كل ما يهمني الآن أن دورتي الدموية أصبحت في أحسن حالاتها.. أشرق وجهي بابتسامة لا إرادية مع أول خمسة جنيهات تدخل جيبي منذ شهر تقريباً؛ لن أصرفها.. أخرجت قلماً ودونت عليها التاريخ والساعة والعنوان.. لا أعرف لماذا فعلت هذا، ربما لأبني جداراً بين عالمي الجديد وتلك الذكريات السوداء التي تطاردني.. وضعتها في محفظتي بجانب صورة أمي وأبي.. ها هي أولى جنيهاتي في عالمي الجديد..

****

الفصل الثالث

عامان مضيا وأنا أسبح في ملكوتي الجديد. حياة جديدة، أصدقاء جدد، كأني ولدت من جديد.. كان يوم خروجي من الحارة شهادة ميلاد جديدة سطرتها أيدي القدر الذي لطالما كان قاسيًا عليَّ بما يكفي..

عامان مع "سمير" و"أم رامي" والعمل ليل نهار.. بين عشية وضحاها تبدل الحال وتغير الوضع وانطوت صفحة الماضي، حتى تلك الذكريات المتصارعة داخلي ما لبثت أن هدأت جذوتها وانصاعت لحكم الزمان.. توارت في غياهب العقل مستكينةً..

عامان تنقلت فيهما بين زهرات الحياة، لم أكتفي بالعمل في المطعم بل انتقلت مع "سمير" في المعمل بعد شهرين فقط، كنت أناوب العمل بين الاثنين..

أدركت أني لم أعد بحاجة لأن أكمل حياتي بين غياهب الوحدة القاتلة.. أيقنت بأن الوقت قد حان لكي أشعر أن هناك من يحمل همّي ويشاركني فرحي وحزني، وها أنا أقرر فتح باباً جديداً في حياتي.. العمل ليلًا ونهارًا كان يستلزم إعادة ترتيب الأوراق.. فلا يتناسب عالمي الجديد مع حجرة "سمير" ولا مع وجبات "أم رامي" المتقطعة.. عليَّ أن أكمل رسم ملامح عالمي الجديد.

انتظرت حتى حانت اللحظة المناسبة.. "سمير" جالس على السطح وقد ذهب عقله في دندنة مع صوت أم كلثوم المنساب من هذا الكاسيت القديم مع دخان سيجارة وكوب الشاي، لم أجد وقتاً أنسب من هذا.. تسللت على أطراف أصابعي حتى لا أزعجه ثم جلست بجواره، واقتربت منه بصوت هادئ: "سمير".. كنت عاوز أفاتحك في موضوع..

اعتدل "سمير" في جلسته بينما ظل يتمتم بكلمات الأغنية: قول ياعم، خير.. حد مزعلَّك في الشغل؟

– لا شغل إيه بس، الشغل تمام الحمد لله..

- أنت هتقولي، عيني عليك باردة، أنت واكل الجو.. والدكاترة بيحبوك وكل الناس بتقدرك، الحاجة باينها كانت راضية عليك ياعم!!
- الله يرحمها، تصدق يا "سمير" أنا كتير بأحط صورتها قدامي، وأقعد أفكر.. لو مكنوش راحوا من الأول للحارة مش كان زماني حالي غير الحال!

وضع "سمير" كوب الشاي على الأرض ثم نفخ دخان سيجارته مبدياً شيئاً من الاعتراض: إيه ياعم أنت هتكفر ولا إيه، كله بتاع ربنا، إحنا بس اللي بنستعجل الأمور.. أهو أنت شايف واحد بيته اتهد وورشته اتخربت وطالع من الحارة ملط، سنة واحدة ولا سنتين يبقي "حاتم الطيار"!

- والله يا "سمير" أنا نفسي مش مصدق، وحاسس إني في حلم ولا كابوس ما أنا عارف! وكل ما يتفتح قدامي باب جديد بخاف أكتر.. أصل الدنيا مبتديش حاجة غير لم بتاخد قصادها ألف حاجة..
- ياعم وحّد الله في قلبك، هي الدنيا خدت منك قليل
- الحمد لله.. كل اللي يجيبه ربنا كويس.. والله خايف يكون كل اللي أنا فيه مجرد مُسَكّن وأرجع تاني زي زمان.. بس أنا ساعتها مش عارف هرجع إزاي ولا فين ولا.....
- إيه ياعم العندليب.. فكك بقي من حوار الأفلام بتاعك ده... قولي بقي أنت كنت عاوز إيه، كنت بتقولي فيه موضوع؟
- آه.. عاوزك تكلم "أم رامي" في موضوع..
- أيوة.. موضوع.. و"أم رامي" يبقي اللي خايف منه حصل.. إوعي تكون عاوز تتهور وتقل عقلك!
- بالظبط كده، نويت أكمل نص ديني بقي واستقر..

- طيب وبعدين عاوز إيه من "أم رامي"، هتتجوزها! والله الست ميه الميه ومش هتمانع، دي بتحبك موت..
- "أم رامي" إيه بس اللي أتجوزها يا "سمير" أنت بتهرج؟ ياعم اتكلم جد بقي شوية، أنا عاوزها تشوف لي عروسة..
- آه واحدة.. بص.. هي ممكن تجيب لك واحدة من السوق، سوق التلات بيقولك فيه عرايس تهبل، إيه رأيك؟
- ياعم والنبي.. أنا بتكلم جد، أنا مصدّقت أخد القرار ده..
- أنت زعلت؟ ياعم بضحك معاك.. أنا بس أقصد إنك تختار الأول وبعدين نكلمها تروح تخطب لك، كده يعني.. بلاش موضوع تجيب لك والخاطبة ده.. الموضة دي خلاص راحت..

على أثر الحديث تدخل "أم رامي" تحمل صينية الشاي ولا تكاد ملامحها تخلو من ابتسامة مشرقة كعادتها..

- إيه.. مالها "أم رامي"، وداني صفّرت، قلت أطلع أشوف جوز الكتاكيت اللي على السطوح بيجيبوا في سيرتي ليه؟ وسمعت اسمي وأنا طالعة على السلم.. مش خير؟

وضعت "أم رامي" صينية الشاي وسحبت كرسي خشبي بالقرب مني وجلست موجهة كلامها إلي: إيه يا كتكوت يا صغير أنت، عاوز إيه من "أم رامي"؟

- كتكوت إيه!! كل ده كتكوت، قولي غراب، قولي بومه، كتكوت إيه في كتكوت كده؟
- ماشي، وهو أنت يعني اللي كتكوت ياعم "سمير"؟

– الله، إيه يا جماعه يعني أطلع أشرب معاكو الشاي تقلبوها خناق، خير في إيه؟

اعتدل "سمير" في جلسته وأشعل سيجارة ونفث دخانها بعيداً.. ثم أخذ رشفة من كوبه مطلقاً العنان لأصوات غريبة صدرت عند ملامسة الشاي لفمه...

– تسلم إيديكي "يام رامي" والله الشاي بتاعك بيضرب في النفوخ ولا طن حشيش..

– بالهنا والشفا، بس ابعدنا عن الحشيش وحياة والدك مالناش فيه وخف عن الواد..

– واد إيه.. دا من يوم ما جه وهو منشفها خالص وربنا.. دنا بقيت باخطف السجارة زي العيل اللي خايف من أبوه، دا أنا ناقص أروح أشرب في الحمام..

انطلقت الضحكات واستمرت المناوشات بين "أم رامي" و"سمير" بينما اكتفيت بالنظر فقط دون كلام، أشرب كوب الشاي الخاص بي وأحلم بيوم أشرب هذا الكوب مع زوجتي في بيتنا بعيداً عن أعين الناس وسخافات "سمير"..

– إيه، يا "حاتم" مالك سرحان في إيه كده؟ مش خير، اللي واخد عقلك يا سيدي!

– لا والله "يام رامي" مفيش..

– مفيش إيه ياعم، أومال مين اللي مصدعني من الصبح، عاوز أتجوز عاوز أتجوز؟

– بجد يا "حاتم"، ألف ألف مبروك بجد فرحتني والله،

- يعني هو ابن حلال وأمير وأنا الشيطان الرجيم، متقولي كلمة حلوة يا "أم رامي" بقي..
- إتوكس ياهبل.. أنا ياما ريقي نشف عليك يا تصالح مراتك يا تتجوز بدل قعدتك زي خيال المآتة كده على الأقل تلاقي حد يناولك كوباية المية ولا ياخد بحسك..
- الله، يعني هو يتجوز وأنا اتبكت.. لا كده مش عدل، ثم أنا مش هاسيبه يتجوز بقي إيه رأيك، دا صاحبي وأخاف عليه من الضيااااع..
- ضياع إيه يا أهبل أنت، والله ما حد في الضياع غيرك.. حد يبقي عنده بنت قمراية كده ومراته مستنيه متجوزتش وسايبهم ومرمي على السطوح زي القط البلدي العبيط اللي مش عارف يولف على قطة..
- شوفت ياعم.. أديني بقيت قط بلدي عبيط.. أهو ده اللي خدناه من تحت راس الجوازة، دا لسه متجوزش يا جدعان وبقيت قط بلدي، أومال لما يتجوز هبقى إيه؟
- سيبك منه يا "حاتم" وقولي حاطط عينك على مين؟
- ولا حاطط ولا نيله دا جاي يدور، يبحث عن سمراء، قامتها هيفاء..
- يابني اتهد شويه، أنت لا منك ولا كفاية شرك.. قولي يا "حاتم"، مفيش حد كده ولا كده ولا تسيبني أنا هنقيلك على زوقي.
- ياريت "يام رامي"، ياريت والله تشوفي حد يكون من طرفك بس تكون طيبة وجدعة زيك كده.

- يابني الطيبون للطيبات.. والله لو ينفع ما كنت سيبتك، كنت أتجوزك على طول.. هو في زيك دلوقتي، أنت بسم الله ماشاء الله.. أدب وزوق ومتطلعش منك العيبة، وأسمراني وحليوة كمان والسمار نص الجمال، وأنت الجمال كله..
- الله الله، إيه ياعم الرضا دا
- طبعاً، ودي عاوزه كلام.. هو بس يشاور وأنا أجوزه الصبح دا في مقام "رامي" ابني ربنا يرجعه بالسلامه، وشقتك عندي، الشقة اللي في الدور التاني هتفضي بعد 4 شهور، أصحابها هينقلوا، والنبي ما حد يسكنها غيرك، وهوضبهالك كمان، وربنا يرزقك ويهنيك..
- لا بقي أنا اعترض، وربنا دا كتير يعني أنا مرمي بقالي يجي مليون سنه على السطح ويجي سي "حاتم" أفندي ياخد شقة وعروسة، متجبيله عربيه كمان بالمرة! بقي كده "يام رامي".. ماشي، بس افتكري هو هيتجوز ويتلهي مع عروسته وهترجعي بوزنا في بوز بعض تاني، أنا اللي باقيلك..
- سيبك منه يا"حاتم"، أنا بكره هروح للحاج "إبراهيم"، صاحب دكان البقالة اللي على الناصيه، بنته "إيمان" إيه قمر أربعتاشر، حاجة كده من بنات زمان اللي متعرفش تلاقيها الوقتي خالص.. 28 سنة، مخلصة معهد بتاع التجارة ده، ومجلهاش النصيب، مش لحاجة لا سمح الله.. بس علشان على قد حالهم، وأنت عارف الشباب عاوزين واحدة تشيل معاهم في كل حاجة، أنا هكلمه وتبقي أمك دعيالك لو بقيت من حظك ومن نصيبك..
- إيه يا حاجة، مش يشوفها الأول ولا تشوفه قبل ما تتكلمي مش جايز متعجبوش ونرجع نزعَّل الناس مننا.

– ياعم أنا مش هشوف ولا هدور، كلمي عم "إبراهيم"، ويارب بس هم يوافقوا أنا راضي يا عم بأي حد المهم تكون طيبه وبنت حلال وتعيش معايا..

ها أنا أقف على أعتاب باب آخر من أبواب عالمي الجديد، هذا العالم الذي أرسم ملامحه بإرادتي بعد أن سُلبت مني لسنوات طويلة.. عالم تشاركني فيه إنسانة سبق أن جُرحت وذاقت مرارة الألم، فقد علمت أن "إيمان" زوجتي المستقبلية قد مرت بظروف أقسي مما مررت بها، فقد تمت خطبتها لمدة عامين وعُقد قرانها.. وتوفي زوجها في حادث قبل إتمام الزواج..

استوقفني هذا التشابه، فلربما بعثني القدر لها وبعثها لي؛ كم كنت قاسياً في حكمي عليك أيها الزمان.. فلطالما جزعت وتألمت مع كل حادث يلم بي.. أما الآن فأنا أتقدم باعتذار واجب.

ما أن وقعت عيناي عليها حتى غبت عن الوعي، تيبست جوارحي.. لم أستطع النطق بأي كلمة، إنها عذراء الربيع أو قل ملاك السعادة.. هذا الوجه الطفولي البريء المتمرد على أعراف الزمان الذي فشل أن يغير من ملامحه شيء.. فقد بدوت بجوارها كهل طاعن في السن رغم فرق السنوات الثمانية..

للحظة شعرت بخوف.. نعم خوف وفرح ورهبة وتمني، كلها مختلطة في آن واحد؛ خوف من أن ترفضني، فمثل هذا الملاك يجب أن يوضع في قصر من البلور المرصع بالألماس والياقوت؛ وفرح لما عوضني به الله من هذا الجمال الأخاذ؛ ورهبة من الموقف الذي لم أتخيل أن أقف به؛ وتمنيت بأن تكون من نصيبي. وها أنا في انتظار قرارها..

****

بعد مرور ثلاثة أيام..

تدخل علينا "أم رامي" ضاحكة مستبشرة.. لم أكن في حاجة لوقت أو لشرح حتى أستنتج أنها ستزف إليَّ أسعد خبر انتظرته في حياتي..

– "حاتم".. الحاج "إبراهيم" باعت يقولك هم موافقين.. جهز نفسك يوم الخميس الجاي هنروح نقرأ الفاتحة ونتفق على التفاصيل..

لم أدرك ردة فعلي.. قفزت فرحاً ومهللاً بين جنبات السطح بينما ظل "سمير" واقفاً يرقبني.. كنت كمن أصابه الجنون..: "أم رامي"، أنتي بتتكلمي جد، "إيمان" وافقت.. وافقوا إني أروح أتقدم.

– بتقولك موافقين.. أنت غلباوي ليه كده، قوم جهز حالك وتوكل على الله!

لم أتمالك نفسي من الفرحة، قفزت احتضن "سمير" و"أم رامي"، أعمتني الفرحة وأصمت أذناي عن كل شيء، كنت أتمنى أن أكون العندليب وأغني (يا أصحابي يا أهلي يا جيراني أنا عاوز أخدكوا في أحضاني) لم يعد يفصلني عن أول أحلامي في عالمي الجديد سوي ثلاثة أيام.. ستمر عليَّ وكأنها أعوام ثلاثة..

استقبل الجميع هذه الأخبار بفرحة كبيرة.. في المطعم قرر مستر "مدحت" 500ج هديه، كما صرف لي المعمل مبلغ مماثل، مع بعض هدايا من زملائي.. أحسست بأن كل شيء يتقافز فرحًا وسعادةً لفرحي..

انقضي الشيفت الأول في سلام وضاعفت فيه من الأوردرات التي أنفذها كل يوم، وانتقلت للمعمل، الأمور تسير على ما يرام حتى جاءني صوت "سمير"..

– قوم ياعم "حاتم "، بسرعة هتاخد النتائج دي توصلها.. وباقي اليوم ريست.. وبكرة أجازة علشان تجهز للخطوبة..

– ألف شكر يا "أبو سمرة" يا قمر، ربنا ما يحرمني منك..

– متنساش تاخد معاك عشا وأنت مروح أنا هتأخر شوية النهارده..

امتطيت جوادي الذهبي، وانطلقت نحو غايتي، لم يستغرق الأمر طويلاً، فقد كانت الشوارع تطوى تحت صهوة جوادي الجامح.. فقط آخر ظرف معي، العنوان: 11 ش جمال الدين الشيال – الحي السابع– مدينة نصر.. الدور الثالث شقة 6.. دقائق ووصلت للعنوان المطلوب..

أوقفت جوادي وصعدت درجات السلم منتشياً.. الدور الثالث.. الشقة رقم (6).. ها هو زر الجرس بجوار لوحة نحاسية لامعة يبرز فيها اسم (لواء/ مجدي القاضي).. نفس الاسم المدون على الظرف..

ضغطت على زر الجرس.. دقائق.. فتح الباب.. للحظة فقدت الإحساس بالزمان.. توقفت أجهزتي جميعها عن الحركة ما عدا المخ.. تسارع الدم من جميع جسدي متجهاً إليه محدثاً بركاناً ثائراً يفوق قوته بركان كراكاتو* ترامت حممه الملتهبة في جميع أنحاء جمجمتي معلنة عن تحطم سجن ذكرياتي القديمة وخروجها عن سيطرتي وتدافعها إلى منطقة العرض المباشر.. يدي اليمنى تُسْقط ما بها من أوراق وترتفع حتى تصل إلى شقي الأيمن فتتحسس جرحاً قديماً، أحسست به وكأنه ما زال ينزف.. دارت الدنيا كلها في لحظة لم أعلم من أنا ولا أين ولا كيف؟

* بركان كراكاتو في إندونيسيا (Krakatau volcano) الذي إنفجر عام 1883م والذي اعتبروه العلماء أقوى بركان في ذاكرة البشرية المدونة وتسبب في مقتل ستة وثلاثون ألف شخص وسمع الناس دوي الانفجار على بعد مسافة خمسة آلاف كيلومتر، وحجب الرماد والدخان البركاني ضوء الشمس لمدة أسبوع عن الكرة الأرضية.

قَطع السكون صوت أتي من داخل الشقة بعد صمت دام ثلاثة عشر عاماً كاملة، ليشق طريقه كسيف صارم يشق صدري نصفين.. صوت أعرفه كما أعرف نفسي بل أكثر، مع ملامح تحدت الزمن فلم يستطع أن يغير منها شيء..

- "حاتم"، معقول.. أنت "حاتم" صح؟
- أيوة أنا.. إنتي مين؟
- إنتي مين! أنت مش عارف أنا مين؟
- "حاتم"، أنا "ولاء"!

****

الفصل الرابع

يصل "سمير" إلى السطح ليجد "أم رامي" التي كانت تنتظر وقد ظهر التوتر والقلق على ملامح وجهها، ما أن رأته حتى اندفعت نحوه حاملة الكثير من التساؤلات، لكنها بادرته بأهمها: إيه يا "سمير"، أومال فين "حاتم"؟

- "حاتم" مين!! دا المفروض يكون هنا من زمان، دا واخد نص شيفت بس النهارده!!
- أنا مستنياه من بدري ومجهزه العشا، قولت بدل ما تنشغلوا في تجهيز أكل، ويعطل.. وجيباله حاجة عاوزاه يشوفها..
- الله، إيه بقي الحوار ده! أنا منبه عليه يخلص بدري ويروَّح علشان ميتأخرش في تجهيز نفسه!
- طيب ما تكلمه على الموبايل شوفه فين ومجاش ليه؟ أنت كده قلقتني عليه قوي!
- حاضر يا ستي لما نشوف أخرتها مع سي "حاتم " أفندي....
- ربنا يجيب العواقب سليمه إن شاء الله..

يخرج "سمير" هاتفه.. يضغط بعصبية على الأزرار متصلاً برقم "حاتم"، ينتظر قليلًا: أهه يا ستي.. مبيردش.. جرس ومحدش بيرد؛ وبعدين بقي في الاشتغالة دي، إحنا مش ها نخلص من الموال الأزرق ده، مفيش حاجة تمشي سالكه خالص.!

- طيب انزل دور عليه ينوبك ثواب شوفه راح فين، أنا قلبي واكلني على الجدع، دا خطوبته بكره يا ناس..

- انزل أدور فين يعني، همشي أقول عيل تايه يا ولاد الحلال!
- يا ابني هو مش كان معاك في الشغل، وأنت عارف هو بيروح فين؟
- آه عارف.. وكان معايا.. بس الكلام ده من الساعة 6.. الساعة الوقتي 9 ونص، والمشاوير اللي هو رايحها كلها متخدش ساعة على بعضها.. هلف وراه فين بس الوقتي؟

وقع أقدامي المتباطئ يعلو تدريجياً على السلم، أبدو ككهل تجاوز المائة عام.. أجرجر أقدامي التي ترتعد بشكل ملحوظ، لم أستمع أي من كلمات "سمير" التي انطلقت نحوي كراجمة صواريخ في ساحة معركة حربية.. لم ألتفت "لأم رامي" لأني بالأساس لم أرها أمامي.. فالعالم كله تحول إلى اللون الأسود وكأني فقدت بصري.. لا.. لم أفقد بصري وإنما ما حدث جعل عقلي يتخلى عن منصبه في إدارة شؤوني كاملة ويسمح لشياطين أفكاري أن تُمسك بزمام الأمور بعد أن نجحت في اقتحام أسوار سجن منيع شيدته حولها بإحكام خلال عامين مضيا..

خطوات متثاقلة.. سكون كامل.. ترنح بين الحين والآخر.. حتى استقر بي الحال على الكنبة الأسيوطي بجوار السور.. بدون كلمة واحدة.. حتى بادرتني أم رامي بسؤالها..

- مالك يا"حاتم" يابني فيك إيه، إيه اللي جري؟
- بزمتك أنت بتهرج.. والله أنا لسه كنت هانزل أنده عليك، عيل تايه يا ولاد الحلال! كنت فين ياعم أنت قلقتني عليك؟ ومالك نازل عليك سهم الله ليه كده.. حد عملك حاجة؟
- "ولاء"!

- "ولاء" مين؟ ما تتكلم ياعم "حاتم" متوقعش قلبنا!
- "ولاء" عايشة يا "سمير"!
- "ولاء" مين اللي عايشة ياعم، أنت حد سقاك حاجة بره قبل ما تيجي، يعني يوم ما تأفور يبقي ليله خطوبتك!
- ما تتلم شويه يا "سمير" خلينا نشوف الجدع ماله، "ولاء" مين اللي عايشة ومماتتش؟
- يا "أم رامي" دا باينه بيخرف والله، "ولاء" دي يا ستي البنت اللي كان بيحبها زمان ومحصلش نصيب، وماتت من زمان من 11 ولا 12 سنه وهي بتولد، دفناها في ترب الغفير، دنا بنفسي كنت في الدفنه بتاعتها!
- طيب يا بني لما هي ماتت ومن 12 سنه زي ما بيقول، شوفتها فين وإزاي وامتى؟
- بقولك "ولاء" عايشه ولسه كنت معاها..
- وهيَّ بقي اللي أخرتك؟ قعدت معاها وشربت الشاي واتعشيت أكيد بقي!
- وحياة أبوك يا "سمير"، أنا مش قادر أتكلم، ولا فاهم حاجة.. حتى هي متكلمتش معايا كتير مكنش ينفع، يا دوب كلمتين وبس.. وقالت لي هتكلمني تاني وهقابلها وتحكيلي على اللي حصل!

جذبني "سمير" من ذراعي بشده وعصبية لم أعهدها عليه قبل أن يصيح في وجهي منفعلاً: أنت بتتكلم جد ولا بتهرج؟ "ولاء" مين اللي قابلتك واتكلمت معاها وقابلتها فين وامتى وإزاي، "حاتم" إوعي تكون ضارب حاجة؟

تعجبت كثيراً للتغير المفاجئ في لهجة "سمير" وطريقة كلامه عندما أيقن أنني لم أدخل في مرحلة هذيان بسبب مخدر أو غيره وإنما كانت حقيقة كاملة المعالم والأركان.

– مش هاقدر أقول أي حاجة هي محلفاني مقولش لأي مخلوق، دا حتى غيرت إسمها..

– يعني إيه متقولش لأي مخلوق، أنت هتخبي على الدنيا كلها، إنما أنا لا.. لازم دلوقتي تقولي شوفتها فين وساكنه فين وعايشه مع مين وعنوانها إيه؟

لهجه حادة وغير معتادة وغير متوقعه، لكني كنت في وضع لم يسمح لي بأن ألقي بالاً لأي ردة فعل سواء منطقية أو غير منطقية.. فصدمتي وحدها كانت كافيه لتحطيم كل خلايا مخي دفعة واحدة..

أصبحت في حالة غياب كامل عن الواقع.. بالفعل كما قال "سمير".. لأول مرة في حياتي تدخل المخدرات جسدي.. مخدرات طبيعية.. أفيون الحب نثر ترابه الأبيض على جنبات قلبي وعقلي، فهام القلب والعقل وغاب معهما الشعور بالزمان والمكان والواقع..

لم ينقذني من "سمير" وإصراره على معرفة التفاصيل سوي "أم رامي" التي تدخلت في الوقت المناسب...

– "سمير"، سيبه الوقتي ومتضغطش عليه، بكره الصبح نتكلم.. سيبه بس يرتاح، الوقتي نتعشى سوا وبكره يحلها الحلال.. عندك معاد مهم بكرة قراية فتحتك يا ابني.. والنبي يا "حاتم" بلاش تكسر بخاطر "إيمان"، ورحمة أمك الغالية متكسر بخاطرها تاني!

قالتها وقد لمعت عيناها بدموع استطاعت أن تمنعها من العبور إلى خارج أسوارها.. لكن صوتها كان كافيًا لأري دموعها وإن لم تراها عيني..

- "يام رامي" بيقولك قابل "ولاء".. يعني مفيش بكره فاتحه ولا قافلة ولا يحزنون.. دا مجنون وتلاقيه بيفكر يرجع لها!
- لا يا "سمير"، بكره على معادنا.. أنا مصدقت "إيمان" وافقت وعمري ما أتخلى عنها أبداً..
- ربنا يكملك بعقلك يا ابني ويحرسك، قوم يابا ناكل لقمه سوا.. قوم واستهدى بالله وصلي على النبي.. أقولك.. قوم الأول إتوضا وصلي ركعتين ربنا يزيح عنك الشيطان ويهديك ويرجع لك عقلك تاني..
- أنا كنت بفكر في كده، عاوز أخلص من الشيطان اللي راكب على دماغي ومش مخليني أفكر في أي حاجة..

استجمعت قواي التي تضاءلت بقدر كبير، فلولا مساعدة "سمير" لما استطعت النهوض.. تقدمت نحو الغرفة بخطوات متثاقلة بينما عاد "سمير" إلى "أم رامي" التي تلقته بسيل من التوبيخ....

أشعل "سمير" سيجارة وأخذ ينفث دخانها بشيء من التوتر: أنتي مش شايفه البيه اللي عمره ما دخن سجارة، الوقتي جاي مبرشم ولا ضارب حاجة ويقولك واحدة ميته من كام سنه عايشه وإيه هتكلمه في التليفون!

- يا ابني استهدي بالله، مش جايز الكلام صحيح وهو شافها بجد..

تضاعفت تدريجياً نبرة صوت "سمير" مما اضطر "أم رامي" أن تمسك بذراعه وتسحبه بعيداً عن الحجرة حتى لا أسمع ما يدور..

- إنتي هتجنيني إنتي كمان!.... باقولك البت دي أنا حاضر جنازتها ومدفونه قدام عيني.. تقولي مش عارف إيه، مش هاسيبه غير لما أعرف كل حاجة وبالتفصيل...
- لا.. سايقه عليك النبي.. ما تجيب سيرة ولا تفتح الموضوع ده تاني، أنا هنزل أسخن الأكل ونتعشى ولو إني متأكده إنه مش هيمد إيده في أكل..
- والنبي "يا ام رامي" أنا واقع أساساً ومش طالبه يجي يعكنن علينا

تحت إصرار "أم رامي" وكلمات "سمير" التي كان شررها يتطاير في كل اتجاه، استسلمت لبعض اللقيمات التي دفعتها إلى جوفي دفعاً.. كان حلقي جافًا ومتصلبًا وأعلنت معدتي حالة العصيان رافضة استقبال ما ألقيه فيها من طعام.. صداع يطبق على أنحاء رأسي.. أشعر بدفعات الدم المنطلقة من القلب إلى رأسي كطبول حرب ترفض أن تهدأ.. شربت الشاي مع أحد الأقراص المسكنة التي أعطاها إليَّ "سمير" حتى تساعدني على الاسترخاء والنوم، فغداً يوم طويل لا أعلم كيف سيمر....

****

صباح اليوم التالي:

الخميس 15 يوليو 2010 – 11:00صباحاً

أشعة الشمس الحارقة التي اخترقت النافذة نحو وجهي مباشرة، كانت كافية لأفتح عيناي رغماً عني.. خطوات متثاقلة وجسد منهك.. أكاد أجزم بأنني خرجت لتوي من حلبة مصارعة تكسير العظام.. لا أدري كيف وصلت إلى كسرة الزجاج المعلقة خلف صنبور المياه والمسماة افتراضاً بالمرآة.. رفعت وجهي إليها.. بالكاد استطعت أن أتعرف على ملامحي.. فهذه الستائر الزرقاء المنسدلة تحت عيناي وحمرة في وجنتي لم تخفها سمرة بشرتي..

أشعر بآلام تكاد تفتك برأسي.. رفعت يدي لأجذب هذه الستائر الزرقاء المتدلية لأكشف عن حدقتا عيناي البيضاوان.. أغصان أشجار خريفية متساقطة الأوراق تلونت فروعها باللون الأحمر القاتم امتدت فارعة في هذا البياض المشوب بالحمرة.. لم أري نفسي في مثل هذه الحالة من قبل.. أطلقت العنان لسيل المياه الباردة تنساب على هذا الشعر المجعد الأسود الذي استطاعت بعض الشعرات البيض أن تحجز مكانها في وسطه متباهية رغم قلة عددها.. لم أفق من شرودي إلا على صوت "أم رامي" يطرق الباب..

- اصحي يا عريس كل ده نوم، مش هتلحق تخلص اللي وراك.. اصحي يا"حاتم" بقينا الظهر..

لم تفلح المياه الباردة في إخماد ثورة البركان المتفجر في رأسي.. لكني تحاملت وجررت قدماي باتجاه الباب وفتحت: صباح الفل "يام رامي".. اتفضلي

- إيه يا عريس، هو دا وقت النوم، الظهر هيأذن وأنت لسه نايم، ولسه مجهزتش!
- مش عارف جسمي مكسر والله، مش حاسس بيه، مش عارف أنا نمت كل ده إزاي!
- أنا هنزل أعملك كباية قهوة مظبوط من أيدين "أم رامي" هتخليك تصحصح وتبقي فل الفل.. بس شهل شويه لسه قدامك حاجات كتير..

بالكاد استطعت أن أجبر معدتي بعد معاناة أن تتقبل بعض اللقيمات رغماً عنها، فقد كنت أشعر بجوع شديدٍ، وبالفعل نجح كوب القهوة الكبير الذي أعدته "أم رامي" في إعادة الاتزان لجسدي بشكل جيد.. على الأقل سيمكنني من استكمال يومي..

بدأت في تجهيز أغراضي وبالطبع بدأت في تنفيذ خارطة الطريق المتفق عليها سلفاً بين كل من يدخل عالم الزوجية.. فمن صالون الحلاقة.. لمحل المكوجي.. للمغسلة.. مروراً بمحل العطور.. ثم شراء بعض الأغراض الخاصة كانت كافية لقتل باقي الساعات المتبقية من هذا اليوم..

***

مرت الساعات سريعة، وها هو الموعد المحدد، الساعة تشير إلى تمام السابعة مساءً..

"سمير" لم يعد من الخارج بعد، و"أم رامي" تطلق الزغاريد وتقف معي حتى أكملت كل ترتيباتي، أخبرتني أن "سمير" سيتأخر وأنه ذهب لشراء بعض حاجيات ولوازم الخطوبة من حلويات وخلافه، وسيأتي قبل أن نبدأ..

أحسست بحفاوتها البالغة تغمرني والتي لم أكن أتوقع أن تفعل أمي أكثر منها.. لم أكن أعرف كيف أعبر لها عن اعتزازي وامتناني.. وزاد على ذلك سوار ذهبي أهدته لي حتى أقدمه لخطيبتي كهدية قراءة الفاتحة على أن أتحمل شراء شبكتي..

كاد عقلي ينشطر إلى نصفين.. فتفكيري متعلق "بولاء" ومتي سيكون اتصالها؟ والنصف الآخر بخطيبتي الفاتنة المنكسرة التي لا أريد أن أفوّت عليها فرحة تنتظرها بعد صدمة سنوات..

أين أنت الآن يا "سمير" لتنقذني بقرص مسكن آخر كالذي أعطيتني إياه بالأمس، فقد ساعدني كثيراً في تهدئة جذوة البركان الثائر في أعماق رأسي.. أما الآن فعليَّ أن أتمالك أعصابي حتى لا يظهر الاضطراب على وجهي..

دلفنا إلى المنزل لنُقابَل بعاصفة من الزغاريد والترحيب والتبريكات جعلتني أشعر بأنني في عالم آخر من السعادة والأمل...

اقترب مني الحاج "إبراهيم" وسألني هامساً: مالك يا عريس كاشش ليه كده؟ بص هي أول مرة دايماً بتبقي صعبه أنا عارف، بيني وبينك الواحد لازم يتجوز على الأقل مرتين الأولى يتعلم والتانية يصلح غلطاته..

أنهي الحاج "إبراهيم" كلماته الهامسة ثم انفجر ضاحكاً لكنه وضع يده على فمه ليكتم هذه الضحكة حتى لا يلحظها أحد..

- ليه بس يا عمي، دي الحاجة "أم إيمان" ست الكل، ربنا يبارك لك فيها ويخليكوا لبعض..
- يواد أنا بهزر معاك، هي "أم إيمان" دي في زيها..
- ربنا يبارك فيك ويديلك الصحة ياحاج وتجوز عيالنا وتفرح بيهم..
- عيالكم إيه بس، طب بس أنا كل أمنيتي إني أفرح "بإيمان" قبل ما أموت، متعرفش يا "حاتم" أنا فرحان بيك قد إيه، والله أنا والحاجة قولنا ربنا عوض عليها ورزقها بجدع طيب وابن حلال.
- أنتو الأحسن ياحاج، دي "إيمان" دي ست البنات وأنا والله ماصدقت "أم رامي" لما قالت إنكم وافقتم..

مد الحاج "إبراهيم" يده يناولني كوب من الشربات.....

- ليه يابني، أنت متتعيبش، جدع طيب وابن حلال ومحدش قال فيك كلمة بطالة، لا كاس ولا سجارة ولا هلس، دي حاجة متلاقيهاش في شباب اليومين

دول، ثم أنت اتظلمت في حياتك كتير، واللي اتظلم يابني عمره ما يعرف يظلم..

- ربنا يديم المعروف ياحاج ويقدرني أسعدها وتكون ست الكل..
- الله! أومال فين "سمير" صاحبك البكاش أبو لسان طويل، مجاش ليه؟
- "سمير" راح يجيب طلبات معرفش هي إيه بس "أم رامي" قالت إنه خرج من الصبح وقالها إنه هيجي على طول مش هيتأخر!
- ربنا يجيبه بالسلامة ويخليكم لبعض، الجدع باين عليه ابن حلال، بس متعرفش هو قاعد من غير جواز ليه؟
- والله ماعرف يا حاج بيقول مش عاوز يعيد تجربته تاني، أصله كان متجوز وطلَّق ومعاه بنت بس هي مع أمها..
- طيب يابني ما تكلمه يرجَّع مراته وبنته تتربي في حضن أمها وأبوها بدل ما تتبهدل والدنيا بقيت صعبه..
- والله كلمته كتير يا حاج بس هو دماغه ناشفة ومش مقتنع بكلامي خالص.. بس على الله لما يشوفني اتجوزت وسيبته يراجع نفسه تاني ويغير رأيه..
- على رأيك، ربنا يصلح الأحوال..

مضت ساعة ونصف ولم يأت "سمير"، بدأ الحاضرون يشعرون بقلق وبدأ هذا القلق ينتقل إلى الحاج "إبراهيم" الذي اقترب مني هامساً في هدوء: مش يلا بقي نقرأ الفاتحة الناس قلقت..

نظرت حولي محاولًا إيجاد سبب للتأجيل لعلي أستطيع استجداء مزيداً من الوقت حتى يحضر "سمير": ثواني بس ياحاج أنا كلمته في التليفون وقالي إنه في الطريق تلاقيه على وصول مينفعش نبدأ من غيره.... أه.. أهو وصل...

يدخل "سمير" حاملاً في يديه علبتين كبيرتين وتقدم نحو الحاج "إبراهيم" يصافحه بحرارة، بينما كنت أرمقه بنظرات غيظ وحنق شديدين لما سببه من إحراج بتأخره.. لكنه لم يترك لي المجال للحديث فاقتحامه وجلبته جعل الأمر منتهيًا بالنسبة لي على الأقل..

- ألف ألف مبروك يا حاج، آسف على التأخير بس كان عندي شغل كتير وكنت عاوز أعمل مفاجأة للواد ده يوم فاتحته..
- مفاجأة إيه بس أنت اتأخرت ليه كده؟؟ وكنت فين؟؟
- والله يا حبيبي غصب عني، ألف ألف مبروك بس كان عندي كام حاجة لازم أخلصها ضروري والحمد لله خلصتها وقولت أجيب لك هديتك يا عم..

قالها واحتضنني بقوة قبل أن يمد يده ويخرج علبة حمراء دسها في جيب بدلتي الداخلي هامساً في أذني: دي حاجة بسيطة تقدمها لعروستك هدية، وفك نفسك كده متبقاش متخشب الليلة ليلتك يا كبير..

- ربنا يخليك يا "سمير" والله مكان له لزوم، "أم رامي" جابت لي هدية كمان..
- شوف هيقولي "أم رامي"، ياعم أنا مالي ومال " أم رامي"، هو أنا عندك زيها برضه.. دا أنت حبيبي وأخويا وأكتر وربنا يعلم..
- إيه يا رجالة هنقضيها أحضان ووشوشة ولا إيه، مش يلا بينا نقرأ الفاتحة....
- حاضر يا حاج، بس بوصي العريس على العروسة، دا لو لف الدنيا كلها مش هيلاقي ضفرها..

وبدأنا نقرأ الفاتحة مع الموجودين، فاتحة جديدة لأبواب جديدة.. وبدأ الحديث في التفاصيل برعاية رسمية من كبار الحاضرين وبحضور ضيف الشرف حضرتي، حيث لم

أتدخل كثيرا في النقاش، فاكتفيت في معظم الوقت بإشارات الإيجاب أو بعض التعليقات البسيطة.. ليس لشيء إلا لأني كنت قد خرجت في فاصل غير قصير متذكراً "ولاء" ولقاءها وكلامها.. هل تسرعت وتخليت عنها.. أم أن ما أقدمت عليه هو الصواب؟

الآن أدركت معني جملة قديمة قرأتها.. " الصدمة قد تفعل بك شيئان: إمّا أن تُدمرك، أو أن تصنع منك شخصًا أقوى تصعب هزيمته، والاختيار متروك لك"!

شردت كثيراً وانتبهت كثيراً، زغاريد متفرقة.. أحاديث وعبارات مديح متبادل بين الطرفين.. لم يكن خارج المشهد سوى الأبطال.. أنا و"إيمان"، وكأننا نعرف جيدًا مقدار ما يسمح به الزمان لنا من فرحة، فلن نغامر في تخيل غير ما تكنه صدورنا.. نظرات خافتة وكلمات هامسة أحياناً.. جمل قصيرة دائمًا.. لكن ما اتفقنا عليه هو الخوف من المستقبل..

انتهى الحفل البسيط الرائع حقًا بشهادة كل من حضره، إلا اثنين رفضا أن يشاركا في هذا الاستفتاء، معربين عن امتناعهما عن التصويت لاستشعارهما الحرج.. كنت أنا و"إيمان".. تم الاتفاق وتم وضع الجدول الزمني لتنفيذ المشروع المزمع إقامته في منزل "أم رامي" على أن يكون في غضون الشهور الأربعة القادمة، فتم تحديد الشبكة والزفاف وكل التفاصيل المطلوبة.....

الفصل الخامس

السبت 2010/7/17 – الساعة تشير إلى تمام السابعة والنصف صباحًا..

لم يتغير حالي هذا الصباح كثيراً عن سابقه، فبنفس الستائر الزرقاء المتدلية تحت عيناي وبهذه الأشجار الجرداء ذات الأغصان الحمراء التائهة في حمرة لم أكن أعهدها من قبل.. لم يتمكن سيل الماء البارد من السيطرة على هذا البركان الذي أصبح ثائرًا باستمرار.. ومر اليوم بشكل طبيعي.. عادت الأيام إلى سابق عهدها.. فقط كان الجديد هو هاتفي.. الذي بدا وقد أصابه الخرس.. انتظره يتكلم.. يصرخ.. يثور معلناً اتصال "ولاء" في كل لحظة..

أصبحت عيناي متعلقة بالهاتف لدرجه كبيرة.. فكرت مرارًا أن أعود إليها.. ولكني كنت أتذكر كلامها وخوفها ونظرات الرهبة في عينيها وهي تتوسل ألا أخبر أحداً ولا أعاود الرجوع إليها، وأن أنتظر منها مكالمة.. ربما لم تحن الفرصة بعد.. أو أنها غيرت رأيها.. لا أعلم!

كل ما أعلمه أنني في حالة من الهذيان المستمر التي أثرت بشكل واضح على عملي.. فلم أعد "حاتم الطيار" الذي عرفه الجميع..

كعادته كل يوم وجدت "سمير" ينتظرني حيث أضع جوادي الذهبي في الجراج قبل أن أعود للبيت، قابلني وقد ارتسم على وجهه بعض الغموض: "حاتم".. مش هنروَّح على طول النهارده.. عاوز نخرج نغير جو، ولاَّ نشم شوية هوا بدل الحر والخنقة دي....

– تصدق أنا كنت عاوز أكلمك، تعالي نطلع الكورنيش ولا ناخد مركب في النيل.. أنا كمان عاوز أغير مناظر..

- طيب لم أنت مخنوق كده، مكلمتش "إيمان" ليه ونزلتوا تتمشوا سوا ولا تعزمها على الغدا ولا سيما.. وأهو تقربوا من بعض شوية.. ألا اللي يشوفكم يقول إنك مغصوب عليها، وربنا البت دي خسارة فيك..
- تصدق والله أنا كتير بقول إني هظلمها معايا، وإنها تستاهل حد أحسن مني كتير..
- يلا يا عم.. إنت بقيت بتحط على كمية كآبة غير عادية.. تصدق أنا شكلي هرجع أعمل قعدة الحشيش على السطح تاني..
- تصدق إنت بقي أنا اللي عاوز أشرب حشيش، جايز دماغي دي تتهد شوية وأعرف أسيطر عليها.. ألا صحيح بالحق.. هو القرص اللي إنت اديتهولي يوم الأربع اللي فات ده اسمه إيه؟ هتجنن على واحد، تصدق من يومها مش عارف أنام من غيره خالص؟
- قرص... قرص إيه؟
- إيه يا عم.. القرص المسكن اللي إنت اديتهولي يوم ما رجعت متأخر، اليوم ده نمت كويس وبعدها مش عارف جرالي إيه! كل يوم الصبح أصحي عنيا مقفلة وجسمي مكسر..
- ياعم دا قرص مسكن من الصيدلية عادي يعني، بس هو شديد شويه،
- خلاص أنا هجيب منه شريط ولا علبة تبقي معايا أصل إنت مش عارف أنا بقوم الصبح شكلي عامل إزاي..
- لا لا.. أنا هجيب لك.. متجبش إنت حاجة..
- ليه بس؟ مش بتقول مسكن عادي؟

– لا أصل مش كل الصيدليات بتبيعه عادي يعني.. أنا لي واحد صاحبي بجيب منه..

– خلاص اللي تشوفه..

استمر الحديث حتى وصلنا إلى كوبري قصر النيل.. حيث العشاق.. نسمات الهواء العليلة التي لا تتناسب أبداً مع جو القاهرة الخانق في مثل هذا الوقت من العام.. بائعين في كل مكان.. مشهد أيقظ في ذاكرتي.. الحارة وعربات الفول في الصباح لكن الفرق واضح جداً.. مياه النيل المتشحة بالسواد تتحرك بفعل نسمات الهواء العابرة عليها.. استمر "سمير" في حديثه عن "إيمان" وفضائلها، ومدى خسارتي لو أني فرَّطت فيها، لم أنتبه لكثير مما قال.. لكني انتبهت لسبب آخر.. انتبهت لتلك العجوز المحنية القامة التي تتجه نحوي مباشرة..

لم تنتظر هذه العجوز التي اقتحمت خلوتنا الإذن بالدخول.. يدها امتدت إلي في ثبات وسكون وكأني ولدت على يديها.. أمسكت بيدي.. رفعتها إلى مقربة من وجهها.. مدت سبابتها وحركتها ببطء على خطوط يدي، كأعمي يقرأ في كتاب محفور بطريقة بريل [*].. لم تنطق بأي كلمة.. فقط نظراتها تتنقل من يدي إلى وجهي.. ثم إلى وجه "سمير" الذي تغير وبدت عليه علامات القلق منتظراً ما ستقدمه هذه العجوز.. استمرت في تقليب يدي اليمني والتخطيط بسبابتها.. صمت قطعه صوتها القادم من أعماق بئر سحيق.. بعد أن أمسكت بيمين "سمير" دون أن تخطط عليها كما فعلت معي..

---

* **طريقة بريل**: هي نظام كتابة ليلية أبجدي، اخترعها الفرنسي لويس بريل، كي يسطيع المكفوفين القراءة، وذا يجعل الحروف رموزاً بارزة على الورق مما يسمح بالقراءة عن طريق الحاسة اللمس.

- الجَدر مكتوب.. محدش بيهرب من كتابـه..

واللُجَي مكتوب وان جَفلت بأديك بابه..

حرَّص من الديب جَبْل ما يغرس أنيابه..

مش كل ديب يحضنك ويفتح لك أبوابه..

تجُوله إنت السند.. أو حتى ترضى بـه..

أوعاك تفوت الجَديم وأدخل في سردابـه..

لا تخاف في يوم من ديب طلعلك أنيابـه..

الديب دا جلبه اندفن مع أعز أحبابـه..

دا راح دفنهم بأيده وماحد يدرا بـه..

لا يوم عليهم بكي دول كانوا أحبابـه..

خسارة فيه الكلام جَرّبْ هنا حسابـه..

تلقيت كلماتها بدهشة واستنكار في نفس الوقت، فما فهمت من كلماتها أي شيء يذكر..

- أنا مش فاهم منك أي حاجة والله يا ستي.. متتكلمي كلام يتفهم!!

نهرني "سمير" بصوت مملوء بالعصبية: إيه ياعم "حاتم" إنت هتشغل بالك بوليه خرفانه.. دي تلاقيها عاوزه تقلبك في قرشين وبترسم عليك.. العالم دي أنا عارفها كويس..

رمقته العجوز بنظرة أحسست بها من مكاني.. وكأنها تعرفه.. سرت انتفاضة في يد "سمير" ظهرت جلية وواضحة من مسكته للسيجارة.. نظرات العجوز تزداد حنقًا نحو "سمير" وكأنها ترسل إليه رسالة مشفرة تحتاج إلى جهاز مخابرات ليفك هذه الشفرة..

– اسمك وفعلك من زمان مكتوب.. لا يوم تِجْدَر تغيَّر.. ولا حتى منه هروب.. يدَّك في يد الطيبين أولي.. الدنيا يوم ما تدوج شهدها لازم هتاكل بعدها من المر.. إوعاك في يوم تشتكي ولا يوم تشيل الهم.. ربك بيده الفرج إوعاك في يوم تنساه.. لو يوم يجيك الحزن، إرجع إليه تلْجَاه.. ربك رحيم بالعباد لكن لمن يخشاه..

لم تنتظر العجوز أي رد.. فقط أفلتت يدي من يدها.. ألفتتها في صمت وبدأت في سحب قدماها المثقلتان بفعل الزمن.. لم ينطق أي منا بأي حرف.. فقط نظرات متبادلة بيننا وكلانا نظره معلق بالعجوز التي بدأت تختفي رويداً رويداً.. الغريب أن مقطعها الأخير وجدتني أردده كاملاً بشكل عجيب وكأني عكفت على حفظه لسنوات طويلة..

– اسمك وفعلك من زمان مكتوب.. لا يوم تقدر تغير.. ولا حتى منه هروب.. يدك في يد الطيبين أولي.. الدنيا يوم ما تدوق شهدها لازم هتاكل بعدها من المر.. إوعاك في يوم تشتكي ولا يوم تشيل الهم.. ربك بأيده الفرج إوعاك في يوم تنساه.. لو يوم يجيك الحزن.. ارجع إليه تلقاه.. ربك رحيم بالعباد لكن لمن يخشاه.. يعني إيه يا "سمير" الكلام ده؟

– يا سلام.. إنت لحقت تحفظه بسرعه كده إزاي يعني؟

– والله ما اعرف.. أنا عمري ما حاجة ثبتت كده في دماغي أبداً.. أنا نفسي مستغرب!!

رأيتني أردد هذا المقطع مراراً لم أتوقف إلا بعد أن رأيت الحنق والانفعال يكسوان وجه "سمير" الذي لم أره من قبل بمثل هذا المنظر..

- إيه بس يا "سمير" مالك؟؟ إنت إيه اللي مزعلك كده.. إنت قولت نصابة وعاوزه تقلبك.. وأهي مشيت من غير ولا مليم.. ثم كلامها له معني بس أنا مش قادر أفهمه.. أكيد الست دي تعرفني بس أنا معرفهاش، مفتكرش إني عمري شوفتها قبل كده، إنت تعرفها؟
- هاعرفها منين يعني!!
- أصل أنا شوفتها بتبص لك قوي وكأنها تعرفك كويس ومن زمان.
- ولا أعرفها ولا تعرفني.. بس تلاقيها بتستعبط..
- الله.. طيب وليه لمّ مسكت إيدك سكتت ومتكلمتش زي ما عملت معايا؟؟
- إيه ياعم "حاتم"، يعني إنت جاي تغير جو تقوم تقلب دماغي بواحدة عجوزة خرفانة زي دي.. بص ياعم أنا قفلت من الخروجة دي.. يلا بينا نروَّح..
- طيب بس استني إحنا لسه متعشيناش..
- نجيب أي حاجة نبقي نطفحها في البيت، يعني ياربي يوم ما أخرج أغير جو تطلع لي أمنا الغولة تعملي فوازير رمضان..
- طب إستني زمان شريهان جاية!!
- إنت بتهزر.. مزاجك حلو قوي وفايق.. ماشي ياعم خليك إستني شريهان وأنا هروح لعم حوزومبل..
- ياعم أصبر بقي أنا جاي معاك أهه، وهو معقول أسيبك لوحدك يعني يابوسمرة السكرة إنت..

أحسست أني أغضبته.. بالفعل انشغلت واهتممت بكلام العجوز ولم أعره اهتمامًا.. بالفعل كنت مخطئ.. لكني في وسط كل هذا عادة الكلمات ترسم أمامي..

صوت العجوز وكلماتها أسمع صداها في أذني.. كأنها تجلس بجواري وتعيدها على مراراً لعلي أحفظها ولا أنساها..

****

الأحد 2010/7/18 – الساعة العاشرة صباحاً..

يوم آخر من أيام العمل المعتادة.. أنتظر أن يظهر رقمها على الهاتف.. أتشوق لرؤيتها.. هل حقاً لازال حبها منقوش في قلبي بعد كل ما مررت به؟ هل فعلاً حبها لم يتغير ولم يمحو أثره الزمن كهذا الجرح الذي لطالما ذكرّني بها وبما أصابني بسبب هذا الحب..

لم أجد جواباً يقنع هذا العقل حتى يتوقف عن التفكير.. كل ما أدركه جيداً الآن أنني ارتبطت بإنسانة هي للملائكة أقرب منها للبشر.. أعتقد أن من حقي الآن أن أعيش حياتي الجديدة دون النظر لما فاتني حتى وإن كان الماضي هذا هو "ولاء" بذاتها..

لكن عقلي لم تقنعه هذه الإجابة مطلقاً.. باختصار لأن القاعدة تقول أن من يطرق باب قلبك أولاً هو من يسكنه للأبد.. للأسف وهذه هي الحقيقة التي سأجتهد لتغييرها.. فالواقع يقول أنني الآن مرتبط ولن أترك "إيمان" وأعود "لولاء" مهما كانت

الأسباب.. مهما حدث لن أعود أدراجي لظلمة الماضي الذي سحق سنواتٍ من عمري هباء..

رنين الهاتف أوقف هذه المعركة الدائرة بيني وبين عقلي الثائر.. كان رقماً غريباً.. اعتدت الأرقام الغريبة بحكم عملي.. رفعت الهاتف إلى أذني..

- ألو.... أيوة أنا.. مين معايا

ولاءّ !!!... أيوة يا "ولاء".. إنتي فين وبتتكلمي منين؟

طبعاً عاوز أشوفك هي دي عاوزه سؤال.. بس فين؟

آه طبعاً أعرفه كويس... طيب ماشي.. إمتى؟

طيب بعد نص ساعة كويس.. هاستأذن وأجيلك..

خلاص ماشي.. طيب استني.. هاوصلك إزاي؟

طيب ماشي.. خلاص.. عشرة ونص بالثانية هتلاقيني هناك..

ضحكة عالية ساخرة تتردد في أركان عقلي.. صوت يصرخ بداخلي.. أيها الأبله.. أنت تخدع نفسك بما قلت من ثواني.. "فولاء" باقية في قلبك كبقاء الدم في عروقك.. كفاك مكابرة وبلاهة عمياء.. فليذهب كل الماضي للجحيم.. إلا هذه النقطة التي عشت على ذكراها كل هذه السنوات.. لم أطل التفكير.. وانطلقت إلى المكان المحدد..

كان الموعد في سوق الحي العاشر بمدينة نصر.. مكان مزدحم، كثير من الناس.. عمال يرقدون على الرصيف في انتظار من يطلبهم، شباب يتسكعون وآخرون على المقاهي.. حركة دؤوبة في محطة الأتوبيس المجاورة للسوق..

لم أتأخر عن الموعد.. وصلت للمكان المحدد.. وانتظرت.. لحظات الانتظار تمضي وأنا هائم في بحر خيالي.. كيف سيكون اللقاء؟ كيف سأنظر مرة أخري في تلك العيون التي لطالما أسرتني بجمالها؟ كيف سأتحدث معها؟ هل ستسمح لي بأن أمسك يدها؟ هل ست..... قاطع هذا التفكير المجنون صوت الهاتف مرة أخري.. يعلن عن اتصال من نفس الرقم السابق.. بالتأكيد هو رقمها..

تحدثت إليها وعرفت أنها تقف في مكان في الجوار.. ذهبت إليها والتقيتها بعد فراق.. كنت كنبتةٍ نزلت إليها قطرات ماء من السماء فتبدل حالها بعد الذبول إلى الخضرة وبعد الموت إلى الحياة..

- أزيك يا "ولاء" عامله إيه؟
- أزيك إنت يا "حاتم".. إنت عامل إيه وفين أراضيك؟
- قبل أراضيك والكلام ده.. إنتي إزاي لسه عايشة؟ انتي مش المفروض إنك ميته يوم ولادتك.. والناس دفنوكي في ترب الغفير واتاخد عزاكي؟
- بص يا "حاتم".. دي قصة طويلة يطول شرحها.. المهم دلوقتي إنت جيت لي نجدة من السما..
- طيب فهميني بس الأول انتي لسه عايشه إزاي؟ وإيه الخدمة اللي عاوزاها؟
- يا"حاتم" بقولك مفيش وقت.. والله هاحكيلك كل حاجة وبالتفصيل.. بس دلوقتي عاوزه منك خدمه ضروري جداً...
- خير أؤمري..

تلفتت في كل اتجاه تنظر إن كان هناك من يرقبها أو يتعقب خطاها.. كان القلق والتوتر يسيطران على كل حركاتها وكلماتها..

- بص.. يومين كده وهاتصل بيك أسلمك ظرف مقفول فيه شويه ورق وحاجات كده يعني.. هاتخده تعينه معاك.. لمدة مش طويله يعني ممكن أسبوعين أو بالكتير شهر..
- فيه إيه الظرف ده؟
- يا"حاتم" أرجوك لو سمحت خليك معايا بس في الكلام..
- ماشي اتفضلي وأنا سامع..
- هاتصل عليك بعد المدة دي أقولك هتعمل إيه بالظرف..
- تقصدي المدة اللي هي من أسبوعين لشهر؟
- تمام.. هتابعك بالاتصال.. وهاقولك هتوديه لمين وفين وامتى!!
- طيب لو محصلش بقي إنك عرفتي توصلي لي أو العكس.. هتتصرفي إزاي؟
- شوف لو عدي على شهر بالظبط وأنا مكلمتكش أو قابلتك.. يبقي هتاخده وتروح بيه لواحد اسمه (اللواء/ مجدي القاضي) في مديرية الأمن...
- مش ده اللي أنا شوفتك في شقته؟
- أيوة هو.. يا سيدي..
- طيب ما أنتي موجودة معاه.. ما تديهوله انتي وتخلصي!!
- ما هو لو ينفع يا فالح كنت عملت كده.. بس للأسف لا ينفع أسلمه بنفسي ولا أبعته بالبوسطة ولا أديه لحد.. أنا لما شوفتك حسيت إن ربنا بعتك مخصوص علشان تعمل الحاجة دي.. أرجوك يا "حاتم"..
- خلاص الموضوع بسيط يعني مش مستاهل كل ده..

- لا مش بسيط.. ومستاهل.. بس إنت زي النهارده الشهر الجاي لو لقتني متصلتش أو معرفتش توصل لي، هتاخد الظرف وتطلع على المديرية وتقابل الراجل ده وتديهوله..
- طيب أقوله بقي من طرف مين؟ ولا هو مش هايسأل؟
- طبعاً لواء شرطه لازم هايسأل.. هتقوله إنك قريبي من المنوفية واني كنت سايبه الظرف ده عندك أمانة وكنت هاجي أخده منك.. وإني موصياك لو مجتش تسلمه لجدي بيه.. وهو مجرد ما يفتح الظرف ويشوف اللي جواه مش هايهمه جه منين ولا إزاي..
- طيب ما أوديهوله الشقة وخلاص وبلاش موضوع المديرية ده.. دنا ممكن أخبَّط وأسيبه قدام الباب وأنزل ولا من شاف ولا من دري..
- إتصرف مش مشكلة.. المهم إن الظرف ده يوصل وخلاص..
- طيب سؤال تاني.. لو انتي بقي مجبتيش الظرف بعد يومين.. يبقي خلاص مفيش خدمة صح؟؟
- لا.. لو حسيت إن في حاجة هتمنعني إني أجيب لك الورق هكلمك.. أنا دفناه في حته.. الجن الأزرق ميعرفش يوصلها.. ساعتها هكلمك وأقولك على مكانه وإنت تروح تجيبه وتتصرف..
- طيب لو ليَّ خاطر عندك قولي لي إنتي إزاي لسه عايشه.. أنا هتجنن من ساعة ما شوفتك!

رغم توترها والعرق الغزير الذي كسا وجهها وفشل منديلها الورقي في السيطرة عليه، إلا أنها لم تخيب أملي.. تلفتت حولها للمرة الألف أعتقد.. ثم أردفت: بص.. هريحك.. "الوزير" كان عاوز يكون له عين عند "اللوا مجدي".. علشان مشاكل كانت

بين "اللوا مجدي" وبين الراجل الكبير اللي الوزير شغال معاه.. وطبعاً الحكاية دي مش أي حد هايقدر يعملها للوزير زي مراته.. مرضيش يجيب حد وأصر إني أنا اللي أروح؟

وطبعا لو أنا روحت أشتغل وأنا "ولاء" مرات الوزير كنت اتشيعت على طول.. فالوزير بقي عمل الحوار بتاع إني حامل ومت وأنا بولد.. ولا أنا أصلاً كنت حامل ولا مت وأنا بولد ولا حاجة.. ضرب لي بطاقة باسم "السيدة" وعن طريق مكتب تشغيل روحت عند "اللوا مجدي".. ومن يومها وأنا شغاله كده.. أي حاجة اسمعها أو أشوفها بكلم "الوزير" أبلغه.. لحد لما جالي خبر إن "الوزير" قتله واحد من رجالته.. بس بعدها اتصل بي واحد بيه كبير قوي، معرفش مين.. وقالي إني هكمل شغل معاه وهبلغه بكل حركات "اللواء مجدي" أول بأول.. وبيبعت لي فلوس كتير عن طريق بت شغاله برضه..

لم أستوعب ما سمعته من خطط وتحالفات ومؤامرات وخيانة.. كيف لهذه البريئة أن ترضي بكل هذا.. سألت نفسي قبل أن أسألها: وإنتي إزاي يا "ولاء" تقبلي إنك تشتغلي شغاله وتتجسسي كمان على اللي انتي عايشة معاهم؟

- ورحمة أمك بلاش تبكتني.. أنا فيَّا اللي مكفيني وزيادة ومش ناقصه أي كلمة من حد...
- وهو أنا أي حد برضه يا "ولاء"؟
- يوه.. وربنا ما أقصد "ياحاتم".. بس إنت متعرفش أنا حصلي إيه السنين اللي فاتت..

- طيب وإيه بقي اللي خلاكي تقلبي كده على الناس اللي بتخدميهم كل السنين دي؟
- إنت بتسأل كتير ليه كده؟ أنا طلبت منك طلب هتنفذه يبقي كتر ألف خيرك.. لو مش هتنفذه يبقي إنسي إني كلمتك ولا قابلتك ولا إنت شوفتني..
- ليه بس كل ده علشان بسألك إنتي بتعملي ليه كده؟! خلاص مش هسأل.. انتي حرة لو عاوزه تحكي أنا هاسمعك..
- بص.. لو عدت المرة دي على خير وسلمتك الظرف.. هحكيلك على كل حاجة من بالتفصيل.. إنما الوقتي أفوتك بعافية.. مش هاقدر أتأخر أكتر من كده..
- طيب لو حبيت أكلمك أوصل لك أزاي طيب؟
- لا أنا اللي هكلمك.. بلاش إنت تكلمني.. أفوتك بعافية.. متنساش..
- طيب هاتجيبي الظرف ده إمتى؟
- بالكتير يومين وهكلمك أديهولك.. خلاص بس أمانه يا "حاتم".. لا تفتحه ولا حد يشوفه عندك.. خلاص.. سلام بقي..

قالت جملتها الأخيرة وهي تهرول نحو أحد الأتوبيسات المتحركة من الموقف.. وكما ظهرت فجأة.. اختفت فجأة.. لكنها تركت خلفها ناراً تستعر في جوفي وفي أعماقي.. تركتها جسداً ولا زلت أحتفظ بها كياناً نابضاً بداخلي لا أقدر على انتزاعه ولو بالقوة.. ودعتها على أمل أن أعود فألقاها.. أعلم أني الآن أسير بخطي ثابته نحو مصير مجهول.. ربما ينتهي هذا الأمر بجرح غائر جديد تمضي الأيام ولا تقوي على أن تمحوا أثره.. لن أفكر.. فقط سأنتظر.. فلا جدوى من التفكير في غدٍ لم يأتي وماضٍ لن يعود..

الفصل السادس

الساعة تشير تمام الثانية عشر ظهر الخميس 21 يوليو 2010..

مجموعة من أفراد الشرطة تدخل إلى المطعم وبعد حديث مقتضب تقدم أحد أمناء الشرطة نحوي، كنت أرتكن بذراعي على أحد الأعمدة أنتظر تجهيز بعض الطلبات..

- **إنت "حاتم فهمي إبراهيم"؟**
- **أيوة يا فندم.. أنا "حاتم" خير في حاجة؟**

- إتفضل معانا عاوزينك في القسم..
- ليه بس خير حصل إيه؟
- في القسم هتعرف كل حاجة ياريت تتفضل معانا من غير شوشرة...
- طيب ثواني أستأذن بس وأجي مع حضرتك..
- طيب مفيش مشكلة..

في مكتب مستر "مدحت"، حاولت إيجاد مبرر لطلب الشرطة استدعائي، إلا أنني فشلت.. فطلبت الإذن وسُمح لي على أن أعود بسرعة للعمل وأن أتصل به أن كانت هناك أي مشاكل.. واتجهنا إلى قسم الشرطة بعد أن اتصلت بسمير أبلغه بما حدث..

****

قسم شرطة أول مدينة نصر..

أقف مستنداً بظهري إلى الحائط يقتلني القلق والخوف.. ساعة كاملة في الانتظار من أجل الدخول إلى مكتب رئيس المباحث.. قطعتها في توتر وجسد مرتعد أنقذه دخول "سمير".. بالفعل كنت أحتاج إليه بجانبي أكثر من أي وقت مضي.. فهذه زيارتي الأولي لقسم شرطة طول حياتي..

- إيه يابني في إيه.. جابوك على هنا ليه؟
- معرفش والله.. كل اللي قاله الأمين إنت "حاتم"، قولت له أيوة.. قالي تعالي معانا.. معرفش في إيه؟؟
- متقلقش ربنا يجيب العواقب سلميه إن شاء الله..

دقائق وخرج عسكري ينادي بصوت جهوري.. "حاتم فهمي إبراهيم"..

على إثر هذا النداء توجهت إلى مكتب مدير المباحث وتركت "سمير" في الانتظار..

في الغرفة.. الرائد "حسام عادل".. مدونة على قطعة نحاسية فوق المكتب الخشبي الكبير الذي يتوسط الحجرة.. يجلس خلفه رجل في العقد الثالث من العمر يشعل سيجارة أجنبيه.. يلقي بظهره إلى الخلف رافعاً بصره إلى أعلى ناظراً إلى مروحة السقف التي لا غني عنها في هذا الجو الحارق.. بخطوات مرتعدة وأنفاس لاهثة وقلب يكاد يخترق صدري من الخوف، ناهيك عن البركان الثائر الذي يحاول جاهداً اختراق القشرة الخارجية من جمجمتي ليعلن عن اكتمال ثورته ويلقي بحممه المشتعلة إلى الخارج.. لم يكن في الغرفة سواه وفقط..

نظر إلى بجانب وجهه ثم اعتدل مرة أخري ليسحب نفساً من سيجارته قبل أن يشير إلى لأقترب: أهلا يا "حاتم".. إتفضل..

- أهلاً بحضرتك..
- إتفضل اقعد يا "حاتم".. ها.. تشرب إيه؟
- ألف شكر يا فندم.. بس ياريت أنا عاوز أعرف في إيه بس أنا عملت إيه؟
- هتعرف ياعم.. إنت مستعجل ليه بس إنت مش عاوز تشرفنا شويه ولا إيه.. دي معرفة الرجال كنوز يا أخي.. ولا إحنا منشرفكش؟
- أبداً يا باشا والله مش قصدي.. بس أنا معملتش حاجة علشان يجيلي حد يقبض عليَّ!!

- مين قال كده بس؟ إنت شكاك قوي.. دا إحنا عاوزين ناخد رأيك في حاجة كده وخلاص.. وهتمشي على طول بس لو جيت معايا عدل وملوعتنيش.. سجارة؟
- لا شكراً مبدخنش..
- جميل.. مبتدخنش، طيب يا سيدي عاوز أدردرش معاك شويه، ولا عندك مانع؟
- لا أبداً معنديش أي مانع.. اتفضل حضرتك..

مدَّ "حسام" يده إلى ملف ورقي كان على مكتبه.. جلس على طرف المكتب في مواجهتي.. نفث دخان سجارته إلى أعلى متفاديًا أن يأتي نحوي.. أخذ يلقب في أوراق الملف المدون عليه من الخارج [قضية 2010/8171 ج]. لم أفهم ما يحدث والشك والخوف يقتلاني رعباً.. حتى أني شعرت بمثانتي اللعينة تدق أجراس الإنذار الكاذبة التي تعودت عليها كلما أصابني إحساس الخوف..

- قولي.. إنت بتشتغل في المطعم وفي معمل التحاليل.. صح
- أيوة يا فندم.. الصبح في المطعم وبالليل في المعمل وكل تحركاتي مع "سمير" صاحبي وأنا ساكن حتى معاه.. وهو موجود بره كمان واسأله..
- طيب إنت زعلان ليه بس، هنسأله بس لما نخلص معاك..
- طيب.. تعرف واحده اسمها (السيدة صابر العربي)؟
- لا يا فندم.. أنا عمري ما سمعت الاسم ده في حياتي..
- طيب بلاش الاسم ده.. يوم الأحد الموافق 7/18 يعني من خمس أيام تقريباً.. تفتكره؟

- أكيد لو حصل فيه حاجة مميزة أو غريبة هفتكرها.. إنما لو يوم شغل عادي أعتقد مش هفتكر.. أصل كل الأيام في الشغل شكل بعضها..
- جميل جداً.. طيب قولي إنت بتمسح مكالمات الموبايل؟
- مكالمات الموبايل.. أيوة طبعاً.. أقصد.. مش دايماً يعني.. بس....
- لا بس ولا حاجة.. اديني كده موبايلك.. ولا مش معاك؟
- لا معايا.. إتفضل حضرتك!

الآن بدأت ترتسم أمام عيناي بعض ملامح طلب استدعائي.. لكني كنت أحاول أن أظهر بعض التماسك لكيلا ألفت أي انتباه.. بالتأكيد الموضوع يخص "ولاء".. بالتأكيد.. هذه الأنثى القادمة من الجحيم.. ليتني لم أقابلها.. لقد نجحت باقتدار في تحطيم حياتي سابقاً وها هي الآن تعاود الكرة.. يا لحماقتي.. قديماً قالوا لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين.. أما أنا فقد سرت بقدماي ودخلت الجحر بكامل إرادتي.. بل وسلَّمت نفسي لهذه الحية المسمومة تنفث في قلبي سموم حبها وتشعل ناراً أطفأتها قسوة الأيام.. قطع أفكاري صوت الرائد "حسام" يسأل..

- رقم مين ده يا "حاتم"؟؟

التقطت الهاتف من يده.. ثم تفحصت الرقم.. وها هي شكوكي تحولت لواقع.. كحلم تراه ثم تستيقظ وأنت بداخله بكامل تفاصيله.. الآن وقد سرت قشعريرة الخوف في جسدي.. حاولت السيطرة عليها حتى لا يظهر توتري وخوفي..

- معرفش يا فندم.. دا أكيد رقم زبون أو حد له طلب مثلا.. بس معرفوش..
- متعرفوش.. دا كلمك يوم الأحد مرتين.. وبينهم تقريباً نص ساعة..

- أيوة.. يبقي أكيد رقم زبون وكان طالب حاجة وأنا وصلتها.. وبعدين كلمني تاني يستعجل الطلب مثلاً.. مش فاكر الصراحة.. أصل الرقم لو مهم كنت سجلته..
- ومين قال انه مش مهم.. دا بالعكس.. دا رقم مهم جداً!!
- ليه يافندم هو رقم مين ده؟
- أنا اللي بسألك.. أصل في حاجة حصلت لصاحب الرقم ده.. وبالصدفة عرفنا أنك تعرفه.. لا.. وكمان قابلته.. لا.. والأكتر من كده أنك..... ولا بلاش الوقتي.. خلينا ناخد الأمور واحدة.. واحدة..
- يوم الأربع 2010/7/14 ,, الساعة سبعة مساءاً تقريباً.. كنت فين؟
- أه.. دي أنا فاكرها.. ليه بقي؟
- ليه ياعم "حاتم"؟ قول.. سامعك.
- أصل يوم الخميس كانت فتحتي.. والأربع خدت نص يوم من المعمل.. وصلت فيها 4 جوابات بالعدد واحد لدكتور و3 لشقق.. وبعدين روحت اتعشيت ونمت.. ومعايا شهود على كده حضرتك..
- الله عليك.. جميل، تفتكر بقي العناوين دي فين..
- يافندم كل يوم بوصل نتائج كتير وطلبات كتير سواء في المطعم أو في المعمل.. هفتكر إيه ولا إيه!!
- لا.. استني عليَّ بس.. إنت كده مش جاي دوغري معايا.. إنت قولت 3 عناوين يعني مش كتير، طيب افتكر كده حتى ولو واحد..

ازداد اضطرابي وبدأ فصل الشتاء مبكراً على غير عادته، فبرودة تسري في أوصالي ينتفض لها جسدي بشكل ملحوظ.. مع عرق غزير بدأ ينساب من جبهتي

على عيناي اضطربي لأن أغلقهما وبحركة يد مرتعشة وواضحة.. فقد أدركت أنه لا يريد سوي عنوان واحد وبالتحديد، عنوان "ولاء"..

مد " حسام" يده ليلتقط منديلاً من علبة على مكتبه: إيه ياعم.. مش وقت سرحان وحياة والدك.. عاوزين نخلص.. خد المنديل ده إمسح وشك.. أنا عارف إن الجو حر، بس أنا بتخنق من التكييف صراحة، وبحب المروحة..

– طيب ما حضرتك تقولي العناوين اللي إنت عاوزها وأنا افتكر إن كنت روحت هناك ولا لا!!

كانت محاولة للمراوغة لكي أحاول أن أتماسك أعصابي التي بدأت بالفعل في الانهيار..

– طيب نبدأ منين يا حتوم.. آه.. نبدأ من شقة اللوا.....

كما توقعت.. ما أن نطق كلمة اللواء حتى أعلنت آخر قلاع مقاومتي استسلامها.. لم أعد أستطيع التحكم في أعصابي.. بدت رعشة قوية تسري في جسدي حتى ظهرت عليَّ وكأني أجلس في القطب الشمالي عارياً ..

– إيه بس ياعم "حاتم" مالك.. ما تجمد شوية أومال.. إنت سمعت حاجة وحشه لا سمح الله.. دا أنا مقولتش غير شقة اللوا وبس..

– أيوة يا فندم.. مالها شقة اللوا.. طبعاً فاكرها..

أيقنت بأن المقصود "ولاء".. وأن الاسم الذي ذكره مجرد اسمها المستعار كما أخبرتني من قبل.. لكن ماذا حدث لها أو منها حتى يتم استدعائي؟ هل علم أحد بما تنوي فعله فقرر معاقبتها؟ أسألة كثيرة لم يكن وقتها مطلقاً.. قطع شرودي صوت

"حسام" بعد أن ضغط ذر الاستدعاء للجندي المرابط خلف الباب: هات لمون هنا بسرعه يابني.. ها ياعم "حاتم ".. افتكرت العنوان ولا لسه.. ممكن أنا أفكرك..

- لا افتكرت يا فندم.. كان في الحي السابع – ش جمال الدين الشيال..
- الله ينور عليك.. والله أنا قولت إنت ابن حلال وهنبقى أصحاب..
- دا شرف لي يا فندم والله، بس عاوز أعرف إيه اللي حصل.. هو حد من اللي في الشقة اشتكى مني ولا حاجة؟
- ياريته كان اشتكى...

طرقات على الباب جعلت جسدي ينتفض.. أعقبها دخول العسكري حاملاً صينيه عليها كوب الليمون البارد وكوب من المياه.. ما أن وضعها أمامي حتى انقضضت على كوب الماء دون أذن.. فقد شعرت أن جسدي قد جف من الماء تماماً بعد كل هذا العرق..

- إشرب اللمون واهدي كده واحكيلي إيه اللي حصل يومها وبالتفصيل.. ومتنساش أي حاجة، ماشي..
- حاضر.. أنا روحت العنوان وركنت المكنة تحت البيت.. طلعت وضربت الجرس، الباب اتفتح.. كانت واحدة.. إديتها الجواب.. دخلت.. وشوية ورجعت ادتلي الفلوس، أخدتها ونزلت..
- كل ده أنا عارفه وحافظه.. مش هي دي شغلتك.. أنا عاوز بقي اللي مش في شغلتك.. يعني إيه اللي حصل تاني.. مين فتح لك الباب، تعرفها مثلًا.. شوفتها قبل كده.. كلمتك.. قابلتها تاني.. ولا شوفتها مثلا يوم الأحد اللي

فات الصبح.. آه نسيت أقولك.. الرقم اللي إنت بتقول إنك متعرفوش.. دا رقم (السيدة).. اللي فتحت لك الباب..

ها أنا الآن أقف عاريا في صحراء سيبريا.. لم يعد هناك أي فرصة للمراوغة.. الآن أمامي طريقان.. إما الكذب أو الحقيقة..

- بس مش تفهمني حضرتك بس إيه اللي حصل وأنا أقول لحضرتك اللي إنت عاوزه..
- "السيدة صابر العربي".. تعرفها؟
- والله ما أعرفها..
- إزاي ما تعرفهاش، دي هي اللي فتحت لك الباب..
- والله ما أعرفها وبعدين اللي فتحت الباب واحدة أنا معرفش اسمها..
- متعرفش إسمها وتكلمك مرتين وتروح تقابلها.. قابلتها ولا لا؟

الضربة القاضية.. لكمة مباشرة خاطفة في منتصف الوجه.. اتضحت الرؤيا الآن تماماً فأنا المقصود دون غيري.. لم تعد أمامي سوي آخر فرصة للمراوغة.. أعرف أنها ستفشل لكن لا بأس من المحاولة، مع تظاهر بالتماسك وأخذ رشفات شبه ثابتة من كوب الليمون..

- هاعرفها منين بس حضرتك.. دي يادوب فتحت الباب أخدت الورق اديتلي الفلوس ومشيت.. والرقم اللي حضرتك بتقول عليه معرفش بتاع مين.. بس أكيد لو هو رقمها يبقي كلمتني تسأل عن حاجة بس أنا مش فاكر..

- طيب لو قولت لك إن صاحبة الرقم دي لقيناها مقتولة في الشقة تاني يوم ما قابلتك.. ولا بلاش قابلتك هنمشيها كلمتك لحد مانشوف.. يبقي إزي الحال بقي؟؟
- "ولاء" اتقتلت؟

برد فعل غير متوقع.. خرج الاسم من فمي.. الذي لم يكون وقتها تحت سيطرتي.. في نفس اللحظة التي سقط فيها كوب الليمون على الأرض..

- الله.. بس بس اهدي ياعم.. خدت الشر وراحت.. قولت لي "ولاء" مين بقي؟
- حضرتك بتسأل عن "السيدة".. اللي قابتلها كانت اسمها "ولاء"..
- يعني تعرف إسمها.. أومال ليه قولت معرفش ومش عارف إيه؟
- لا أبداً يا باشا والله بس أنا من خوفي وربكتي مش عارف.. مش مركز..
- طيب نركز.. قولي بقي مين "ولاء"؟

بعد تيقني من الهزيمة وبالقاضية.. بدأت أسرد التفاصيل بالكامل للرائد "حسام".. كل ما كنت أصبو إليه أن أقلل من أخطائي حتى لا أكون عرضة لدخول مجال الشك.. لم أكذب في حرف واحد.. وقررت أن تكون البداية من الحادث القديم ومروراً بالتفاصيل وانتهاءً بما وصلت إليه.. استغرقت وقتاً طويلاً، فقد أطلقت العنان لذاكرتي تنفض كل ما تحتويه من ذكريات وأحداث...

- بجد إنت راجل محترم يا "حاتم".. وأنا قولت لك هنبقى أصحاب..

- متشكر يا فندم.. بس والله ده كل اللي حصل واللي بيني وبين "ولاء" أو "السيدة" أياً كانت.. ولا في كلمة واحدة زيادة ولا ناقصة.. ولا كذبت في حرف واحد..
- مصدقك ياعم حاتم، بس إنت وقفت لحد يوم الأربع بالليل.. أنا عاوزك تكمل بقي الحكاية.. كل اللي أنا سمعته كوم.. الوزير والغفير والمطاوي والأفلام الهندي دي كوم ويوم الأحد كوم تاني..
- أنا هقول لحضرتك.. مع إنها كانت محلفاني بس طالما ماتت يبقي ملوش لازمة إني أخبي..
- جميل.. كده إنت حبيبي يا حتوم..
- يا باشا "ولاء".. قابلتها زي ما قولت لحضرتك يوم الأربع.. وبعدين كلمتني تاني.. يوم الأحد الصبح، قابلتها في سوق العاشر.. وطلبت مني خدمة.. بس متنفذتش علشان سيادتك بتقول إنها اتقتلت..
- خدمة إيه بقي؟ ما تقول يا "حاتم"..
- هي طلبت مني إنها هاتجيب لي ظرف فيه حاجات أعينه عندي.. وحلفتني مجبش سيرة لمخلوق.. وبعد فترة من أسبوعين لشهر حسب ما هي تقول.. هاخد الظرف ده وأسلمه "للوا مجدي" اللي هي بتشتغل عنده..
- طيب فيه إيه بقي الظرف ده؟ وليه هي ما تسلموش للراجل بنفسها؟؟
- ما أنا سألتها نفس السؤال.. يا باشا هي كانت موجودة عند "اللوا مجدي" علشان تنقل أخباره لجوزها.. وبعد ما اتقتل جوزها.. كانت بتنقل الأخبار لواحد هي متعرفوش وأنا كمان والله ما أعرف هو مين.. بس هي قالت لي لو إنها غابت أكتر من الشهر أودي الظرف "للوا مجدي"..

- طيب فين بقي الظرف ده؟
- معرفش والله سعادتك.. أنا استنيتها تتكلم.. متكلمتش تاني..
- طيب إيه بقي اللي خلاك تقتلها.. اديني سبب مقنع؟؟

انتفض جسدي كمن صعقته الكهرباء مستنكراً ما يوجهه لي "حسام" من اتهام بالقتل: أنا.. أنا.. اقتل "ولاء".. مستحيل ياباشا.. والله ما حصل.. أنا كنت بس هاقدم لها خدمة، وكنت مستني تليفونها زي ماقالت لي بس ماتصلتش..

- ما هي متصلتش علشان اتقتلت.. واللي قتلها حضرتك.. مفيش حد تاني للأسف..
- طيب هقتلها ليه بس سعادتك؟ ما أنا حكيت لك كل حاجة والله بكل تفاصيلها.. والله ما خبيت ولا حرف واحد..

مد حسام يده على المكتب وسحب قطعة صغيرة من الورق ثم دفعها نحوي متسائلاً: دا رقمك ودا خطك مش كده؟

لم أكن بحاجة للنظر إلى الورقة، فقد دونت بها رقمي بنفسي يوم أن قابلت "ولاء" أول مرة..

- أيوة يا باشا.. دا خطي ودا رقمي.. انا اللي كتبته..

لم يجبني "حسام" وتركني متخذًا خطوات نحو مقعده الجلدي.. ألقي بجسده على المقعد ثم أشعل سيجارة أخرجها من علبة معدنية على المكتب، قبل أن يكمل: الطب الشرعي ياعم "حاتم" قال إن واحد ضرب الجرس.. فتحت المجني عليها.. وكانت شادة السلسلة بتاعت الباب.. زق الباب وفسخ السلسلة.. وكتم صوتها بسرعة.. طبعاً اختيار الوقت كان مثالي لأن الوقت ده من النهار كل الناس في شغلها.. محدش

حس بيه.. كتم صوتها وجرجرها لحد أوضة النوم، بدأت تقاوم، كتفها من ورا ورماها على الأرض وقلب الشقة تقريباً كان بيدور على حاجة.. بعدين قتلها.. ولم خلص جريمته خرج من الشقة ونزل وركب الموتوسيكل البطة الدهبي اللي كان راكنه تحت العمارة ومشي.. بعدها بتلات ساعات رجعت صاحبة الشقة، لقت المجني عليها مقتولة..

ولما سألنا واتحرينا ولقينا رقمك والورقة دي وعرفنا موضوع المكنة اللي وقفت تحت العمارة الصبح لمدة نص ساعة تقريباً... وانت من شوية لسه قايل إن محدش يعرف عن موضوع الظرف ده حاجة غيرك إنت.. هاااا يا سيدي.. عرفت بقي مين اللي قتل "ولاء"؟

كل كلمة نطق بها "حسام" كانت تسجل بسن معدني دقيق جداً على أسطوانة ذاكرتي.. لم أستطع أن أفتح فمي بأي كلمة.. لأني أحسست بالأرض تسحب من تحت قدماي لم أعلم ماذا حدث بعدها..

****

حدث ما كنت أنتظره.. بعد جهد كادت أن تنجح الحمم البركانية الثائرة في اختراق القشرة الخارجية للمخ.. لولا التدخل السريع من الرائد "حسام" باستدعاء الطبيب الذي جاهد في إعادة وظائف أعضائي الحيوية إلى مسارها الطبيعي بعد أن أعلنت جميعها العصيان والتوقف عن العمل.. هبوط حاد في الدورة الدموية وانخفاض في الضغط مع اشتباه في حدوث صدمة عصبية.. هكذا قرر الطبيب الذي لم أره.. أصفاد في يميني ترفعها لتلتصق بجانب السرير الحديدي.. زجاجة من الجلوكوز معلقة

على حامل من الحديد الأبيض تتدلي منها أفعي بيضاء رفيعة تتباهي بمهارتها في التخفي مع الضوء.. تنتهي بسن معدني يثقب ذراعي الأيسر..

بعد عناء وجهد استطعت أن أقنع جفوني بأن تسمح لي أن استرق النظر إلى ما يدور حولي.. غرفة صغيرة.. لا يوجد بها غير السرير الذي يحملني وبجانبي منضدة صغيرة تحمل بعض الأوراق وزجاجة فارغة.. شيء أبيض يتجلى في مواجهة السرير.. تبينته بعد جهد.. إنه عسكري يجلس على كرسي خشبي.. يستند بظهره إلى الجدار بجوار باب الغرفة يغط في نوم عميق.. نافذة صغيرة مغلقة يظهر خلف زجاجها قضبان حديدية.. صرير متراخي يصدر بانتظام عن هذه القطع المعدنية المعلقة في السقف والتي يطلق عليها مجازًا مروحة.. لا أعلم كيف وصلت إلى هنا.. آخر ما أدركته ذاكرتي وتم تدوينه في سجلاتها كانت كلمات الرائد "حسام" يتهمني بقتل "ولاء"..

يعاود البركان اللعين ثورته.. أحس بنبضات عروقي تصدع في قمة رأسي.. أكاد أسمع نبضات قلبي بكل وضوح.. عيناي تشتعلان ناراً من التعب... وأخيراً أيقنت أنه لا داعي من المقاومة.. استسلمت..

****

في شقة أم رامي...

يجتمع "سمير" والحاج "إبراهيم" مع "أم رامي" أمامهم صينية الشاي، يمسك "سمير" بسيجارة تكاد تحرق أصابعه.. يسحب منها أنفاسًا متقطعة، يكسوا وجهه التوتر ويعلوا صوته الوجوم..

- يعني يا خواتي الجدع كده هيروح مننا في شربة ميه؟
- ياحاجة متقوليش كده.. "حاتم " جدع ابن حلال وطيب وربنا هاينجيه..
- أنا مش عارف هم قبضوا عليه بناء على إيه!! الراجل كان في شغله، وكل الناس شهدت بكده.. الجدع الظابط ده باين عليه رخم وعاوز يخلص من القضية ويلبسها لأي حد..
- يا "سمير" يا ابني الظابط معذور.. البت اللي لقوها مقتولة في شقة "لوا".. يعني مش سهلة والناس دي لازم توجب مع بعضها..
- يعني توجِّب على حساب الغلابة يا حاج.. يا عيني عليك يا "حاتم ".. الواد مالحقش يتهني بعروسته.. يارب إنت العالم بالحال فرج همه يارب..
- صحيح والله "يا أم رامي" البت "إيمان" يا عين أمها من ساعة ما عرفت وهي ما بتتكلمش.. نازل عليها سهم الله..
- يعيني عليكي يا "إيمان" يا بنتي.. زمنها الوقتي بتقول إيه.. ربنا يصبرها..
- يا جماعة وحدوا الله.. أنا كده هعيط منكو وربنا.. انتو عاملين ليه كده زي مايكون خلاص هياخد إعدام...
- فال الله ولا فالك يا "سمير" ماتقولش كده.. إعدام إيه كفا الله الشر...
- المهم الوقتي، أنا روحت لمحامي كبير أعرفه كويس وكلمته وقالي هايتصرف وموقف "حاتم" كويس خصوصاً بعد اللي قولناه وشهادة الشهود..
- كتر خيرك يا "سمير" يابني، أنا مش عارفة كنا هنعمل إيه من غيرك، والله الواحد من ساعة اللي حصل ما عارف يتلم على روحه..

- والله عندك حق" يا أم رامي"، الواحد حاسس إنه في كابوس، ومش عارف هنلاقيها منين ولا منين؟ حاتم وقضيته ولا المسكينة اللي راقدة في البيت لا بتنطق ولا بتاكل.. والله خايف عليها يا جماعة..
- ألف بعد الشر عنها أنا هاجي معاك نشوفها، يلا "ياسمير"..

****

أعود مجددًا لممارسة هوايتي في السقوط إلى الهاوية.. شكراً عالمي الجديد.. عامان فقط كافيان كاستراحة قصيرة نعود بعدها لمتابعة مسلسل "حاتم في مقبرة الأحياء" الذي ينقل لكم مباشرة من قسم شرطة أول مدينة نصر وبالتحديد من غرفة الرائد "حسام"..

يجلس "حسام" متكئاً على مكتبه ينفث دخان سيجارته التي تقريبًا لا تفارق يده ويتابع شرب فنجان القهوة.. وأمامه تقف مومياء ترتدي بدلة بيضاء اللون، تبدو شاحبة كأنها قد خرجت لتوها من تابوت احتضنها لسنوات طويلة..

- حمد لله على سلامتك يا بطل.. شد حيلك أومال.. أنا قولت عليك أجدع من كده.. يعني تسخسخ ويغمي عليك من غير لا إحم ولا دستور.. تصدق أنا اتخضيت عليك يا راجل..
- ألف شكر يا باشا.. كتر خيرك...
- لا شكر إيه بس، المهم دلوقتي تكون أحسن، الدكتور طمني عليك..
- الحمد لله بقيت أحسن...

- إيه ياعم الهيصة دي، دا إنت حبايبك كتير، أقولك إنت تخلص من هنا وتترشح في مجلس الشعب، صدقني هتكسب بالثلث. يا راجل دي الناس كان ناقص تعمل مظاهره في القسم.
- يا باشا أنا طول عمري في حالي وعمري ما أذيت حد ولا زعلت ولا غلطت في حد..
- والله دي حاجة تحير برضه يا عم "حاتم".. راجل زيك محترم وفي حاله إيه اللي يخليه يقتل واحده وبسهوله كده يعني؟
- يا باشا والله ما قتلتها والله ما شوفتها غير يوم الأربع بالليل والأحد الصبح وبس..

لم أتمالك نفسي وانسابت دموعي رغماً عني مع رعشة انتابتني ارتجف لها جسدي كله...

- لا... إجمد أومال بلاش كده.. هي الرجالة بتعيَّط! إجمد خليك جدع وافتكر بس...
- والله يا باشا ما أعرف عنها حاجة.. طيب حتى اسأل...
- أنا سألت.. بس بص خليك مكاني أنا هاحكيلك تاني.. واحد عنده مكنة توصيل لونها ذهبي.. ولابس كاب ونظارة شمس عريضة..

قاطعته في حدة: أهو شوفت سيادتك بقي إنت اللي قولت.. لابس كاب ونظارة شمس وأنا مش بالبس نظارات الشمس علشان بتتعب عيني، ومش بلبس كاب.. بالبس خوذه لونها ذهبي برضه..

- ياعم يعني هي المشكلة في النظارة والكاب.. طيب بس خليني أكمل.. قولى.. إنت بتركب نفس المكنه الذهبي طول اليوم؟
- لا ياباشا.. المكنه الذهبي بتاعت المعمل بس والمكنة بتاعت المطعم لونها أسود في أحمر.. وعليها صندوق كبير عليه اسم المطعم..
- حلو خالص.. طيب المكنه الذهبي دي حد بيركبها غيرك؟
- لا طبعاً.. أنا بس اللي بركبها ومفيش حد معاه مفتاح غير نسخة الإدارة وبتاعتي وبس..
- جميل خالص طيب خليك مكاني وفسر لي.. واحد لابس نظارة شمس وكاب.. راكب مكنة ذهبي.. ركنها وطلع الشقة.. رن الجرس اتفتح الباب وكان متعلق بالسلسة زق السلسلة و.....

للمرة الثانية أقاطعة بحدة: يا باشا أنت قولت لي الكلام ده قبل كده وأنا حلفت لك إني معرفش حاجة ومروحتش هناك والله ما روحت هناك..

لم تكن دموعي وتوسلاتي "لحسام" كافية، فلم يعرها أي اهتمام بل ازداد حدة وارتفع صوته.. اقترب من أذني بشده وصرخ..

- إنت هتستهبل يلا.. إنت باين عليك مش سهل ومستغفل كل الناس دي.. يعني مش إنت اللي روحت ومش إنت اللي قتلت واسمك وتليفونك في وسط الحاجة بتاعتها وإنت آخر واحد شوفتها.. قتلتها ليه؟؟ ممكن ترد بحاجة أقتنع بيها.. ولا تكونشيبي..... أمممم.. تكونشي فاكر إنك كده لما تكذب ولا تحوَّر هناكل من الكلام ده.. أقولك بقي على الكبيرة اللي إنت سخسخت قبل ما تسمعها..

- هو لسه في أتقل من كده سعادتك؟؟
- في جواب وصل لنا من فاعل خير بيقول إن حضرتك لما عرفت مكان "السيدة" وشغلها عند "اللوا مجدي".. حبيت تبتزها وبعت لها جواب تهديد صريح وطلبت منها فلوس.. وهي نزلت مخصوص يوم الحد علشان توصل لك الفلوس..و الظرف اللي حضرتك بتحكي عنه ده ملوش أي أثر ولا وجود غير في خيالك إنت وبس..
- يا باشا أنا افتكرت حاجة..
- خير.. قول يا سيدي..
- هي قالت لي لما أروح "للوا مجدي" أقوله إني قريبها من المنوفية وإنها كانت شايله معايا الظرف ده أديلهولك.. يا باشا الظرف ده أكيد عند أهلها في المنوفية.. معني الكلام كده..
- طيب وأهلها دول إنت تعرفهم ولا تعرف حتى حد منهم؟ لو كلامك صح يبقي دا الحل الوحيد اللي ممكن يخلصك من القصة دي.. إنما لو مفيش منوفية ولا ظرف.. يبقي فيه كلابوش ومش بعيد يكون الظرف موجود مع عشماوي.. وحضرتك هتوصل مشوار لهناك علشان تجيبه..

لكمة أخري لم يتحملها جهازٌ عصبي منهك انتهت صلاحيته تمامًا بعد سماع هذه الكلمات.. فلم أنطق بأي كلمة.. فقط اكتفيت بالتحديق ناحية الباب.. لم تتحرك حتى مقلتاي ولا بأي ردة فعل.. استحققت الآن لقب مومياء مقابر الأحياء وعن جدارة.. جسد متصلب، صمت.. وبدون انتظار ردة فعل..

- هاتتحول على النيابة.. هتكمل معاك التحقيقات.. شوفت بقي الناس الطيبة بتلف تلف وتيجي لحبايبها.. أديك لفيت يجي 12 سنة والآخر !!!..... أه

نسيت أقولك.. موضوع الوزير ده عرفناه من "السيدة" برضه.. أصل كانت كاتبه شوية كلام في ورق كده.. مفاده إنها لما طلعت من الحارة وانت اللي ساعدتها.. وبعدين حصلت المشكلة على الفلوس زي ما قولت لك وإنت طلبت فلوس وهي أديتك مرة لكن شكلك طماع وحبيت تدبح الفرخة بدل ما تستني كل يوم بيضه..

بالطبع أيقنت أن هناك شخص ثالث هو من دبَّر وقام بكل هذا.. أو أن كل هذا من خيال "حسام" حتى يجعلني أفقد توازني وينزلق لساني باعتراف ما كان لي أن أتوقعه.. لكن يستحيل على الآن التركيز ولا النقاش مع "حسام".. اكتفيت بالصمت ونظرات الذهول.. وتم تحويلي للنيابة ومنها أخذت أربعة أيام حبس على ذمة القضية على أن يتم التجديد في الموعد.. وتم التجديد أربعة.. ثم أربعة.. بدأ الجميع يتخلي عني غير ثلاثة.. "إيمان" الصامتة الباكية التي لم تتأخر عن زياتي لحظة و"أم رامي" التي لم تكف عن البكاء مع كل زيارة.. وصديقي المخلص "سمير" الذي لم يدخر أي جهد في محاولة إثبات براءتي وتكليفه للمحامي بالدفاع عني.. كان كل هذا مع أدلة وعدم وجود مشتبه به آخر.. كان من المستحيل تصديقه..

****

جلسة المحاكمة..

اخترق صوت الحاجب آذان الجميع بندائه الأشهر.. محكمة..

لم تمض ثواني حتى دخل إلى القاعة ثلاثة رجال من باب صغير على يسار المنصة.. وعلى أقصي يمينهم وقف شاب في العقد الثالث من عمره متشحًا بعلم مصر.. بالطبع أعرفه فهو من سيعلن الحرب محاولاً إنزال أقسي عقوبة على المتهم..

بدأت الجلسة ودخل الشهود واحداً تلو الآخر كلٌ منهم يحاول جاهداً إبعاد حبل المشنقة عن عنقي.. الجميع تمتلكهم حالة هستيرية من الحزن والشفقة على حالي لكن هيهات.. فلم تنجح مرافعة المحامي الفذ أن تثني هيئة المحكمة عن قرارها.. فقد تقدمت النيابة بمرافعة تاريخية.. كانت كلمات وكيل النيابة تنطلق كأسهم مسمومة نحو صدري العاري.. وكأن بيني وبينه ثأر قديم وحان الوقت لكي يقتص مني..

حضرات السادة المستشارين.. إن هذا المتهم الماثل أمامكم في قفص الاتهام.. تخطي الثعالب في دهائها.. تخطي الحرباء في تلونها.. أتي بأبشع الجرائم وأقبحها.. قتل نفساً زكية بغير نفس قاصدًا عامدًا.. لم يكترث لحرمة الدماء ولا لقدسيتها.. هذا المتهم ذو الهيئة الرثة.. التي يستجدي بها عطف من حوله.. نجح أن يستميل ويقنع كل هؤلاء الشهود أنه لم يرتكب هذه الجريمة.. فالجميع يقر بهذا.. فهو بالفعل لم ينقطع عن عمله.. إنما غادره فقط لساعة واحدة.. كانت كفيلة بأن ينهي مهمته ويعود أدراجه إلى عمله ومنزله حيث لقيه رفقاؤه الذين شهدوا بذلك، وشهد باقي الشهود.. وكذلك "سمير" زميله في السكن بأنه لم يغيب عن أعينهم للحظة.. فهذا الثعلب الماكر حدد هدفه ووجهته.. قرر ودبر أمرًا بليلٍ ونفذه على أعلى مستوي من الحرفية والسرعة.. لكنه نسي أن (ما يقع إلا الشاطر) فقد نزل من بيته يوم الحادث مع "سمير" حتى لا يشك فيه.. وتوجه إلى المجني عليها مباشرة لعلمه المسبق بمكان تواجدها والذي لا يعلمه غيره كما ورد بالتحقيقات، فالمجني عليها كانت تعمل خادمة

عند أحد رجال الشرطة، وبالتالي فقد ظن أنها تملك من المال الكثير، فابتزها بأمر بينهما وحصل على نقود مرة بعد مرة فحظها العثر أوقعها مع هذا الذئب الغادر..

قابلته يوم الأربعاء مساءاً وأعطاها بنفسه رقم هاتفه واعترف بهذا.. وعاد لقراءة فاتحته.. وقد أضمر شراً وسوءاً.. خشي أن توقف نزيف الأموال بينهما فتكون عائقًا بينه وبين زواجه، لذا قرر أن يقتلع الشجرة التي تسقط عليه ثمرًا من الأموال كما ورد بالتحقيقات.. فقرر أن يعود أدراجه إليها..

صباح الأحد قابلها بعد اتصال أنكره أولًا لكن أثبته هاتفه المحمول.. ثم في اليوم التالي ذهب إليها مستخدماً دراجته البخارية الذهبية اللون والتي أقر في التحقيقات أنه لا أحد يملك مفتاحها سواه وإدارة المعمل التي أكدت أن المفتاح لم يغادر المعمل مطلقًا.. فلم يبقي سوي مفتاح وحيد مع المتهم والدراجة البخارية قابعة في جراج العمارة لم يلاحظ اختفاؤها لقصر الفترة الزمنية.. فهذه الفترة الصباحية التي هي من نصيب المطعم لا تخرج فيها الماكينة الخاصة بالمعمل.. في التاسعة والنصف وبعد نزول من كانوا في الشقة وخلوها على المجني عليها.. طرق الباب وفتحت له.. لم تتبينه لأنه كان قد أخفي ملامحه بكاب ونظارة شمسية كبيرة.. شهد بهذا كما سمعتم عدالتكم عامل السوبر ماركت المقابل لمدخل العمارة..

دفع الباب وأمسك بها محاولاً أن يمنع صوتها من الخروج لكيلا يفتضح أمره.. وبكل دم بارد اقتادها إلى غرفة النوم وسط محاولاتها البائسة للتخلص منه.. لكن القدر كان له رأي آخر، فوجود ما يثبت أن هناك ثمة علاقة غير سوية بين الجاني والمجني عليها واضحة في بعض الأوراق التي وجدت في متعلقات المجني عليها تقص بعض الحقائق عن علاقة الجاني بقضية قديمة.. لكن لا يتسع المجال لها الأن.. فجريمته

هذه كافية لأن توقع عليه عدالة المحكمة أقسي عقوبة ممكنة.. وهي العقوبة التي من شأنها أن تكون رادعة له ولأمثاله الذين يستخفون بحرمة الدم والمال، ولا يأبهون لأفعالهم التي أنكرها الله عز وجل في محكم تنزيله.. بسم الله الرحمن الرحيم "أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا".. صدق الله العظيم..

أعود وأكرر لا تأخذكم بهذا القاتل شفقة ولا رحمة فمثل هؤلاء من معتادي الإجرام ذوي الشخصيات الممزوجة بالخبث والمكر والدهاء يجب أن نستأصل شوكتهم من ظهر المجتمع.. فهذا القاتل ذو الدم البارد يقتل نفسًا بريئة.. ثم يعود ويكمل عمله إلى نهاية اليوم وكأن شيئًا لم يكن..

سيادة القاضي.. حضرات المستشارين.. بعدما ما ثبت للمحكمة من ظروف الدعوى وتوافر أركان جريمة القتل العمد – وأن المتهم لم يكن في حالة دفاع شرعي أو استعمال حق، بل توافرت في القضية كل أركان القتل العمد مع سبق الإصرار وهي الأركان الواردة في المواد من 230 إلى 234 و251 مكرر من قانون العقوبات رقم 58 لسنة 1937.. وتطبيق عقوبة الإعدام شنقاً حتى يرتدع كل من تسول له نفسه العبث بمقدرات العباد وأرواحهم.. وشكراً سيدي الرئيس..

بعدما سمح له القاضي.. انبرى رجل كبير السن يظهر عليه علامات الوقار، أخذ ينفي ويستشهد ويسأل ويحاور، بل وصل الأمر في بعض اللحظات إلى الاشتباك المباشر مع ممثل النيابة، فقد كانت معركة حامية بينهما يتصارعان كزوج من الديوك الحمراء الفرنسية في حلبات مصارعة الديوك.. لم يدم الأمر طويلاً.. فبالرغم من فصاحة المحامي وتمكنه إلا أنه لم يستطع الدفع ببطلان ما قدمته النيابة.. بل أن كل ما

استند عليه من أدلة وحجج قد فندتها النيابة بإتقان وكأن ممثل الادعاء قد أصدر الحكم من تلقاء نفسه دون الرجوع إلى هيئة المحكمة...

ورفعت الجلسة للمداولة.. لحظات وينطق بالحكم.. صمت مهيب يخيم على جميع الموجودين بالقاعة.. إلا من صوت نحيب مكتوم يشق الصمت نحو أعماق قلبي مباشرة.. كانت "إيمان" وأمها مع "أم رامي" يجلسن بجوار القفص مباشرة.. بجانبهم "سمير" والحاج "إبراهيم".. الكل ينتظر الضربة القاضية.. أو الطعنة الأخيرة التي تنهي على هذا الكائن الجريح الذي يصارع الموت ولا يكاد يصل إليه.. الجميع في انتظار سماع دوي رصاصة الرحمة.. يطلقها القاضي على هذا الشبح المستكين خلف القضبان.. والذي لم يفتح فمه بحرف واحد طيلة الجلسة مكتفيًا بصمتٍ رهيب، ودموع تشق طريقها من عيناه إلى هذا المجرى الصغير الذي ظهر واضحًا في وجنته كقناة ماء امتدت لتروي قطعة أرض في الصحراء..

دقائق مرت قبل أن ينبري الحاجب مرة أخري ويطلق صيحته المعهودة: محكمة....

- بعد الاطلاع على الأوراق وسماع المرافعات والشهود، في القضية رقم 8171 لسنة 2010جنايات مدينة نصر، وبعدما اطمأنت هيئة الحكم إلى توافر كافة الأدلة والقرائن التي من شأنها أن تدمغ الاتهام وتثبته على الجاني.. ومن توافر النية والعمد المسبق للجريمة..

لذلك.. حكمت المحكمة حضورياً على المتهم.. حاتم فهمي إبراهيم السعيد الشهير بحاتم الطيار، بالسجن المؤبد مع الشغل والنفاذ.. رفعت الجلسة..

ونطق بالحكم.. المؤبد.. الآن عرفت مصير دورة حياتي الثانية.. ستلحق بمصير الأولي.. ثلاثة وثلاثون عاماً قضيتهم في سجن مقبرة الأحياء وها هي باقي أيامي سأقضيها في غياهب السجون... شكراً لك أيها القدر..

ومع النطق بالحكم انهارت "إيمان" تمامًا وسقطت مغشيًا عليها.. لم يلتفت إليَّ أحد من الموجودين بقاعة المحكمة ولم يعبأ أحد بصراخي ولا باستغاثتي ولا توسلاتي..

لم تشفع دموعي الصادقة عند القاضي ولا شهادات الشهود.. خمسة عشرون عامًا سأقضيهم في سجن المظاليم.. لا أعلم هل سأخرج للحياة مرة أخري أم سينتهي مسلسل الخوف والدموع خلف هذه القضبان..

****

الفصل السابع

وصلت بنا سيارة الترحيلات الزرقاء عند أبواب السجن.. ظلام الليل أحكم سيطرته على المشهد تماما.. دخلنا بعد فتح الباب الحديدي الضخم الذي أحدثت حركة مزاليجه إزعاجًا موحشًا يخترق السكون الأكثر وحشة في المكان...

ببدلة زرقاء مدوَّن عليها (نزيل).. رأس حليق.. جسم متهالك.. الستائر الزرقاء تحت عيناي تحولت إلى اللون الأسود.. لا مُسَّكن ولا قهوة.. فقط جدران وصمت وحياة اعتدت عليها سنوات طويلة.. كنت أوشكت أن أطوي صفحتها.. لكن هيهات.. عادت حياتي ليس لنقطة الصفر.. بل أنا الآن تحت الصفر بخمس وثلاثين عاماً.. أنتظر أن أضيف إليهم ربع قرن من الزمان..

عالمي الجديد.. أشخاص جدد.. حياة جديدة.. لا رائحة طعام نفاذة.. ولا حصان ذهبي.. ولا أميرة حسناء.. فقط لونان تلون بهما عالمي.. الأزرق والأسود.. فالأبيض لم أكن أميزه في كثير من الأحيان..

بالطبع تم استقبالي بتشريفة المساجين الجدد.. تقليد قديم لم يتغير منذ قديم الأزل.. كأنه طقس فرعوني متوارث عبر الأجيال.. حفلة التشريفة على شرف الضيوف.. ضيوف ليمان 440.. المعروف بـ (اللومان) أو (لومان طره) وبدأت الأيام تمضي متثاقلة مريرة..

في ركن من أركان حوش السجن.. رجل في العقد الخامس من عمره.. يجلس منفرداً بعيداً عن المجموعات المتناثرة في كل مكان.. لا يختلط بأحد.. لفت انتباهي من أول لحظة.. لم أستطع أن أتقرب منه.. خوفاً أو رهبة.. لا يهم.. المهم أنني ظللت أرقبه من بعيد.. حتى أنني لم أنتبه لهذا الصوت إلا بعد أن كاد يخترق أذني لشدة قربه...

– متشغلش بالك بيه يا زميل.. مش هيرد عليك ولا هيعبرك..

انتفضت من المفاجأة.. نظرت إلى مصدر الصوت الذي لم يكن سوي أحد المساجين لاحظ اهتمامي ومراقبتي لذلك المجهول الصامت..

- هو مين ده اللي مش هيرد عليَّ؟
- مش مهم هو مين.. المهم انه مبيردش ولا بيكلم حد.. داخل هنا قبلك بمدة بسيطة، شهور يعني ومن يوم ما شرف وهو ساكت ومتنح.... واسم الكريم إيه؟
- أنا "حاتم".. وانت؟
- محسوبك.. "سالم الصياد".. نقيب السفاحين!
- نقيب السفاحين ازاي يعني؟
- سفاحين.. مش عارف السفاحين! مش انت جاي هنا في جريمة قتل ولا أنا غلطان؟
- أيوة.. بس مظلوم والله يا أخ "سالم"
- سوا مظلوم ولا ظالم.. النتيجة إنك هنا.. يبقي تشوف إنت تبع نقابة إيه وتسلم نفسك على طول.. علشان تبقي في الحماية.. ولا عاوز الأوباش يقطعوك.. هنا غير بره.. هنا في نظام وقوانين.. غير بره خالص..

شرد ذهني.. لم أنتبه لكثير مما قاله نقيب السفاحين الذي شرفت بنيل عضوية نقابته منذ قليل.. لكني تعلقت بهذا الصامت.. لا أدري.. أحسست بشيء غريب يجذبني نحوه.. أشعر أنه مظلوم مثلي.. ثرثرة مستمرة كطنين النحل الذي لا ينقطع.. "سالم" يقرأ عليَّ نص قوانين النقابة والتعليمات والإرشادات التي يجب علي أن أتبعها بدقة حتى لا أقع تحت طائلة القانون على حد تعبيره..

مرت الأيام وفي كل يوم أخرج وأقف على مسافة من هذا الصامت دون أي كلمة.. كانت الزيارة هي المتنفس الوحيد بالنسبة لي.. فلم ينقطع "سمير" ولا "أم رامي" عن زيارتي.. استطاع "سمير" أن يوفر لي هذا المسكّن العبقري الذي أحضره لي

في إحدى الزيارات مع وجبة الطعام التي لم تغفلها "أم رامي" أبداً.. كيس بلاستيكي صغير يحوي ثلاثون قرصاً مؤنة كافية حتى موعد الزيارة القادمة.. مر شهر كامل على وجودي في السجن.. لم يتغير شيء فقط عزلة ومراقبة للصامت المنزوي.. وأقراص المسكن التي أصبحت لا أستطيع أن أنام ليليتي من دونها.. حتى جاء يوم تغير فيه كل شيء.. أتذكره بكل دقة.. بكامل تفاصيله..

كنت في نفس موقعي.. أجلس القرفصاء.. أراقب السجين الصامت، الذي استطعت بعد محاولات استخباراتية أن أصل إلى هويته.. لكني لم أتمكن بعد من اختراق أسوار صمته المشيدة بعناية والتي تفوق في ارتفاعها ارتفاع أسوار السجن التي تمتد إلى سبعة أمتار تحجب الكثير من ضوء الشمس طيلة النهار..

رجل حليق اللحية والرأس.. يملك شارباً عظيماً يحتل مساحة كبيرة من وجهه.. يقترب في خطوات ثابتة.. وقف أمامي مباشرة ثم انخفض برأسه مقابل رأسي مباشرة.. تقابلت عيناه مع عيناي لم يفصل بينهما مساحة تذكر، فأنفاسه المشبعة برائحة الدخان كانت أقرب إلى من الهواء في الجو.. استمر يحدق في وجهي.. اتسعت حدقتاه ثم ارتخت مرات عديده محاولاً استدعاء شيء ما من ذاكرته.. ثم تكلم..

– إنت الواد كراتيه.. مش كده؟

وقع سؤاله كحجر صوان ألقي في قاع بئر عميق فأحدث دويًا وأثرًا بالغًا... لم أجب واكتفيت بالتحديق في هذا الوجه لربما أتعرف عليه.. فكونه يناديني بهذا الاسم معناه أنه يعرفني جيداً.. لكني لم أتذكر أني رأيته قبل اليوم..

– إنت كراتيه.. مش كده.. ما ترد يا أخينا.؟؟

– أيوة.. أيوة أنا.. أنا "حاتم".. إنت مين؟

مع تعثري وتساقط الحروف من فمي، وخروجها كطفل لازال يتعلم الكلام.. جعلت هذا الغريب يطلق ضحكة مكتومة ظهرت على أثرها مجموعة من الأسنان المتهالكة بفعل الدخان والمخدرات بالتأكيد..

ارتفع بوجهه بعيداً عني، فسمح لبعض الهواء النقي أن يتسلل مسرعاً إلى رئتاي بعد أن تشبعت من أنفاسه المشبعة بالدخان.. ثم مد يده ليجذبني لأستوي قائماً أمامه مباشرة..

- طبعا إنت مش عارف أنا مين.. بس أنا أعرفك كويس!! من يوم ما جيت وانا بافتكر شوفتك فين.. محبتش أكلمك غير لما افتكرك وأتأكد كويس..

لم ينتظر مني إجابة.. فقط.. أفلتت يده كتفي ثم بحركة بطيئة اتجهت يده اليسرى نحو شقي الأيمن.. ورفع القميص الأزرق ليضع يده على مكان جرحي القديم.. ويطلق ضحكة مكتومة أخرى..

- عرفت أنا مين... أنا ده!!

ضغط بيده على مكان الجرح القديم.. ثم اتسع وجهه بابتسامة واثقة

- أنا مش فاكر إنت مين.. ولا عمري قابلتك..

- إنت معذور.. يومها مكنتش شايف قدامك.. والرجالة كانت كتير والخبطة جت لك وانت هايص وبتزعق ومدرتش مين اللي علم عليك.. أنا بقي صاحب الختم ده.. "شيحة".. الدراع اليمين للوزيييييير.. فاكره ولا نسيته ده كمان؟

****

في منزل أم رامي..

لم يكن الحال عند "سمير" و"أم رامي" بأفضل من الحال في السجن.. فالأمر لم يختلف كثيراً.. فقد تسببت أيامي القليلة معهم أن أحجز مقعداً في الصفوف الأولي لقلوبهم وخاصة "أم رامي"، التي لم تترك أي سبيل إلا سلكته محاولة أن تجد لي مخرجاً من هذا الكابوس المرعب..

أما "إيمان".. فلم تكن بأفضل حالٍ منهم.. فقد دخلت في صدمة نفسية جعلتها تعاود أدراجها لنفس الوضع الصعب الذي مرَّت به يوم فقدت عريسها الأول.. لم تُفلح كل محاولات المواساة من أهلها ومن "أم رامي" و"سمير" في أن تحتوي هذا الإعصار الهمجي الثائر الذي أطاح بكل أحلامها وآمالها.. لم تتحمل الصدمة هذه المرة، فقد كانت تعلق آمالاً عريضة على "حاتم".. رغم تأكدها بأن القدر لم يحمل لها يوماً ما يسُر قلبها.. إلا أن محاولتها للتماسك والعودة للحياة بصحبة "حاتم"، جعل من الصدمة أمراً مضاعفاً وها هي الآن تجلس صامتة لا تحدث أحداً إلا من بعض الإشارات والإيماءات التي تتخذها كوسيلة للرد على من يخاطبها.. لم تنقطع "أم رامي" عن زيارتها يوماً وكذلك "سمير" الذي قرر أن يقوم بشيء مختلف..

- "أم رامي".. كنت عاوزك في موضوع..
- خير!!
- خير إن شاء الله.. بصي يا ستي.. إمبارح جاتلى فكره مش عارف هتنفع ولا لا؟ بس وعهد الله لو نفعت تبقي في الجون وهتخلي "إيمان" و"حاتم" ميه الميه..
- "إيمان" و"حاتم ".. قول يا "سمير" بسرعه وقفت قلبي..
- هقول.. هقول.. اصبري بس.. لما نعمل كوبايتين شاي الأول...

- تصدق انت رخم!! ما تنطق متوقفش قلبي..
- طيب.. طيب متزوقيش.. هاقولك.. صلي على النبي..
- عليه أفضل الصلاة والسلام
- بصي ياستي.. إحنا ناخد "إيمان" معانا وإحنا رايحين الزيارة الجايه..
- جبت إنت التايهه يا ناصح.. ما انت عارف أبوها قال خلاص مش هتيجى بعد آخر مرة جت معانا ورجعت تعبانة..
- استني بس.. اشتري مني للآخر.. هتيجي هي وأبوها وأمها..
- كمان! وبعدين ياعم الناصح!
- وبعدين دي بتاعتي بقي أنا هتصرف.. بس شطارتك إنك تخليهم يكونوا بربطة المعلم معانا بأي حجة..
- وربنا إنت دماغك ضربت.. الهباب اللي إنت بتبلبعه ده حرق لك نفوخك.. إنت اتهبلت مش كده!
- أيوة اتهبلت.. عاوزك تروحي تكلميهم.. وهم مش هيتأخروا عنك وأنا عارف..
- طيب هقولهم ليه بقي يا فالح؟
- يعني إنتي هتغلبي ياحاجة.. انتي ست الأفكار النيرة والحيل الماكرة..

ضربت "أم رامي" بكفها على ذراع "سمير"...

- يوه جتك إيه.. حيل ماكرة.. أنا برضه بتاعة حيل ماكرة.. ماشي.. والله أحاول بس لو تطمني بس وتقولي دماغك دي فيها إيه..
- فيها صراصير.. هيكون فيها إيه يعني..
- اف الله يقرفك يا بعيد.. إنت مش هتبطل..

تتخذ "أم رامي" طريقها نحو معركتها غير مضمونة النتائج.. قررت أن تسلك كل السبل والطرق للفوز بموافقة الجميلة الصامتة وأهلها لمرافقتها هي و"سمير" في الزيارة القادمة والتي كان موعدها في الغد.. كان اختيار التوقيت وتحديد ساعة الصفر من أهم العلامات الفارقة.. هذا ما أكد عليه مدير عام المخابرات الحربية.. لواء أركان حرب "سمير" أفندي.. حيث قرر أن يكون الهجوم قبلها بيوم واحد ويفضل أن يكون بساعات معدودات، حتى لا تعطي فرصة للخصم أن يفكر أو يتخذ من الأوضاع الدفاعية ما تمكنه من الرد أو الرفض.. وبالفعل، في تمام الساعة السادسة مساءاً نجحت قواتنا المسلحة في اقتحام خطوط العدو وإحداث بلبلة واضحة في تفكيره مما اضطره إلى إعلان حالة الاستسلام والموافقة على الذهاب في موعد الزيارة..

****

في موعد الزيارة.....

أتقدم نحو غرفة الزيارة بحركة بائسة، بالرغم ما كانت تمثله الزيارة لي من يوم رائع أنعم فيه ببعض الكلمات التي ترفع من روحي وتشد من أزرى.. إلا أن الوضع اختلف تماماً بعدما التقيت (شيحة)..

لاحظ الجميع تغيري ولكن أحدهم لم يفصح عن شعوره لكيلا يفسد دقائق الزيارة.. استقبال رائع من "أم رامي" و"سمير".. وجوههم ترسم ابتسامه عريضة وكأنهم يباركون خروجي من السجن..

ما أن دخلت إليهم حتى أحسست ببرودة لا تتناسب أبداً مع الجو في حجرة الزيارة.. نسمة رياح رقيقة مرت من أمام وجهي بمجرد أن رأيت "إيمان" تجلس في

وسطهم.. شعور رائع.. فقد أيقنت أني فقدتها تاركًا خنجرًا مسمومًا في صدرها.. ما أن وقعت عيني عليها حتى غاب الجميع عن نظري ولم يتبقي سواها.. هي وفقط..

- "إيمان".. أنا مش مصدق انتي جيتي تاني.. أنا حاسس إني أسعد واحد في العالم..

لم تجب واكتفت بابتسامة قتلتها الحزن والألم.. ثم أخفضت عينيها حتى لا تتلاقى مع عيني.. ساعتها تدخل "سمير"..

- إيييييه.. إحنا مش هنضيع الوقتي في كلام وسلامات.. الموضوع مستعجل.. شوفوا بقي إحنا مجتمعين النهارده علشان ننفذ الاتفاق اللي إحنا كنا متفقين عليه.. النهارده "حاتم" هيلبس "إيمان" شبكتها..
- شبكة إيه إنت اتجننت..
- استني بس "يام رامي".. أنا فكرت وقررت ومحدش هيراجعني إن شاء الله.. هو إحنا مش متفقين على كل حاجة.. ولا إنت سحبت كلمتك يا حاج..
- يابني.. أنا مسحبتش كلمتي ولا حاجة.. بس الوضع اختلف..
- يا حاج ولا اختلف ولا يحزنون.. هو مش في رجالة بتخطب خمس وست سنين وبعدها بيسافرو ولا بيهاجرو.. أهو نعتبره بيكوّن نفسه، إعارة يعني.. ولا إنت مش متأكد من براءة "حاتم" يا حاج..
- والله يابني ربنا اللي يعلم أنا و"أم إيمان" حالتنا عامله إزاي.. بس الوضع مش كده خالص يا ابني.. دول خمسه وعشرين سنة..
- ولا خمسة وعشرين ولا غيره.. ودي رغبة "حاتم".. هو وصاني الزيارة اللي فاتت أعمل كده.. وهو يعني أنا هعمل حاجة من دماغي يا حاج "إبراهيم"؟

لم يكن "سمير" الذي يتحدث.. فقد ظهر أمامي مؤلف ومخرج عبقري.. لم يعطي لأحد فرصة أن يفكر أو يتخذ قراراً.. فقد كانت الحبكة الدرامية متقنة على أعلي مستوي.. فلم يمهل أدمغتنا أن تستوعب الموقف لتكون رد فعل مناسب على هذه المفاجأة.. حتى أنا.. فلم أخاطبه في هذا الشأن مطلقاً.. لم يمهل أحد، فقد اتخذ القرار وبدأ التنفيذ.. أخرج علبة من القطيفة تحوي مشغولات ذهبية.. المفترض أني اشتريتها كشبكة..

– ثم إحنا هنتكلم كتير ليه.. أدي العريس.. وأدي العروسة.. وأدي الشبكة..

أصبح الأمر شبه محسوم.. لكنه يحتاج إلى تدخل من قوات خاصة لدعم الموقف.. ولم يكن هناك أفضل من كتيبة "أم رامي" للتدخل السريع.. فقد انطلقت زغرودة دوت صداها في أرجاء المكان.. جعلت منا نقطة مركزية ينظر إليها كل الموجودين.. كلهم بدون استثناء..

– ألف ألف مبروك.. إيه يا عروسة مدي إيدك.. يا عريس خد الشبكة ولبس عروستك.. وانتي يا "إيمان" قربي ومدي إيدك البسي شبكتك..

– أيوة يا جماعه سمعونا زغروطه خلينا نفرح..

رفعت "إيمان" عيناها اللامعتان من أثر الدموع.. أصبحت في مواجهتي تماماً حتى استطاعت وبعد معاناة شديدة أن تخرج ابتسامة.. تكبدت الكثير حتى استطاعت إقناع هاتان الوجنتان أن ترتفعان قليلاً.. وكعادة المصريين لم يسأل أحد عن المناسبة.. ولا عن سبب هذه الزغاريد.. فقط تحولت القاعة من قاعة للزيارة إلى قاعة أفراح.. فما أن انطلقت الزغروطة الأولى.. حتى تلتها أخرى من "أم إيمان".. وانهالت الزغاريط من كل سيدات الحجرة مجاملة للعروسين..

لم تنتظر إدارة السجن حتى تتحول الشبكة إلى مظاهرة.. فتدخل أحد الضباط نحونا، ثم في لفتة إنسانية قرر أن يجمعني مع خطيبتي وأهلها في حجرة المأمور حتى تتم المراسم بشكل رسمي..

وتمت خطبتي رسمياً من "إيمان" التي لم تمانع أبداً في تنفيذ هذه الخطوة غير محمودة العواقب.. أعلم جيداً لماذا وافقت.. لم تكن "إيمان" ترغب في تكرار التجربة مع شخص آخر.. فقد تشبعت من الصدمات المتلاحقة، فقد قررت أن ترتبط بي وأنا مجهول المصير.. حتى تقطع الطريق على أي شخص آخر يريد أن يدخل عالمها أو يطرق بابها..

في حجرة المأمور.. تم كل شيء بهدوء وبكل روعة.. لبست "إيمان" شبكتها وأخيرًا وبعد معاناة.. نطقت: ((مبروك يا حاتم.. ربنا يفك سجنك))

هذه الكلمات الخمس حولت الجميع إلى فرحة هستيرية بنطق الجميلة "إيمان" وبتمام الخطوبة.. لم تمنع الفرحة الثلاثي الكبير من البكاء.. فقد انسابت دموع فرحتهم بهذه الكلمات الخمس أكثر من فرحتهم الخطوبة.. وانقضت الزيارة ومعها أجمل لحظات عمري على الإطلاق.. وغابت "إيمان" بعد وعد منها بتكرار الزيارة ووعد مني بكتابة رسائل يوميًا على أن تتسلمهم هي يوم الزيارة القادمة وتسلمني مجموعة من الرسائل التي ستعكف على كتابتها حتى موعد الزيارة التالية...

****

في اليوم التالي..

لم يكن حدث خطبتي يمر بين نزلاء السجن مرور الكرام.. خصوصاً ظلي الأسود.. "شيحة".. الذي كان ملازماً لي طوال الوقت.. يرقبني خلسة وجهاراً.. يصرّح أوقات ويخفي أحياناً وكثيراً ما كان يرمقني بنظرات ترعبني وتذكرني بما حدث لي في يوم من الأيام.. يومًا كنت فيه ضعيفًا..

لم يحتل خبر خطبتي المساحة العظمي من تداعيات الأحداث وردود الأفعال في هذا اليوم، وإنما حدث شيء آخر لطالما كنت أتوق إليه وأنتظره بشده.. لم أكن أتوقع أن خبر خطبتي سيكون سبباً في حدوث هذا الأمر.. كنت ساعتها أجلس مع بعض النزلاء أتلقي التهاني.. وبعد انصرافهم.. أحسست بيد تمسك كتفي من الخلف.. وبصوت قادم من أعماق البحر.. كلمة واحدة استطاعت أجهزة الاستقبال عندي التقاطها.. ((مبروك)).

قبل أن ألتفت كانت اليد قد انسحبت في هدوء كما أتت في هدوء.. إنه الرجل الصامت.. آخر من كنت أتوقع منه التهنئة.. بل هو آخر من كنت أتوقع أن يقترب مني بالأساس.. ملايين الأسئلة تبادرت إلى ذهني وقتها.. لم أجبه.. فقط اكتفيت بمتابعته وهو ينزوي بعيدًا عن باقي النزلاء.. اتجه مباشرة نحو مكانه الخاص.. جلس جلسته التقليدية.. لم يُظهر أي شيء غير تقليدي وكأن ما قام به لتوه لم يكن ليحسب من تاريخه..

تعلقت عيناي به وازداد شغفي أن أقترب من هذا الرجل الصامت المحاط بهذا القدر الهائل من الرهبة والسكون.. لحظتها قررت أن أخترق عالمه.. أن أتجرأ وأقفز إلى هذا البئر العميق لعلي أصل إلى أي جواب لأسئلة كثيرة تدور في خلد الجميع ولم

يستطع أي من النزلاء حتى الآن أن يصل لإجابة.. قررت التحرك.. قمت واتجهت مباشرة نحوه بخطوات بطيئة ثابتة.. أربعة خطوات خطوتها نحوه.. ثم توقفت..

- على فين ياعم "حاتم"؟ مش قولنا ملكش دعوه بالراجل ده.. إنت لسه فيك الطبع الهباب ده.. مبتسمعش الكلام ليه؟

بالطبع لم يكن هذا الصوت إلا صوت "شيحة".. لم أكن أحتاج أن ألتفت لكي أتعرف عليه.. يكفي رائحة التبغ المنبعثة من فمه.. كانت وحدها كافية لكي أتعرف على قدومه قبل أن يصل بعدة خطوات.. لكن تركيزي الشديد لم يجعلني أشعر به إلا بعد أن استوقفنى..

- خير بس يا "شيحة".. أنا مش رايح أكلمه.. الراجل بس كان هنا الوقتي.. جه جنبي وقالي مبروك.. ومشي من غير ما أرد عليه.. ميصحش يعني لازم أكون زوق وأروح أرد تحيته..

لم أكمل كلمتي حتى انضم الينا نقيب السفاحين.. "سالم".. وبصوت خافت يحمل نبرة التهديد الواضحة...

- يا عم "حاتم" إنت مش عرفت إن في هنا كبير.. وإنت الوقتي بتزعل الكبير.. إنت عارف إن الجدع ده محرَّجين على أي حد يكلمه ولا حتى يرد عليه السلام.. وأظن إنت ليك هنا شهور عمرك شوفت أي حد راح كلمه ولا حتى قاله سلامو عليكو؟
- لا محصلش صراحة.. الراجل لا بيكلم حد ولا حد بيكلمه.. بس أنا.....

- هيبسبس تاني.. ياعم قولت لك متزعلش الكبار منك بدل ما تروح في الرجلين وانت عضمتك طريه، هتتفرم ولا حد هيسمي عليك.. إبعد وخليك في حالك..
- خلاص يا معلم "سالم".. عندي أنا دي.. أنا هقعد مع "حاتم" حبيبي وأفهمه الدنيا ماشية ازاي.. اتكل إنت وسيبهولي....
- خلاص يا "شيحة"، عليَّ الحرام لولا إنت واقف ولولا إنه عريس جديد لكنت علمت عليه علشان مينساش تاني.. ويعرف إن الكلمة بتتقال مرة واحدة بس...
- خلاص يا معلم "سالم" أنا هرسيه على الحوار علشان ميكررهاش وعندي دي.. يا راجل ده بدل ما تبارك له على الخطوبة.. إنت مسمعتش الزغاريط.. دي كانت ليلة..
- صحيح مبروك يا واد.. بس متزعلنيش منك تاني.. وابقي عدي عليَّ بعد الغدا خد هديتك.. إحنا ناس ولاد بلد ونفهم في الأصول ومحدش يعرف يغلطنا أبدًا..

انصرف الصياد مخلفًا مدخنة التبغ التي لا يتوقف انبعاثات الدخان منها.. أعتقد أن هذا المدعو "شيحة" أحد الأسباب الرئيسية في حدوث السحابة السوداء في سماء القاهرة..

مد "شيحة" يده واحتواني تحت ذراعه.. رافعاً احتمال تقيؤي لدرجة لا بأس بها.. فقد كانت رأسه أشبه بمقدمة قطار بخاري قديم ببعث بدخان احتراق الفحم في وجهي مباشرة.. ألقي بأخر 2سم من سيجارته التي بالكاد تفارقه.. واقترب مني: ياواد

متبقاش غشيم.. أنا هرسيك على الليلة محبة يعني.. بس الكلام ده لو طلع برانا أنا وإنت يبقي أنا معرفكش.. ماشي يا حبيب...

لم أستطع الرد، فقد كنت كتفياً بما تستقبله أنفي من هذه الرائحة الكريهة المنبعثة من فمه.. فلم أشأ أن أزيد الجرعة بفتح فمي.. فاكتفيت بتحريك وجهي أن قد وصلت رسالتك..

- ياواد.. الجدع ده يوم ما دخل هنا اتعمل اجتماع للكبار وقالولهم إن الجدع ده اسمه ((جميل)) وممنوع حد يقرب له ولا يجي جنبه ولا يكلمه ولا حتى يرد عليه.. واللي هيخالف يبقي ذنبه على جنبه...
- يعني الكلام ده من إدارة السجن.. طيب مراحش ليه عنبر من بتوع الناس المهمين..
- دي بقي مش بتاعتك يا عم المفكر.. خليك في حالك.. ثم عنبر خمسة دا بتاع العالم الثورجية.. واليومين دول فيه قلق.. اللي بيقولوا عليهم الإخوان ومعرفش إيه كده.. السجن كله فيه لبش اليومين دول.. قصَّر ومتدخلش في مشاكل.. ماشي..

بعد إن أفرغ هذا الـ(شيحة) معدته في وجهي وأنهى مسلسل الوعيد والتهديد.. مستكملًا ما بدأه سلفه السيد النقيب.. لم يسعني إلا أن ألتزم بالتعليمات.. هنا تطبيق القانون منوط بالشعب والشرطة تقوم بدور المنظم.. أما في الخارج؟

- شوفت بقي إنت خدتني في دوكة ونستني الموضوع الأصلي اللي كنت عاوزك فيه!
- موضوع.. موضوع إيه خير إن شاء الله!

- خير طبعاً.. بص يا سيدي.. أنا عرفت إنك جاي هنا في جريمة قتل.. مش تحكيلي.. أصلي وعهد الله ما مصدق يا أخي.. وربنا ساعة ما قالولي قولت لهم مستحيل.. عمره ما يقتل أبداً دنا أعرفه وعشرة قديمة حتى مبيغلطش في اللي بيعوره..

قالها واتجهت عيناه ناحية شقي الأيمن.. مرسلًا رسالة مفادها أن تذكر ولا تنسي.. وصلت الرسالة مباشرة دون الحاجة إلى البوح بهذه العبارات..

- يعني يا "شيحة" كل المدة دي.. شهور وأنت متعرفش أنا هنا متهم بقتل مين؟
- الكل بيقول إنها واحدة وشغالة في شقة " لوا".. علشان كده إنت لبست البدلة الزرقا قوام قوام.. أصل الحاجات دي مينفعش تتأخر لازم تتستف بسرعة.. ها قولي بقي مين دي؟
- "ولاء مبروك"..

لم أتخيل يوماً أن يتأثر هذا الكائن المشبع بالتبغ بأي خبر ولا حتى بخبر وفاته شخصياً.. لكن سماعه لاسم "ولاء مبروك" كان كفيلاً بأي يحرك هذا الكائن الميت ويجعله ينتفض من سماع الاسم

- ولاء مبروك.. ولاء مبروك؟
- أيوة يا "شيحة".. "ولاء" مرات الوزير

انتابته حالة من الذهول سقط على أثرها فكه السفلي متدلياً.. تلاها لحظات من الصمت لم تكن بالقصيرة.. وقتها وفقط أحسست برعشة كهربية عابرة تسري في جسدي من أثر نشوة النصر على هذا الكائن الأسطوري آكل التبغ..

جلس على صخرة كانت بجواره.. ثم رفع يده ممسكاً بتلابيب قميصي جاذباً إياه لأسفل، مجبراً رقبتي على الانحناء معه حتى وصلت رأسي إلى مستوي مصدر انبعاث رائحة التبغ.. وبنبرة آمرة وصوت حاد لم يخلو من التجشوء...

– عاوزك تحكيلي بالتفصيل الممل.. كل حاجة.. فاهم.. وإلا واللي خلق الخلق ما هتشوف نور الصبح ده تاني.. إنت فاهم..

مددت يدي ورفعت يده في هدوء.. رفعت هامتي.. فالآن.. والآن فقط أحسست بأني الأقوى وأنه تحت سيطرتي ولم يكن تهديده السابق سوي ما يطلقون عليه مجازاً ((حلاوة روح)).. عدلت من وضعية القميص الذي تأثر من أثر قبضته.. ثم حركت صخرة بالجوار حتى جلست بجواره تماماً.. لكن تعمدت أن أبتعد عن مسار رائحة التبغ المحترق في نفس الوقت كانت الزاوية المناسبة لكي أراقب هذا الصامت المنزوي بعيدًا..

بدأت في سرد الأحداث بالتفصيل الممل.. وبالطبع كان الأخير قد قطع أذناه وقام بربطهما في شفتاي حتى لا تضيع منه أي كلمة.. وما أن انتهيت من الأحداث بداية من تقرير التحاليل وانتهاء بجلوسي في هذا المكان.. حتى بادرني بسؤال لم أكن أتوقع غيره..

– هي مش "ولاء" ماتت وهي بتولد من سنين.. وبعدها "الوزير" اتجوز البت "تهاني" بنت إسماعيل الفوَّال.. وبعدها حصلت المشكلة بيني وبينه وقفشت معاه.. بس.. استني استني.. مش يمكن تكون هي اللي خلصت على "الوزير" وأنا اللي لبستها زي الجردل.. أصل اللي إنت بتحكيه ده زي اللي حصل معايا تقريباً..

- إيه بقي اللي حصل معاك.. احكيلي جايز نفيد بعض..
- لا.. عنك إنت بقي الطلعة دي.. الكلام ده لازم يكون عند اللي يقدره مش انت خالص..
- مين بقي اللي بيقدره؟ متفهمني يا عم.. مش أنا حكيت لك كل حاجة..
- طيب أمري لله.. هقولك بس مش كل حاجة.. سريع سريع يعني..
- ماشي بس أي حاجة ممكن أفهم منها..
- بص.. أنا لما حصلت المشكلة بيني وبين "الوزير".. وعلينا صوتنا على بعض في الحارة والناس كانت واقفة.. وقولت له مش هاسيبك يا "وزير" ولازم حقي يبات في حضني الليلة..
- حقك في إيه بالظبط؟
- ملكش فيه.. ومتسألش.. اسمع وإنت ساكت..
- خلاص اللي تشوفه..
- بعدها لقيت رقم غريب بيرن على المحمول وفي واحدة بتقولي إنها تعرفني كويس وإن "الوزير" عنده طلعة الليلة وهايكون لوحده.. وفرصتك تخلص منه.. طبعا أنا كنت بهوش بس ولا كان في نيتي أصلاً أعمل حاجة من دي..
- وطلعت وراه وخلصت عليه.. مش كده؟
- تلاته بالله ما حصل.. دنا استبوخت قوي وحسيت إني عيل لما أخلي حرمة توقع بيني وبين الراجل اللي خدمته سنين.. وسره معايا.. كلمته علشان أحذره مردش.. قولت أروح المكان اللي الولية دي قالت عليه.. وروحت يا معلم... وأدخل الشقة اللي كان فيها "الوزير" من هنا.. وألاقيه يا معلم سايح في دمه واللي يعجبك قوي.. لقيته مخبوط بالمطوة بتاعتي.. أنا اتجنيت وبرج من

دماغي طار.. المطوة دي إيه اللي جابها هنا.. دي مبتطلعش من جيبي أبداً.. أمد إيدي في جيبي ألقي مطوتي معايا.. يعني إيه بقي؟ اتجننت وربنا.. وقلت أنهي فيهم بتاعتي.. يمكن مطوتي هي اللي كانت مخبوط بيها "الوزير" أصل مطوتي كنت كاتب اسمي عليها بالنار.. علامة مميزة يعني!

- يعني حد سحب منك مطوتك وحط لك المطوة التانيه علشان إنت متاخدش بالك.. ولا جاب واحده شبهها بالظبط وقتل بيها علشان تلبسك..
- وربنا المعبود ما عارف اللي حصل.. وإزاي حصل أساسًا.. المهم.. لقيت نفسي زي المجنون بجري على الراجل أشوفه لقيته بيطلع في الروح والدم سايل من جتته.. شديت المطوة من جنبه.. وبادوب بارفع جتتي علشان أقوم.. لقيت الرجالة بتوع المباحث واقفين ورايا زي بتوع الكاميرا الخفية.. كأنهم مستنين إني أدخل الشقة.. ولقيت الظابط بيقولي اللي حصل ده اتصور.. عاوز تذيع قول ذيع....
- وطبعاً قولت له ذيع؟
- هو أنا لحقت أقول.. دنا اتسحبت ذي العجل اللي بيطلع في الروح واتلحق بالسكينة..
- يعني إنت اتثبت يا معلم ولبست القضية متفصلة..
- متفكرنيش.. المهم أنا وأنت في حد عمل معانا الصح ولازم أعرفه.. وعليَّ الحرام ما هرحمه.. هاطلع عين أمه هخليه يتمني إنه يموت مش هايطولها..
- طيب وهو إنت تفتكر مين اللي ممكن يكون عملها؟
- اللي هيجنني إني مش لاقي حد ممكن أشك فيه.. بس لم إنت قولت لي إنت جاي هنا في قتل "ولاء".. يبقي مش بعيد تكون بنت الحرام دي هي اللي

عملت المغرز ده.. بس أموت وأعرف هي إزاي كانت عايشة.. دنا حاطط جتتها في التراب بأيدي..

تركته يصارع نفسه ويصارع أفكاره وماضيه.. يضرب أخماسًا في أسداس.. يحاول أن يقنع نفسه بأشياء معظمها وهمية.. أما أنا فقد أحسست أني سأنال أخيراً قسطاً من الراحة.. سأجبر عقلي أن يتوقف عن التفكير مستعينا بسلاحي السري..

أخرجت لفافة بلاستيكية أخفيتها بعناية شديدة.. هي باختصار مؤنسي في هذه الرحلة المجهولة.. لا أعتقد أن أحداً لاحظ ما أقوم به في أي مرة.. وإلا لم تكن لتمضي مرور الكرام.. فمخدر في السجن كفيل بأن ألقي في غياهب الحجز الانفرادي على الأقل مدة لا تقل عن الشهر.. فمع كل قرص أتناوله في كل مساء كنت أبتهل لله شكراً أن أخفاني عن العيون..

الفصل الثامن

مكتب الرائد حسام عادل..

يدخل عسكري الحراسة ليخبر الرائد "حسام" بقدوم ضيف هو الرائد "طارق الصاوي".. وانصرف بعدما سمع الإذن بدخوله.. وفتح الباب ودخل شاب في العقد الثالث من عمره يرتدي زيًا رسميًا للشرطة.. ويضع الكاب تحت إبطه ونظارة الشمس في يده اليسرى.. وما أن دخل إلى الغرفة حتى انتفض "حسام" لملاقاته بكل ترحاب..

- ياا أهلا يا أهلا.. طارق حبيبي.. واحشني والله.. فينك من زمان؟
- واحشك إيه يا بكاش.. وهو أنا لو واحشك صحيح مش كنت تسأل..
- والله مشاغل يا "طارق" وإنت عارف الداخلية مبترحمش..
- إنت هتقولى.. على أساس إني جايلك لابس ترنج النادي الأهلي..
- المهم إنت منورنا والله.. تشرب إيه الأول.. قهوتك المظبوط ولا نجيب حاجة تانيه..
- لا تمام.. خليها قهوة مظبوط.. ياريت

استدار "حسام" حول مكتبه ثم انحني ناحية زر الاستدعاء.. ليدخل نفس العسكري ليتلقي أوامر "حسام ".. بعدها استدار بحركته الآلية المحفوظة سلفًا.. ثم خرج من الباب وأغلقه..

- خير بقي يا عم "طارق".. إيه بقي سر الزيارة المفاجأة دي؟
- أكيد خير.. كنت معدي قولت أفوت أشرب معاك القهوة.. في مانع ولا إيه؟

- لا على دماغي يا حبيبي والله.. بس يعني مش عوايدك.. ولا أنا غلطان؟
- "حاتم فهمي إبراهيم"!!
- إشمعنى؟
- تعرف حد بالاسم ده؟
- طبعاً.. "حاتم الطيار".. دنا لسه مسلمه بـ 25 شمعة لجنابكم من كام شهر..
- عليك نور.. أهو بقى جاني بالشمع بتاعه..
- طيب خير.. عمل مصيبة ولا إيه؟
- لا أبداً لا مصيبه ولا حاجة.. بالعكس دا هادي وفي حاله ولا بيهش ولا بينش..
- طيب أومال في إيه خير؟
- بص يا سيدي.. مش هطول عليك وهاجيب لك من الآخر..
- لا عادي خد راحتك..

دق الباب ثم فتح ودخل العسكري حاملاً صينية القهوة والماء البارد ثم انصرف مؤدياً التحية الميكانيكية المحفوظة..

- اشرب قهوتك يا عم واحكيلي.. ماله "حاتم" أفندي..
- شوف يا "حسام".. طبعاً الراجل ده جاي من كام شهر ودخل المراقبة بتاعتنا ومفيش حد لاحظ عليه إنه ممكن يكون دبح فرخه طول عمره.. بس مش ده المهم.. لأن ده لا يعنينا في أي شيء.. ده جاي واخد حكم وهاينفذه..
- طيب تمام.. إيه المشكلة بقى؟
- أقولك يا سيدي.. جاني مسجون اسمه "صابر" وشهرته (شيحة).. قالي انه يعرف "حاتم" من زمان وحكالي قصته..

- ويطلع مين "شيحة" ده كمان ويجيلك بمناسبة إيه؟
- "شيحة" دا يا سيدي من العيال اللي بنزرعها وسط المساجين.. اللي جايب حاجة كده ولا كده.. اللي دخَّل ممنوعات في الزيارة، اللي بيفكر في حاجة مش ولابد... احتياطات يعني علشان منتفاجئش بمصيبه..
- عصفورة يعني؟ ما تقول عصفور وخلاص!!
- المهم.. جاني يحكيلي عن "حاتم" وانه دخل السجن في قضية قتل. وإن المجني عليها دي ميتة من زمان وانه هو اللي دفنها في التراب.. وأنه دخل السجن في قضية مش بتاعته زي "حاتم "كده يعني حد ملبسهاله.. فهو بقي بيستشهد "بحاتم" علشان نفتح له التحقيق ولا نعيد النظر.. لأنه واخد برضه 25 سنة..

انتفض "حسام" بعصبيه وبنبرة شبه حادة: دا عند أمه بقي.. هي لعبه.. هنهزر.. هي القضية اللي بتتقفل حد يفتحها تاني.. ده القتل ده ما بنصدق نخلص منها.. تيجي تقولي "شيحة" وبتاع..

- ياعم اهدي إنت فهمت غلط.. أنا جاي أسئلك بما أنك اللي كنت ماسك تحريات قضية "حاتم".. إنت رأيك إيه؟
- طيب وإيه دخل قضية "شيحة" بقضية "حاتم".. وإيه اللي يخليك تهتم بيها من الأساس.. متشغلش بالك.. قضية خلصانة وحكم نهائي.. يبقى الحمد لله.. إنت فاكرها بالساهل كده تلاقي قضية خلصانة، تقوم عاوز تروح تفحَّر فيها تاني وتقولي "شيحة" ومش عارف مين.. وهو يعني هيفرق "حاتم" ولا "شيحة" في 90 مليون، عادي يعني!!

- ممكن عادي.. بس لو في فرصه أنك تنقذ شخص بريء وتشوف مين هو القاتل الحقيقي.. لأني متأكد إن القضيتين مربوطين ببعض.. مش صدفة خالص.. ومش بعيد يكون القاتل شخص واحد..
- لا ومش بعيد برضه يكون اللي قتل دول قتل غيرهم وناس تانيه شالت القضية.. مش قصدك كده؟
- ليه لأ.. بص يا "حسام" خد الموضوع ببساطة.. أنا مش جاي أكلفك بحاجة خالص.. أنا بس بقولك لو عندك أي معلومة أو حصل حاجة متكسلش إنك تفتح القضية.. دي حياة بني آدم يا "حسام"..
- خلاص.. خلاص.. مفيش مانع.. أنا هشوف قضية "شيحة" ده كانت مع مين وهسأل وأشوف.. يمكن ألاقي حاجة، هتابع معاك على طول..

* * * * * * * *

"سالم" و"شيحة" بصحبة 3 آخرون يقتربون من مكان جلوسي بحوش السجن..

- صبَّح يا كاراتيه.. أخبارك.. عرفت اللي حصل؟
- صباح الفل يا معلم "شيحة".. خير إيه اللي حصل معرفش حاجة
- إنت نايم على ودانك بقي ومش دريان بحاجة.. مش صاحبك راقد عيان بقاله كام يوم..
- صاحبي مين؟ إنت عارف يا معلم إني مليش أصحاب وفي حالي..
- إيه يا "شيحة" هو فقد الذاكرة ولا إيه..
- ليه بس يا معلم "سالم" أنا عملت إيه؟
- عملت ولا معملتش مش دي القضية.. إنت الوقتي هتعمل اللي هنقولك عليه بالحرف الواحد.. لا زيادة ولا ناقص.. تنفذ وبس!!

- طيب بس يا معلمين مش أعرف بس!!
- متسألش كتير ونفذ وخلاص..

لم يسبق أن تحدث "سالم" أو "شيحة" معي بهذه الطريقة من قبل.. لم أستطع إخفاء خوفي الذي ظهر جليًا على نبرة صوتي ورعشة مفاجأة ظهرت على يدي..

- إيه ياعم "شيحة"، هو الواد ده سايب من بعضه ليه كده..
- متنشف يا كراتيه متضحكش الناس علينا، إحنا قولنالك روح اقتل حد.. إنت بس هتروح مشوار لحد إدارة السجن.. وهنقولك هتعمل إيه بالحرف الواحد..
- إدارة السجن.. ليه بس.. وهروح لمين؟
- شوفت يا"شيحة" أهو هيقلب على " أم كلسوم" أهو.. أروح لمين..

تعالت الضحكات الساخرة من طريقة كلامي ورد فعلى على كلامهم.. ثم اقترب مني "سالم"، خافضاً رأسه نحوي.. هتروح "لطارق" بيه في شئون المساجين.. وهتطلب منه أنك تتنقل الزنزانه مع "شيحة".. واحد معاه هيطلع إفراج بعد يومين.. اللي هو المعلم ((فرغلي)) اللي واقف ده..

رجل أسمر اللون غليظ الوجه.. تظهر جلياً عليه الملامح الصعيدية.. مد يده إلى بالمصافحة..

- أهلا بيك يا زميلي.. حصلنا الشرف.. أخوك "فرغلي" من (جنا)
- أهلا بيك يا معلم..
- أيوة يا عم "حاتم".. هتروح تعمل اللي قولنالك عليه.. ولو سألك "طارق" بيه عن السبب.. قوله إنكم عِشرة قديمة وعاوز تتونس بيه. فاهم الكلام.؟؟

– طيب أنا بس هستفيد إيه من نقل الزنزانه.. منا مرتاح في زنزانتي واتعودت عليها؟

– إنت هتطول ليه في الكلام.. ما قولنا إسمع الكلام بدل ما ترجع تزعل..

انتهي اللقاء وانصرفوا في جماعة بعد أن ألقوا إليّ تعليماتهم الغير قابله للنقاش ولا المجادلة.. ولم يكن أمامي اختيار آخر.. فقط حاولت المماطلة لرصد ردة الفعل.. لم تطل مماطلتي طويلاً بعدما رأيت هذا الصعيدي الأسمر يقف مستنداً بكتفه إلى جدار الطرقة المؤدية إلى مكتب "طارق" بيه.. وكأنه يذكرني بما يجب على أن أقوم به.. وبالفعل لم أتأخر كثيراً..

تقدمت بهدوء نحو هذا الواقف يرمقني بعينه.. حتى صرت بمحاذاته فلم يتكلم فقط رفع رأسه وأشار بعينه.. حركت رأسي ايجاباً.. وتقدمت حتى اقتربت من أحد حراس السجن.. رفع يده نحوي بلهجة حادة..

– على فين يا مسجون..

– رايح "لطارق" بيه..

– عاوز "طارق" بيه في إيه؟

– عندي شكوى وعاوز أقابله..

– طيب استني هنا متتحركش على ما أرجع لك..

تحرك الحارس وبقيت مكاني أنظر إلى هذا الأسمر الواقف بجوار الحائط كأحد تماثيل معبد أبو سمبل.. لحظات وعاد الحارس..

خطوات كانت تفصلني عن مكتبه.. دخلت إلى المكتب.. لم أتوقع هذه المقابلة مطلقاً.. فقد استقبلني "طارق" بيه وكأنه كان ينتظرني من فترة..

- أهلا يا "حاتم".. اتفضل.. فينك يراجل من زمان؟
- أهلا بيك يا باشا، أنا موجود بس محصليش الشرف إني أقابل سعادتك قبل كده..
- أهو حصل يا سيدي.. إيه سبب الزيارة؟
- والله يا باشا كنت عاوز أغير مكاني.. يعني عاوز أتنقل زنزانة تانيه...
- ليه خير.. حد مزعلك في زنزانتك؟
- لا أبدًا يا باشا.. بس أنا عاوز أتنقل مع "شيحة".. معرفة قديمة وكنت عاوز أتنقل معاه.

ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه، لم أستطع تفسيرها.. ظهرت وكأنه كان ينتظر مني أن أتقدم بهذا الطلب.. ربما لسبب آخر لا أعرفه.. لم أتوقف كثيراً عند هذه النقطة.. فقط استكملت حديثي..

- يا باشا إنت عارف السجن كله رباطيات ومجاميع وأنا عاوز أبقي مع "شيحة" علشان أبقي في حمايته..
- جميل.. عاوز تبقي في حمايته.. ولا عاوز تفتح معاه القديم..
- قديم إيه يا باشا اللي هفتحه.. لا في قديم ولا جديد.. هو بس زي ما قولت لسعادتك كده..

ألقي "طارق" بجسده على أريكة جلدية في إحدى جوانب غرفته، ثم رفع قدماه مددهما على كرسي صغير أمامه...

- طيب هنفرض إن مفيش قديم.. طيب ما "شيحة" قدامك طول اليوم وإنت بتقعد وتتكلم معاه عادي.. وإنت في حمايته.. يعني مجتش على الساعتين بتوع الليل يعني.. مش كده..
- يا باشا والله الموضوع.....
- قاطعني بلهفة: أيوة إيه بقي هو الموضوع.. بص يا"حاتم".. سيبك من موضوع الزنزانة ده واحكيلي بقي من الأول خالص.. اه نسيت أقولك.. أنا اللي بعت لك "شيحة" علشان تطلب تتنقل معاه..
- يعني سعادتك عارف إني جايلك؟
- طبعاً ومستنيك كمان.. عاوزك بقي تقعد وتحكيلى من الأول خالص عن حكايتك.. اللمون جاي دلوقتي.. أنا طلبته.. احكيلي بقي عن كل حاجة بالتفصيل وكل حاجة تعرفها عن الوزير تحديداً..

بدأت أحكي قصتي للمرة..... لم أعد أتذكر تحديداَ كم مرة حكيت قصتي كاملة.. لم أستطع أن أقرأ أيضًا أي رد فعل "لطارق" بيه وأنا أسرد فصول قصتي.... بعد أكثر من نصف ساعة من الكلام بدون أي مقاطعة.. أنهيت فصول قصتي.. انتظرت تعليقاً أو مناقشة فيما ذكرت.. إلا أن ظني قد خاب.. وكل ما حصلت عليه مقابل هذه الحكاية هي موافقة على نقلي كما أريد.. دون أي تعليق أو تعقيب على ما ذكرته..

- تمام يا "حاتم".. مفيش طبعاً حاجة تانيه نسيها ولا حاجة مقولتهاش..
- لا خلاص يا باشا والله ده كل حاجة..
- طيب.. خلاص من بكره تجهز حاجتك هتتنقل زنزانتك الجديدة.. بس ياريت لو في حاجة تانيه عاوز تحكيها أو تقولهالي متتأخرش.. تيجي في أي وقت..

كان العرض يوحي بشيء لم يستطع عقلي تحديد ما هو.. فقط خرجت مقدمًا فروض الشكر والعرفان.. متغنيًا بتراتيل المدح والثناء.. هكذا الحال بين السجين والسجان.. كثير من النفاق.. قليل من الحب..

خرجت من مكتبه لأجد هذا التمثال الرابض مكانه لم يتحرك قيد أنملة.. أعتقد أنه ينتظر تعامد الشمس على وجهه.. أم ينتظر نتيجة تنفيذي للتعليمات.. لم أكن أشغل بالي كثيراً، فمنذ أن وطأة أقدامي هذا المكان وأصبحت كل الأمور عندي سواء.. لم أشعر بأني على قيد الحياة سوي منذ أن أعلنت خطبتي.. هذا اليوم وفقط..

- ها.. عملت إيه.. سبع ولا ضبع؟
- لا سبع طبعاً، خلاص من بكره هنقل في الزنزانه مع "شيحة" و"الصياد"..
- طيب يلا بينا نروح نبلغهم.. عشان هم مستنين..

كرجل أعمال يتبعه حارسه الشخصي ذو القامة الفارعة والجسد الضخم.. قطعت طريقي من مكتب "طارق" بيه إلى حيث يرقد أسدي قصر النيل.. "شيحة" و"الصياد".. كانوا وكأنهم يدبرون أمراً غير طبيعي.. لم أتعب نفسي في التفكير.. فما أفكر فيه سيأتي ويقف أمام قدمي دون أي عناء..

- تمام يا "حاتم" خدت الموافقة؟
- أيوة يا ريس "سالم"، تمام.. "طارق" بيه وافق على طول..
- على طول إزاي.. دانت بقالك يجي ساعة جوه.. ده احنا قولنا إنك اتخطفت ولا روحت انفرادي!!
- لا وهروح انفرادي ليه هو أنا اتمسكت بحشيش ولا عامل مصيبه..
- لا ناصح يا كراتيه.. أومال كل ده جوه بتعمل إيه.. بتلعب محبوسه ولا كومي!

- **ياعم لا محبوسة ولا مقتولة.. دا كان بيسألني عن قصتي وجيت هنا إزاي!!**
- **ويسألك ليه ما الملف بتاع القضية عنده.. ولا إنت عندك كلام كنت عاوز تحكيه؟**
- **والله لا كلام ولا سلام هو سألني وأنا رديت عليه.. لا زيادة ولا ناقص.. المهم بقي هنقل عندكم بكره في حاجة تانيه عاوزينها مني؟**
- **لحد دلوقتي لا.. بس قبل الزيارة اللي هي بعد بكره هنقولك على شوية حاجات.. بس هيكون الكلام قبل معاد الزيارة على طول.. وياريت بلاش هلفطة وكتر كلام، وقصة أبو زيد اللي إنت ماسك ربابة ودايرتحكيها في الكفور والنجوع دي بلاش منها.. كتر الكلام بيجيب الغلط.. هنا بقي الغلطة بفورة..**
- **خد بالك يا كراتيه "الصياد" و"شيحة" زي الرصاص.. الغلطة الأولي هي الأخيرة.. مينفعش ندادي.. كله هنا ماشي بالقانون..**

كم كرهت هذا القانون الأعمى والأصم والعاجز، قانون فقط لم يعرف غير الضعفاء ليستقوي عليهم.. أما الأغنياء وذوي النفوذ يأتي أمامهم ويعقد لسانه ويصير بلا روح ولا قلب ولا ضمير.. يصمت حتى لا يشعر به أحد..

الفصل التاسع

في مكتبه. يجلس "حسام" يطالع بعض الأوراق ويحتسي قهوته مع دخان سيجارة تملأ الجو من حوله.. يعلوا صوت هاتفه.. يلتقطه في تثاقل واضح، يرفعه أمام وجهه قبل أن يجيب..

– ألو.. أيوة يا حبيبي.. خير يا كبير وصلت لإيه يا عم كرومبو..

آه طبعاً عندي أخبار جديده.. هتعجبك قوى قوى وهتخليك تنفض إيدك من الموضوع..

أكيد طبعا عرفت أومال يعنى أنا هقولك أي كلام برضه!!

لا يا حبيبي الكلام مينفعش في التليفون..

لا برضه.. والله ما هتكلم إلا قدام المحامي بتاعي...

أيوة ياعم كلام كبير ومهم..

طيب خلاص.. يبقي تعزمني على الغدا وأنا أحكيلك..

لالالالا بيت إيه.. إنت هتكروتني.. أنا عاوز عزومه بجد مش أكل كتاكيت..

لا خليها الوقتي.. أنا هكلمك ع الساعة 3 كده أقولك هنتقابل فين..

خلاص تمام.. بس تقل جيبك لأن الكلام اللي معايا يستاهل كتير.. بس ميغلاش عليك..

خلاص يا كبير.. استني تليفون.. سلام..

يغلق "حسام" هاتفه بعد انتهاء المكالمة.. يمسك بقلمه وأخذ يخط بعض الخطوط المتقاطعة على ورقة بيضاء كانت أمامه على المكتب.. وأخد يتمتم..

– ربنا يستر عليك ياعم "طارق" وعليَّ أنا كمان.. مش عارف إنت هتعمل إيه لم تعرف الحكاية.. إنت كده بتدخل عش الدبابير.. دبابير إيه.. دا إنت بتفتح على نفسك أبواب جهنم السبعة مرة واحدة.. ربنا يهديك وتقتنع وتسكت..

* * * * * *

عقرب الساعة يشير إلى تمام الثالثة عصراً...

"طارق" يمسك بهاتفه المحمول وهو جالس في سيارته أمام بوابة السجن.. منتظراً مكالمة "حسام" لتحديد مكان الغذاء.. لم يكن "طارق" يدرك لمَّ يفعل "حسام" كل هذا ولم كل هذه التعقيدات.. لم يجد أي شيء يوحي بأنه يستطيع أن يجد إجابة على هذا الكلام بمفرده.. فقط عليه الالتزام والانتظار حتى يجود عليه "حسام" بما يملك من معلومات..

الثالثة وأربع دقائق.. يعلوا صوت الهاتف معلناً اتصال "حسام" التقطه "طارق" بحركة سريعة..

– إيه ياعم.. هي دي مواعيد برضه.. مش قولت الساعة تلاته..

إيه يعني مش فاهم.. طيب خلاص هاسيب العربية وآخد تاكسي.. وبعدين..

ليه ياعم كل ده هو فيه إيه بقي لكل ده؟

خلاص.. لا طبعاً عاوز والله عاوز.. خلاص خلاص.. هاجيلك.. ماشي تمام.. سلام..

لم يتمكن "طارق" من فهم "حسام" ولماذا كل هذا التعقيد.. وهل الأمر يستعدي.. في النهاية لم يكن لديه خيار، ترك سيارته واستقل تاكسي متجهاً نحو المطعم المحدد..

طوال الطريق لم يتوقف عقله عن طرح افتراضات وتكهنات أصبحت رأسه مثل عربة خلط الخرسانة.. تدور ويتقلب فيه الأفكار بشكل مستمر.. لا يجد بداية ولا نهاية..

كان التعليمات أن يلتقيا في أحد المطاعم الشهيرة في منطقة الميرغني بمصر الجديدة..

- أهلا يا كبير.. بص بقي أنا واقع من الجوع وطلبت أكل ليَّ وليك..
- اشمعني المطعم ده والحته دي بالتحديد يعني؟
- يا أخي مش فارقه كتير أي مكان.. المهم نكون على راحتنا وناكل أكلة تمام..
- طيب احكي لي بقي.. خير..
- لا أصبر على رزقك لم أتغدي الأول..
- ياعم بطل رخامه بقي.. واحكي..
- طيب طيب متزوقش ياعم.. حاضر بس وحيات النبي يا شيخ تسبني آكل الأول.. أنا واقع والله.. وإنت كمان زمانك جعان..
- خلاص ناكل بس يارب بعد الأكل متطلعش بحجه تانيه وتقولي مش عارف إيه..

بدأ الاثنان في تناول الطعام مع بعض زجاجات المياه الغازية التي لا غني عنها في الأكلات الدسمة.. حتى تفسح مجالاً أكبر لطعام أكثر.. وانتهت الوليمة وتصاعدت أدخنة السجائر معلنة عن بدء مباراة جديدة في إحراق التبغ بعد انتهاء المباراة الأولى من مسابقة الافتراس..

- تصدق يا "طارق" الواحد إن مكنش كل فتره يجي يشحن بأكله معتبره زي دي مكنتش عارف هكمل حياتي إزاي..
- على رأيك بس أنا بقي على الأكلة دي هيتفتح لي استجواب في أمن الدولة العليا.. إنت عارف مراتي..
- ربنا يكون في عونك وعوني.. المهم بقي الأكل شكله نساك الموضوع!!
- لا والله بس مستني سيادتك تتفضل وتتعطف على بأي كلام ومش عاوز أضغط على جنابك..
- لا أبداً أبداً.. بس الموضوع طلع كبيييييير...
- كبير إزاي يعني.. يعني مش حكاية "حاتم" ولا "شيحة" ولا "وزير" ولا واحد قتل والتاني لبس.. دي طلعت قصة ورواية كبيييييره..
- طيب ماتقولي إنت عرفت إيه.. إحكيلي..
- لا أحكيلك إيه ولا إيه.. أنا هجيب لك من الآخر.. علشان ترتاح وتريحني
- خير ياعم قلقتني..
- بص يا سيدي.. باختصار القضية دي كانت مع "سعيد الطحان"..
- يا رااااجل! "سعيد الطحان.. سعيد الطحان"؟
- أيوة يا سيدي "سعيد الطحان".. مش قولت لك بلاش تدخل قفص الأسود برجليك..
- وإيه علاقة ده بموضوعنا؟
- آه.. نسيت أقولك.. أنا لم عرفت إن "الطحان" هو اللي كان ماسك القضية لأنها منطقته.. شكيت إن الموضوع له راس أكبر.. أصل "الطحان" مبيلعبش غير مع الكبار وكل الناس عارفه..

- طيب وبعدين.. عملت إيه بقي فهمني؟
- ولا حاجة.. جبت من الآخر.. جوز مخبرين من عندي بعتهم على جوز مخبرين من اللي تبع منشية ناصر.. وتحديداً جوز مخبرين عرفت إن ليهم دراع في المنطقة بتاعت العيال دي "حاتم" و"شيحة".. وعارفينهم بالاسم.. طبعا هم مخبرين مع بعض غير لم إنت تجيب مخبر وتسأله..
- وبعدين!!
- ولا قابلين.. سمعت قصة ألف ليلة.... المهم يا سيدي مطولش عليك.. "الوزير" ده اسم شهره مش حقيقي.. ليه بقي؟ لأن كان في ضهره "الطحان" عدل.. مكنش حد بيكسَّر له كلمه ولا أمر.. ولا الحكومة كانت بتهوب هناك.. سلاح ماشي.. مخدرات ماشي.. قتل وسرقة بالإكراه ميضرش.. المهم إنه يكون تحت الرهن والإشارة.. ليه بقي؟
- ليه ياعم.. هو لسه فيها ليه؟
- أيوة.. ليه سايبينه يعمل كل ده؟ مستحيل يكون محبة يعني!
- طبعاً لا.. مستحيل طبعاً..
- حلو.. فاكر إنت في 2004 لما كترت المظاهرات في البلد.. وطلع البتاع اللي اسمه الفيس بوك.. وطبعاً كون الشرطة تتعامل مباشر مع المظاهرات كان ضاعف موقف الداخلية.. العيال بتوع المظاهرات كانوا بيصورا الضرب وعلى النت عدل وفضايح ياعم الحاج..
- أيوة فاكر.. وبعدين إيه علاقة كل ده "بالوزير"؟
- اصبر عليَّ أنا جايلك في الكلام أهه.. "الوزير" بقي كان مورِّد بلطجية رقم واحد.. يعني تطلع المظاهرة من هنا.. ساعة زمن ويكون "الوزير" واصل هو

والقوات بتاعته.. ولا حس ولا خبر.. ويطلع الخبر أهالي المنطقة تقف في وجه المخربين والشرطة تفرق المصادمات بين الطرفين بالغاز المسيل..

- الله.. ده فعلا كان بيحصل.. وبيتصاب ناس كتير من الناحيتين..
- ما اللي يتصاب يتصاب ولا يموت.. لما يموت بلطجي في ستين داهيه.. إنما لما يتعور لك ظابط ولا مجند ياخد طلقة.. دي فيها كلام تاني..
- وبعدين المهم..
- المهم يا سيدي بعد 2005 وحرب الانتخابات الوسخة والدقون اللي دخلت المجلس دي.. فاكرها طبعاً وزادت المظاهرات والطلبات.. جه بقي "الطحان" باشا مسنوداً من مين.. من الكبير شخصياً..
- تقصد مين بقي؟ تقصد معالي الوزير شخصياً.
- عليك نور.. من معالي الوزير.. لمعالي مدير الأمن.. للطحان.. مثلث الرعب..
- المهم سمَّع جامد صيت "الوزير" بتاعنا ورجالته وبدأ الكلام يكتر عليهم.. وحصل كام مشكله كان القرار إن "الوزير" يختفي شويه عن العيون.. وبعدها فعلاً حصل موضوع القتل ده وكان كل حاجة مترتبه بالملي..
- تقصد إن "الطحان" هو اللي خلص؟
- عليك نور.. استغل الخناقة والتهديد.. المخبرين بلغوه باللي حصل وهو مكدبش خبر.. جاب بت وخلاها تكلم "شيحة" تقوله إن "الوزير" هيكون في الحته الفلانية وإن فرصته يخلص عليه وقالت له لو مخلصتش إنت هنخلص إحنا وهتشيل إنت الليلة.. الكل سامعك وإنت بتهدده..
- وطبعًا "شيحة" زي الجردل اتدلق وراح جري على العنوان..
- طبعاً.. هو دخل من هنا وظهر له "الطحان" والرجالة وجرجروه زي الخروف..

- طيب "الوزير" وعرفناه.. و"ولاء" بقي.. تفتكر إيه حكايتها؟
- أهي دي بقي اللي محدش عارف لها حكاية.. كل الناس بتأكد إنها ماتت واتدفنت.. طبعا في حاجة مهمه.. القضية بتاعت "حاتم" مفيش فيها "ولاء" دي خالص.. "ولاء" دي في الكلام بس.. في الورق اللي اتقتلت واحده اسمها "سيدة".. يعني مفيش "ولاء" من أساسه.. كونها تطلع "ولاء" متطلع دي مش قضيتنا نهائي..
- يعني إيه.. يعنى "حاتم" دخل السجن في قتل مين؟
- قتل "السيدة" الشغالة في شقة "اللوا".. غير كده محدش له أي حاجة..
- أنا معدتش فاهم حاجة يا "حسام" والله.. أنا حاسس إنها مش حكاية "ولاء" وبلطجية في حاجة تانيه هي إيه مش عارف.. بس تصدق بقي أنا مش هاسكت غير لما أوصل..
- ياعم طول عمري بقولك.. الحقيقة دايماً نسبية، يعني متتعبش نفسك...
- ليه بقي يا "حسام" متعبش نفسي.؟
- يا "طاروق" يا حبيبي وحتى لو أثبت أن الكلام كان بعلم الباشا الكبير وأثبت كل الجرايم والمصايب ولبست "الطحان" في حيطه.. إنت فاكر كده هتبقي بطل.. بالعكس هيقولك ظابط منشق وطلقتين بجنيه تعيش وتموت خاين لبلدك.. بقولك ده قفص الأسود.. ولا يقدر على القدرة إلا ربنا..
- يعني أسكت وأسيب إتنين يروحوا مظلومين؟
- بس متقولش إتنين.. "حاتم" ماشي، أنا عارف إن قضيته مسلوقة بس غصب عني والله.. كان لازم تتقفل وهو بخته المنيل بستين نيله اللي رماه في سكتي..

إنما "شيحة" يستاهل الحرق بجاز وسخ.. وأقولك كبر دماغك وسيبك منهم الاتنين.. بلاش وجع قلب..

- طيب وموضوع الظرف اللي قال عليه "حاتم" في التحقيق؟
- مش عارف.. ولا الظرف ده له أي أثر.. بس اللي مجنني.. إن ليه "الطحان" يزرع بت عند "مجدي القاضي".. اشمعني يعني.. دي عاوزة تدوير..
- مش يمكن كان فيه مشاكل بين "القاضي" و"الطحان" وكانوا بيتقوا شره بأنهم يعرفوا تحركاته..
- طيب ما كده لو في واحده مزروعة في البيت.. يبقي أكيد لهم حد مزروع برضه في مكتب "اللوا مجدي".. يعني.. علشان يبقي تحت عنيهم في البيت والشغل..
- وارد برضه.. بس هنعرفه إزاي ده بقي.. طيب ظروف البت اللي اتقتلت إن "حاتم" أبو حظ هباب اترمي في سكتها.. وكشف الليلة..
- طيب إحنا في ايدنا إيه نعمله.. مفيش ولا دليل واحد نقدر نقول إن "الطحان" ولاَّ غيره ليهم يد في اللي حصل.. بالعكس دول ناس أنضف من النضافة وميت فل وأربعتاشر..
- يبقي الحل إننا نسكت ولو جد جديد يبقي لكل حادث حديث..
- خلاص.. أنا مش عارف أشكرك إزاي يا "حسام" والله، بس ياريت لو عرفت حاجة تانيه بلغني ضروري..

انتهت المقابلة وانتهت القصة بهذه النهاية المظلمة القاتمة.. وسيظل الثنائي "حاتم" و"شيحة" في غياهب السجن يمنون أنفسهم بيوم من أيام الحرية التي سلبها منهم هذا النظام الذي يقوي بضعف الفقراء..

8 يناير 2011 – يوم الزيارة..

الساعة تشير للثامنة والنصف.. انتهي الطابور الصباحي والإفطار وانطلق النزلاء في أرجاء السجن يمارسون جدولهم المقرر اليومي المحفوظ والموضوع مسبقاً كأنهم تمت برمجتهم آلياً على هذه الأفعال.. يومها كنت بصحبة المغامرون الخمسة.. عصابة الأشقياء برئاسة "الصياد" وعضوية "شيحة" والقادم من أقصي الجنوب..

لم يكن الأمر بالجديد فلقد بت ليلتي معهم ولكن التعليمات أني لا أتحدث في الأمر المجهول والمطلوب مني سوي في يوم الزيارة.. وها هو اليوم الموعود قد هلت بشائره..

- بص يا "كراتيه".. النهارده الزيارة.. وإنت بيجيلك جماعتك معاهم شاب كده.. تمام.
- أيوة يا معلم "سالم" صحيح.. دا زي أخويا اسمه "سمير"..
- المهم.. بعد ما تفوت نص الزيارة هتاخد "سمير" ده على جنب زي ما بتعمل كل مره وهو بيديلك الكيس الصغير اللي فيه البرشام اللي بتبلبعه في الليل..

سحقاً لك إيها الحقير.. صدمتني تلك العبارات كقاطرة بضائع مرت فوق جسدي الممدد على قضبانها الحديدية.. ألقاها بقدر من اللامبالاة أدهشني وأشعرني بخوف وفزع ممتزجان.. لم ينتظر أي ردة فعل منى وكأني من أخبره بهذا الأمر.. لم أكن أدرك أنى بهذه السذاجة.. أم أنني لم أدرك مقدار ما يعرفون عني وعن غيري.. ساعتها فقط أحسست أني صغير جداً.. وسحقي تحت الأقدام ما هي إلا مسألة وقت..

لم أناقش ولم أعقب ولم أتفوه بكلمة.. فقط اكتفيت بالنظر إليه وهو يملي عليَّ التعليمات..

- ركز معايا.. هتاخد اللفة دي.. خبيها في جيبك.. متطلعش من جيبك غير بعد نص الزيارة.. إحنا هنسحب العنين عنكم بطريقتنا.. هتديله اللفة دي وهتقوله يستني تلافون من واحد تبعنا بره.. هيخلص المطلوب ويعمل اللي يتقاله عليه بره بالحرف.. الموضوع هياخد يومين..
- طيب يا معلم هو إزاي هيجي زيارة تاني بعد يومين؟ مش كده الطلب هيترفض؟
- مين قال انه هيترفض.. الطلب مش هيبقي باسمك يا غبي.. هيبقي باسم "شيحة".. إنت ملكش دعوه.. "شيحة" محدش بيجي له زيارات نهائي.. والطلب هيتوافق عليه على طول.. المهم فهّم صاحبك إنه ينفذ المطلوب وبسرعة ومحدش يحس بيه.. فاهم؟
- لا من الناحية دي إطمن.. "سمير" عمره ما هيتأخر عني أبداً.. بس في سؤال محيرني؛ اشمعني "سمير" يعني؟ مانتم رجالتكم بره كتير وأكيد أحسن من "سمير" في التنفيذ! وبلاش نتعب الراجل معانا، وندخله في سكه مش بتاعته..
- مش بتاعته!!...نفذ بقي وانت ساكت.. قال مش بتاعته..

تعالت ضحكاتهم وتركوني مع اللفافة التي سأقوم بتسليمها إلى "سمير".. لم يتبادر إلى ذهني حتى أن أفض هذه اللفافة وأعرف ما بداخلها.. فبعد مصارحتهم لي بموضوع المسكنات التي أتناولها.. لم يعد عندي الرغبة في إقحام نفسي في أكثر من هذا.. قررت التنفيذ وفقط.. وبدأت الزيارة..

- حمد لله على السلامة يا "إيمان".. وحشتيني جدا والله.. بصي بقي أنا كتبت لك جوابات الأيام اللي فاتت كلها..
- الله يسلمك يا "حاتم".. أنا كمان جبت لك تلاتين جواب و"حلم"..
- "حلم" إيه؟ خير اللهم اجعله خير..
- إحم إحم.. إيه جماعة هو إحنا بقينا شفافين ولا إيه.. إيه ياعم طيب حتى قول صباح الخير.. مساء النور.. إنما داخل ذي الإسباني السريع.. إيه ياعم مش هنكولها منك..
- أزيك "يأم رامي".. أزيك ياحاج "إبراهيم" وحشتوني والله كلكم..
- أيوة كده العملية اتظبطت.. "أم رامي" والحاج "إبراهيم"، البني آدم الشفاف الغير مذكور في القايمه..
- متهمد شوية ياعم "سمير".. إيه ياعم إنت غريب..
- لا طبعاً مش غريب.. معلش نسيت إني كنت بايت في الزنزانه اللي لازقة فيك عدل.. بس إنت اللي مش واخد بالك..

تعالت الضحكات واستمر الحديث المتبادل حتى مر بجانبي (مانو) العضو الرابع في فرقة الخماسي الضائع.. بعد مروره بثواني سمعت صوتاً كأن أحداً قد أصيب بوعكه أو يتألم.. اتجه نحوه الحراس.. أيقنت أنه الموعد المحدد لبدء التنفيذ وأن وقت الزيارة قد انقضي نصفه تقريباً.. بسرعة جذبت "سمير" بعد أن استأذنت من الجمع..

شيء من الحدة والعصبية بدت واضحة على صوتي وحركاتي..

- إيه ياعم بالراحة طيب بدل ما حد ياخد باله....
- استني إنت متطلعش حاجة الوقتي.. خد البتاعه دي معاك..

- فيها إيه البتاعة دي؟
- معرفش بس متفتحهاش.. حد هيكلمك تقابله وتنفذ اللي يقولك عليه.. بعد لما تخلص هتيجي تاني، هيبقي بطلب زيارة لواحد اسمه "شيحة".. هتديله الحاجات اللي هتجيبها معاك.. وكتر ألف خيرك على كده..
- طيب ما تفهمني طيب فيها إيه وهاعمل إيه؟
- مش لما أعرف أنا الأول.. أنا والله ماعرف أي حاجة.. هات بقي الحاجة اللي معاك..
- مش عارف أنا إيه كمية الحبوب اللي بتبلعها دي.. يا ابني غلط عليك كل ده.. هتموّت نفسك..
- هو أنا يعني كدا صاحي.. منا ميت أساساً من زمان.. بس محدش واخد باله..

وضع "سمير" اللفافة في جيبه والتفتنا إلى باقي المجموعة المنتظره.. لم ألتفت إلى أي منهم وتوجهت مباشرة نحو "إيمان"..

- قولي بقي إيه موضوع الحلم ده؟
- حلم حلمت بيه أكتر من مره مش عارفه معناه!
- طيب ما تقولي جايز أعرف أساعدك..

بابتسامة آسرة تخلع القلب من رقتها وعذوبتها.. نظراتها وحركاتها وسكانتها جعلتني في عالم آخر كأني قد سُحرت.. لم أسمع كثيراً مما قالت.. حتى انقطع هذا الخيط الماسي الرائع بكلمة جعلت أعصابي كلها تقف انتباه كجندي في طابور العرض..

- إيه بتقولي إيه تاني؟ معلش أصل سرحت..
- بقولك حلمت إني أنا وإنت واقفين على كوبري النيل وجت واحده عجوزه شكلها غريب ملامحها مش باينه.. بس وقفت معاك ومسكت إيدك وقعدت تقولك بكلام أنا مفهمتوش ومشيت وإنت فضلت ساكت وأنا أكلمك وإنت متردش عليَّ وبعدها مسكت إيدي وقولت لي انتي معايا ولا عاوزة تسيبيني.. وقولت لك إني معاك في أي مكان مش هسيبك أبداً وصحيت من النوم وأنا باعيط.. مش عارفه ده معناه إيه..

بالطبع هي لا تعرف ولكني أنا من يعرف.. بل يعرف جيداً جدا.. لم أكن أستطيع أن أحكي حكايتي مع العجوز، كل ما فعلته أن غيرت الموضوع بشكل ساخر في محاولة مني لتهدئة الأوضاع، بالرغم من إنذار المطافي الذي انطلق مدوياً في أرجاء جمجمتي في محاولة للسيطرة على الحريق الذي اندلع فجأة.. ألم تتشبع من كثرة الأحداث والعوارض التي انتابتك، كثيرا ما أفقد شفقتي عليك إيها العقل البائس، فلم يشقيني سواك وكثرة الأفكار والكلام..

انقضت الزيارة وانسحب الجميع بقبلات وأحضان الوداع.. لكن جميلتي انصرفت وتركت لي عجوزاً محدبة الظهر تقف الآن أمامي.. أراها بوضوح تستند على عصا غليظة في أخر الممر المؤدي إلى الزنزانة.. لماذا يا "إيمان".. ألم يخبرك أحداً من قبل أني أعلنت اكتفائي ذاتياً من الأفكار والهواجس والكوابيس النهارية والليلية..

لم يكن أمامي للقضاء على هذا الأمر سوي أن أستعين بمن هو أقوي منه ليقهره.. تناولت حبتان من المسكن مع كثير من الماء.. وبالفعل.. بعد دقائق نجح

المسكن في سحبي من عالم الألم إلى عالم الراحة.. لكن هذه المرة كان العالم مختلف عن سابقه..

فها هي العجوز المحدبة تقف أمامي مستندة على عصاها الغليظة موجهة بصرها إلي وكأني أعيد مشهد لقائي بها مرة أخري على كوبري النيل يوم أن كنت مع "سمير".. وبدأت تردد في كلماتها مرة أخري.. ولكن هذه المرة استطعت أن أحفظ المقطعان جيداً.. لكن ما الفائدة منهما، فلم يكونا غير مجموعة كلمات من ألغاز مبهمة..

هل هي رسالة تسوقها إلي هذه العجوز؟ لكني لا أفهم من تقصد ولا أدري عن أي شيء تلقي كلماتها!! سحبت نفساً عميقاً ثم أخرجته في حُرْقَة ومعها أمسكت برأسي أضغطه لعلي أنجح في إخماد ثورته.. كنت لا أجد تفسيراً منطقياً لما حدث لكن ما نما إلى عقلي أن هناك شيئاً ما ينتظرني في الأفق.. غدراً من قريب وربما أمر سوءٍ سيصيبني من شخص يدعي قربه ومحبته.. من هو؟ لا أعلم.. ومتي سيكون؟ لا أعلم..

نفضت رأسي من هذه الأفكار وسكنت آلامي بجملتي الشهيرة التي لطالما وضعتها نصب عيناي في كل وقت... " بكره مش بتاعنا لما يجي يحلها من لا يغفل ولا ينام ".. بعدها أسلمت نفسي للنوم..

****

الفصل العاشر

منزل أم رامي – السطوح – شقة "سمير".. الساعة 4:30م

يعلو صوت الهاتف الجوال الخاص "بسمير".. رقم غريب لا يعرفه.. لكنه يبادر بالرد عليه بسرعة.. فربما يكون هو الغريب الذي ينتظره.. بالفعل كان هو..

– أيوة مين معايا.. !

خلاص مش مهم.. طيب إيه المطلوب مني أعمله دلوقتي.. !!

أيوة معايا اللفة..

لا معرفش.. "حاتم" قالي مفتحهاش...

ماشي معنديش مانع أقابلك.. بس فين وامتى؟

آه طبعاً أعرفه كويس.. تمام ماشي..

المسافة تخدلها نص ساعة بالكتير.. خمسة بالظبط هتلاقيني هناك.. سلام

انتفض "سمير" مسرعاً يرتدي ملابسه ويجمع متعلقاته.. يأخذ اللفافة المغلقة التي تحتوي على أشياء لا يعلم عنها شيء.. لم يخفي "سمير" رغبته في معرفة ما بداخل هذا الشيء.. بالطبع حاول التعرف على المحتوي لكنه فشل.. استخدم تقنية الأشعة

الضوئية القديمة والمستخدمة في الكشف عن العملات المزورة.. ولكن من أغلق اللفافة وقام بطيها كان موقناً بأن "سمير" سيلجأ إلى هذه الطريقة فقام بوضع محويات اللفافة في ورقة من الألومنيوم.. فلم يستطع الضوء اختراقها.. واستسلم "سمير" لتنفيذ التعليمات..

في تمام الخامسة تحديداً.. يقف "سمير" أمام مبني القبة الفيديوية بالعباسية، مبني قديم في منتصف الشارع الرابط بين قسم الوايلى وميدان العباسية.. لم يطل انتظاره طويلاً.. دراجة بخارية وقفت أمامه لثواني كانت كفيلة بأن يركب خلف قائدها بعد إشارة منه..

وانطلقت الدراجة البخارية نحو منطقة غمرة ومنها إلى رمسيس ومنها إلى شارع الجمهورية وصولًا إلى ميدان العتبة ومنها انعطف يسارًا ناحية شارع العتبة ومنه يمينًا حتى وصل إلى شارع جانبي.. حيث تتشابك المحلات وتتلاصق الأجساد بشكل يصعب حتى على الدراجة البخارية المرور.. تركا الدراجة عند أول الشارع وانطلقا مشيًا على الأقدام حتى توارا في إحدى البنايات القديمة..

كان منزلاً قديماً متهالكاً.. ربما هو أحد بيوت سكان القاهرة الفاطمية، لكن لم يكن يهم كل هذا.. فقط كان "سمير" يتابع بشغف ويركز في كل تفصيله تحدث لربما يحتاجها يوماً.. دقائق مرت في الانتظار أمام باب الدور العلوي من هذا البيت العتيق.. حتى فتح الباب..

رجل في العقد السادس من عمره.. أحني ظهره الزمان، وطبع على جبينه ختم انتهاء الصلاحية.. لكنه لازال يعمل.. استقبلتهما هذه الشقة المظلمة إلا من بصيص

ضوء يأتي من أشعة شمس نجحت في التسلل عبر فتحة صغيرة في هذا الشباك المغلق.. مكان مشبَّع برائحة الخمر والدخان..

بدا المكان كمقبرة متكاملة المعالم.. لم يظهر أي شكل من أشكال الآدمية سوي في هذا الركن المنزوي حيث يقبع جهاز كمبيوتر وطابعة وماسح ضوئي وعدسة مكبرة وأباجورة كبيرة الحجم.. وبعض الأوراق المتناثرة وأقلام كثيرة بشكل ملفت..

رفع هذا الرجل عيناه ونظر إلى "سمير" محدقاً في وجهه، ثم فتح فمه اللزج بشكل متثاقل وبصعوبة.. كان واضحاً جداً تأثير الخمر الذي تناثرت زجاجاته في كل مكان.. ناهيك عن الرائحة الفجة المنبعثة من فمه كقطار بخاري التهم طناً من الفحم لتوه..

- مين ده يا واد يا "نونو"؟
- دا من طرف "الصياد" يا بروف..
- وريني عاوز إيه.!
- المطلوب كله في الفاتورة.. أهي يا بروف..

مد يده كمومياء تحاول الخروج من تابوت حبست فيه منذ آلاف السنين.. رفع اللفافة إلى عينية وعدل من وضع هذا الحائط الزجاجي السميك.. المدعو مجازاً بنظارة... ثم أطلق سعالاً كاد يخرج ما في جوفه ويلقي به تحت أقدامنا.. ثم رفع يديه اليسر ليمسح تحت أنفه بشكل مقزز.. قبل أن يستدير ويجلس على هذا الكرسي الجلدي المقابل للكمبيوتر والمكتب العتيق...

- آه.. تمام.. مش محتاج.. الواد أصيل..
- يعني كله في التمام يا بروف...

- إخرس بقي واترزع في أي مصيبه عندك لحد ما أخلص.. ولا أقولك.. انزل هات حاجة تتاكل أصل مكلتش من يجي..... هيء..... تصدق مش فاكر أخر مرة كلت فيها..
- مش مهم الأكل يا "بروف".. المهم التعميرة.. عندك تموين ولا اخطف أجيبلك حاجة ع السريع..
- لا يا حدق عندي.. انزل هات حاجة تتاكل وقعد الجدع اللي معاك ده في أي حته على ما اخلص..
- يا "بروف" لو هتاخد وقت الريس قايل نسيبك براحتك ونعدي عليك بكره..
- ممكن تسمعني صوت صمتك يلا.. إخفي من وشي روح هات أكل وتعالى، واستنضف يا معفن..
- كده يا بروف دنا أخر مرة جايب لك حواوشي نار.. وربنا أسطورة..
- إخفي ياد من وشي السعادي.. قال حوواشي قال.. غور ياد
- وانت ياسي اللافندي.. شوف لك أي حاجة أقعد عليها.. آه.. وخد الجواب ده ليك.. إفهم وركز فيه لحد ما أخلص..

مد "سمير" يده وأخذ الورقة.. قرأها بعناية ثم وضعها في جيبه.. إلا أن العجوز استوقفته بلهجة آمره..

- أنا قولت لك حطها في جيبك يا أفندي.. أنا قولت لك اقراها بس.. يعني تحفظها وترجعها تانى.. إنت غشيم ولا شكلك كده؟

أعاد "سمير" الورقة بعد أن حفظها قبل أن يبدأ هذا الكاره للحياة ولكل من حوله العبث بما كان في داخل اللفافة.. كانت مجموعة من الصور والبطاقات الشخصية.. لكن لم يستطع "سمير" أن يتبين من هم أصحاب الصور ولا البطاقات..

بخفة يد لا تتناسب أبداً وما رآه منذ قليل.. فالصور خرجت ثم استقرت على الماسح الضوئي.. ثم تلتها دقائق من العبث على جهاز الكمبيوتر.. وقبل أن يصل هذا المدعو "نونو " كانت طابعة الكمبيوتر تعلن عن خروج أول ورقة مطبوعة.. كان عليها سبعة بطاقات متراصة بجوار بعضها البعض.. لم يتمكن "سمير" من الحصول على أي تفاصيل إضافية..

ووصل "نونو" مع خروج الورقة التالية والتي تحمل الوجه الثاني للبطاقة.. إستدار إليه البروف.. وأطلق في وجهه بعض كلمات تدل على الحنق الشديد...

- إنت جيت يا فالح.. جبت إيه.. خلاص متقولش.. كفته.. جايب كفته! يما جاب الغراب.. يا معفن مش قولت لك مليون مرة متجبش من عند شعبان.. إنت مبتفهمش؟
- صلي على النبي يا "بروف" وربنا ريحة الكفتة كانت قالبه الشارع.. والله هتعجبك دنا كلت يجي تلات سندويتشات وأنا في الطريق..
- مانت حمار ومبتفهمش.. شعبان ده بتاع الفلاحين.. شغال في المضروب وبس.. جتك نيله.. القصد.. إترمي هنا على ما أخلص..

أمسك "البروف" بالورقة الأولي ونزع من على وجهها طبقة بلاستيكية رقيقة جداً.. كومها بيده وألقاها على الأرض.. ثم كرر العمل مع الورقة الثانية..

في آلة أخري تنبعث منها حرارة واضحة.. وضع الورقتان فوق بعضهما تماماً.. ووضعهما بين طبقتين من البلاستيك الشفاف الذي كان واضحاً عليه بعض الكتابات باللون الذهبي.. ثم مررها من داخل هذه الماكينة الساخنة.. فخرجت الورقتان من الناحية الأخرى وقد امتزجتا ببعضهما بشكل تام..

استدار بكرسيه ناحية كتلة حديدية يمتد منها ذراع حديدي ينتهي بمقبض أحمر.. وبها فتحة تشبه الشباك.. وضع خلالها الورقة وسحب الذراع.. فسقطت البطاقة الأولى محدثة طرقعة واضحة ككسر البلاستيك.. كرر هذه العملية مع البطاقات السبعة.. ثم جمعها في لفافة من ورق الألومنيوم وقام بتغليفها بشكل متقن للغاية بطبقة بلاستيكية محكمة..

لم يستغرق الأمر كله أكثر من ساعة ونصف تقريباً.. فقد بدا واضحاً جداً أن هذا البروف متخصص في هذه الأشياء ويمتلك سجل مدني خاص به يحمل كل الأدوات والخامات المطلوبة والمستخدمة.. يتفنن في التعامل معها وكأنه المختص بالسجل المدني..

الساعة الآن تشير إلى تمام السابعة مساءً..

كانت التعليمات أن يتسلم "سمير" هذه البطاقات على أن يقوم بالاتصال بشخص تم تدوين رقم هاتفه في ورقه أعطاها إليه المدعو "نونو"..

أخرج "سمير هاتفه".. اتصل بهذا الرقم.. جاءته الإجابة من شخص لم يذكر اسمه.. فقط إستمع "سمير" للتعليمات.. والتي سيتم تنفيذها في اليوم التالي..

في الموعد المحدد خرج "سمير" ومعه اللفافة الجديدة.. لم يفكر في أن يفتحها.. فقد استوعب الدرس جيداً.. خرج واتجه نحو العنوان المحدد في الزمان المحدد.. لم يَطُل انتظاره طويلاً حتى توقف بجواره تاكسي.. أشار إليه قائده بأن يركب.. وانطلق التاكسي..

مرَّت نصف ساعة كاملة منذ أن تحرك هذا الصامت الممسك بمقود التاكسي ولم ينطق بأي كلمة.. فقط يتابع طريقه.. يشق شوارع القاهرة وسط طوابير السيارات المتراصة.. بجوار قصر القبة يتخذ التاكسي طريقة يميناً ثم يساراً حتى توقف أمام عمارة سكنية تحمل رقم 20 من عمارات الدفاع الوطني بمنطقة حدائق القبة.. أشار السائق إلى "سمير" بالنزول.. استقبله رجل فتح له الباب ثم اتجه صاعداً درجات السلم.. حتى الدور الرابع.. شقة رقم (8).. طرق الباب الذي كان يحمل لوحة خشبية مكتوب عليها.. "شقة الأستاذ / "على فرحات" المحامي بالنقض "..

ثواني وفُتح الباب ليكشف عن رجل في العقد الخامس يرتدي نظارة طبية تقف بالكاد على مقدمة أنفه، تتعلق بسلسلة ذهبيه حول عنقه.. يسترق النظر من خلفها ليكشف هوية الضيوف.. دخل "سمير" الشقة بينما تراجع الثاني بدون أي كلمة.. وأُغْلق الباب...

- مرحب أستاذ "سمير".. ولا يا دكتور "سمير".. زي ما تحب!!
- أهلا بيك يا فندم.. مش هاتفرق أستاذ من غيره.. المهم أنا عاوز أعرف بس.....
- عاوز تعرف إيه بس يا أستاذ.. مش قولنا بلاش أسئلة.. إنت لحد دلوقتي ماشي تمام التمام وبتخدم صاحبك خدمة العمر..
- طيب بس أنا عاوز أعرف هو إيه اللي بيحصل وليه اللف والدوران والكلام ده كله.؟

- يا أستاذ البلد والعه والدنيا مش مظبطه وكله بيراقب كله ومحدش سايب حد في حاله..و بعدين إنت معاك بس بكره هتروح تسلم الأمانه.. ولو احتجنالك في حاجة هنكلمك..
- طيب خلاص اللي تشوفه طالما فيها مصلحة "حاتم" مش مشكله..

تقدم الرجل نحو منضدة صغيرة تحمل زجاجة مياه غازية من الحجم العائلي وبعض الأكواب.. سحب كوباً ثم ملأه ببعض المشروب وقدمه إلى "سمير" مستأنفاً حديثه: عفارم عليك.. إشرب إشرب.. شوف إنت كده تعجبني.. بكره بقي يا بطل هتاخد تصريح الزيارة ده وتطلع على اللومان.. هتطلب زيارة واحد اسمه "شيحة".. دي صورته علشان تبقي عارفه.. قدام السجن هتقابلك واحده ست فلاحة هتسلمك عمود فيه أكل.. هتاخده معاك وإنت داخل.. وهتكون معاك الشنطه دي..

- طيب فيها إيه الشنطه؟
- تاني.. مستعجل إنت يا بوسمرة.. فيها إيه يعني.. فيها غيارات داخلي وشوية جرايد قديمة.. وسجاير..
- وهدخّل جرايد قديمه ليه في السجن؟
- دي حاجة متخصكش.. واحد وعاوز جرايد قديمه هو حر.. هي ممنوعه ولا حاجة لاسمح الله!! هتخلص زيارتك وتمشي.. آه نسيت.. اللفة دي هتكون في جيبك.. هتطلعها وتسلمها له في الخباثة كده من غير ما حد ياخد باله.. تمام زي ما بتسلم البرشام لصاحبك في الزيارة كده.. متستغربش.. أصل الدنيا دي صغيره.. وكله بيتجسس على كله..

بالطبع وصل "سمير" نصيبه من الخوف مثلما حصلت على نصيبي عندما أخبرني "الصياد" بهذه الكلمات.. معني هذا أنهم يعلمون كل شيء لكنهم يغضون الطرف عما يريدون ويفضحون ما يريدون.. حقاً إنه عالم آخر.. عالم ما وراء الأسوار..

* * * * * * * * *

اليوم التالي: 9يناير 2011–الساعة 9:00ص أمام بوابة السجن..

ينزل "سمير" من التاكسي أمام بوابة الليمان.. وما هي إلا لحظات حتى اقتربت منه سيده تحمل عمود طعام في يدها.. وقفت أمامه مباشرة.. ناولته العمود.. ثم انصرفت..

تلفت "سمير" يميناً ويساراً.. كان خائفاً من أن أحداً يراقبه.. وكيف لا.. فقد انكشف أمر الأقراص التي يمد بها "حاتم" وقد كان يعتقد أنه ماهر في التخفي والخداع.. لكنه الآن أدرك وبكل تأكيد أن كلمات هذا المحامي صحيحة.. فالكل يراقب الكل..

نفض عن رأسه هذه الأفكار وتوجه نحو بوابة الزيارة.. وبعد إبراز التصريح وبطاقته الشخصية.. تم تفتيش كامل محتويات الحقيبة وعلب الطعام.. لم يكن مهتماً بما يقوم به العساكر من عملية تفتيش.. فهذا عملهم.. لكن ما استوقفه وجعله يذهل حقاً.. عندما سحب العسكري بعض من الجرائد القديمة ووضع بدلاً منها شيء آخر لم يستطع "سمير" أن يلاحظ ما هو.. لكن كان الأمر أشبه بمفاجأة لم يكن يتوقعها.. أهذا الحد بلغ هؤلاء.. إنهم يسخرون كل شيء لخدمتهم حتى حراسة السجن.. الآن

أيقن "سمير" أنه لا يتعامل مع فرد أو مجموعة.. أنها منظومة متكاملة وليس من المستبعد أن يكون وجودهم في هذا السجن لغرض معين..

أفاق "سمير" من خيالاته على صوت الحارس يسمح له بالدخول مشيراً له على طريقه الذي سيسلكه.. دخل "سمير" إلى غرفة الزيارة والتي يعرفها جيداً لكن هذه المرة لم يأتي "حاتم" صديقه.. وإنما لشخص آخر..

دخل "شيحة" مبتهجاً ومسروراً.. استقبله بالأحضان الحارة التي تجعل من يراه يوقن أنهما صديقان حميمان افترقا لسنين طويلة وهذا مجرد تعبير عن الشوق والفرح المتبادل.. هكذا تمت المقابلة.. وتم تسليم جميع المتعلقات..

- حمد لله على سلامتك يا أستاذ..
- الله يا سلمك يا معلم "شيحة"..
- عنده حق الواد "كراتيه" يقول عليك صاحب صاحبك..
- كتر خيرك يا معلم والله.. المهم بس كنت عاوز أعرف ليه كل اللف ده؟
- هتعرف كل حاجة يا أستاذ.. بس متستعجلش.. المهم اللي عاوزينه منك بقي تبقي مصحصح معانا اليومين اللي جايين دول..
- ليه يا معلم خير؟
- كل خير يا حبيبي.. بس الأمر ما يسلمش.. نعوز منك حاجة كده ولا كده.. لما نعوزك هنكلمك..
- طيب وهو "حاتم" عامل إيه الوقتي؟
- لا تمام.. "حاتم" تمام بيسلم عليك.. هو الوقتي قاعد معانا.. يعني في الحفظ والصون..

- يبقي علشان كده بقي!
- لا.. تقصد موضوع البرشام يعني.. لا طبعا دا معروف من زمان.. زي ماحنا عارفين عنك كتير يابو "سارة".. مش أبو "سارة" برضك؟

للمرة الثانية على التوالي يستقبل "سمير" لكمة خطافية جانبية مباشرة في وجهه أفقدته الاتزان.. لكن هذه المرة لم يستطع أن يقاوم... أذهلته المفاجأة حتى أنه لم يستطع الرد عليه..

- إيه يا عمنا إنت اتاخدت ليه كده.. مش بقولك الدنيا دي صغيرة والناس مبتسبش حد في حاله..
- إنت عرفت بنتي منين.. وتعرفني أصلاً منين.. أنا أول مرة أشوفك؟
- عندك حق يا بوسمرة.. مهي حاجة تجنن برضه.. واحد عنده بنوته زي القمر كده ويسيبها هي وأمها ويروح يسكن في السطوح.. أكيد الحكاية فيها سر!! أقولك اللي ستره ربه العبد ما يفضحوش!! قوم يا أستاذ توكل على الله شوف اللي وراك.. بس اللي حصل ده أوعي حد يشم بيه خبر.. وإلا.....
- لا أبداً والله.. عمري.. والله ما هنطق بأي كلمه..
- أيوة كده يابوسارة.. إنت راجل عاقل وميخلصكش القديم يتفتح وكل واحد فيه اللي مكفيه.. مش ناقصة فتح دفاتر قديمة..

لم تستغرق المقابلة وقتاً طويلا لكن ما خرج به "سمير" هو أن يبقي على انتظار.. لكن كل هذا في كفة وما تلقاه "سمير" من قنبلة انفجرت في وجهه.. وهذا التهديد الصريح والواضح من "شيحة" له بفضح أمور من الماضي اجتهد "سمير" طيلة هذه الفترة أن يخفيها عن العيون والناس..

بعد الزيارة – في الزنزانة...

كنا نحن الخمسة ننتظر عودة العضو السادس من الزيارة ليخبرنا بما تم.. وبالفعل.. عاد "شيحة" حاملاً في يده اليمني حقيبة وفي يده اليسرى أوعية الطعام، التي ما لبثت أن تحولت إلى حطام في ثواني معدودة.. وجلس الجميع.. "شيحة" و"سالم" متجاوران والباقين يشكلون نصف دائرة أمامهم.. وبدأ "سالم" بالحديث عما نحن مقدمون عليه..

– لحد دلوقتي الأمور ماشيه تمام التمام.. بصوا بقي يا رجاله.. الدنيا حوالينا بتتغير بسرعة وكل يوم في حاجة جديده بتحصل، محدش عارف بكره جايب إيه.. اللي عاوزة منكم تبقوا في ضهر بعض.. يوم ما نقول يلا يا رجاله لازم نكون مع بعض بالخطوة، محدش يسبق زميله ولا يتأخر عنه.. تمام

– أنا هقف من بعيد أراقبكم.. عاوزكم تتعاملوا من غير ولا كلمة.. اللي يبص للتاني يفهمه من عنيه.. هنفضل كده شويه.. لحد ما أقولكم هنعمل إيه تاني..

الطريق إلى إيلات.. نبيل الحلفاوي مع عزت العلايلي يجلسون ويلقنون أفراد الطاقم تعلميات تنفيذ العملية الجديدة.. نفس المنظر ونفس الطريقة والأسلوب.. لم يكن أحد يعلم ما نحن مقبلين عليه.. لكن هنا القواعد معروفة.. الأوامر تنفذ بدون مناقشة، هنا دولة القانون والالتزام على عكس خارج الأسوار..

انقضي الاجتماع.. لم أفهم كثيراً مما قيل.. لكني لم أكن أفضل حالا من الباقيين فكل الجالسون لم يحاولوا أن يفهموا أي شيء.. فقط استمعوا لكلام "شيحة" و"الصياد" وانتهي الكلام وبدأ التنفيذ فوراً..

****

الفصل الحادي عشر

في غرفة الرائد "طارق"..

يجلس "طارق" منهمك في قراءة بعض الأوراق.. مشعلاً سيجارته وأمامه فنجان من القهوة.. تمتزج رائحة القهوة مع الدخان مع موسيقي أغنية " سكن الليل " لقيثارة الطرب فيروز..

يقطع هذه الحالة رنين الهاتف، يظهر اسم "حسام" مع نغمة وطنية انطلقت في أرجاء الحجرة.. أفسدت ما قامت به السيدة فيروز.. يرفع "طارق" الهاتف..

- أيوة يا "حسام"... أخبارك؟

لا ولا يهمك.. خير في جديد ولا إيه؟

يا راجل.. طيب بص مسافة السكة..

لا لا لا.. اصبر بس أنا جايلك..

ياعم شغل إيه هو الشغل بيخلص.. أجيلك فين بس قولي..

إنت إيه ياعم مبتشبعش.. خلاص.. ساعة بالظبط وأكون هناك..

طيب ماشي.. خلاص يبقي على الساعة أربعه تمام..

ماشي. بس على الله تكون الحكاية تستاهل...

هعمل إيه يعني.. ولا حاجة.. خلاص لما أجيلك نتفاهم.. سلام

****

نفس المطعم السابق.. تقف سيارة "حسام".. بلونها الأسود وزجاجها المعتم والذي يجعل منها كتلة سوداء لا تكاد تميز أي شيء بها.. ناهيك عن النسر الذهبي الضخم الذي احتل مساحة كبيرة من الزجاج الخلفي قضي به على أي أمل في التعرف على ما يجري بداخلها..

بخطوات يملأها الزهو يتقدم "حسام" مرتدياً نظارته الشمسية العريضة وسيجارته التي تقريباً قد ولد بها.. مع ميدالية مفاتيح يتعمد أن يحركها لتحدث صوتاً يلفت انتباه الجميع إلى مروره.. خطوات قليلة كانت تفصله حتى دخل من باب المطعم.. دار ببصره بين الجالسين حتى وقعت عيناه على "طارق" الذي جلس مشعلاً سيجارته.. فيما بدت الطاولة مستعدة لانطلاق صافرة بداية مبارزة جديدة في الافتراس..

- الله عليك يا طاروق يا حبيبي.. تصدق بالله إنت أجدع صاحب شوفته..
- وإنت اتأخرت.. إنجز بس علشان الأكل هيبرد..
- تصدق باللي خلقك أنا كنت متأكد إني هاجي ألاقيك قاعد والأكل جاهز.. بس كنت بكدب نفسي..
- لا يا خويا متكدبش.. الأكل قدامك.. كل بسرعه بقي خلينا نشوف إنت عاوز إيه.. وإيه الجديد اللي عندك..
- أوبا يا "طارق" لو عرفت اللي أنا عرفته.. تصدق بالله.. والله ولا قصص ألف ليله وليله.. ولا إبليس اللعين نفسه يعرف يخطط زي حبيبك!
- تقصد "الطحان"؟
- "طحان" إيه بقي.. قول جراح.. قول سفاح.. متمشيش معاه "طحان" دي خالص..
- إنت كده شوقتني.. انجز بقي بدل ما أخليهم يشيلو الأكل ومتكولش غير لما تحكي لي..
- لا وحياة والدك.. أنا واقع والله من صباحية ربنا وأنا على قهوة وسجاير لما حاسس إن معدتي اتخرمت من كتر القهوة والسجاير..

شمَّر الرجلان عن ساعديهما وأطلقا لهما العنان يعيثون في أرجاء الطاولة فساداً.. يقضون على كل ما تطاله أيديهم وكأنهم لم يسمح لهم بتناول طعام منذ آخر مرة كانوا فيها سوياً... بالطبع لن يغفل التاريخ الدور البطولي لزجاجات المياه الغازية التي انهمرت في جوف هذان المفترسان لتفسح طريقاً إضافياً لبعض الكميات الإضافية في هذه الأمعاء الجائعة..

وكما حدث في المرة السابقة تكرر الأمر بحذافيره.. فما أن فرغت الطاولة من الطعام حتى بدأ الشوط الثاني من المباراة "حرق التبغ" وبدأ "حسام" يروي ما وصل إليه من معلومات..

- بص بقي ياعم "طارق".. علشان تعرف بس إن إنت ابن حلال..
- خير ياعم.. اشجيني...
- بص يا سيدي.. وأنا قاعد لا بيا ولا عليَّ.. والله زي ما بقولك كده.. ألقي "صول " اسمه "مطاوع".. منقول من قسم الخليفة للقسم عندي.. نقل سكنه ومدارس عياله وقدم طلب والوزارة وافقت.. ولقيت المحروس داخل على بيعرفني بنفسه.. بصيت في الملف بتاعه لقيته كان بيخدم مع مين؟؟
- مع "الطحان"؟
- عليك نور.. أنا سمعت منه "الطحان" وقولت له حبيبي.. إنت وقعت من السما وأنا استلقيتك..
- طيب مانت عارف انه عمره ما هيحكي حاجة.. ولو حتى يعرف مش هايقول..
- على مين يا "طاروق".. إنت نسيت يابني مين هو "حسام عادل"؟

- لا طبعاً.. أنا منستش مين "حسام عادل".. بس برضه فاكر كويس مين هو "سعيد الطحان".. اللي لو بس شم خبر إن حد طلع سره.. هيخفيه من الوجود.. ولا إنت ناسي؟

اعتدل "حسام" وألقي بظهره إلى نهاية المقعد ورفع قدمه ليضعها على الأخرى مشهراً سيجارته في وجه "طارق" وبعد نفس عميق حول المسافة بينهما إلى سحابة شتاء ممطرة تكاد تحجب الرؤيا..

- يا حبيبي الشغل في المباحث غير الشغل في السجون.. يعني العسكري ولاَّ الصول بيكون معاك قاتلين شاربين سارقين مع بعض ولم تمشي ويجي اللي بعدك تبقي ابن ستين كلب وظالم ومفتري وإن الجديد ده هو ملاك الرحمة اللي ربنا بعته علشان يخلص القسم من الظالم المفتري اللي مبيخافش من ربنا.. والجديد يمشي نفس القصة.. دي بقي سياسة مسح الجوخ.. طاطي تعيش.. هي ماشيه كده..
- طيب وبعدين بقي حكالك إيه بقي "مطاوع " ده؟؟
- شوف ياعم.. "مطاوع" ده كان مع القوة اللي قبضت على "شيحة".. شوفت بقي ربك لما يريد.. يجيب لك الدليل لحد عندك.. طبعا دليل ولا له أي تلاتين لازمه.. بس على الأقل يفتح السكك وينورنا..
- ليه بقي ملهوش لازمه.. دا شاهد إثبات.. ورئيسي كمان..
- ياعم إنت مش لسه قايل بعضمة لسانك لو "الطحان" شم خبر إن الجدع ده طلع سره هايخفيه.. الكلام ده يتقال كسب ثقة.. ممكن.. إثبات ولاء.. يلعب انه يبقي الراجل بتاعي في القسم.. أكيد إنت فاهم يعني..
- بس دا طلع ولا نزل دا "صول" هيعمل إيه يعني؟

- لا بيتهيأ لك.. في المناطق الشعبية المعدومة.. الصول عندهم يعادل لواء بنجومه ونسوره ودبابيره في أي منطقه راقية.. كل واحد وعلامه.. بالك الصول ده ينزل يثبت المنشية بفرد طبنجة حلوان أهبل ولوحده..
- طيب ياعم الإمبراطور.. وصلت لإيه؟
- الأول إديته الأمان وعشمته جامد والجدع مخيبش نظرتي.. هو جاي طماع وعاوز يتشعبط ويوصل.. حكالي بالتفصيل على موضوع "شيحة" و"الوزير"..
- قالك إيه بقي.. احكيلي!
- شوف.. "الوزير" كان شايل ليله كبيره قوي لناس كبيره.. طبعا هو ميعرفش مين هم بس الكلام بيوصل وانت فاهم الجو بتاع الأقسام..
- أيوة ماشي مفيش حاجة بتستخبي!!
- عليك نور.. المهم.. أتعرف إن "الوزير" هو المورد بتاع البلطجية وبدأ العيال بتوع الفيس بوك يعملوا قلق وأثبتوا بالصور علاقة "الوزير" مع "الطحان" في أكثر من مكان.. فكان لازم "الطحان" يخلص من مين؟
- أكيد لازم يخلص من "الوزير" علشان محدش يمسك عليه حاجة؟
- طيب ولم يخلص من "الوزير" مين بقي اللي هايشيل الليلة في الانتخابات وباقي المصالح اللي "الوزير" أخد شهرته بيها أساساً..
- مش عارف.. قول إنت!
- أقولك أنا.. الحكاية بدأت من خناقه بين" الوزير" ورجالته.. وكان الكلام الكبير مع "شيحة".. ليه بقي؟ لأن "شيحة" كان مشكوك في إنه بيسرب أخبار "الوزير" بره..
- طيب ما خلصش على "شيحة" ليه وانتهت القصة؟

- لا.. بص العيال دي بكل وساختها بس كل واحد وله عازه، يعني الكارت اللي مش هتحتاجه النهاردة بكره ممكن هو اللي يخليك تشيل الترابيزه.. فالكلام الوقتي بقي على إيه..
- على إيه.. دي ملهاش حل!
- بالنسبة لك ملهاش بس بالنسبه "للطحان" ليها.. أقولك.. بعت اللي يسخن "شيحة" وخلاه يعلي صوته على "الوزير" ويهدده قدام كل الناس.. وفي نفس الوقت.. اتفق مع "الوزير" انه هايخلصه من "شيحة" اللي عامله له صداع وهو بعيد.. واتصل "بشيحة" عن طريق واحده.. قالت له اللي أنا قولتهولك وانه يروح الشقة وكده..
- تمام.. فاكر.. وده اللي قاله "شيحة" بالظبط..
- عليك نور.. "شيحة" مكذبش.. لأن ده اللي حصل فعلاً.. دخل "شيحة" لقي "الوزير" سايح في دمه.. والمطوه اللي مضروب بيها شبه مطوته بالملي.. طبعا دي متقلده بس علشان تخليه يشك ويدخل يمسك المطوة..
- تمام.. كده متفصلة صح...
- إتقل بقي خد الكبيرة..
- كبيرة إيه هو لسيه فيها كبيره..
- أومال ده كل اللي فات ده كوم واللي جاي كوم تانى...
- قول ياعم إيه الكوم التانى؟
- الكوم التاني.. إن "الوزير" ماتقتلش!!
- نعم؟ إنت بتهزر بقي.. مش كده؟

- والله دا اللي حصل. دخل "الطحان" والرجالة على "شيحة" وهو ماسك المطوة و"الوزير" مرمي على الأرض غرقان في دمه.. طبعاً مش محتاجة كلام.. وقضية متروقه ميت فل واربعتاشر.. والقصة اتظبطت بلاغ من مجهول يفيد انه في نية من "شيحة" لقتل "الوزير" في العنوان.. والقوة اتحركت بس للأسف وصلت بعد وقوع الحدثه..
- طيب يعني الحادثه وقعت.. أومال إيه بقي متقتلش دي..
- أفهمك.. "الوزير" كان متفق على الحركة دي مع "الطحان" على انه يعمل نفسه مقتول.. واتعمل له حاجة زي بتاعت الأفلام اللي هي بيطلع منها الدم ويسحب السكينة منها كأنها في الجسم..
- وبعدين ياعم المخرج.. والله أنا حاسس إن هاطلع أنا اللي قاتل في أم الليلة الطويلة دي..

يطلق حسام ضحكه عاليه ويسحب نفس من سيجارته: إنت مستعجل ليه.. لسه التقيل ورا.. انت لسه شوفت حاجة!!

- هو فيه أتقل من كده.. لا كده حرام..
- بعد ما الرجالة سحبت "شيحة" زي الخروف ولبس المصلحة.. قام "الوزير" واتفق على شغل جديد مع "الطحان".. وإلى الآن "الوزير" بيعمل أعلي شغل مع "الطحان" ومع اللي فوق "الطحان" كمان. بس مكانه ولا هو فين، محدش عارف حاجة عنه خالص..

ألقي طارق بسجارته في الطفاية ورفع كفيه موجهاً إياهم إلى وجه "حسام".. وقام بالتصفيق..

- الله.. رائع.. بجد أنا لو مكان القاضي وقدامي قضية زي دي أديله براءة ومكافأة..
- اصبر بقي لسه مخدتش الكبيرة..
- لا ياعم معدتش عاوز أخد حاجة.. دا كده "الوزير" يعمل أي حاجة وهو على الورق ميت.. يعني لو العيال بتوع النت اتشقلبوا وجابو صوره ولا فيديوهات له مع الرئيس نفسه.. هتبقى متفبركه وإضرار بالأمن القومي والكلام ده..
- لا دا لو إتمسك متلبس بأي حاجة.. قتل ولا سلاح ولا مخدرات ولا أي مصيبه.. هايطلع منها في لحظة.. ببساطه لأنه شبح.. مش موجود.. يراجل دي اتعمل له عزا وصوان وليلة كبيرة.. دا مكنش ناقص غير المحافظ يمشي في جنازته..
- طيب اديني بقي الكبيرة..
- اه.. طبعا خبر قتل "الوزير" نزل في الجرايد وجنبها صورة "الطحان" والشرطة تتمكن من القضاء على أكبر مجرم وشقي والكلام ده..
- ماشي كل ده علشان التصوير.. المهم بقي..
- والمهم الوقتي في حوار أنا ماشي وراه لو عرفت أوصل له هيبقي ضربه للكل.. من عند الرأس الكبيرة ومروراً ببعض رجالة الدولة التقيلة قوي، بس أنا شغال مع نفسي كده.. لو شم خبر هاتشيع.. إنت عارف الناس دي اللي يقرب منها مش يتلسع.. دا يختفي..
- ربنا يستر بجد إنت مش عارف إنت خوفتني إزاي.. يعني معني كده إن أنا عندي في السجن عصابة متصلة اتصال مباشر بقيادات في الوزارة.. يعني في

أي لحظه تحصل مصيبه ولا حد يطول معاهم حق ولا باطل..لا.. و"شيحة" ده كمان اللي كان رامي نفسه وعامل حبيبي وبينقل لي الأخبار.. أتاريه جهاز مخابرات وأنا معرفش..

- يلا ياعم.. مش بعيد يكون متجهز لك قضية ومتستفه مستنيه بس تشرف ويشدوك.. الناس دي ملهاش عزيز..
- بس في ربنا يا "حسام" إنت نسيت إن ربنا ما يرضاش إن الظلم يوصل للدرجة دي..
- الظلم ضرورة في الحياة ياعم "طارق" علشان المظلوم يفضل يدعي على اللي ظلمه ويبقي فيه خير وشر وجنه ونار... لو كل الناس بقيت ملايكه أومال الشياطين هتعمل إيه.. تقعد عواطليه..
- لا الشياطين الوقتي تتعلم من أمثال "الطحان".. ابن العفاريت.. دا طلع أسطورة بجد..
- طيب أنا اللي نفسي أفهمه بقي البت اللي اتقتلت كانت مرمية على "اللوا مجدي" علشان إيه بقي؟
- أقولك يا سيدي.. دي الكبيرة اللي كنت هاقولك عليها.. "اللوا مجدي" من الرجالة التقيله.. ومن الناس الدوغري اللي مبيعجبهاش أسلوب "الطحان" واللي زيه.. طبعاً كانوا عاملين زي ناقر ونقير.. فرموا عليه البت دي في بيته وكانت بتنقل كل حاجة بتحصل بالملي..
- دا كده يعني طلعوه من الخدمة وهو في مكتبه!!
- الله ينور عليك.. وهم شغالين بالمثل.. الأيد اللي متقدرش تعضها بوسها..
- طيب ميقدرش يعضها ليه.. دا مسنود من الكبار.. يعني بسهوله يطيروه..

- ياحبيبي إفهم.. لازم يبقي عندك الحلو والوحش.. الحلو له عازه والوحش برضه له عازه.. مينفعش كله وحش.. وبرضه ما ينفعش كله حلو.. لازم تبقي مشكل..
- طيب و"الوزير" بقي ولا المرحوم ده فين دلوقتي.. مصيبه ليكون شغال باسم حد تاني..
- ومصيبه ليه.. هو دا فعلا اللي حاصل..
- نعم.. ويطلع مين بقى بسلامته إن شاء الله؟
- لا.. لحد هنا واستوب بقي.. ليه؟ علشان الراجل الوقتي بقي معاه حصانه.. يعني تركن على جنب وتستني دورك..
- يعني إيه متحصن؟
- يعني خلاص كل اللي عمله راح والوقتي بيعلب في النور ومحدش يعرف يكلمه.. انسي يا صاحبي.. البلد دي عاوزة ثورة بجد.. علشان حالها يتعدل.. زي ثورة بونابرت كده.. يجيبوا "الوزير" واللي وراه ويتعلقوا على باب زويله... إنت الوقتي تاخد بعضك وتطلع على مكتبك وتنسي كل حاجة أنا قولتهالك.. ولا كأنك سمعت حاجة وركز في شغلك وخد بالك من التعبان اللي إنت مربيه في حجرك بدل ما يعضك ويخلص عليك وإنت مش دريان..

خرج المصدوم ومصدر المعلومات من المطعم واستقل كل منهما سيارته وانطلق كل منهما في طريقه.. "حسام" كان منتشياً بهذه الوجبة الدسمة وما حصل عليه من إطراء غير مباشر على قوته وحنكته كضابط مباحث مخضرم من طارق الذي شعر بأنه يعيش في بركة من الثعابين والتماسيح تنتظر الفرصة لتقتنص أي فريسه ضعيفة تقترب منها دون رحمة أو هوادة..

****

الفصل الثاني عشر

تتوقف سيارة BMW سوداء – موديل 2011 أمام إحدى البنايات الشاهقة المطلة مباشرة على نيل القاهرة.. رجل في العقد الرابع من العمر.. يرتدي قميصاً أسود مع بنطالون جينز أسود.. تظهر جلياً طبنجة محشورة داخل إطار البنطالون من الخلف.. يرفع نظارته الشمسية لتغطي مساحة كبيرة من وجهه قبل إن يعطي الإشارة إلى أبواب سيارته لتغلق باستخدام الريموت..

يدخل إلى العمارة ويستقل المصعد بعد أن يحظى بتحية خاصة جداً من رجل الأمن الخاص بها.. يستجيب لهذه التحية بإشارة من أصبعين فقط من يمينه.. قبل أن يغلق باب الأسانسير خلفه..

يتوقف الأسانسير عند الطابق الرابع.. حيث لافتة نحاسية بارزة.. مصممه بعناية.. (شركة بلازابيتش للاستثمار العقاري والمنتجعات).. ما أن دخل باب الشركة حتى انتفض حارس الأمن الجالس بجوار الباب ليؤدي التحية ويصحبه عبر ممر إلى غرفة المدير مباشرة.. حيث استقبلته السكرتيرة الحسناء بكل ترحاب.. الجميع يتفاعل ويبدي التحية دون انتظار الرد من هذا الشخص الجامد الملامح الذي لا يكترث كثيراً لما يدور حوله..

يدخل مباشرة إلى مكتب المدير ويغلق خلفه بعد أن سمعت السكرتيرة أمراً مباشراً بعدم السماح لأي شخص بالدخول مهما كانت الأسباب..

- يا مرحب "سعيد" باشا.. منور والله..
- منور إيه بس يا "شوقي".. إنت غرقان في العسل ومش داري باللي بيحصل حواليك!
- خير بس يا باشا.. إيه اللي حصل ما كل الأمور متستفه وفل الفل.. ولسه جايلي أخبار فل على دخلتك ووشك الحلو..

يتقدم "سعيد" نحو المكتب ويضع نظارته ومفاتيحه.. ثم يتحرك نحو ثلاجة صغيرة في ركن المكتب يخرج زجاجة مياه.. يفتحها ويشرب منها القليل.. ثم يلتفت: أخبار فل إيه بس؟ طمني الأول عملت إيه في العيال اللي قولت لك تجهزهم لي على اليومين الجايين؟

- يا باشا كله تمام وطول ما سيادتك معانا ولا تقلق ولا تشيل هم.. أنا جمعت لك حوالي 3000 راجل من اللي قلبك يحبهم.. لو رميتهم في النار ولا حد فيهم يفتح بقه.. كل واحد فيهم كفاءة يقفل حي بحاله..
- طيب كويس.. والسلاح.. أنا عاوز السلاح يبقي خفيف وسلاح أبيض.. اللي هايشيل سلاح نار يبقوا معروفين.. وتحددهم لي قبلها..
- يا باشا إنت قلقان ليه بس.... هي الحكاية دي جديده علينا ولا إيه؟
- طيب تمام.. إيه بقي الخبر التمام اللي كنت بتقول عليه؟
- آه.. وصل شوية سلاح بس إيه.. حاجة من النقاوة.. جايه من ليبيا.. رجالتنا هناك شفروا مخزن سلاح كامل من بتاع "القذافي".. وحولوه بالفتفوته على هنا.. لسه قافلين معايا من شويه.. دخلت فعلا الحدود وفي طريقها للمخازن..
- طيب تمام.. حلو الخبر ده هروح الوقتي أبلغه للباشا..
- بس يا باشا.. إنت جاي بنفسك هنا علشان الكلمتين دول وبس.. أكيد في حاجة أهم!!
- آه طبعاً.. مانت لسه فايق وصاحي أهه..
- تليمذك يا معالي الباشا.. قولي!!
- مفيش.. كنت جايلك علشان في عيال بتششم حواليك وعاوزين يعرفوا أصلك وفصلك.. فكنت جاي أشوف الموظفين عندك.. بصه على الماشي كده.. ليكون حد زارع لك عصفورة ولا حد بيبلغ أخبارك..
- عيب يا باشا.. الكلام ده وحش في حقي والله.. مش "شوقي" اللي ممكن حد يستغفله ولا يحط له عصفورة في مكتبه..

- اهدي يا "شوقي" واعقل.. البلد مش ناقصه واليومين الجايين دول يمكن الدنيا كلها تتقلب فوق على تحت..
- لا.. من الناحية دي ما تقلقش نهائى.. سيب كل حاجة على العبد لله..
- طيب والتحويل الأخير اتأخر ليه؟؟ مش كان معاده أول إمبارح!! إشعار البنك لحد الصبح مكنش المبلغ دخل الحساب.. مش خير؟
- يا باشا والله إنت كده بتزعلنى.. يعني أنا لو اتأخرت عن الدنيا كلها.. هاتأخر عن معاليك.. يا باشا داحنا عايشين على فضلة خيرك وفي حمايتك.. التحويل وصل يا باشا من ساعة.. لو عملت استفسار من البنك هتلاقى الرقم موجود في الحساب.. زي الاتفاق..
- تمام.. عفارم عليك يا "شوقي".. المهم خلص اللي قولت لك عليه، آه والباشا الكبير بيقولك بلاش موضوع التليفزيون ده.. خف شويه علشان الدنيا قلق.. مش ناقصين قلق.. ماشي..
- تعليمات سعادتك أوامر ياباشا.. طمن الباشا وقوله اعتبر "شوقي" اختفي من الوجود.. مش هايشوف وشي تاني لا في تلفزيون ولا راديو..
- أحسن برضه.. على الأقل لما الأمور تتظبط والحال يهدي شويه....
- طيب قهوة سعادتك يا باشا..
- لا ملهاش لازمه.. هشربها عند الباشا.. سلام بقي
- في أمان الله ياباشا..

لم تكن الزيارة وديه بالفعل كما توقع شوقي (الوزير) فقدوم "سعيد الطحان" إلى مقر شركته ليس بالأمر السهل.. لا يفعلها كثيراً..

ما أن خرج "سعيد" من المكتب وودعه "شوقي" حتى باب الأسانسير.. حتى عاد "شوقي" إلى مكتبه.. يصب اللعنات على هذا "الطحان" الذي سيظل نقطة سوداء في حياته.. "فالطحان" هو مالك زمام "شوقي" وصاحب لجامه.. لا يستطيع أن يتنفس بدون إذن منه، وكيف لا.. فشوقي ما هو إلا دمية صنعها "الطحان" لكي يختبئ ورائها ويجني ثمارها وهو غير موجود في الصورة.. فقط يربح دون عناء..

يضغط "شوقي" زر استدعاء السكرتيرة الحسناء.. فتدخل إلى مكتبه مسرعة وتغلق الباب خلفها..

- "ميادة".. جهزي لي حفله كبيرة في الفيلة بتاعت التجمع.. وبسرعة..
- طيب والمناسبة إيه يا فندم؟
- مناسبة إيه يا "ميادة" انتي كمان.. اتصرفي.. عيد ميلاد.. طهور.. سبوع.. أي حاجة..
- خلاص يا فندم فهمت..
- لا استني.. أنا مش عاوز حد يتنسى من الكبار.. جهزي لي كشف المدعوين وهاتيهولى أراجعه.. عاوز برنامج حفل يهبل.. وابعتى لي "مجدي".. بسرعه
- طيب الحفلة عاوزها امتي يا فندم..
- امتي إيه.. باقولك مسافة التجهيز.. يعني لو بكره.. ولا أقولك.. هو النهاردة إيه في الأيام..
- النهارده الاثنين 17 يناير..
- حلو قوي.. يبقي يوم الخميس الجاي.. حلو الخميس قوي، وركزي ماشي ومش عاوز أي غلطات نهائي..

– أوامر سيادتك يا فندم..

لم يكن "شوقي" سوي الوجه الجديد "للوزير".. وجه صنعه "سعيد الطحان" بيديه حتى يستتر خلفه.. فبعد أن خرجت جثة "الوزير" على صفحات الجرائد وبجوارها البطل.. "سعيد الطحان".. تحول "الوزير" من بلطجي وخارج عن القانون.. إلى رجل أعمال.. تمتد أفرع شركاته امتداد النيل على أرض المحروسة..

لم يدم الأمر أكثر من عامين بعد الإعلان عن عودة رجل الأعمال المصري "شوقي الموجي" بعد رحلة كفاح في هولاندا.. عاد ليستثمر أموال غربته في تنمية اقتصاد بلده.. وبالطبع تم تجهيز الاستقبال اللازم به وتنفيذ فلتره إعلامية حتى يستقبل هذا البطل الجديد، الذي امتدت استثماراته لتطال كل ما تقع عليه عينيك في مصر.. فمن منتجات ألبان إلى تصنيع لحوم ومواد غذائية مروراً بالسياحة وانتهاء بالنشاط المعماري والمقاولات.. مجموعه شركات لمجموعة مستثمرين يرأسها هذا الرجل الفاضل الذي استطاع وبعد استجابة وتلبيه لرغبات الشعب أن يمثل أبناء دائرته في مجلس النواب.. فاجتاز الاختبار البرلماني بامتياز عن دائرته.. وحصل على الحصانة في انتخابات2010..

لم تكن أنشطة "شوقي الموجي" سوي ستار لما ينفذ في الخفاء.. فقد كان مجرد أداء يلعب بها الكبار.. حاله كحال عادل أدهم.. " إدبح يا زكي قدرة.. يدبح زكي قدرة.. اقتل يازكي قدرة.. يقتل زكي قدرة.. " كان عبد المأمور.. فقط ينهي الصفقات والاتفاقات ثم يقوم بتوريد الأموال لأصحابها الأصليين في حسابات بنكيه بأسماء ذويهم وفي كثير من الأحيان بأسماء وهمية..

لم يشعر هذا الرجل بالأمان في يوم من الأيام فسلاحه يرافقه حتى في أحلامه.. وحراسة وأمن يلازمانه كظله... ربما لأنه يعلم حجمه الحقيقي ويعلم مع من يلعب.. ربما.. وربما أيضاً لعلمه أنه مجرد ورقة لا أصل لها في أرض الواقع.. ورقة يمسكها "الطحان" ومن هم خلفه.. ورقة لو تم تمزيقها لانتهى "شوقي الموجي" من الوجود.. كان يعلم يقينا أنه لا يتعدى هذه الورقة التي استصدرها له "الطحان" كشهادة ميلاد تحول على أثرها من "الوزير" البلطجي الشقي.. إلى "شوقي" بيه من أهم وأكبر رجال الأعمال..

****

مديرية أمن القاهرة...

تمتد خطوات "الطحان" باتجاه أحد المكاتب.. بخطوات ثابته.. وإشارات تحيه يوزعها يميناً ويساراً.. حتى وصل إلى مكتب فتح أمامه مباشرة وكأنه كان على موعد مسبق وفي انتظاره...

- صباح الفل يا معالي الباشا!
- صباح الخير يا "سعيد".. طمني عملت إيه؟

- كله تمام سعادتك.. أنا مش عارف إيه بس اللي قالق سيادتك كده.. يا باشا كله تمام
- قابلت "شوقي".؟
- سعادتك أنا لسه جاي من عنده حالا.. واتأكدت من كل حاجة بنفسي.. معاليك عارف اني مبحبش أسيب حاجة للظروف.. سعادتك علمتني إني أنا اللي أعمل الظروف..
- ماشي يا "طحان".. و"حسام" و"طارق" عملت معاهم إيه؟ مش عاوز شوشره إنت شايف البلد عامله إزاي.. أي كلمه ولا معلومة ممكن تطلع دلوقتي فيها رقاب..
- يا باشا إحنا فدا رقبة معاليك.. جنابك بس دول باين فاضيين وبيتسلوا وأنا خلصت الموضوع خلاص..
- عملت إيه فهمني؟
- شوف معاليك.. لما عرفت من الرجالة بتوعي إن "حسام" باعت يشمشم بطريقة إسماعيل يسن زمان.. وباعت لي مخبرين في منطقتي القديمة علشان يعرفوا أي معلومات.. طبعاً عرفت فوراً.. الرجالة اللي هناك دي أنا مسيطر عليها تمام.. ولم حسيت إن الكلام اللي جمعوه مش مكفيهم وانهم لسه بيلفوا ويدوروا في الحكاية.. بعت "لحسام" صول.. على أساس إنه طالب يتنقل للخدمة عنده.. وخليته يقول "لحسام" كل اللي هو عاوز يسمعه.. طبعاً بعد ما عرفته تمام هيقول إيه..
- وبعدين.. والكلام اتنفذ ولا في حاجة لسه ناقصه؟

- سعادتك الكلام ماشي تمام واكتر.."حسام" حاطط "مطاوع" في حجره طمعاً في كلمتين كمان ولا معلومة تانيه من هنا ولا من هناك.. و"مطاوع" بينقل لي كل نفس "حسام" بيتنفسه معاليك.. يعني هو عرف القصة بتاعت "الوزير" من هنا وكلم صاحبه "طارق" واتقابلو في مطعم في مصر الجديدة..
- ولسه برضه موصلتش لحاجة في موضوع الظرف اللي قال عليه الواد اللي اتمسك في قتل البت الشغالة.. الحكاية دي لسه عامله قلق، و"اللوا مجدي" مركز معانا قوي اليومين دول.
- يا باشا الظرف والكلام ده كله كلام فاضي.. قلبنا الدنيا ومفيش أي أثر لا ظرف ولا غيره.. وبعدين سعادتك قلقان ليه.. هو إحنا نعرف البت دي ولا هي موجودة أساساً.. يا باشا إنت ناسي إنها ورقه.. وأنا بنفسي قطعتها.. يعني مفيش أِساساً حد اسمه كده.. وكل اللي بيتقال ده تخريف..
- يعني إيه.. مهي دي برضه نقطه مش حلوه يا فالح.. يعني لو حد خد خبر كده القضية تتفتح تاني ويطلع الواد المحبوس ويتقلب القديم والعيار اللي ميصبش بيدوش..
- معالي الباشا.. الواد داخل السجن بحكم محكمه.. إحنا مالنا!! وبعدين اللي ماسك القضية يتحاسب سواء كان مباحث ولا نيابة.. إحنا مالنا! يا باشا متشغلش بالك وارتاح خالص إنت وراك راجل يعتمد عليه..
- طيب المهم مش عاوز حاجة تتم غير لما أكون على علم بيها.. وتابع موضوع "شوقي" والعيال اللي هتشيل سلاح وتكون جاهز.. في مظاهرات جامده بيجهزوا لها من فتره.. على يوم 25 يناير.. مش عاوز التهريج ده يشغلنا عن شغلنا ويخرجنا من تركيزنا..

- مظاهرات إيه بس ياباشا.. وهي المظاهرات دي جديدة.. دي مصر من أيام الإنجليز مبطلتش مظاهرات ولا حد عمل حاجة.. والله سعادتك أنا باقترح.....
- يا طحان خليك في شغلك ووفر اقترحاتك دلوقتي.. ونسق مع زمايلك علشان يوم ما الأمور تتطور تتحركوا.. مفيش فرصة للغلط.. الكراسي دلوقتى كلها متكهربه..
- أوامر سيادتك يا معالي الباشا.. عاوزك تطمن خالص معاليك..
- اه.. نسيت.. وموضوع الـ.....
- تمام سيادتك يا باشا.. خلاص الأمانة وصلت وأنا بنفسي اتأكدت..
- طيب خير.. روح شوف شغلك ولو في جديد بلغني..
- أوامر معاليك يا باشا..

** عقيد "سعيد الطحان".. شاب في العقد الرابع من عمره.. متزوج من ماهيتاب السروجي.. كريمة "محمود نافع باشا السروجي" مدير أمن الجيزة.. لم ينجب.. يعيش حياة من البذخ لا تتناسب مطلقاً مع أصوله.. كما أنها لا تتناسب أيضاً مع دخله من عمله في الشرطة.. اشتهر منذ بدايته بميوله العدوانية الشرسة.. كما اشتهر بمحاباته لبعض من البلطجية وتمكينهم حتى يكونوا في خدمته واستطاع بالفعل أن يبني إمبراطوريته الخاصة التي لم ينافسه فيها أحد.. وبسرعة الصاروخ تخطي كل زملائه ودفعته ووصل إلى أن يكو أمين سر كبار رجال الشرطة ولا سيَّما رجال الوزارة..

حياته الخاصة لم تتعدى ثلاثة أماكن.. عمله وفيلته الكائنة بأحدي المدن الجديدة الراقية.. ونصفه الثاني "سوزي".. التي كانت تحمل مفاتيح خزائن أسرار الطحان كاملة..

"سوزي" هي أفيونة الطحان وربما هي نقطة الضعف الوحيدة التي لا يعلم بها أحد.. فرجل قوي كهذا ظن الكثيرون أنه بلا نقاط ضعف.. الكل يوقن باستحالة اختراق حصونه أو الإقتراب من قلاعه المنيعة.. لكن لا أحد يعلم أن "سوزي" هي من تحمل أختام هذه القلاع والحصون.. فهذا الشرس ذو البنية الضخمة من أثر لعبة المصارعة في شبابه.. الذي يخشاه أعتي أشقياء الإجرام.. يتحول إلى قط أليف مستأنس تحت تأثير قطرات من خمر عيون فاتنته.. لم يكن يبالغ فجمالها الفتان وأنوثتها المكتملة تستطيع أن تُخضع لها أعتي الرجال.. وبالفعل نجحت في ترويض هذا الوحش الكاسر..

ثلاثة زيارات أسبوعياً كانت هي نصيب "سوزي" من جدول "الطحان" المتخم بالأحداث يومياً.. لم تكن زوجته "ماهيتاب" تحتل في حياته سوي الجزء البروتوكولي فقط وبعض دقائق الحب الروتيني التي بات مجبراً عليها كجزء من طبيعة عمله ليس أكثر.. فما كانت تقدمه "سوزي" من فنون المتعة والحب جعلته يدمنها لدرجه الهذيان.. الآن يمكن أن نصدق بأن الحب يصنع المعجزات.. فما كنا نقرأه من قصص جنون قيس بليلى.. وهيام عنتر بعبله.. ولوعة أنطونيوا بكليوباترا.. إلا فصل من فصول رواية جحيم العشاق.. سنوات طويلة مرت على زواج "سعيد" من "ماهيتاب" لم تكلل بأطفال.. مما عزز من موقع "سوزي" في قلب "سعيد" وجعلها تتربع على عرشه دون منازع..

لم تكن "سوزي" زوجة "سعيد" رسمياً.. وانما كان الرباط بورقة زواج عرفية.. لم تتطلع أن يتحول إلى رسمي ولم تطلب منه هذا يوماً.. كانت العلاقة بينهما تبادليه بشكل كبير.. هو يقدم لها المال والهدايا وشقة في غاية الفخامة والروعة.. بالإضافة

إلى الحماية.. وهي تدفع المقابل من حب ومتعة لا يتخيل سعيد حياته بدونها.. هكذا كان سعيد الطحان.. ذئب مفترس نهاراً.. قط مستأنس وديع ليلاً في أحضان فاتنته الجميلة..

****

تتوقف سيارة سعيد الطحان أمام عمارة فخمة في حي الزمالك.. الشكل العام للمكان والعمارة توحي بخصوصية واضحة لسكان هذا الشارع وهذه العمارة بالتحديد.. بالطبع وجودها في حي الزمالك وهو أحد أرقي أحياء القاهرة له مردود واضح لكن فخامة المبني وتناسقه يدل على أن ساكنيه من طبقة المجتمع الراقي...

ما أن توقفت السيارة حتى اقترب منها مسرعاً شاب عشريني العمر يرتدي يوني فورم خاص.. ينهال على "سعيد" بطوفان من الترحيب والتعظيم.. يقابله بإشارة فاترة من يمينه.. لم تكن رداً للتحية، وإنما كان مفتاح السيارة يعطيه له حتى يواري السيارة في الجراج مبتعدة عن العيون.. ثم يتركه ويدخل إلى المبني الذي لم يتوانى حراسه من تقديم فروض الولاء وإكمال سيل الترحيب الذي سأم منها "سعيد" لكونها مشبعة بالنفاق والكذب.. لكن لا بأس ببعض من هذا.. فالإنسان لا يمل من تلقي سماع عبارات الثناء والإطراء فهذا يشعره دوماً أنه مهاب من الجميع.. "فسعيد" ممن يدركون يقيناً أن كل هذا سيتبدل في لحظة أن يتخلى عن منصبه أو يفقد نفوذه.. فلا مانع من التمتع بهذه النشوة لبعض الوقت..

أمام الدور السادس.. يتوقف الأسانسير ليخرج "سعيد" متجهاً إلى شقة تحمل الرقم 4.. لم يدون عليها اسم بالخارج كباقي الأبواب المجاورة لها..

أخرج ميدالية المفاتيح ثم فتح الباب ليظهر خلفه جاليري متكامل.. بكل ما تحمله الكلمة من تحف راقية وتابلوهات وأنتيكات.. بالإضافة إلى قطع الأثاث المنتقاة بعناية فائقة.. أقل ما يقال عنه أنه جاليري خاص.. ألقي بمفاتيحه على الكونسول المذهب المجاور للباب.. وبجواره وضع نظارته الشمسية..

استدار ببصره في أرجاء المكان الذي بدا مهجوراً للوهلة الأولي حتى ظهرت هذه الفلبينية القصيرة.. اتجهت نحوه مسرعة لتكمل سيل الترحيب الذي بدأه عامل الجراج ورجال أمن العمارة.. لم يعرها اهتماما كما فعل مع سابقيها.. فقط اكتفي بالسؤال عن سيدة هذا القصر..

– فين الهانم؟

وكأنه أطلق هذه الكلمات حتى تنزاح هذه القصيرة من طريقه.. فلم ينتظر منها رداً بل استمر في طريقه الذي يعرفه جيداً مجتازاً هذا المتحف الصغير.. نحو باب مغلق.. لم يطرق الباب لكنه تسلل في هدوء.. فتح الباب.. كانت غرفة النوم الرئيسية..

على أطراف أصابعه التي فقدت حذائها منذ ثواني على أعتاب هذه الغرفة.. تسلل كلص محترف.. إلى هذه الأيقونة الممددة على سريرها المستدير.. كانت الغرفة قمة في الذوق الرفيع وزادها حسناً وجمالاً هذا الجسد الملهم..

اقترب منها بهدوء وحذر شديدين.. استلقي بجوارها على السرير وأخذ يعبث بخصلات شعرها الذهبي.. خصلات من الحرير الأصفر تمتد حول هذا القمر المستكين.. مدد أصابعه برفق على كتفها مرات متتالية.. حتى بدأت في الانتباه.. رفعت بصرها لتجده أمامها مباشرة.. لم يكن هناك وقت للحديث.. فقبلة طويلة

جمعتهما دون أي كلام.. استمرت بلهفة وشوق حتى قطعتها طرقات على الباب.. كانت هذه القصيرة تُعْلم "سعيد" بأن الحمام قد أُعِد.. فاعتدل "سعيد" في جلسته لكنه مازال محتضناً "سوزي" بكل حب..

– البت دي أوزعه بس ناصحة..

بابتسامه خلابة ووجه ملائكي.. تبتسم "سوزي".. مطلقة العنان لذراعيها تلتفان على كتفي "سعيد" وتطوقان عنقه.. وبصوتها المتناسب تماماً مع هذا الجمال الفاتن: وحشتني جداً يا عمري.. كده برضه.. مشوفكش من تلات أيام.. إنت شكلك زهقت مني باين؟

– أنا أزهق منك.. دا أنا مروحتش بيتي من يجي أسبوع.. إنتي مبتشوفيش أخبار ولا إيه؟ البلد فيها قلق والدنيا مكهربه..

– مكهربه ولا مش مكهربه.. دي مش شغلتي..

ازداد غنجها في الكلام حتى أثار "سعيد" وجعله يحاول أن يقنعها بأنها الشيء الأهم في حياته.. كان يعرف كيفية إقناعها.. لم يتأخر كثيراً في الشرح ولا التحليل.. فهناك أشياء تغني عن كثير من الكلام..

يرتفع صوت الهاتف المحمول لسعيد.. كان الاتصال من زوجته "ماهيتاب".. هكذا اللحظات الرائعة دائما تجد من يفسدها.. لم يجد "سعيد" بداً من أن يجيب نداء هذا المزعج..

– أيوة.. يا حبيبتي أخبارك إيه..

نكزته "سوزي" في كتفه معترضة على كلمة حبيبتي.. لكنها كانت تدرك جيداً أن هذا ضروري لعمله.. فهي تعلم جيداً من تكون زوجته ومن يكون أبيها..

استمرت المكالمة دقائق بين سجال في الرد بين "سعيد" وزوجته.. أغلق الخط منفعلا بعدها.. ليعلن عن ضرورة رحيله الآن وفوراً لأمر عاجل..

- اسف يا عمري لازم أنزل دلوقتى..
- تنزل فين.. انسي.. إنت بتاعى النهارده

اقتربت من أذنه هامسة..

- إنت مش عارف إنت واحشني قد إيه.. مش هسيبك تنزل

بالطبع لم تكن هذه الكلمات سوي بعض من أفيون الحب الذي ما تمكن من شخص إلا وجعله فاقداً لوعيه تماماً .. لم تنتهي "سوزي" من كلماتها حتى انطبقت شفتاها مع شفتا "سعيد" غارقين معاً في قبله طويله.. وبالفعل تم لها ما أرادت...

****

الفصل الثالث عشر

فيلا سعيد..

تقف ماهيتاب ونيران الغضب يتطاير شررها من عيناها..

** ماهيتاب.. التي تبلغ من العمر خمسة وثلاثون عاماً والتي تعيش في هذه الفيلا الكبيرة مع خادماتها وطباخ وعامل للحديقة.. بالإضافة إلى الأمن الخاص بالفيلا.. حياتها كانت محصورة بين أشياء ثلاثة وفقط.. النادي والتسوق والشجار المستمر مع "سعيد".. لم يكد يمر يوم دون أن تضع عليه بصمتها الأنثوية الشرقية المتمكنة في اختلاق مشاكل كبيرة جداً من أسباب تافهة للغاية.. لم تكن تكترث كثيراً لموضوع الإنجاب.. فرشاقتها وحفاظها على شكلها كان أهم عندها كثيراً من عاطفة الأمومة التي اندثرت داخلها مع الأيام ومع غياب "سعيد" المستمر عن المنزل بداعي العمل..

صوت أبواق سيارة "سعيد" تنطلق.. لتفتح البوابة الكبيرة وتدخل السيارة مسرعة إلى ساحة الفيل وينزل "سعيد" ليواجه مصيره المحتوم..

كان "سعيد" دائما ما يحتوي "ماهيتاب" لأنه مقتنع داخليا بأن الأنثى ماهي إلا بوق كبير جداً لكن فمه صغير.. فإن استطاع أن يغلق الفم تجنب الضجيج.. أما إن اجتهد أن يغلق مخرج الصوت فحسب.. فلن ينجح أبداً في إسكاته.. وهكذا كان يتعامل مع زوجته.. كان يدرك جيداً بأن داخل كل امرأة عاصفة صحراء عاتية ولكنه بحنكته كان يستطيع التنبؤ بها والتعامل معها كما ينبغي..

ما أن دخل عليها ووجدها بهذا الشكل حتى تحول شكله بمقدار 180 درجه.. ارتسمت على وجهه الجدية الكاملة.. والغضب العارم.. واتجه نحوها مسرعاً ليوجه لها لوماً غير مسبوق.. فهو من مؤيدي مبدأ "خدوهم بالصوت ".. وللعجب كان ينجح في كل مره في أن يطفئ ثورة هذه المرأة الأرستوقراطية..

- خير ياهانم، يعني أنا قايل لك عندي شغل مهم جدا.. والدنيا مولعه وإنتي مصممه برضه إنك تعطليني عن شغلي لأسباب تافهة كالعادة..
- يعني إيه تافهة يا "سعيد".. يعني أنا تافهة وطلباتى تافهة؟
- بصي بقي.. أنا مش هاقولك زهقت من خناق كل يوم ولا من المشاكل اللي على الفاضية والمليانة.. بس أنا عاوزك تقدري ظروف شغلي.. عاوزك تحسي إني باعمل كل ده علشان مين..
- ماهي المصيبة اني عارفه إنت بتعمل كل ده علشان مين؟
- طيب بصي أنا هقولك حاجة.. أنا عاوزك تكلمي.....
- مش هكلمك بابا.. لأني متأكدة انه هايغطى عليك.. أنا مش عارفة إنت عامل له إيه؟
- ولا حاجة بس الراجل حقاني.....
- حقاني.. طيب وسيادتك اتأخرت ليه؟ منا مكلماك من أكتر من ساعتين.. وقولت انك جاي على طول..
- الطريق.. وانتي عارفه الدنيا زحمه إزاي.. بصي بقي أنا عارف إنى مزعلك وأستاهل اللي يجرالى.. بس برضه عاوزك تقدري شغلي..

- طيب شغل حضرتك ده مش ممكن يخلي باله إن في ناس مستنيانا دلوقتي.. عازمينا من أسبوع وأنا منبهه عليك مليون مرة وانت بقي مصمم تحرجني مع أصحابي.. والمصيبة انهم أصحابك إنت كمان..

استدار "سعيد" بوجهه ضارباً جبهته بكف يده: أوبا.. والله فاتتني دي.. هي الساعة كام دلوقتي..

- الساعة 10 حضرتك..
- طيب بصي اديني ربع ساعة أغير هدومي ونمشي فوراً.. تمام وليكي عندي مفاجأة بقي هتنسيكى الزعل كله..
- خير.. إيه هي المفاجأة؟

بالطبع كخبير محنك يعلم أن عقل المرأة وقلبها معلق بالأوراق الخضراء والهدايا البراقة.. فكان الحل الأمثل لإنهاء حالة الحرب الدائرة أن يتقدم بالفدية المناسبة لتخليص رقبته من حبل المشنقة....

مد يده وأخرج ظرفاً أبيضاً من جيبه وأعطاه لها.. مدت يدها بامتعاض شديد.. وأخذت الظرف وفتحته..

- واااااااو إيه ده.. الرقم ده إزاي؟
- زي الناس.. إيه رأيك بقي.. أطلع أغير هدومي ونروح العزومة ولا تعزميني انتي بره على حسابك؟

مدت شفتاها بامتعاض لتخفي ابتسامة عريضة بدت واضحة على وجنتيها المتوردتين..

- لا طبعاً.. في الحالة دي ومع الأصفار دي.. لازم أعزمك على أحلي عشا رومانسي في أحلي مكان في البلد.. بس برضه زعلانه.. مكنش لازم تتأخر كل ده.. كنت عرَّفني!!
- يعني عوزاني أحرق المفاجأة.. الإشعار ده لسه جايني النهارده من البنك.. أرباح الشغل الجديد بتاع الساحل.. العقارات ولعت واللي دفعنا فيه جنيه رجع ألف.. شوفتي بقي الشغل مهم إزاي؟
- لا إذا كان كده يبقي أنا معنديش مانع بس بشرط.. تفضي لي نفسك أسبوع ولا حاجة.. عاوزة أطلع أغير جو..
- حبيبتي حد بيغير جو في الشتا.. ما طول الصيف انتي من مارينا لدهب للغردقة..
- اهو شوفت.. بتستخسر في الفسحة وأنا محبوسه بين أربع حيطان طول اليوم؟

لم يكن أمامه إلا أن ينهي الحوار بوعد زائف بمفاجأة قريبه جداً.. وبالفعل نجحت خطته.. فسنوات الزواج لم تجعل من "ماهيتاب" الخصم الصعب.. كان يحفظ عن ظهر قلب كل تفاصيل شخصيتها.. متي يغضبها ومتي يرضيها.. متي يستخدمها لصالحه في الضغط على أبيها، ومتي يستخدمها كحائط ضد أبيها.. كان يتحكم بها كدميه خشبية بين أصابعه.. بالطبع كانت عكس "سوزي" تماماً.. فلو أن هذا الموقف كان طرفة الآخر هي "سوزي" لكانت سحقته ودمرت قلاعه كاملة وأجبرته على قبول شروطها كامله دون قيد أو شرط..

****

فيلا شوقي الموجي.. مساء الخميس 20 يناير الساعة 10:00 م

مكان فخم.. مبني متكون من طابقين يتوسط حديقة منسقة بعناية فائقة وأمام المبني يوجد حمام سباحة دائري محاط بكميات كبيرة من البالونات الملونة وكأنك في أحدي حفلات أضواء المدينة.. على يمينه يقع مسرح تعتليه فرقة موسيقية.. تصنع بموسيقاها الهادئة جواً رائعاً يحمل معني الفخامة الحقيقية.. فتيات يرتدين القمصان البيضاء التي لا تتناسب إطلاقاً مع برودة الجو في مثل هذا التوقيت من العام.. في الجانب الآخر وعلى اليسار تمتد طاولة طعام كبيرة تحمل كل ما لذ وطاب من أنواع الطعام.. بالطبع هذه لطاوله تكلفتها تكفي لإطعام حي بأكمله لمدة شهر على الأقل..

في أقصي يمين المسرح المقام يظهر البارمان.. شاب يتوسط مجموعة كبيرة من الزجاجات والكؤوس يلتف حوله المدعوون لينعموا بكأس من خلطاته السرية التي ينفذها بعد عدد من الحركات الاستعراضية والتي تظهر مهارته في أداء عمله.. كوكتيلات متنوعة من أفخم أنواع المشروبات الكحولية التي لا غني عنها في مثل هذه المناسبات الفخمة..

تقف سيارة "سعيد الطحان" بجوار مجموعة من السيارات الفارهة والتي تعبر بشكل واضح عن مستوي مالكيها المادي.. فأقل سيارة من هذا الطابور الطويل يكفي ثمنها لإحداث نقلة نوعيه في أي منطقة عشوائية.. ينزل "سعيد" وبرفقته فاتنته الأرستوقراطية الأنيقة للغاية "ماهيتاب".. خطوات قليله نحو حديقة الفيلا.. يستقبلهم على البوابة إحدى الفتيات لتصحبهم حيث يقف "شوقي"..

ما أن وقعت عينا "شوقي" على "سعيد" حتى انتفض مسرعاً باتجاهه.. متخذاً طريقة مداح الموالد القديم.. فعبارات الثناء والمديح المتناثرة بين "سعيد" تارة وزوجته

تارة أخري والتي قابلها "سعيد" بكثير من الامتعاض لعلمه المسبق بمدي زيفها وكم النفاق النابع من كل حرف فيها.. لكن لا بأس بشيء من النفاق طالما أن الأمور تسير على ما يرام..

بعد وجبة الترحيب الدسمة.. استأذن "شوقي" من "ماهيتاب" لينفرد "بسعيد" قليلاً تاركاً إياها مع مجموعة من سيدات المجتمع التي تعشق ماهيتاب التواجد بينهم.. فهي تعشق إن تكون نجمة الحفل الأولي.. ولم لا فموقعها الجغرافي ومقوماتها الجسدية تؤلها لأن تكون سيدة كل الحفلات..

بخطوات متلاصقة وكلمات خافته مبهمة تصدر من رأسين تقاربا في طريقهما نحو باب الفيلا.. ومنه إلى غرفة اجتماعات ذات باب خشبي جرار كبير.. ما أن فتحه "شوقي" حتى كشف عن اجتماع مجلس قيادة الثروة. نعم قيادة الثروة.. فكل من كان في القاعة كان شريكاً رئيسياً في شركات "شوقي".. بالطبع من الباطن فكلهم من رجال الدولة من أصحاب الكلمة والرأي والنفوذ.. لكن في نفس الوقت من الممنوعين من إقتحام مجال الأعمال على الأقل مدة بقائهم في مناصبهم..

بالطبع "سعيد" يعرف الجميع، فهم من يمين المنضدة الدائرية.. اللواء "محمود نافع" "حماه ".. واللواء "إبراهيم الموافي" بمديرة الأمن.. العميد سليمان الفولي بالمخابرات.. رجل الأعمال الأشهر "أحمد شاكر" وأخيراً نجم خط الدفاع الأستاذ "محسن الكومي" صاحب السيف والقلم ورئيس تحرير إحدى الصحف القومية الكبرى..

كوكتيل من العيار الثقيل.. فمجموعهم يمثل التوازن الكامل لمعني تزاوج المال والسلطة.. لكن لم ينسوا أيضا أن السيط ولا الغنى. فكان التواجد الأبرز للأستاذ

"محسن" يضفي مزيداً من الأمان لهذا التجمع.. وكيف لا.. "فمحسن" هو خط الدفاع الأول عن كل من تسول له نفسه أن يقترب من هذا الكيان.. ولا ننسي الحادثة الأشهر التي تعرضت لها مجموعة "شوقي الموجي" من محاولة للنيل منها عن طريق أحد محرري الجرائد المعارضة للحكم، ولكن كان رد "الكومي" قاسياً وصارماً بما يكفي لشطب هذا المتهور من تاريخ صاحبة الجلالة للأبد..

نافع: حمد لله على السلامة.. اتأخرت ليه مستنينك من زمان.. أكيد "ماهيتاب" اللي أخرتك.. بنتي وأنا عارفها..

سعيد: الله يسلمك يا باشا.. لا أبداً بس إنت عارف ظروف الشغل مفيش وقت.. الواحد بيسرق الساعة اللي بينامها والله ياباشا..

الكومي: كان الله في العون، ما هو ده دورك يا "سعيد" بيه ولا إحنا هنام مطمنين إزاي لو انتوا مش شايفين شغلكو؟

موافي: إلا شايفين شغلنا دي كمان.. دا الواحد عمره راح ومحسش بيه من الشغل في الشرطة.. فعلا أصعب مجال والناس مش مقدره..

شوقي: إيه يا جماعه إحنا هنقضيها شرطة وجيش.. إحنا عندنا الأهم.. هنعمل إيه اليومين اللي جايين دول..

موافي: سعيد قالي إنك جهزت العيال بتوعك اللي هينزلوا لو احتجناهم اليومين الجايين..

شوقي: تمام معاليك ياباشا.. فعلا أنا جهزت 3000 راجل من عندي بالسلاح وبلغت "سعيد" باشا بالعيال اللي هيشيلوا خرطوش وحي علشان هو طلب كده..

الفولي: بس يا جماعه الكلام لحد دلوقتي مجرد كلام. حتى في تونس وبعد كل الضرب والبهدله دي محدش عارف ياخد حق ولا باطل مع الرئيس.. ثم إحنا ماسكين البلد تمام، ممكن العيال دي تعمل شوية شوشرة.. بس معتقدش انهم هايغيروا أي حاجة..

شاكر: يا جماعة إحنا عاوزين النهارده نحط بدائل. محدش عارف بكره ممكن إيه يجري.. بس لازم نكون في الأمان.. أنا شخصياً هبدأ من يوم السبت أجهز اللي أقدر عليه وأحوله على سويسرا ولندن..

سعيد: لا لا لا.. مش هاتوصل لكده يا "أحمد" بيه.. دي كبيرها تغيير حكومة ولا علاوة ولا شوية زيت وسكر على التموين والبلد تهدي تانى.. مش حكاية هي.. الخوف لو اتمكن من أصحاب القرار واتهزوا.. الحالة دي بس ممكن العيال بتوع الفيس بوك دول يعملوا حاجة..

موافي: ياجماعة البلد ممسوكه بقبضة من نار.. والحكاية مش بالشكل اللي انتوا متخيلينه.. بس على رأي "أحمد" بيه الاحتياط مش وحش.. شوف يا "شوقي"..

شوقي: أومرني جنابك...

موافي: إنت من السبت تبدأ تعمل زي ما قال "أحمد" بيه.. هتخلص اللي تقدر عليه وتبعت لكل واحد حصته في حسابه بره تمام زي ما بيحصل.. بس المرة دي تشهل شويه.. لو الأمور استقرت يبقي ساعتها نلحق نرجع اللي عاوزينه.. حصل في الأمور أمور يبقي إحنا في الأمان..

الفولي: المهم دلوقتي إن أي حد فينا عنده قضية كده ولا كده يسويها ولا يخفيها بأي شكل.. لو الكلام ده طلع بجد والعيال دي عملت حاجة النار بتجيب من فوق الأول.. وإحنا اللي على الوش..

سعيد: لا يا معالي الباشا. اسمح لي.. مفيش أي بني آدم يقدر يطلع ورانا غلطه والله لو اللي هيحقق من الأمم المتحدة ما هيمسك علينا قشاية.. وأديك شايف العينة.. "شوقي" أهه حد يقدر يفتح بقه معاه.. ويوم ما هايحصل.. كل شيء مترتب ومعمول حسابة بالملي.. مفيش فرصة للغلط يا باشا..

استمر الحوار لأكثر من ساعتين.. تناولت طاولت المباحثات كل الشئون الداخلية والخارجية.. كان الاتفاق شبه كامل على تصفية الجزء الأكبر من الأموال وتحويلها للخارج والتعامل الجاد مع ما سيأتي به القادم.. فأصحاب النفوذ والمال لا يتخيلون حياتهم بدونهما أبداً.. هكذا الواقع..

رنين هاتف سعيد يعلن عن مؤشرات حدوث تسونامي جديد.. فغياب ساعتين عن "ماهيتاب" سيكلفه الكثير حتى يتمكن من سداد فاتورة إعادة الإعمار.. لكنه أدرك أن هذه المرة يجب أن ينهي المعركة بدون تكاليف.. فكونه بصحبة الشايب يجعله في مأمن من غدر البنت.. لم يخرج "سعيد" من الحجرة بعد انتهاء الاجتماع المنعقد إلا وقد شبَّك ذراعه في ذراع حماه العزيز.. منقذه من دفع غرامة التأخير المتوقع أن تقررها عليه ماهيتاب المنتظرة بالخارج..

ما أن ظهر "سعيد" أمام باب الفيلا حتى استقبلته لفحة من لهيب نيران غضب زوجته.. لكنه كان على أتم الاستعداد لهذه المواجه.. فقد قدم القربان الذي سيحميه من المواجهة المحتومة.. فكلمات من أبيها عن طبيعة العمل والمفاجآت المنتظرة في

الأيام القادمة كانت كفيلة لأن تسكب الماء البارد على الجمر المشتعل فتحوله إلى رماد مستأنس.. بالفعل كانا يتشابهان كثيراً.. فلولا زواج "سعيد" من أبنة "محمود نافع" لما شك أي أحد أن هذا الشبل من ذاك الأسد.. فالتشابه الكبير في الأسلوب والتصرفات يؤكدان أنهما قد شربا من إناء واحد دون أدني شك..

بعد جهد ليس بالكثير انتهى الإعصار بسلام واجتمع الثلاثة أمام البوفيه حتى ينعموا بعشاء فاخر.. مع بعض من كؤوس الخمر المنتقاة من أشهر الماركات مع بعض أنواع العصير لمن لا يشربون الخمر من أمثال "سعيد".. فمع كل ما يقوم به وكل ما يقدمه إلا أنه لم يكن أبداً يحمل في يده سيجارة ولا كأس.. كان تركيبة عجيبة من البشر.. نوع لا تلقاه بسهوله في عالمنا.. تناقضات كبيرة يحملها في داخله.. لكنه في النهاية يستحق لقب الرجل الذكي.. وهذا يكفي..

****

الفصل الرابع عشر

عصر يوم الجمعة 28يناير 2011.. الساعة 5:00 مساء

حركة غير اعتيادية في السجن.. تزداد بشكل واضح مع أخبار ثورة شعبية في ميدان التحرير مستمرة بدون توقف منذ ثلاثة أيام.. عربات الترحيلات الزرقاء الكبيرة تتناوب إلى فناء السجن الخارجي لتفريغ شحنات من النزلاء الجدد.. تشديدات أمنية كبيرة.. وكأن حالة التعبئة العامة قد أعلنت إيذاناً ببدء الحرب العالمية الثالثة.. تم رفع حالة التأهب القصوى في جميع أنحاء السجن.. وبالتالي في زنزانتنا التي رفعت حالة الطوارئ أيضاً بقيادة القائد المحنك "سالم الصياد".. الذي افترش الأرض محاطاً بالخماسي الخطير وبجواره نائبه "شيحة"..

– النهارده يا رجاله هناخد خطوة كان المفروض تكون متأخرة شوية.. بس الظروف خدمتنا خدمة العمر.. كل واحد فيكم هياخد حاجات هيخليها معاه لحد ما تيجي ساعة الصفر.. محدش هايتحرك غير باذن مني.. مهما حصل.. محدش يتحرك غير لما أنا أقول..

لم يبدوا على أي من الخماسي أي تعليق أو أي اعتراض يذكر.. فقط يستمعون وكأن على رؤوسهم الطير.. وكبيرهم الذي يجلس في منتصف الحلقة يتلوا عليهم بيان الاستقلال وتفاصيل التحركات..

كانت الأغراض التي تحدث عنها الصياد ماهي إلا حقيبة اليد التي أتي بها "سمير" في زيارته "لشيحة".. وضعها "الصياد" بين قدميه وفتح السحاب ليخرج منها بعض الملابس وبعض الأشياء الأخرى...

بدأ "سالم" يتحدث عن احتمالية خروجنا من السجن وأنه كان يعد العدة للخروج لكن ليس بتلك الطريقة ولا هذا التوقيت.. لكنه بحنكة القائد أخذ يخبر الجميع أنه غيّر خطته لتتناسب مع مستجدات الوضع الراهن.... بدا وكأنه أحد العاملين بالمجال السياسي أو أحد المقربين من النظام الحاكم.. لكنه لم يكن هذا ولا ذاك.. وإنما كان مجرد خبير استنتج أن هذا الهياج الذي يجتاح البلاد والتي لم تستطع إدارة السجن ولا قواته أن تمنع تسرب أخباره.. كان من الواضح لهذا الرجل إن هناك خطباً سيغير مجريات خططه..

الآن يسرد "الصياد" كل الاحتمالات المتوقعة كسيناريو للأيام المقبلة وكيف ستتعامل مجموعته القتالية المكونة من خمسة أفراد مع كل احتمال على حده..

أما أنا فقد كان نصيبي من جميع الخطط الجزء الأسهل نظراً لانعدام خبرتي في التعامل مع هذه المواقف، فقط اقتصر دوري في الخطط جميعها على اتباعي لهم وفقط.. أن أكون في ذيل المجموعة أتحرك معهم وأتوقف معهم...

أخذ "الصياد" يوزع محتويات الحقيبة على المجموعة كل حسب دوره حتى جاء دوري في الإرث..

– وإنت يا "حاتم".. تعالي استلم..

- وأنا إيه يا معلم.. مش إنت قولت إني مش هاعمل حاجة غير إنى أتابعكم من بعيد وامشي آخر واحد ورا المجموعة.. ولو حصل حاجة أكون في ظل "شريده" مفارقوش نهائي زي خياله...
- يا واد بطل غلبه واسمع وإنت ساكت.. إنت لسه متعلمتش وهتتعبنى معاك!!
- ما تهمد يا" حاتم " بقي خلي الريس يخلص كلامه إنت غلباوي ليه كده..

لم أجد مجالاً للمقاومة وسط ضغط "الصياد" و"شيحة"..

- حقك على يا معلم إتفضل كمل..
- بص ياد.. إنت من النهاردة مش "حاتم".. إنت اسمك "محمد أحمد محمود مصطفي إبراهيم"!!
- اللي تشوفه يا معلم..
- أيوة كده عفارم عليك.. ومش إنت لوحدك.. كلنا بنفس الاسم.." محمد أحمد محمود مصطفي".. ليه بقي.. علشان تقريبا نص مصر بالاسم ده.. اللي بيفرق بين الناس هي شهادة الميلاد.. وإنت خد.. أدى بطاقتك وأدي شهادة ميلادك.. وكمان شهادة المعهد.. وشهادة الإعفاء من الجيش علشان إنت وحداني.. مش إنت وحداني برضه؟
- اللي تشوفه يا معلم..

أمسكت بالأوراق التي قدمها إليَّ "الصياد".. بالفعل كانت تحمل صورتي.. لكن لمن هذه البيانات.. لم أستطع التعليق.. فقط كنت منبوذا بسبب كثرة تعليقاتي والتي كانت توحي دائماً بأني أقل الموجودين تعلماً وخبرة.. ملايين الأسئلة تتبادر إلى ذهني، لكني منعت من طرح أياً منها.. فالتزمت الصمت لاستمع إلى باقي التفاصيل؟؟

أمسك "الصياد" بزوج من زجاجات الأمبول (الحقن).. كانت إحداهما بلون أزرق والأخرى بلون أحمر.. ألقي إلينا أولاً بزوج من السرنجات المغلقة.. ثم تقمص دور الطبيب المحنك ليشرح طرق الاستخدام...

- ودل حقنتين لكل واحد.. الزرقا دي كلنا هناخدها وفي نفس الوقت.. دي هتخليك تمشي من إسكندرية لأسوان من غير تعب.. والتانية دي بقي الله يكفينا شرها.. لو حد إتصاب ولا خد طلقه من هنا ولا من هناك.. اللبش لما بيبدأ محدش بيبقي عارف راسه من رجليه.. الحقنه دي هتقلل نزيف الدم وكده هتقدر تكمل لحد ما توصل لمكان تعرف تتصرف فيه.. طبعا في لزقه من بتاعة المراتيزم.. وشاش مطبق.. وازازة الميه دي.. أهم حاجة.. الميه دي مش ميه عاديه.. لا.. دي مية سحرية.. شغل ناس محترفة.. يعني تشرب ترتوي وتنسي همومك.. لو حد إتصاب يحط الشاش واللازقه على مكان الجرح بعد الحقنه الحمرا.. ويشرب من الإزازة دي بشويش.. كل ما يحس بوجع ياخد بوقين.. مش هايحس بأي وجع نهائي.. بس الاحتياط واجب.. مش عاوز أي غلط.. ملهوش لازمة الخوف ولا القلق.. كده كده كنا خارجين بس ربك لما يريد بقي...

لم يدم الأمر طويلاً.. فما هي إلا ساعات قليلة وإذا بصوت طلقات الرصاص تحيط بنا من كل جانب وأصوات الأبواب الحديدة التي تتحطم تارة وتفتح عنوة تارة أخري.. وصراخ وأصوات مرتفعة وجلبة غير مسبوقة وكأنها طبول الحرب.. لم يتحرك "سالم" قيد أنملة.. فقط كان مستنداً بظهره إلى الحائط واضعاً قبعته الزرقاء على وجهه وكأنه نائم في استرخاء تام.. لم يأبه مطلقاً لما يحيط به من كلمات الرجال واضطرابهم..

فثباته الانفعالي فاق كل توقعاتي.. أما أنا فقد اخترت الركن البعيد.. أقصي الغرفة وانكمشت فيها ضاماً قدماي نحو صدري محاولاً إخفاء ما انتابني من حالة رعب وهلع..

في هذه الأثناء يفتح باب الزنزانة فجأة وصيحات تتعالي لنخرج كما خرج الباقين.. إلا أن تعليمات "سالم" بالبقاء حتى سماع التعليمات كان واجب النفاذ.. صوت "شيحة".. أسمعه أخيراً يشق الصمت السائد.. لكنه كان على غير عادته.. فقد كانت نبرته مستجدية.. خنوع واضح في نبرة صوته وكأنه يستجدي "سالم" أن يسمح له بالخروج.. إلا أن طلبه قوبل بالرفض المطلق.. فلم يكن منه إلا أن التزم الصمت واستلقي على فراشه حتى أنه لم ينطق ولم يعقب..

قرابة الساعتان أو يزيد مرت من زمن هذ الحرب الضروس.. بدأت بعدها الأصوات في الخفوت التدريجي.. عدة طلقات متباعدة يسمع دويها بين الحين والآخر.. ماذا حدث لا أحد يعلم.. من اقتحم لا أحد يعلم.. من جرؤ على الوصل إلى هذه النقطة الحصينة وفعل كل هذا.. لا أحد يعلم.. أسئلة كثيرة كانت تتزاحم في عقلي.. جميعها تم تصنيفها في بند واحد فقط " لا أحد يعلم".

واختفت الأصوات تماماً وكأن الحكم أطلق صافرة نهاية المباراة.. معلناً فوز أحد الفريقين على الآخر.. من فاز ومن خسر.. لا أحد يعلم.. النتيجة أن "سالم" اعتدل من جلسته أخيراً.. ها هي ساعة الصفر قد حانت.. يقف "سالم" ويبدأ في تبديل ملابسه وكذلك فعلنا جميعنا.. وبدأ كل واحد يساعد زميله في أخذ الإبرة (الحقنة) الزرقاء التي أمر "سالم" الجميع أن يأخذها لتساعده في الرحلة.. بدأ التعليمات الجديدة تتلي على مسامع الجميع..

- شوفوا بقي يا رجاله.. أمكم داعيالكم.. الوقتي إحنا سته وكل واحد فيكم معاه ورقه وبطاقته اللي هايمشي بيها في أتخن حته ولا حد يقدر يقوله تلت التلاتة كام.. هنخرج دلوقتي، وكل واحد يشوف لك حته يتاوى فيها لمدة أسبوع ولا أسبوعين بالكتير.. لحد ما أنا هكلمكم ونتجمع ونشوف هنعمل إيه..

في كمان حاجة مهمه.. كل واحد فيكم معاه في جيب البنطلون اللي هيلبسه الوقتي شريحة محمول.. الشريحة دي هي عمرك.. يعني تحافظ عليها زي عنيك.. دي اللي هنجيبك عن طريقها.. فاهمين..

الوقتي هنتحرك.. محدش يخاف.. إحنا مش مساجين ولا حاجة.. إنت ماشي في الشارع زيك زي أي بني آدم ولو وزير الداخلية شخصياً وقفك ولا كلمك ولا تعبره.. إتكلم عادي.. حتى لو اتمسكت تحري.. هتطلع علشان مفيش حد فيكم عليه سوابق نهائي..

خلاص يا رجاله.. كل الناس هتتحرك وأنا و"شيحة" هنطلع الأول وانتو وارانا.. وإنت يا "كراتيه" آخر واحد.. مفهوم..

الجميع في صوت واحد: مفهوم يا معلم..

- خلاص يا رجاله.. على البركة.. هخرج أنا و"شيحة" وانتوا ورانا عدل.. من هنا على البوابة على بره.. فلوسك معاك تركب تاكسي.. متقفش زي خيبتها إنت وهو..

خرج "سالم" و"شيحة" إلى مكان غير معلوم.. لم يفصح عنه "سالم" في الخطة.. بينما خرج "مانو" و"كابو" وتبعهم "شريدة".. وأنا في المؤخرة..

خرجت من الزنزانة متجهاً نحو بوابة السجن.. كان المنظر مهيباً ومرعباً.. فجثث الظباط والعساكر والمساجين متناثرة على الأرض وكأنه مشهد سينمائي في أحد أفلام الحرب..لم أكن أتخيل أني سأخطو بأقدامي وسط الجثث المتناثرة.. خرجت من الطرقة واتجهت نحو فناء السجن.. رائحة الدخان والغاز المسيل للدموع خانقة وتثير هياج عيناي وأنفي بشكل رهيب.. لكني تمالكت قدر استطاعتي.. رفعت قميصي وكتمت أنفي وسرت بين القتلى والجرحى..

خطوات في الفناء متجهاً نحو باب السجن الرئيسي.. ها أنا ذا وصلت وأقف على أعتاب هذا الكيان المرعب المتخم بالجثث.. استدرت ببصري في أرجاء المكان.. لم أجد أي أثر "لسالم" ولا "شيحة" ولا لأي عضو من أعضاء الفريق.. جميعهم اختفي..

استدرت نحو الشارع.. لفحة من برد الشتاء اخترقت صدري مباشرة.. إنها نسائم الحرية التي افتقدها شهورا بدون أي وجه حق.. لم أكن أشعر بأي برد نتيجة لتلك الحقنة السحرية التي أعطاني إياها بروفسير "سالم".. بدأت أخطوا بقدمي نحو طريقي المجهول.. لا أعلم أين سأذهب؟ لم يكن هذا يهمني الآن.. المهم أنني ولدت من جديد.. فبهذه البطاقة وهذه الأوراق لم أعد "حاتم" المتهم بالقتل والهارب من السجن.. أصبحت رجلا شريفاً لا غبار عليه..

لكن في خضم هذه الأفكار استوقفني صوت يأتي من الجوار أسمعه بالكاد.. صوت يتوسل.. يطلب المساعدة.. يسعل بشده وكأنه يخرج أنفاسه الأخيرة.. انتابني شعور رهيب.. أعود إلى سجني بقدمي وأنظر من هذا وأنقذ روحاً.. أم أكمل طريق حريتي ولا ألتفت إلى غيري.. صوتان يتصارعان داخلي.. صوت ينزغني.. يؤلم

صدري.. أحس به يقبض على قلبي.. كيف تترك شخصاً يموت.. أدخل إليه لربما استطعت أن توجد له سبيلاً ليكمل حياته.. وصوت آخر يجذبني للخارج بشدة.. الآن تستمع إلى من يطلب المساعدة ويرق قلبك إليه.. أين هؤلاء من "الوزير" عندما اختطف حبيبتك.. أين هم من بيتك المهدوم وعملك الضائع.. أين هم من سجنك ظلماً.. لا أحد يبكي على أحد.. كل يبكي على نفسه فقط..

صراع رهيب يدور بين الصوتين.. قطع هذا الشجار صوت سعال شديد يكشف عن ألم رهيب يمر به هذا الشخص.. قررت أن أدخل اليه.. لم يكن بعيداً.. خطوات قليلة ووقفت أمامه مباشرة.. كان برتبه رائد.. ملقي على الأرض وجرح ينزف من فخذه الأيمن بشده.. لم أدري ماذا أفعل وكيف أتصرف.. حاولت كتم النزيف بيدي.. لم أستطع.. تذكرت حينها كلمات "سالم".. مددت يدي إلى جيبي وأخرجت الحقنه وعبأتها.. وأخرجت الشاش واللاصق.. وبسرعة غرزت السن في وريده.. أفرغت ما فيها.. ثم شققت بنطاله بطول قدمه حتى كشفت مكان الإصابة.. وضعت الشاش ثم اللاصق عليه مباشرة.. ثم أجلسته مستنداً إلى الحائط.. وقفت أمامه مباشرة وأمسكت ببدلة زرقاء لأحد المساجين كانت ملقاة على الأرض ومسحت يدي من أثر الدماء.. أخرجت زجاجة الماء السحرية.. وضعتها على فمه.. لم أكن قد تبينت من يكون.. فالظلام والجو الخانق والرعب الذي انتابني لم يجعلني أري ملامحه..

رفعت الزجاجة إلى فمه وبدأ يشرب ببطء شديد.. ثواني وفتح عينه لتلتقي بعيناى مباشرة.. أمسك ذراعي وشد عليه بيده وكأنه يشكرني.. نظراته أعرفها.. وكأني التقيته يوماً.. لم تسعفني ذاكرتي..

أحسست بدموعي تغلبني.. كيف سأمضي وأترك هذا الجريح، لربما يموت لو تركته، في نفس الوقت رائحة الهواء تقتلع قلبي وتجبرني أن أرحل.. غلبت دموعي واقتربت منه حتى يسمعني: خلي الإزازه دي معاك هتبقى كويس.. كل ما تحس بألم اشرب منها لحد ما حد يجيلك.. أنا مهربتش.. بس مقدرش أفضل هنا.. لأنى مظلوم.. ربنا عالم إنى مظلوم.. الباب اللي ورايا ده هو اللي بيفصل بيني وبين حريتي.. لو مسكتني مش ماشي وهافضل معاك لحد ما حد يجي وتقوم.. لو هتسمح لي أخرج.. سيب دراعي وأنا افهم إنى كده مش هربان وإن دا حكم ربنا لأنه مُطَّلع وعالم بحالي.. أنا اتظلمت كتير قوي في حياتي.. ودي كانت أكتر مرة اتظلمت فيها..

ارتسمت على وجهه ابتسامه رقيقه.. تبعها سعال شديد.. جعلني أرفع الزجاجة وأعطيه بعض الماء.. شرب حتى ارتوي.. ثم شد على كتفي وحرك رأسه.. فهمت أنه يعطيني الإذن بالخروج.. كانت حركة رأسه متزامنة مع أصوات سيارات الشرطة تقترب من المكان.. ربت على كتفي وأومأ برأسه.. فهمت أنه يقول لي اهرب الآن.. لا تعد إلى هنا مرة أخري.. وبالفعل.. تركته ووقفت أمام الباب ثم أطلقت ساقاي للرياح..

لا أعلم كم من المسافة قطعت جرياً.. لكن مفعول الإبرة التي أعطاني إيها "سالم".. كان أقوي بكثير مما كنت أتوقع.. فقد اختفي السجن تماما من مرمي بصري.. لم يعد يظهر منه أي شيء حتى أعمدة الإنارة التي كانت تري من مسافة بعيده جداً لم أعد أراها.. لم أشعر بالتعب.. لكني كنت أشعر بعطش شديد.. تذكرت وقتها الماء والعيون التي أجزم أني رأيتها.. ظل أثر قبضته على كتفي وكأنه لازال يمسك بي إلى الآن.. لم تتوقف الأسئلة عن التحليق في سماء عقلي.. هل أخطأت؟ هل

أصبت فيما فعلت؟ كيف لو كان يعرفني.. هل سيتتبعني؟ هل سيغفر لي؟ هل وهل.. لم أعد أحتمل هذا البركان الثائر في رأسي..

قطع هذه الأفكار ضوء سيارة قادم من بعيد.. تنحيت جانباً حتى وصلت إلى موازاتي تماماً ثم أشرت إليها فتوقف السائق.. وركبت السيارة...

****

منزل أم رامي.. الساعة تشير إلى العاشرة مساءاً...

بخطوات متثاقلة خائفة.. وبصر زائغ مترقب.. وقلب ينتفض.. وبركان ثائر.. وأيدي مرتعشة تمسك بترابزين السلم المؤدي إلى سطوح بيت أم رامي.. كان الثنائي جالساً.. أمامهم صينية الشاي و"سمير" ممسكاً بسجارته في يمينه.. كانت أعينهما متعلقة بجهاز التليفزيون الذي بدا وكأنه يزيع مباراة هامه في بطولة كبيرة.. فكل هذه الجماهير التي تحمل الأعلام لم أرها إلا بعد فوز منتخب مصر ببطولة الأمم الأفريقية.. لكن منذ متي وأم سمير تتابع الكره أو نتائجها.. أحسست أن الأمر يتعدى كونه مباراة كرة قدم.. وأنه هناك شيئاً ما يحدث.. شيء يتعلق بما سمعته في السجن من الثورة الكبرى التي تجتاح البلاد وعلى أثرها حصلت على إخلاء سبيل بدون أي

ضمانات.. ما أن سمع الاثنين وانتبها إلى خطواتي حتى انتفض "سمير" وتبعته "أم رامي" بشهقة عالية وكأنهما رأيا عفريتًا من الجن قد تمثل لهما في هذا الوقت المتأخر من هذه الليلة الباردة.. كان الرد الأسرع من "سمير"...

– مين.؟؟ "حاتم ".. إنت وصلت هنا إزاي.. إنت هربت مع اللي هربوا..

أما "أم رامي" فقد تلقتني بلهفة وخوف واستغراب شديد: يا عين أمك يا ضنايا.. إنت هربت؟؟ طيب تعلي بسرعه خش جوة.. طفي التليفزيون ده يا "سمير" وتعالي ادخل جوه في الأوضه..

– إيه يا ابني اللي إنت هببته ده!! إنت يعني لما تهرب تيجي على هنا على طول.. ما أكيد الدنيا مقلوبه وأكيد أول ما هيدورو هيجوا على هنا..

– يعني الأول مش تقولي حمد لله على السلامة بدل الموشح ده.. إنت زعلتني والله يا "سمير ".. بدل ما تخدني بالحضن وتقولي كفارة.؟

– ياعم كفارة إيه وحمد لله على السلامة إيه إنت جاي من الحج؟ إنت هربان من السجن.. تعالي ادخل إداري هنا لما نشوف هتعمل إيه..

– ما تخف عن الجدع يا "سمير" والله هو عنده حق.. البلد هايصه والكل بيضرب في بعضه.. ولا حد دريان بحد.. ألف حمد لله على سلامتك يا بني.. أدخل خد دش وغير هدومك وأنا هنزل أعملك لقمة تاكلها..

– يأم رامي.. تسلمي.. بس من الوقتي أنا مش اسمي "حاتم".. أنا اسمي "محمد"..

يطوح "سمير" بسيجارته بعصبيه ثم يقترب مني: نعم يا اخويا.. محمد مين إن شاء الله؟

بدون نقاش.. أخرجت البطاقة والأوراق ووضعتهم على الطرابيزة أمامهم..

– مش فاكر البطاقة دي ولا إيه.. مش أنا اسمي "محمد" برضه؟

بالطبع يتذكرها جدياً فهو من قام بتنفيذ المهمة التي أتت بتلك الأوراق.. وبالتأكيد يعلم عنها كل شيء.. ما أن رأي الأوراق حتى ألقي بجسده على الكنبة وسحب شهيقاً عميقاً ثم بدأ يهدأ قليلاً.. وبلهجه منهكه شبه واضحة..

– انزلي اعملي العشا يأم رامي.. لي أنا و"محمد"..

– عفارم عليك.. انسي بقي موضوع "حاتم" ده نهائي..

– والله ما فاهمة حاجة.. هنزل أعمل العشا ولم أطلع تبقوا تفهموني.. مينفعش أفضل زي الأطرش في الزفة كده..

وبالفعل تركتنا "أم رامي" وأنا تركت الأوراق أمام "سمير" يتفقدها.. ودخلت إلى الحمام لكي أسلم جسدي لشلال متدفق من الرصاص البارد..

بدأ الماء يسيل على جسدي المنهك.. أحسست برعشة تسري في جسدي.. هل من أثر البرد مع الماء البارد.. أم هي نشوة الحرية.. أم هي رعشة الخوف من القادم.. لا يهم.. كل هذا لا يهم... كل ما يهمني الآن أنني خارج أسوار السجن..

خرجت لأجد "أم رامي" وقد وضعت صينية الأكل وجلست في مقابل "سمير" وقد أمسكت بالأوراق تتفقدها وقد انتابها الذهول.. كيف وأنا في غياهب السجن حصلت على هذه الأوراق؟ وهل هي حقيقية أم مزورة؟ أخذت تمطرني بوابل من الأسئلة المتتالية كمدفع جرينوف روسي متعدد الطلقات.. الأهم من طلقات "أم رامي" كان استقبال "سمير" لي... وكثير من علامات الاستفهام التي بدأت في الاصطفاف خلف بعضها.. لم يكن لها عندى مكان ولا إجابة.. ليس لسبب غير أن خزان الوقود الذي ملأه "الصياد " بهذه الحقنة السحرية بدأ ينفذ.. وبدأ الشعور بالألم

يتسلل إلى أقدامي.. كسرب نمل يسير في صفوف منتظمة في رحلته لغزو هذا ا لجسد المنهك سلفاً..

الفصل الخامس عشر

11 فبراير 2011..

مضي أسبوعان على خروجي من السجن.. الجميع علم بخبر خروجي.. "سمير" و" أم رامي".." إيمان" وأمها والحاج "إبراهيم".. استغرقت كثيراً من الوقت حتى اقتنع الجميع بما حدث.. لم يكن الأمر بالهين أو السهل.. فقد استغرق إقناع "أم رامي" و"سمير" فقط قرابة الثلاثة أيام.. بعد أن قصصت عليهم ما حدث بكل تفاصيله المملة والدقيقة قبل الأحداث الكبيرة.. حتى لحظة دخولي عليهم.. بالطبع مروراً بلحظة إنقاذ ذلك الضابط الملقي على الأرض الغارق في دمائه.. هذا المشهد المحفور في مخيلتي كنقش فرعوني قديم..

لم أفقد أبداً إحساسي بقبضة يده ولا نظرات عينه التي أراها في كل مكان.. لم تسعفني الذاكرة لكي أعرف من يكون.. مع أنني متأكد أني رأيته.. لكن كما قال "سمير".. كثيراً ما نري أشخاص نعتقد أننا رأيناهم من دقة الموقف أو خطورته أو جماله في بعض الأوقات.. لكن الحقيقة تكون غير ذلك.. وبهذا أيضاً قالت "أم رامي".. مستشهدةً بلقائها بي حيث أنها أحست منذ اللحظة الأولي للقائنا أنها تعرفني منذ سنوات طويله.. وعلى حد تعبيرها.. " فالأرواح طيور في ملكوت الله.. اللي يتلاقى يتقابل "..

لم يكن إقناع إيمان بالأمر الصعب مطلقاً ولا أهلها.. فالاستعانة بهيئة الدفاع بكامل قوتها يجعل من الأمر أكثر سهولة.. لكن كل ما حدث في كفة.. والفكرة التي خرجت بها "أم رامي "كانت في كفة أخري تماماً..

****

في منزل إيمان

يجلس الجميع هائمون.. صامتون.. يفكرون.. لا أحد منهم يريد أن يبدأ حتى لا يخطئ أو يخونه التعبير.. تدخل "إيمان" حاملة صينية الشاي وتضعها على المنضدة التي انتصفت المجلس تماماً.. ثم تتخذ خطوات للخلف حتى تستقر جالسة بجوار أمها..

صمت ونظرات متبادلة.. يمد "سمير" يده ليسحب كوب الشاي الخاص به قبل أن يغمر بعينه "لأم رامي" حتى تبدأ بالهجوم كما تم الاتفاق مسبقاً بينهما...

- بص بقي يابو إيمان.. أنا أصلا من إسكندرية وإنت عارف الكلام ده..
- أيوة عارف ياحاجة...
- حلو خالص.. شوف بقي يا حاج، أنا فكرت ونويت والنية لله إني أرجع هناك تاني.. على الأقل أتدفن وسط أهلي.. خلاص بقي معدش في العمر قد اللي راح، والواد "رامي" شكل الغربة عجبته ومن يوم ما سافر وانقطعت أخبار.. مفيش هي بس أول سنتين كان بيبعت جوابات وشرايط.. دلوقتي خلاص مبقاش يبعت ولا يسأل..
- ربنا يطمنك عليه "يأم رامي" ويديلك الصحة.. إذا مكنش ليكي أهل هنا.. إحنا أهلك وناسك ولا انتي عامله فرق بينا..

- تعيش يا حاج والله.. ربنا يعلم مقدار معزتكم عندي.. بس الواحد لازم يعمل حساب بكره.. وأنا فكرت إني أبيع البيت اللي هنا ونطلع كلنا على إسكندرية.. أهي منها أبقي وسط أهلي وعزوتي في أيامي الأخيرة. ومنها "حاتم "بقي يبدأ حياته من جديد في مكان جديد.. وكمان "سمير" ربنا يكرمه هناك ويبقي عزوة لينا.. هو كده كده ملوش حد هنا.. يبقي هيجي معانا..
- طيب وإحنا.. إحنا منقدرش نسيب هنا وبعدين يعني هتاخدي نور عنينا وتسيبينا كده.. دا إحنا وافقنا على الجوازه علشان "حاتم" جنبنا.. وهتبقى" إيمان" تحت عنينا.. يرضيكي الواحد على أخر أيامه ينحرم من نور عنيه؟
- ربنا يديلك الصحة ويزيدك نور يا أبو إيمان يا طيب.. والله ما أقدر أبداً.. بس أنا شايفة إن ده أسلم حل.. والبلد انتو شايفين تضرب تقلب ومفيش أمان خالص..

يخرج " سمير" علبة سجائره ويخرج منها واحدة يضعها في فمه ثم يشعلها.. ينفث دخانها جانباً ثم يشرب آخر ما بقي من كوب الشاي....

- شوفوا بقي يا جماعة أنا من المبدأ معنديش مانع.. بس بشرط.. نروح كلنا.. البيت هنا لو اتباع على بيتك يا حاج تبيعه برضه.. وعلى قرشين أنا محوشهم حلوين يعني.. على القرشين اللي مع "حاتم".. ونطلع كلنا.. على إسكندرية.. نشتري بيت محترم كده ونسكن فيه كلنا سوا.. "أم رامي" في شقة.. وانتوا في شقة. و"حاتم وإيمان" في شقة.. وأنا بقي أتلم في شقة من نفسي.. بدل سكنة العشش.. وبقيت الفلوس نعمل بيها مشروع نشتغل فيه كلنا والحاج كمان لو عاوز يضيع وقت ولا حاجة.. ويبقي رضينا كل الأطراف.. طبعا البيت الجديد

هيتكتب باسمكم.. أصحاب الفلوس علشان لم "رامي" يرجع إن شاء الله يلاقي بيت وشغل وعيله..

لاقت فكرة "سمير" العبقرية استحسان الجميع دون استثناء.. وكان القرار أن يبدأ الحاج إبراهيم وأم رامي في تجهيز اللازم والبداية في الإجراءات في أسرع وقت..

واستمرت النقاشات وطرح الأفكار والاحتمالات وطرح حلول مقنعه لكل المشكلات المحتمل أن تواجهنا في الخطوة القادم.. وبدا الأمر وكأنه بالفعل من تدبير رب عليم بالأحوال كما ذيل الحاج "إبراهيم" كلامه..

ولكن في خضم هذه المناقشات والأفكار التي انسابت بفيض سخي على الجميع.. كان لابد من العودة إلى "إيمان".. بالطبع هي الآن خطيبتي.. لكن.. كونها ستقبل أن تغير مجري حياتها وحياة أهلها من أجلي.. فهذا أمر ليس بالأمر السهل مطلقاً.. فكان لابد من بداية جديدة.. لا يمكن أن تستمر الجدران الشاهقة الموجودة بيننا.. لا يمكن أن تظل في عزلتها وأنا في ملكوتي الخاص.. لابد من الدمج والتوحد.. فكانت الخطوة الأهم..

- لو تسمح لي يا حاج.. كده الوضع تقريباً شبه متفق عليه وعلى كل التفاصيل.. كنت عاوز بقي استأذن حضرتك إني أخرج مع "إيمان".. نتمشى.. نتغدى بره.. عاوز أشيل الحاجز اللي بيني وبينها.. أنا حاسس إني من يوم ما عرفتها وعرفتني وهي ما شافتش يوم حلو.. من القضية للسجن.. للهروب.. للإسكندرية.. لازم أقرب منها الأول قبل الخطوة بتاعت النقل وبيع البيت.. ياريت يا حاج..

- يابني أنا عمري ما همانع أبداً.. دي خطيبتك وإنت زي ابني تمام.. وأنا يوم ما وافقت عليك استأمنتك عليها طول العمر.. يبقي همنعك تخرج معاها.. يابني إنت المفروض تحافظ عليها أكتر مني دلوقتي..
- يا حاج والله ربنا يعلم غلاوتها عندي ومعزتها بتزيد يوم عن يوم.. وكل يوم أقول لنفسي اني قليل عليها وهي تستاهل أحسن منى مليون مرة.. حتى يوم ما وافقت أنا مكنتش مصدق والفرحة كانت عمياني.. بس الحمد لله على كل حال..
- يابني ربنا له حكمه.. ولو العبد اطلع على أسرار ملكوت الله هايتجن وعقله يشت منه.. بكره تخرجوا تتغدوا سوا بره.. بس ابعدوا عن اللبش وروحوا مكان يكون هادي.. ومتنسوش تجيبوا معاكم حاجة حلوة وانتوا جايين..

يقاطعه "سمير" ساخراً: حاجة حلوة إيه بقي يا حاج.. إحنا خلاص مهمتنا خلصت.. العروسة للعريس والجري للمتاعيس.. اللي هو أنا طبعا.. مش كده يأم ارمي..

لم تترك له "أم رامي" فرصة لفرض مسلسل الترخيم المعتاد فقررت أن توقفه: والله يا "سمير" إنت اللي تاعس روحك بأيدك.. وبأيدك تعمل زي "حاتم" وتغير حياتك وترجع بني أدم تاني.. متفهمه يا حاج "إبراهيم"..

- شوفوا بقي.. سيبوني في حالي وأنا كده ميت فل واربعتاشر. أنا لو هتجوز عاوز واحده زي "إيمان".. لا كده لا بلاش..
- إتوكس.. إنت كده بتعقدها.. إنت هتلاقي في الدنيا كلها زي "إيمان"..

وانقلب الحال من معسكر للتخطيط وإدارة العمليات.. إلى مباراة في المديح والإطراء المتبادل. مباراة اشترك فيها ولأول مره العضو الجديد "إيمان" التي بدأت تأخذ دورا في النقاش على عكس السابق تماماً...

كنت أراها تتحدث وكأني أراها للمرة الأولي.. كان قلبي يتطاير فرحاً مع كل حرف يخرج من شفتاها ومع كل لفته من عيناها الساحرتان بكل ما تعني الكلمة من معني.. كيف لم أرى كل هذا الجمال من قبل؟!

وجدتني أستمع أكثر مما أتكلم.. أوجه حديثي إليها متعمداً حتى أستمتع بكل كلمة منها وبكل إشارة.. ناهيك عما كان ينتابني عندما تبتسم.. أو تضحك.. كان قلبي ينتفض وعقلي يرقص.. كنت كراقص باليه تحركه أنغام أوبرا "إيمان".. وكأنني أعيش في أجمل حلم رأته عيناي منذ أن خطت قدماي سطح هذا الكوكب..

أخرجني من نشوتى وهيامي صوت الهاتف المحمول.. اتصال من رقم غير مسجل.. بالطبع عرفت المتصل دون النظر لكونه مسجلا أو غيره.. فقد كان الاتصال على الشريحة الخاصة "بسالم".. ما أن سمعت الهاتف ورأيت الرقم ارتسمت على وجهي ابتسامه عريضة حتى أن الجميع لاحظها من صوت الضحك المكتوم المغموس في بحر من السخرية والمشبع بكل معاني الحنق والضيق الذي يؤدي غالباً إلى الهذيان..

فكأن القدر يتربص بي من خلف ستارٍ.. أو يرمقني بعينه الخفية.. أو أن شخصاً ما يراقبني في كل تصرفاتي وأفعالي.. حتى إذا ما رآني في حاله من الفرح أو السعادة لأي سبب.. ينقض عليَّ مباشرة كذئب جائع رأي فريسته المترنحة تتراقص أمامه تدعوه لافتراسها دون أدني مقاومة تذكر..

ها أنا الفريسة أتراقص على أنغام الموبايل.. بعد أن أثملتني ضحكات وكلمات معشوقتي.. لكن كما يقولون.. ما باليد حيله.. لم يكن بوسعي أن أتأخر عن نداء "سالم".. فرقبتي تحت قدمه.. وحريتي مفتاحها في يده الملوثة بالدماء..

بعد إن استأذنت الجمع.. وخرجت إلى الشرفة لأستمع إلى سيل التعليمات الجديد من القائد العام.. ربما دعوة لاجتماع طارئ.. أو خطة جديدة تستلزم شخصاً أبلها غير ذي خبرة وبالطبع لن يستطيع أن يقوم بهذه الخطة دون البطل..

- أيوة... أيوة يا معلم.. معلش أصل أنا في مشوار..

طيب حاضر..

طيب وهو لازم بكره يعني..

لا والله يا معلم مش بتشرَّط ولا حاجة بس أنا عندي بكره مشوار مهم جداً.. مستنيه من زمان قوي..

طيب علشان خاطري يا معلم خليها مثلا على الساعة 9 حتى يكون الجو هادي بدل اللبش وانت سيد العارفين..

طيب خلاص حقك عليَّ يا معلم.. الساعة تلاته بالثانية هتلاقيني عندك..

يا معلم إنت خيرك مغرقني والله وجميلك على راسي..

حاضر يا معلم.. مع السلامة.

الآن أيقنت.. وتأكدت شكوكي وظنوني.. فهذا الذي يراقبني انتظر كل الفترة الماضية.. حتى ما أن أخذت أولي خطواتي في التقرب من "إيمان".. ومع أول موعد.. يأتي الاستدعاء كضابط احتياط تقف عربة الجيش أسفل منزله لتصحبه إلى ساحة المعركة.. في الوقت الذي تدق فيه طبول فرحه.. هكذا الحياة..

وجدتني وبدون وعي أردد كلمات كانت قد غابت عن ذاكرتي لفترة.. لا أدري ما الذي أجراها على لساني.. وكأن إجابات الأسئلة التي طرحتها على نفسي سابقاً تأتي مسرعة لتقول لي ها أنا ذا.. وجدت لساني وبدون قصد أو ترتيب يرددها من تلقاء نفسه.. كلمات كانت قد توارت خلف قضبان ذاكرتي لكن ما حدث منذ قليل استدعاها لتستقر على مسرح العرض ويبدأ لساني في ترديدها...

اسمك وفعلك من زمان مكتوب.. لا يوم تقدر تغير.. ولا حتى منه هروب.. يدك في يد الطيبين أولي.. الدنيا يوم ما تدوق شهدها لازم هتاكل بعدها من المر.. إوعاك في يوم تشتكي ولا يوم تشيل الهم.. ربك بأيده الفرج أوعاك في يوم تنساه.. لو يوم يجيك الحزن.. ارجع إليه تلقاه.. ربك رحيم بالعباد لكن لمن يخشاه..

- إنت جبت الكلام ده منين يا "حاتم"؟!

كان الصوت "لإيمان" التي كانت تقف خلفي مباشرة.. لم أشعر بدخولها.. لكني أحسست بيدها وهي تستقر على كتفي بهدوء.. قبل أن ينتفض جسدي عند سماع سؤالها..

- ها.. كلام إيه؟
- الكلام اللي إنت قولته من شويه..
- تقصدي المكالمة يعني.. لا دا واحد صاحبي.....
- لا مقصدش المكالمة.. اقصد الكلام اللي إنت قولته بعد ما قفلت؟!!
- كلام إيه مش واخد بالي. الواحد بيدندن أوقات بحاجات من غير ما ياخد باله...

- اسمك وفعلك من زمان مكتوب.. لا يوم تقدر تغير.. ولا حتى منه هروب.. يدك في يد الطيبين أولي.. الدنيا يوم ما تدوق شهدها لازم هتاكل بعدها من المر.. أوعاك في يوم تشتكي ولا يوم تشيل الهم.. ربك بأيده الفرج أوعاك في يوم تنساه.. لو يوم يجيك الحزن.. ارجع إليه تلقاه.. ربك رحيم بالعباد لكن لمن يخشاه.. سمعت الكلام ده فين؟

اتسعت عيناي في ذهول مع كل كلمة كانت تنطقها "إيمان".. حالة من الذهول مع التيه.. صحبها انخفاض حاد في الدورة الدموية أحسست به فجأة بعد أن سري تيار بارد في أطرافي نتيجة انسحاب الدم منها.. لحظة من الصمت التام تعلقت فيها عيوننا وكأنها ترسل إشارات متتالية.. لا أعلم.. وهي أيضا لا تعلم.. وفي نفس اللحظة نطقنا..

إنت قابلت الست العجوزة؟!!

نفس السؤال في نفس اللحظة... عن نفس الشيء.. عاد بعدها الصمت مرة أخري.. حتى أخذت زمام المبادرة وبدأت في الحديث بعد أن جذبتها لنتوارى عن الجالسين في ركن الشرفة على مقعدين من الخشب...

- انتي عرفتي الكلام ده منين؟
- قولي إنت الأول.. إنت سمعته فين.. وإمتي؟
- أنا سمعته من واحده ست عجوزة.. كانت.....
- قابلتك على كوبري قصر النيل.. مش كده؟
- أيوة صح.. كنت مع "سمير" ويومها.....

- جت من غير ما تاخد بالك ولقيتها واقفه ومسكت إيدك.. وقعدت تقلب فيها..
- الله.. انتي عرفتي كل ده منين؟؟
- رد على الأول صح ولا غلط؟
- أيوة صح..
- وقالت لك الكلام ده ومشيت ومخدتش منك حاجة..
- الله.. ما تقولي يا بنتي عرفتي كل ده منين؟ انتي قابلتيها ولا إيه؟
- أيوة قابلتها...

وكأنها مدت يدها لتمسك كبدي بيديها وتخلعه من مكانه بعد أن قطعت أوردة قلبي وشراييني ليسقط جسدي على المقعد بدون أي مقاومة..

- إيه يا حاتم مالك؟
- انتي بتقولي شوفتيها وقالت لك نفس الكلام؟
- لا إنت فهمت غلط.. أنا شوفتها وهي بتقولك إنت نفس الكلام..
- شوفتيها فين إذا كان أنا و"سمير" بس اللي شوفناها!!
- اصبر بس.. مش أنا يوم ما كنت عندك في الزيارة وإديتك الجوابات وقولت لك اني حلمت حلم..
- حلم.. الله يجازيكى يا شيخه وقعتي قلبي..
- أيوة يا "حاتم" حلم.. بس أنا في الأول مكنتش فاهمه ولا قدرت أحفظ الكلام.. بس لما سمعتك بتقوله افتكرته.. وافتكرته كويس جداً.. دا غير إن الحلم ده إتكرر معايا كتير..

- طيب أنا لحد دلوقتي بقي مش فاهم أي حاجة من الكلام ده.. ممكن انتي بقي تفسري..
- بص أنا مش فاهمه زيك برضه.. بس اللي أنا فهماه ومتأكدة منه إن مصيري ومصيرك مربوط ببعضه.. وكأننا إتخلقنا علشان نكمل بعض.. مهما حصل لك يا حاتم عمري ما هاكون مع حد غيرك..

لم أتمالك دموعي ولم أستطع السيطرة عليها.. فقط اكتفيت بالنظر إلى هذا الملاك الجالس أمامي مباشرة.. مددت يدي لأحتضن كفيها بشده.. ثم رفعتهما لأطبع عليهما قبلة تحمل كل معاني الحب.. الامتنان.. الثقة.. والخوف...

الفصل السادس عشر

فيلا شوقي الموجي.. 11فبراير 2011 – الساعة العاشرة مساءاً

قوات من الشرطة تحيط بالبوابة الرئيسية.. التي فتحت بعد تلقي الإذن من الداخل، لتدخل عربات الشرطة الزرقاء وتستقر أمام باب الفيلا الذي كان يقف أمامه "شوقي" مرتدياً روب كحلي وبيده سيجاره الفاخر.. ينزل مجموعه من الرجال يتقدمهم ضابط يتوجه مباشرة نحو" شوقي": مساء الخير يا "شوقي" بيه..

- أهلا يا حضرة الـ..... الرائد.... خير..
- خير إن شاء الله.. بس حضرتك لو تسمح تشرَّف معانا..
- أشرَّف معاكم فين؟ ومين اللي باعتك؟ إنت مش عارف أنا ابقي مين؟ أنا معايا حصانة..
- لو سمحت سيادتك يا "شوقي" باشا إتفضل معانا بكل هدوء.. وهنسمح لسيادتك إنك تلبس هدومك في أقل من عشر دقايق.. لو سمحت..

نطق الضابط هذه الكلمات وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء مصطنعة بعد عناء..؛ بعدها لم يكن أمام "شوقي" خيار آخر بعد أن أيقن أن ثورته وصياحه لن يجدي شيئاً.. وبعد أن قام بعمل بعض الاتصالات من هاتفه بائت كلها بالفشل لعدم تلقي أي رد.. انصاع بعدها جاراً أذيال الهزيمة.. صاعداً درجات السلم الداخلي لينزل بعدها مرتدياً بدلته الرسمية.. ويخرج بصحبة الشرطة إلى مكان مجهول..

لم يكن "شوقي" يعلم ماذا يحدث ولا سبب اقتياده من قبل الشرطة.. كل ما يعلمه الآن يقينا أن كل حلفاؤه باعوه.. يقف الآن موقف "ريتشارد قلب الأسد" الذي لطالما بذل الغالي والنفيس من أجل هؤلاء المدعين صداقته.. قبل أن يتلقى

سهماً مسموماً اشتركت أيديهم جميعها في إطلاقه.. لم يجب أياً منهم على اتصالاته.. حتى الأرقام الأرضية الخاصة بكل منهم لم يتلق أي إجابة..

ها هو الآن يخرج من قصره المهيب عارياً تماماً من كل سطوته ونفوذه.. يفكر فقط في مصيره المحتوم.. يوقن تماماً أن حصانته لن تمنعه من بطش الكبار إذا ما قرروا أن يقدموه قربانا ليفتدوا به رقابهم.. كان يدرك جيداً انهم جميعهم في مأمن من المسائلة ومن العقاب.. أما هو فلا يعدوا كونه ذبابة تتقاذفها الرياح دون أن يكون لها الحق في أن تبدى أي مقاومة.. فقط تنتظر مصيرها...

****

اليوم التالي: (فناء سجن المزرعة)

يقف "شوقي" على باب زنزانته مرتدياً بدلته البيضاء زي الحبس الاحتياطي.. يجرجر أقدامه حسرة وخيبة منكساً رأسه ينظر موقع خطواته.. لا يري أي شيء مما يدور حوله.. تأخذه خطواته عبر الممر إلى ملعب رياضي يتوسط المباني التي رسمت حرف L حوله..

صوت يقطع حبل تفكيره يأتيه من بعيد.. صوت يعرفه جيداً لكن لم يكن يتوقع أن يسمعه في مثل هذا المكان..؛ التفت إلى مصدر الصوت ليجد أمامه مجموعة ملتفة في دائرة تجلس على العشب الأخضر في فناء السجن.. كان الصوت "لمحسن الكومي"..

- مرحب يا "شوقي".. إنت شرفت إنت كمان.....
- مين؟ ياااااا.. مش ممكن.!

أصدر "شوقي" ضحكة عالية..

- دي الشلة كلها هنا.. الله.. أومال مين اللي بره؟ وأنا اللي قولت انكم بعتوني..
- بره مين يا عم.. دا الحبايب كلهم هنا من إمبارح وأول وأول.. تلات أيام والعربيات بتحول.. وإيه كله من فوق..
- يعني إيه كله من فوق؟
- يعني من الوزارة والمديرية والطقم العالي كله.. تقولش مذبحة القلعة بتاعت "محمد على"!

قاطعه صوت "أحمد شاكر": بس متقولش مدبحة القلعة.. ياعم ده تكتيك.. الناس هايجه بره والريس اتنحى.. يبقي لازم نستخبي شوية عن العنين علشان الناس تتكن وتهدي.. وإنت عارف البلد.. شعبنا غلبان وطيب وسريع النسيان.. يومين ولا حاجة الأمور تترتب وكل واحد يطلع يشوف مصلحته..

محسن: لا يا بوحميد.. معتقدش.. أصل الطريقة اللي اتاخدنا بيها وكلام التليفزيون بيقول إننا هنتعلق في التحرير ويقطعونا ونتوزع زي لحمة العيد..

موافى: يا جماعة بلاش نسبق الأحداث.. انتوا مش عارفين مين معانا هنا في المزرعة.. ومين في طره.. دا تقريبا مفيش حد من الناس الكبيرة بره.. كله مشرَّف.. دي فعلاً مذبحة القلعة..

نافع: يا جماعة أنا مش عارف انتوا قلقانين ليه؟! دي كلها أيام والحكاية تهدي تاني.. وأنا موافق رأي "أحمد".. دي بس حركة علشان الناس تهدي.. يا

جماعة انتوا مش عارفين إنها شبكة منفده على بعضها.. ولا يقدر حد يحاسب حد.. ولا إيه يا "طحان".. متقول حاجة..

لم يلتفت "الطحان" لأي من كلمات قعدة المسطبة التي انقسمت بين التمني والخوف.. لم يكن يعطي اهتماماً لأي منهم.. كان جالسا ممداً جسده ومستنداً على ذراعيه اللذان امتدا باستقامة خلف جسده ليحملا نصفه العلوي..

شوقي: إنت مش معانا خالص يا "سعيد" باشا.. فينك.. ما تقول رأيك في اللي بيحصل ده.. إنت معانا في نفس المركب..

بامتعاض وتملل شديدين كمن أجبر على تناول طبق من السوشي النيء وهو لا يطيقه

سعيد: اعتبروها ريست.. ولا اعتبروها أجازه استجمام.. بجد جاية في وقتها.. الواحد من زمان نفسه ياخد أجازه.. في مكان هادي وبعيد عن الزحمة.. ودا بقي أنسب مكان...

نافع: يعني إنت مبسوط بالرمية دي يا "سعيد" ولا إيه؟

سعيد: طبعاً مبسوط.. ولو مكنوش قبضوا عليَّ وجابوني هنا كنت أنا هاطلب إني أجي معاكم.. مفيش حاجة بتحصل مش محسوبه.. كل حاجة معمول حسابها تمام..

شوقي: "سعيد" باشا.. إنت كلامك كده ميطمنش.. إنتوا في الأمان بس في ناس تانيه رجلها في كل مصيبه.. يعني في ناس هتقضيها فسحه ونزاهه وفي ناس هتطلع من هنا على عشماوي عدل..

سعيد: جرا إيه يا "شوقي".. ما تبقاش خفيف أومال.. كل حاجة ماشيه بالقانون ولا في أي مشكله.. وكبيرها خالص يعني هتبقى تسوية.. يعني هتخلَّص فلوس بفلوس.. فيها حاجة دي؟

شوقي: "سعيد" باشا.. أنا مطمن بس علشان انتوا معايا.. بس أنا خايف في يوم أصحي الصبح ألقي نفسي لوحدي هنا وسعادتكم كل واحد رجع مكتبه تاني..

سعيد: لا متخافش.. كلنا هنخرج بس هي مسألة وقت.. بس يوم ما هنخرج مش هنخرج زي ما دخلنا.. لا.. بالعكس. الوضع هيبقي مختلف تماماً..

****

أقف الآن أمام محطة أتوبيس حدائق القبة.. كما كان الاتفاق.. تقف أمامي مباشرة سيارة ربع نقل تحمل صندوق كبير مغلق مخصص لنقل المثلجات.. ينزل منها شاب عشريني العمر.. يلتف حولها ويفتح باب الصندوق متظاهراً بنقل بعض الكراتين.. فجأة أجد نفسي في مقابلة المغامرون الخمسة.. يجلسون القرفصاء داخل هذا الصندوق الكبير.. لم أنتظر منهم أي إشارة.. قفزت داخل الصندوق الذي أغلقه صاحبه وعاد إلى مكانه في قمرة القيادة الرئيسية.. لم أكن أعلم وجهتي.. فالصندوق مغلق تماماً بدون أي مصدر للضوء سوي هذا المصباح الصغير جداً المعلق في سقفه يشبه مصباح الثلاجة الذي يضيء حين يفتح الباب..

- يا مرحب بالغالي.. ليك واحشه والله يا "حتوم".. فينك؟
- أنا تحت أمرك يا معلم.. أنا نفذت كلامك بالحرف الواحد.. واستنيت تليفونك..

- عفارم عليك.. وأنا مبسوط منك إنك عرفت تروح لوحدك، وربنا كنت خايف لتتعكش وترجع تاني للومان..
- ربنا ستر يا معلم..
- المهم متكونش عملت لبش ولا اتغابيت زي عوايدك؟
- ليه بس يا معلم "شيحة" والله أنا ما انتقلت من مكاني..
- خلاص خلاص.. خلاص يا "شيحة" الراجل لحد الوقتي تمام.. بص يا سي الأستاذ.. طبعا إنت مش عارف إنت فين ولا رايح فين. ولا هترجع ولا مش هترجع.. بس أنا عاوز أطمنك.. ساعتين زمن بالكتير وهترجع مطرح ما كنت ولا كأن حصل حاجة..
- أنا تحت أمرك يا معلم..

لم أستطع أن أخفي توتري الواضح والذي فضحه كم العرق المنساب على جبهتي ووجهي والذي لا يتناسب مطلقاً مع جو الشتاء الذي نحن فيه.. كنت أحاول أن أرسم خريطة تخيليه للمكان الذي نتجه إليه.. فبعد أن تحركنا بدأت أتتبع انعطافات السيارة وتوقفاتها.. فبحكم مهنتي كنت أحفظ عن ظهر قلب محيط منطقة عملي ولحسن حظي كانت في هذا النطاق.. تتبعت سرعة السيارة والتوقفات والانحناءات التي كنا نتمايل على أثرها داخل هذه العلبة المغلقة..

توقفت السيارة بعد تقريبا ربع الساعة.. أكاد أجزم أننا الآن في محيط منطقة الزاوية الحمراء أو مكان قريب جداً منها.. فتح باب الصندوق.. وجدت نفسي داخل جراج كبير مغلق من الخارج والسيارة تقف وسط كومه كبيرة من الخردة وقطع الغيار.. لم أتمكن بالطبع من تحديد الموقع.. لكن حاولت قدر الاستطاعة أن أسترق النظر لكي أجد أي شيء يدل ولو من بعيد عن ملامح هذا المكان.. لكن بدون

فائدة.. فملايين المخازن الخاصة بقطع الغيار لها نفس الشكل والمحتويات تقريباً.. لم أجهد عقلي كثيراً في التفكير وقررت التركيز مع الخطة التي نحن بصدد الاتفاق عليها الآن مع المارشال "سالم الصياد"..

شبك "سالم" أصابعه ثم دفع ذراعيه للأمام لتخرج أصوات "طرقعة أصابع" قبل أن يجذب مقعداً حديداً ويجلس أمامنا بينما الجميع واقفاً حوله في نصف دائرة: بصوا بقي يا رجالة.. طبعا الوقتي كلكم بقيتوا صاغ سليم.. لا واحد فيكم عليه سابقة ولا حد مره اتمسك تحري.. ورق سليم ميه الميه ولا فيه غلط.. والورق القديم اللي فيه الفيش بتاعكم كمان بخ.. راح.. اتشفر خلاص.. يعني كل الماضي راح..

- اتشفر إزاي يا معلم؟
- يعني اتشفر يا لمض.. يعني معدش له أي أثر.. الأقسام اتحرقت باللي فيها وأمن الدولة كمان بخ والمرور والنيابة وكل حاجة فيها ورق خاص بينا وبغيرنا مش إحنا بس يعني.. الواحد ميدعيش حاجة مش بتاعته.. ولاد الحلال عملوا معانا الصح بصراحة.. حاجة كده ولا قصص ألف ليله ولا مليون واحد كان يفكر في يوم إن اللي حصل ده يحصل..

تصدقوا بالله يا رجاله.. أنا ما مصدق لحد الوقتي.. يعني "الصياد" و"شيحة" و"شريده" والألاضيش كلهم بره وصاغ سليم وكبارات البلد كلهم في اللومان وأبو زعبل.... عَجِبْتُ لك يا زمن!!!

- يا معلم إحنا علشان مظلومين ربنا خد بيدنا ونجدنا.. وربنا يا معلم أنا متاخد غدر في القضية دي..

- أصبر يا "شيحة" وكل حي هياخد حقه واللي غلط هيتحاسب خلاص.. البلد بتتغير ياجدعان.. المهم بقي علشان منضيعش وقت..

الوقتي بما إننا رجالة محترمين ومحدش فينا عينه بتوجعه لا مؤاخذة.. يبقي نشتغل على نظافة ومن أول وجديد.. وعفا الله عما سلف.. وإحنا طبعا ستر وغطا على بعض.. أنا قولت بقي بالصلاة على النبي نفتح صفحه جديدة ونعمل مشروع سوا ناكل بيه لقمه نضيفه نعيش بيها بقي لحد آخر العمر..

- والله عين العقل يا معلم.. يا زين ما فكرت..
- ممكن محدش يقاطعني يا رجاله وانت بالذات يا لمض إنت..

بصوا يا رجاله.. طبعاً المشروع لازمه راس مال.. غله يعني.. قرشين نسّند عليهم ونبدأ بقي حياتنا على نضافه.. وطبعا إحنا كلنا مأشفرين.. يعني كلنا كده لو اتحطينا على بعض منجبش تمن علبتين سجاير ملابورو.. يبقي نعمل إيه.؟؟

أقولكم أنا نعمل إيه.. إحنا لينا قرشين أمانه يعني عند واحد حبيبنا.. هناخدهم.. بس يمكن يعني ناخد عليهم حته.. دي من عندنا يعني.. راجل مليان ماشاء الله.. ربنا يزيده.. هننزل عليه ضيوف خفاف خفاف.. هناخد منه القرشين نعمل بيهم المصلحة ويدار ما دخلك شر..

- إيه ده هنسرق يا معلم.. يعني الواحد ما صدق يطلع من السجن وربنا يفرجها عليه.. يسرق تاني.. لا والله ما يحصل أبداً.. يا معلم بلاش..

استقبل "سالم" تدخلي ومقاطعتي بكثير من الاستنكار والحنق الشديد: الله الله الله.. إيه ابقي.. إيه العيل المنسون اللي ها يعيط ويقرفنا على المسا ده.. لا يا حيلتها.. أنا مش مطلعك من السجن ومظبطك كل ده علشان تقولي مش عارف إيه.. لا فوق

وربنا أدفنك هنا ولا ليك ديه ولا حد هيدري بيك.. أنا مقولتش هنسرق.. أنا قولت هناخد حقنا وإذا مكفاش هنستلف عليه حبه كمان.. سلفة يعني.. والراجل حبيبنا يعني ومش هيمانع...

- خلاص بقي يا "حاتم" يا أخي ما تجمد شويه.. الله.. هو المعلم يعني مش بيدور على مصلحتنا كلنا.. إنت خايف ليه؟
- أي والله يا "حاتم" يا خويا.. النفر منينا نفسه يِجِبْ بَجَي على وش الدِنيا ويبطل الشغل الجَطاعي ويعمل حاجة عِدْله يساند عليها ويعيش بجية عمره مستور وبعيد عن عيون الحكومة..
- أيوة يا "شيحة" إنت و"شريده" فهموا اللطخ ده..
- يا معلم إحنا معاك.. من إيدك دي لإيدك دي.. اللي تؤمر بيه يا سيد المعلمين ومش ناسين جميلك علينا....
- شوفت يا بأف.. يعني إنت العيل الخرنك الوحيد اللي في الليلة دي.. ما تنشف شويه أومال.. ثم إنت بقي مش هتسرق يا فالح.. أنا عارفك نيله وهتودينا في ستين داهيه لو اشتركت معنا..
- طيب أومال أنا هعمل إيه؟
- إنت هتبقي طعم بس.. يعني هتشتغل في الشركة دي لحسابنا.. يعني إنت هتروح تشتغل سكيروتي.. أمن يعني.. لحد ما الليلة تستف والأمور تبقي تمام.. نقوم إحنا نشرف ناخد السلفه ونخلع.. تيجي إنت تاخد نصيبك زي الرجالة وكل حي يشق طريقه بقي..
- طيب يا معلم لا مؤاخذة يعني.. أنا هشتغل إزاي في الشركة؟

- بصي يا واد متزهقنيش.. إنت الوحيد في المجموعة اللي تدي على ابن ناس ومحترم كده.. ثم إنت ناسي الشهادة اللي إحنا عملنها لك، هتاخدها وتروح هتتوظف دوغري.. هتستلم شغلك وتظبط حالك.. وتلاغينا بس كده وإنت هتبقي بعيد.. فهمت.. يعني لا هتسرق ولا نيله.. فهمت!
- خلاص يا معلم اللي تشوفه.. تحب أروح متي؟
- لا يا حدق اصبر.. يومين كده ولا حاجة وهابعت لك واحد ياخدك لحد هناك ويقف معاك لحد ما تستلم شغلك.. كده أظن بقي يبقي ملكش أي حجه.. ولا إيه؟
- طيب آخر حاجة.. ممكن أعرف مين هو الراجل ده.؟
- متسعجلش الأمور.. دا إنت هتتبسط في الشغلانة قوي.. أصل انت تعرف الراجل.. ده حبيبك!

بعد انتهاء الاجتماع.. عاد الجميع أدراجه إلى حيث علبة السردين المغلقة حاولت التركيز لعلي أصل إلى أي معلومة يمكن أن ترشدني إلى المكان الذي كنا فيه الآن.. لكن لسوء الحظ اتخذ السائق طريقاً مختلفاً تماماً عن الذي سلكه في طريق الذهاب.. بالطبع هذا الأمر بديهياً بالنسبة لشوارع القاهرة التي تجبرك في أغلب الأحيان أن تغير طريقك لتواكب مزاجية المرور المتقلب..

لم يستغرق الأمر طويلاً.. فالساعة الآن تشر إلى تمام الرابعة والنصف.. ألقت بي العلبة المغلقة على ناصية الشارع الذي أسكن فيه.. أعتقد أن "الصياد" أراد أن يرسل إلي برقية مبهمة تحمل في طياتها أن انتبه فأنت لست بالبعيد عن أيدينا.. لم أتعجب لأني رأيت ما هو أكثر من ذلك وما قصه "سمير" في رحلته لجمع الأوراق جعلني موقناً أن هذا "الصياد" عضواً في تنظيم أكبر من كونه مجرد تجمع لخمسة من الهواة الهاربين..

بخطوات مسرعة وصلت إلى السطوح.. بدلت ملابسي في سرعة البرق..و في الموعد المحدد كنت أتقمص دور روميو الواقف تحت شرفة جولييت الجميلة.. يترضاها لتشفق عليه بنظرة أو بابتسامة.. لكن جولييت الجميلة كانت أكثر كرماً فدقائق قليلة كانت تفصل العاشقان عن أول لقاء لهما منذ ارتباطهما..

يا لروعتها.. لم أتوقع أن تجتمع شمسان في سماء واحده ذات نهار.. لكنه حدث.. كانت ترتدي فستانا ورديا رائقاً واحتجبت بغطاء رأس من اللونان الوردي والأسود.. يحيطان بوجه ملائكي كأنه البدر ليلة تمامه.. ما أن قدمت حتى أسرعت إليها ماداً يدي نحوها.. فاستقبلتني بابتسامة ساحرة قبل أن تلقي كفها الوردي الناعم كالحرير في أحضان يدي.. هل كنت بهذا الغباء والتيه بأن أقضي أشهراً من عمري وأنا ارتبط بهذا القمر نظرياً فقط.. مجرد كلمة دون فعل.. سألتها..

– تحبي نتمشى شويه ولا نركب ونروح على السينما على طول؟

هززت رأسها إيجاباً.. وأنا أتطلع لكل ما تقوم به من حركات أو نظرات.. نقشتها في ذاكرتي في أرشيف خاص بها وحدها.. عنونته " آسرة قلبي "..

بخطوات متقاربه.. وأجساد أكثر تقارباً وأيدي متشابكة.. وقلوب راقصة.. وعيون تتلألأ من فرط البهجة.. وصلنا إلى ناصية الشارع حيث ركبنا تاكسي وانطلق بنا قاصداً سينما جنينة مول.. لكونها في مكان راقي بعيداً عن جو المظاهرات والاضطرابات في منطقة وسط البلد..

كانت فرصة جيدة جداً حتى أتحول من مرافق إلى مرشد سياحي.. فهذه السينما تقع بالتحديد في بؤرة منطقة نفوذي سابقاً.. فهي تبعد مسافة قليله جداً عن المطعم والمعمل الذي كنت أعمل بهما.. بالفعل كنت مرشداً متميزاً فقد كنت أدرك كل

تفاصيل المكان بدقة متناهية.. لكني بالطبع تحاشيت أن أصطدم بأي من رفقاء الأمس حتى لا تفسد هذه الرحلة التي حلمت بها طوال الليل..

كانت الأجواء شبه مستقرة.. غير ذاك البوكس الأزرق الرابض أمام باب المول.. وسيارة النجدة التي كانت تتجول في المنطقة.. باعثة بعضً من الطمأنينة والأمان في قلوب السكان..

توقف التاكسي ونزلنا.. وبخطوات ثابته تقدمنا نحو باب المول.. حتى استوقفنا أحد أمناء الشرطة طالباً منا إظهار تحقيق الشخصية..

بالطبع "إيمان" كانت تعي جيداً الموقف الجديد الذي أعيش فيه.. وبالطبع كانت تعرف جيداً التعليمات الجديدة للتعامل في الشارع.. فأنا أسمي "محمد".. بالطبع هي أتقنت وحفظت كل التفاصيل عن ظهر قلب..

أمسك الأمين البطاقتان وأخذ يقلبهما.. ثم أنصرف ناحية شخص يجلس على كرسي.. يختبئ خلف جريدة.. ويرتدي نظارة شمس عريضة تخفي كثيراً من ملامحه.. ثواني وانخفضت الجريدة.. واستوت قدماه.. ثم طوي الجريدة وقام مترجلاً نحونا.. وبصوت خافت وجبهة مقتضبة.. ولهجة تحمل استفساراً واضحاً..

- إنت محمد أحمد محمود مصطفى؟
- أيوة يا فندم.. طيب ممكن تقلع نظارة الشمس دي عاوز أشوفك!
- خير يا فندم في حاجة؟
- لا أبداً بس بشبه عليك.. في مانع؟!

بالطبع لم يكن هناك أي مانع.. وكيف يكون هناك مانعاً ومن يقف أمامي الآن هو بعينه من وضع الأساور المعدنية في معصمي قبل بضعة أشهر.. بالطبع أعرفه جيداً لكن تظاهري باللامبالاة فاق توقعي أنا شخصياً..

- ومين دي اللي معاك يا أستاذ محمد؟
- دي خطيبتي يا فندم.. داخلين سينما حفلة الساعة 6
- وساكن فين يا محمد؟

التفت إلى "إيمان".. فلمحت بريقا في عينها فهمت أنها تريدني إن أضلله..

- حضرتك أنا ساكن في 25 ش المخيم الدائم– الحي السادس– قدام الجمعية الشرعية...
- جنبنا هنا يعني.. اومال عنوانك مكتوب في البطاقة – حلوان..
- لا دا عنواني القديم أنا لسه ناقل هنا قريب.. دي الشقة اللي هنتجوز فيها إن شاء الله
- طيب.. تمام.. ألف مبروك.. اتفضلوا...

ألقي هذه الكلمات كمجموعة خناجر حادة.. استقرت جميعها في قلبي مباشرة.. بعدها أيقنت أنه عرفني.. كما عرفته.. لكن لو كان عرفني حقاً فلماذا تركني؟

ألست مجرم هارب من حكم بالمؤبد؟ ألست من القائمة الطويلة التي تبحث عنها الشرطة ليل نهار؟ تباً لك أيتها الأسئلة السخيفة التي لا أجد لها أي إجابة.. فقط اكتفيت بوضعها مع أخوتها في أرشيف الذكريات حتى إشعار آخر.. لربما أجد إجابة لها...

قطع شرودي صوت "إيمان" التي كانت تتحدث منذ أن استلمنا البطاقات وتحركنا.. لكني لم أسمع أي كلمة مما قالت.. حتى شق صوت سؤالها الأخير أذني فانتبهت على أثره...

- إيه يا حاتم.. هو إنت تعرف الظابط ده؟
- ها.. لا.. آه.. لا طبعاً هعرفه منين يعني!
- بس هو باين عليه عارفك كويس.. دا بص لك بصه وابتسم كده.. كأنه بيقولك أنا عارفك كويس؟
- مش عارف يا حبيبتي.. بصي سيبك من كل ده.. تعالي بس نلحق الفيلم قبل ما العرض يبدأ...

بالطبع لم أكن أريد سوي إن أكسب بعض الوقت.. فكل ما قالته "إيمان" صحيح.. فأنا أعرفه.. ولكن ماذا حدث حتى يتركني وشأني؟؟ دخلت القاعة المظلمة وبعد مساعدة من حامل المصباح توصلت إلى المكان الخاص بنا.. ألقيت ظهري على الكرسي ومددت قدماي.. وأمسك بيدي "إيمان".. وغبت عن العالم تماماً..

****

الفصل السابع عشر

بعد ساعة.. القصر العيني الفرنساوي..

يدخل "حسام" حاملاً بوكيه ورد كبير.. بعدما مر على الاستقبال.. ثم استقل المصعد حتى الطابق الرابع.. غرفة 435.. طرق الباب.. رسم ابتسامة عريضة على وجهه، حتى سمع الإذن بالدخول..

- **السلام عليكم.. ازي حالك يا بطل..**
- **أخبارك يا "حسام".. أنا تمام والله الحمد لله..**
- **شد حيلك بقي أومال.. إنت هتقضيها نوم ولا إيه؟ إيه رأيك يا مدام!!**

- والله أنا غلبت معاه يا "حسام".. حتى دكتور العلاج الطبيعي هيتجنن.. هو مش مساعده خالص.. ومش عارفة كمان سبب رفضه للعلاج في مستشفى الشرطة!!
- لا لا لا.. كده أزعل منك ومقولكش الأخبار اللي عندي!!
- أخبار إيه بس يا "حسام".. هي بقيت ليها لزمه الأخبار.. مانت شايف الأخبار كلها بقيت عامله إزاي.. زفت..

وضع "حسام" بوكيه الورد على الكومدينو وجذب كرسياً بجوار السرير قبل أن يستأنف حديثة: لا.. أنا كده هزعل منك.. يعني أنا أخباري زفت.. طيب خلاص بلاش.. مش هاقولك شوفت مين الوقتي وخلاني جيت لك طيران..

- هيكون مين يعني؟
- مش الأول نشرب حاجة ولا هنقضيها أسئلة ومفيش حاجة.. معندكوش شاي ولا قهوة هنا؟
- لا طبعا.. في كل حاجة.. ثواني..
- مراتك دي بنت ناس قوي يا "طاروق".. حاجة كده زي بتوع أفلام زمان.. على المسطرة..
- خليك في حالك وقولي.. شوفت مين؟
- "حاتم"..
- مين؟
- "حاااتم"...

انتفض" طارق" من سريره وأمسك بذراع "حسام" الذي كان مستنداً على حافة السرير في بجوار "طارق" تماماً...

- "حاتم" بتاعنا؟
- أيوة بقولك" حاتم".. كان معاه مزه إيه.. صاروخ.. وداخل بيها السيما.. محبتش أدق معاه الناقصه.. قولت اسيبه مع الحته بتاعته وأجي أبلغك.. أظن أنا كده عداني العيب..
- انت بتتكلم بجد.. طيب عرفت ساكن فين؟
- لا.. هو أنا مقولتلكش؟
- لا مقولتليش!
- مش "حاتم" مبقاش "حاتم"!
- نعم؟
- أى والله. بقي اسمه" محمد أحمد محمود مصطفي".. الاسم الأكثر انتشارا في العالم.. يعني علشان تجيب عنوانه هتلف يجي على مليون واحد بالاسم ده على الأقل..
- يعني إيه.. مش هنعرف نوصل له؟
- لا طبعاً هنعرف.. بس كل شيء بأوان.. بالك إنت لو تقف على رجلك كده وتشد حيلك وتقوم بالسلامة.. هتلاقيه تحت رجليك فوراً، وعد شرف مني..
- بجد يا "حسام".. طيب مد إيدك..
- إيه ياعم استهدي بالله..
- مد إيدك يا "حسام" خليني أقوم أقف.. أنا لازم أقابل "حاتم" ده..
- إنت حر.. هات أيدك.

بعزم وإصرار وقوة غير طبيعية سرت في هذا الجسد الممدد على السرير الطبي.. دفعة من الأدرينالين انطلقت من غدته الكظرية ضاعفت قوته الحيوية عشرة أضعاف.. حتى تمكن من الوقوف على قدميه..... ويعود "طارق" للحياة..

تدخل زوجة "طارق" حاملة أكواب الشاي البلاستيكية.. وما أن رأيت طارق يقف على قدميه حتى وضعت الأكواب على المنضدة وانطلقت نحوه تحتضنه غير مكترثة لهذا الخيال المآته المدعو "حسام" وكأنه أصبح هلامياً شفافاً لا يري: ألف حمد لله على السلامة يا حبيبي، أنا مش مصدقه عنيا.. انت وقفت على رجليك!!

- احم.. احم.. طيب أسيبكم شوية على ما أشرب الشاي..
- لا.. استني تعالي هنا.. إنت مش قولت وعد شرف إنك هتجيبه لو أنا وقفت.. أديني وقفت.. اعمل معروف.. جبهولي من تحت الأرض..
- طيب الساعة معاك كام دلوقتي..

ألقي طارق بنظره إلى الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط..

- الساعة تمانيه بالظبط..
- طيب فل خالص.. إنت ابن حلال..

أخرج حسام تليفونه المحمول وضغط على أرقام يحفظها جيداً ثم انتظر قليلاً حتى سمع صوت في الطرف الآخر..

- أيوة يابني.. هتطلع حالاً على جنينه مول.. هتدخل السينما وتجيبلي واحد اسمه "محمد أحمد محمود مصطفي" ومعاه خطيبته.. تجيهم هم الاتنين وتجيلي حالاً.. في القصر العيني الفرنساوي...

هستناك.. أول ما توصل بس كلمني وأنا هنزلك.. خلاص بسرعة..

بص يابني.. آه.. أوعي حد يتغابى ولا يقل أدبه.. عاوز معاملة بشواتي خالص.. وخصوصاً مع خطيبته.. تطلع تجيبهم في عربية نجده.. متجبهمش في بوكس.. فاهم.. يلا هستني اتصالك..

أغلق "حسام" الهاتف ثم التفت إلي "طارق" مبتسماً في ثقة: خلاص ياعم كلها ساعة زمن بالكتير وتلاقيه قدامك.. بس لو تفهمني بس إنت عاوزه ليه.. وهتعمل بيه إيه؟؟

- متستعجلش الأمور.. هتعرف كل حاجة.. كل حاجة في وقتها..

****

تدخل سيارة نجدة زرقاء اللون أمام جنينة مول.. ينزل منها اثنان من أمناء الشرطة مسرعين إلى الداخل قاصدين دار العرض.. في مشهد سينمائي.. يتوقف عرض الفيلم الذي قارب على نهايته.. وتضاء الأنوار.. ويخرج صوت الإذاعة الداخلية للسينما ليعلن عن طلب حضور الأستاذ "محمد أحمد محمود مصطفي".. فوراً لأمر هام وعاجل..

ما أن سمعت الاسم حتى تسمرت في مكاني.. كضرير مثقل تحركت يداي تتحسس طريقها نحو يدي "إيمان" التي لاحظت الرعب الذي مد يده ليقتلع خيوطي العصبية من مكانها.. يزداد اضطرابي مع تكرار النداء.. حتى قررت أن أقف وأواجه.. للحقيقة لم يكن هذا قراري.. بل كان قرارها.. سحبت يدي لتجبرني على النهوض ومواجهة هذا الشخص الذي تجرأ ونطق بإسمي.. هذا الملعون الذي تسبب في تلف أكثر من ربع مليون خليه عصبية دفعه واحدة..

في محاولة لدفع الثقة.. شدت "إيمان" على يدي بكل قوتها هامسة: إنت خايف من إيه خليك طبيعي حتى لو حد عارفك إنت مفيش عليك حاجة..

كانت كلماتها تبعث بالطمأنينة لكن ليس بالنسبة لي.. فهي لم تعرف من استوقفني بالخارج.. بالتأكيد استعان بقوة إضافية حتى يقوم بضبط الهارب من السجن..

لم أجد سبيلا آخر.. تحت استمرار النداء المتواصل كبائع روبابيكيا لحوح.. يعلم جيداً أن أحدا لن يبيعه أو يشتري منه ومع ذلك يجهر بندائه كل يوم في نفس الشوراع بنفس الضوضاء لعله يحصل يوما على ما يريد..

لم ينتظر المنادي كثيراً فبمجرد أن استويت واقفاً على قدماي.. حتى اقترب مني أمين شرطة مباشرة.. موجهاً كلامه..

- حضرتك الأستاذ "محمد"؟
- أيوة.. أنا.. خير في حاجة!!
- وحضرتك خطيبته مش كده.؟
- أيوة أنا خطيبته.. خير يا فندم في إيه.؟
- إحنا آسفين لحضراتكم جداً على الطريقة دي.. لكن السينما مليانه والوصول لكم مكنش ممكن غير بالطريقة دي.. بنكرر اعتذارنا لحضراتكم مرة تانية..

لم تفلح كلمات وتحفيزات "إيمان" في رفع خوفي واضطرابي كما فعلت كلمات هذا الأمين.. فأسلوب حديثه لا ينم أبداً عن شر.. ولا طريقة أمين شرطة يتعامل مع مجرم هارب.. بصمت وبدون تعقيب.. خرجنا تتعقبنا نظرات الجميع.. استمر سيل

الاعتذارات طيلة الطريق حتى وصلنا إلى مبني القصر العيني.. نظرات تبادلتها مع "إيمان" دون أي كلمة طيلة الطريق...

ما أن وصلنا حتى أجري الأمين اتصالاً عن طريق الهاتف.. بعدها بدقائق قليلة جداً.. ظهر الرائد "حسام".. ومعه استفسار وسؤال فوري من "إيمان": مش هو دا الظابط اللي كان موجود عند المول واحنا داخلين.. إنت مش قولت انه ميعرفكش؟

- استني بس يا لما نشوف في إيه.

اقترب حسام من السيارة.. وكأنه سائق خاص يفتح الباب لسيده..

- إتفضل "محمد" باشا.. آسفين لإزعاج حضرتك يا فندم.. أعرفكم بنفسي.. أنا الرائد "حسام عادل"..

لم أستسغ ما وصل أذناي من كلمات لا محل لها من الإعراب على الأقل بالنسبة لي شخصياً.. "محمد" وباشا.. من الرائد "حسام".. لم يكن فأراً واحداً يعبث في صدري بل كان أسداً ضارياً ينبش بمخالبه وأنيابه بصدري وعقلي..

- آسفين لحضرتك يا آنسه.. بس في حالة إنسانيه في المستشفى وطالب يقابل الأستاذ "محمد" شخصياً.. بنعتذر عن الطريقة اللي جبناكو بيها.. بس أكيد طمعانين في أخلاقكم..

أومأت برأسي دون أي كلمة.. والتفت إلى "إيمان" التي رفعت كتفيها ومطت شفتاها.. معلنة عن وصول مستوي الدهشة والحيرة عندها إلى الحد الأقصى..

خطوات في صالة الاستقبال.. ثم انعطفنا يميناً ناحية المصعد.. الذي أشار إلى الدور الرابع.. اتخذنا طريقاً عبر الممر ناحية اليسار حتى وصلنا إلى باب معدني عريض.. به مقبض كبير.. طرق الرائد "حسام" الباب حتى سمع الإذن بالدخول..

دخل بمفرده.. دقائق وخرج وبصحبته امرأة.. خرجا معاً ثم أذن لي أن أدخل بمفردي على أن تنتظر إيمان معهما بالخارج.. كان المشهد صامتاً..

دخلت الغرفة التي أغلق بابها خلفي.. التفت لأري الباب المغلق.. أقف الآن في ممر يمتد لثلاث خطوات فقط.. يظهر في نهايته بهو الغرفة الذي امتد فيها سرير أبيض يحمل جسمان شخص تواري وجهه خلف زاوية الممر.. لم أتمكن من رؤيته حتى خطوت أولي خطواتي..

اقتربت منه.. حاولت أن ألقي السلام.. لكن تأثير المشهد الصامت لازال يلقي بظلاله على حنجرتي التي رفضت الانصياع لرغبتي في الكلام..

- احم.. احم احم.. اسف حاسس إن صوتي رايح...
- تعالي هنا.. اتفضل...
- حضرتك تعرفني؟
- طبعاً أعرفك.. وأعرفك كويس.. إنت السبب إني موجود هنا دلوقتي!

صمت مطبق يسيطر على المشهد.. فقط كانت لغة العيون.. كنت أنظر اليه.. أعتصر ذاكرتي التي أصبحت كامرأة لعوب تخونني أكثر ما تخلص إلي.. أحاول أن اعتصر خلايا مخي التي لم يعد يعمل منها غير القليل.. وأخيراً بزغ بصيص ضوء يأتي من نهاية الخندق المظلم الذي أسير فيه.. تتبعتها بخطي حثيثة حتى تأكدت من أنها ضوء حقيقي وليس سراب كاذب.. حاولت النطق.. تلعثم لساني. أُغلقت حنجرتي.. تشابكت أحبالي الصوتية.. اتسعت عيناي...

- إنت؟
- أيوة.. أنا! افتكرت؟

- بأحاول..
- لا.. افتكر.. إنت السبب إني هنا دلوقتي.. افتكرت ولا لسه؟
- مش عارف.. دماغي مش قادر أسيطر عليها..
- افتكر.. من يجي أسبوعين كده..
- أسبوعين.. !!إنت.. إنت.....
- ها.. افتكرت؟ الحقنة وأزازه المية والـ.....
- إنت الظابط اللي كنت بتنزف يوم حادثة السجن؟
- وأنت "حاتم "؟

عاد الصمت مرة أخري.. الآن تذكرته جيداً.. بل وعرفته أيضاً.. فقد التقيته مرة سابقة حينما كنت أحمل طلب الانتقال إلى زنزانة "شيحة".. إنه الرائد "طارق".. كيف لم أعرفه يومها؟؟ ربما بسبب الظلام.. ربما بسبب الخوف ورائحة الموت التي ملأت الجو؟ لم أجد إجابة.. لكني سلكت طريق الصمت حتى بلغت منتهاه..

طالت النظرات.. وتاهت الكلمات.. لم أدرك كيف أتصرف.. فأنا أقف بين يدي سجاني الذي هربت منه.. وبالباب يقف سجان آخر يتمني أن أعود إلى أحضانه مرة أخري.. وسجان ثالث لطالما تمنيت أن يتقبلني سجينا عنده.. لكن كلما دنوت منه وأحسست بقربي من موقع سجنه.. تباعد بيننا الأيام والظروف.. كم أتمنى أن اعتذر لك يا حبيبتي عن كل هذا.. فإلى الآن لم تهنئي بيوم خالي من المشاكل.. حتى الآن وارتباطنا لم يتعد مجرد دبلتين وفقط..

قطع الصمت صوت طرقات على باب الغرفة.. يدخل بعدها "حسام".. يبدوا أن الفضول قتله ليعلم حقيقة الأمر.. لم يتحدث "طارق" عن أي تفاصيل فيما حدث له يوم اقتحام السجن..

دخل "حسام" وأغلق الباب خلفة وبنظرة ثاقبة من خبير علم ما يدور في الجوار.. بدون أن يسأل وبدون أن ينتظر إجابة علم أن "حاتم" هو من أنقذ طارق من الموت يوم حادثة اقتحام السجن. لكن كان ينقصه التفاصيل.. تحول "حسام" إلى القط الذي يقتله الفضول يريد أن يعلم كل شيء، فهنا يغلب طابع العمل..

- ها.. إيه الأخبار ياعم "طارق".. جالك الأستاذ "محمد" اللي إنت طلبت تشوفه؟ مش هتفهّمني بقي إيه اللي حصل؟

بالطبع كانت مراوغة جيدة جداً من ضابط مخضرم أراد أن يبث الطمأنينة في قلبي.. لكنه عبثاً فعل.. فما كانت هذه الكلمات إلا تأكيداً لأني الآن في المصيدة.. أقف بين صخرتا رحا عملاقة توشك أن تدهسني وتحولني إلى تراب يتطاير بفعل الرياح..

- شكراً يا "حسام" باشا على زوقك.. بس أنا عارف كويس إن حضرتك تعرف إني مش "محمد"!! مفيش داعي اني أشيل تهمة التزوير جنب الهروب من السجن.. أنا تحت أمركم.. ومستعد أسلم نفسي حالاً..
- إيه ياعم اللي بتقوله ده.. إحنا هنشترى المعروف بالخسة ولا إيه.. مش أخلاق رجاله دي ياعم "محمد".. مش اسمك في البطاقة "محمد" ولا أنا غلطان؟

- يا"حسام" باشا، أنا عارف كويس وجنابك و"طارق" بيه عارفين اني "حاتم" ومش "محمد".. ولو جايبنى هنا علشان تقبض عليَّ أنا تحت أمر سعادتك.. أنا عارف إن كده كده هرجع السجن تاني.. فمفيش داعي لكل ده..
- إنت بتهرج بقي.. وهو أنا يعني لو عاوز أقبض عليك هستني كل ده؟ وأبعت وأجيبك مع خطيبتك من السينما للمستشفى علشان أقبض عليك؟؟ إنت بتهرج بقولك.. إنت كده مش جدع يا "حاتم"!

التفت إليَّ "طارق" ومد يده يطلب مني أن أعينه للجلوس على السرير.. مددت يدي وجذبته حتى اعتدل في جلسته ثم أشار إلى "حسام" أن أحكم غلق الباب وتعالي للجلوس، بالفعل نفّذ "حسام" وعاد يجذب كرسياً لي وله لنجلس سوياً بصحبة "طارق"..

- بص يا "حسام".. لولا ربنا طبعاً ثم "حاتم" أنا كان زماني مع الناس الكتيره اللي إترمت في التراب ولا حد عارف عنها حاجة.. كله راح من غير سبب ولا حتى حد عارف مين اللي عمل كده.. لكن ربنا أراد إن الجدع دع يخاطر ويقف ويديني الحقنه والميه.. وميسبنيش غير لما أنا اللي قولت له امشي..
- يعني إيه يا "طارق".. يعني "حاتم" هو اللي أسعفك؟ طيب ما قولتش ليه كده للنيابة لم سألوك؟
- أقول إيه يا "حسام".. أقولهم متهم هارب وقف معايا وأسعفني وكان تحت إيدي وأنا قولت له اهرب.. ولا أجازي واحد أنقذ حياتي انى أرجعه السجن، وأنا عارف وانت عارف انه بريء!!

كلمة (بريء) سقطت على مسامعي كصاعقة رعديه انطلقت نحو قلبي مباشرة تشقه إلى نصفين متساويين تماماً..

- بريء.. سيادتك عارف إني بريء يا "حسام" باشا ومع ذلك دخلتني السجن؟؟

- لا استني بس.. إنت كده فهمت غلط.. كوني عارف إنك بريء دي حاجة.. وان مفيش دليل على براءتك دي حاجة تانية.. إنت لابس القضية متفصلة.. واحد مفصلها لك مخصوص.. محدش في الدنيا يقدر يطلعك..

- طيب ومصيري إيه؟ هرجع تاني أكمل الخمسة وعشرين سنه في السجن وأطلع منها جثة أو قتّال قتله؟ أنا بجد الموت عندي أهون من الرجوع للسجن تاني.. مش هاقدر..

- بص "حاتم".. إنت الوقتي اسمك "محمد" في الورق.. مش هاسألك مين جابلك الورق ولا البطاقة ولا الكلام ده؟ لأن أكيد "شيحة" و"الصياد" اللي كنت معاهم في الزنزانة ذي ما حكا لي "طارق".. بس الوقتي إنت المفروض تغير مكان إقامتك.. وتخلع من القاهرة على أي بلد أرياف ولا في الصعيد.. اسم جديد وورق جديد وانسي بقي السجن والقضية والكلام ده...

بلهجة معترضه حادة يتدخل "طارق" ليمنع استكمال العرض المقدم:" لا يا "حسام" استني.. أنا مديون له بحياتي.. وأنا عاوزه يتكرم ويقبل عزومه عندي في بيتي هو وخطيبته واللي يحبهم.. وكمان يقبل اني أساعده في انه يلاقي شغل.. دا جزيء من جميله لازم أرده..

- جميل إيه بس يا باشا.. إنت كده بتحرجني والله.. أنا عملت إيه بس لكل ده.. والله أى حد غيري كان ها يعمل كده وأكتر!

- لا طبعاً.. أنا عدَّي على مساجين كتير واللي ضربني بالنار كان مسجون.. ومحدش فكر انه حتى يمد أيده ويقعّدني.. إنت وقفت وساعدتني.. بس أنا عاوز أعرف جبت منين الحقنه والميه والحجات دي؟ ودخلت لك السجن إزاي؟
- يا باشا.. دي حاجات وزعها علينا "الصياد" قبل الضرب بحاجة بسيطة.. ودي كانت نصيبي علشان لو اتصابت توقف النزيف وتخليني أطلع للعمار وأنا ماشي على رجليَّ..
- هي دي بقي يا "طارق" اللي الدكاترة كانوا هايتجننوا ويعرفوا إزاي إنت ممتش.. وأنت متصاب أصابه خطيره ذي دي؟ هي إيه الحقنه دي يا "حاتم"؟
- والله ما أعرف يا باشا.. إحنا خدنا حقنتين واحدة زرقا ودي خلتني أجري يجي ساعتين متواصل من غير ما أحس بأي حاجة.. والتانية اللي حقنتها "لطارق" باشا..
- وأنت حقنتها لك وريد إزاي؟ إنت بتعرف تضرب حقن كمان؟
- دي حاجة بسيطة اتعلمتها وأنا شغال في المعمل.. قولت أتعلم للزمن محدش عارف الأيام جايبه إيه؟
- طيب والوقتي إنت ناوي على إيه؟ "طارق" موصينى ولا كأني شوفتك.. ومتخافش بس أحب أعرف برضه علشان لو جد في الأمور جديد يبقي نسندك..
- أنا كنت ناوي أنا وخطيبتي وأهلها نروح إسكندرية.. ناخد بيت ونعيش هناك ونعمل أى مشروع بس المشكلة بقي.....
- خير إيه بس المشكلة.. ما قولنا لك إحنا في ضهرك ما تخافش...

- يا باشا.. "الصياد" كلمني.. وطلب مني أني أساعده في عملية سرقه.. لسه كنت معاه النهارده بعد الضهر..
- سرقة؟ سرقة مين؟ واتقابلتوا فين؟ وانتوا مين؟

الطبع يغلب التطبع.. وعادت ريما فجأة ليتحول "حسام" من الصديق البشوش المسالم إلى ضابط المباحث الشرس المتحفز.. بكم هائل من الأسئلة المتتالية انهال عليّ "حسام" بها كملاكم انفرد بخصمه في أحد أركان الحلبة...

- أنا يا باشا مش عارف أي حاجة لسه.. غير إني هروح أشتغل عند واحد وبعدين أسهل لهم العملية...
- طيب خلاص جميل.. إيه رأيك بقي تقولي على التفاصيل وأنا أساعدك إنك تطلع إسكندرية وأضمن لك إنك مترجعش السجن ده تاني نهائي؟

*****

خرجت من الحجرة مغلقاً بابها مسرعاً نحو "إيمان" القلقة المنتظرة في نهاية الممر.. أسرعت لأزف إليها هذه البشري.. كدت أن أحتضنها وألف بها في الهواء.. لكن منعتي السيدة التي كانت معها..

- يلا يا "إيمان" بسرعة عاوزك في أخبار مهمة!
- طيب.. طيب بالراحة... حاضر..
- تشرفنا بيك يا أستاذ "محمد" وبعروستك..
- الشرف لينا يا هانم.. ربنا يتم شفا "طارق" باشا على خير ويرجع لبيته..

لم أنتظر الرد.. وجذبت "إيمان" من يدها متجها نحو درج السلم.. لم أتوجه إلى المصعد.. أحسست أن الزمان يسابقني.. لن أدع لك الفرصة هذه المرة.. لقد سأمت

الهزيمة وتجرعت منها ما يكفي.. من حقي مرة واحدة أن أتذوق طعم الفوز الذي لطاما اشتقت إليه كثيراً.. تمنيته دون أن ألقاه.. وها أنا ألقاه....

- يا "حاتم" بس بالراحة إنت بتجري كده ليه مش هتفهمني بس إيه اللي حصل.. وإيه الحكاية دي؟
- حالاً هتفهمي كل حاجة... أخبار تجنن يا أحلي "إيمان" في الكون..
- يا "حاتم" بس فهمني.. الست اللي كانت معايا دي مرات الظابط اللي كان في الأوضه.. حكت لي انه إتصاب في السجن يوم اقتحامه وانه رافض يكلم أي حد ولا يرد على أي أسئلة من النيابة وعاوز يقابل شخص اسمه "حاتم".. طبعاً هو إنت.. ولم عرف إنك موجود وقف على رجليه وأتحرك بس علشان الظابط "حسام" قاله انه شافك... نفسي تفهمني فيه إيه؟
- بصي بقي.. الساعة الوقتي عشرة تقريباً.. والجماعة ها يقتلونا لو تأخرنا عن كده ولسه يجي ساعة على ما نوصل.. نأجل الكلام لحد بكره وأنا هشرح لك كل حاجة بالتفصيل الممل.. كمان علشان المفاجأة متتحرقش..
- إيه يا "حاتم".. أنا هستني لبكره بالمنظر ده.. بزمتي إنت رخم..
- بزمتي إنتي اللي قمر وبحبك.. بحبك إيه.. بموت فيكي.. انتي جيتي وجيبتي معاكي كل حاجة حلوة في الدنيا..
- طيب خلاص احكي لي.. على الأقل حتى باختصار وبكره التفصيل..
- خلاص حاضر واحنا ماشيين في الطريق هاقولك على كل حاجة واللي ها يفضل نكمله بكره..

انطلق التاكسي وألقت "إيمان" إذناها بين كفي أحشوهما بكل تفاصيل الحكاية منذ أن بدأ الغزو على السجن ومروراً بلحظة الإسعاف للضابط وانتهاء بالعزومة والعمل..

لم تعقب إيمان على أى مما قلت.. اكتفت فقط بالتحديق في وجهي وكأنها تحاول أن تحفظ كل تعبيراتي وملامحي وتفاصيل انفعالاتي.. وانتهت القصة مع وصول التاكسي أسفل بيتها.. بالطبع وكعادة النساء لم ترتوي مما ألقيته في إذنيها من حديث.. أصرت أن نلتقي في الغد لنناقش ما وصلت إليه الأحداث ونفكر ماذا سنفعل في الجديد...

****

الفصل الثامن عشر

كنت أتمنى أن ينجح هذا الماء بالتعاون مع الجو البارد في إخماد ثورة البركان المشتعل في رأسي. لكن للأسف لم يحدث.. بحثت عن منقذي فلم أجد.. انتهت الأقراص التي أتي لي بها سمير.. عاصفة من الألم تضرب رأسي كرياح الخامسين في الصحراء الكبرى..

أشعر بهذا الصداع يسري كالكثبان الرملية يغطي كل شيء في طريقه حتى أكاد أشعر به يقرع أبواب عيوني.. يضغط على أعصابي فتتهيج وتثير جسدي برعشات متقطعة ينتفض لها جسدي كله.. بحثت عن هذه الأقراص في كل مكان.. لم أجد..

أين أنت يا "سمير".. لمَّ تتخلي عني في مثل هذا التوقيت.. بخطوات متعثرة.. جاهدت لأصل إلى الهاتف.. رعشة أخري تسري كصعقة تيار كهربائي في جسدي.. تجبرني على الانحناء والتشبث بزاوية الباب.. ها هو رقم "سمير".. يبدأ في الرنين وأنتظر الرد...

لا إجابة.. تباً لك أيها اللعين.. لم كل هذه الثورة... فلتهدأ أو تصمت إلى الأبد.. كنت أحدث دماغي الذي قامت ثورته بدون سابق انذار لعله يهدأ أو يستكين.. لكنه لم يعرني اهتماما وظلت كثبانه الرملية المتحركة بهوجائية تضرب أركان جمجمتي..

لم أشعر بهذا الخيط الأحمر المنسدل من أنفى إلا بعد أن تساقطت قطرات منه على أرض الغرفة.. كنت أنزف من أنفي بشده.. لم يحدث لي هذا الموقف مسبقاً.. لم

أعرف كيف أتصرف.. لقد كانت النهاية سعيدة وعدت إلى المنزل فرحاً.. ما سبب كل هذا..

هل أصبحت مدمناً لتلك الحبوب التي اعتدت عليها يومياً منذ شهور؟ ربما..

هل هو الضغط العصبي والنفسي الرهيب مع قلة الطعام؟ يمكن..

لكن الأكيد أنني الآن أريد شيئاً واحداً فقط.. أريد أقراص "سمير" السحرية.. حاولت تذكر اسمها.. لم أستطع.. لم أجد أي معلومات مخزنه في ذاكرتي على الإطلاق.. لا أتذكر سوي ضربات متتالية في أنحاء جمجمتي مع سيل من الدماء من أنفي مع لكمات متتالية في عيناي دون توقف..

هيا يا "سمير".. أرجوك فلتجب.. لا يوجد رد.. كررت المحاولة كثيراً.. دون جدوى.. ألقيت بالهاتف على السرير.. وألقيت بجسدي بجواره آيساً من الحصول على أقل حق من حقوقي كانسان.. أن أغمض عيني في سلام..

لا أعلم كم مر من الوقت.. كل ما أعلمه أنني استيقظت على صوت الموبايل.. إنها الشريحة الخاصة بالمعلم "سالم".. بجهد وعناء استطعت أن أقنع جفوني أن تفتح أبوابها ليدخل ضوء الموبايل عبر الأستار ليغازل مقلتي العين اللتان أجهدتا من فعل هذا الملاكم العنيف الذي لم يرحمهما.. ساعة الموبايل تشير للواحدة.. جاهدت ليخرج صوتي لزجاً غائراً آتياً من مسافة أميال ضوئية يكاد يسمع..

– أيوة.. أيوة يا معلم..

لا.. لا.. أبداً.. أنا صاحي.. بس تعبان شوية..

لا أبدا مفيش بس شوية تعب ومكلتش من الصبح.. وجسمي مكسر..

معرفش والله يا معلم.. أنا جيت مكنش موجود وباتصل عليه مبيردش عليَّ!

طيب حاضر.. بكره إن شاء الله هاكون عندك في المكان وفي المعاد..

حاضر يا معلم.. بس إنت بتسأل على "سمير" ليه؟

طيب حاضر يوصل إن شاء الله بس لما أشوفه..

سلام يا معلم..

أغلقت الهاتف وكأنني كنت أنازع كابوساً.. وكأن ما حدث من مكالمة الآن هي من تفاصيل كابوس مزعج يكمل على ما تبقي من قواي الخائرة ليفنيها تماماً.. نظرت حولي لأتبين قدوم "سمير".. لكن عبثاً فعلت.. لم يأتي..

صوت "أم رامي" مع طرقات مستمر على الباب جعلني أنهي العرض الخاص من هذا الكابوس المفزع.. لملمت جسدي المبعثر على السرير.. وبعد مجهود مضني استجاب وتحركت ببطء نحو الباب وأنا أفرك عيناي بقضبتي يدي محاولا إقناعهما بالعمل.. فتحت الباب بعد عناء وألقيت جسدي على الكرسي بجوار الباب.. لتستقبلني "أم رامي" بجزع واستغراب: مالك يا "حاتم".. إنت تعبان ولا إيه؟

بصوت مكتوم وأعين غائرة تكسوها حمرة طاغية.. وبهذه الستائر الزرقاء التي تزداد يوماً بعد يوم...

- أيوة والله تعبان.. مش عارف إمبارح رجعت كويس.. شويه وحالي كله أتقلب مرة واحده..
- طيب وفين المنيِّل "سمير".. مسمعتش حسه من إمبارح؟
- مش عارف أنا كنت لسه هسألك عليه.. هو فين؟
- أنا اللي بسألك أهه.. مكلمتوش ليه طيب تشوفه فين؟

- كلمته أكتر من مرة ومردش على! أنا قولت أكيد إنتي عارفه مكانه..
- هاعرف منين.. إنت بس فوق الأول وقوم خد دش بارد يفوقك وأنا هنزل أعملك كوباية قهوة تمام تصحصحك وتخليك تمام..
- هي الساعة كام الوقتي؟
- الساعة 12...

سمعت الساعة 12 وتذكرت الكابوس.. لقد كان موعد المعلم سالم الساعة 12.. انتفض جسدي كمن صعقته الكهرباء.. اتسعت عيناي وانتفض جسدي كمن صعقته الكهرباء..

- إيه.. 12.. ياخبر.. أنا لازم أنزل..
- طيب غير ريقك ولا خد دش الأول على ما أعملك القهوة...
- لا مفيش وقت..

بدلت ملابسي في سرعة البرق غير مكترث بكلام "أم رامي".. تجاهلتها وانطلقت مسرعاً أكمل ارتداء ملابسي على السلم؛ استوقفت تاكسي وانطلق مسرعاً.. حتى وصلت للعنوان المطلوب.. كنت متأخراً ساعة كاملة عن موعد سالم.. كنت أخشى أن يعتقد أني خذلته أو تأخرت عنه فيصب عليَّ جام غضبه الذي كنت أعلم جيداً أني لن أتحمله..

وصلت إلى المكان.. كان منزل قديم مكون من طابقين.. يقع في حارة ألبير.. المتفرعة من ميدان أحمد بن طولون..

نزلت من التاكسي.. وقفت أمام البيت أتلفت حولي.. حتى أحسست بيد تمسك كتفي من الخلف.. التفت بسرعة لأجد شاباً عشريني العمر، يقف خلفي مباشرة

سيجارته متدلية من فمه الذي امتلأ بكم كبير من اللبان.. خيط أسود يتدلى من رقبته إلى صدره المكشوف.. لم يتكلم كثيراً...

- إنت.. تعالي ورايا...

تحركت خلفة كالمنوم مغناطيسياً دون إبداء لمقاومة تذكر.. خطوات معدودة دخلنا بعدها منزلاً أغلق بابه خلفنا مباشرة لأجد نفسي في ممر ضيق يمتد لخطوات بعدها فناء واسع يبدوا أن هذا البيت قد هجره ساكنوه منذ فترة.. فلا يوجد ثمة دليل على إمكانية بقاء آدمي في مثل هذا المكان.. أتربة وكراتين فارغه وقطع أثاث متهالكة مبعثرة.. و"سالم".. الذي خرج من حجرة في طرف الفناء.. متوجهاً إلى بالتحية والسلامات..

- يا مرحب بالبطل بتاعنا.. إيه جاهز يا بطل علشان تستلم الشغل الجديد ولا لسه؟
- أهلا بيك يا معلم.. لا أبداً جاهز وتحت أمرك.. بس إنت قولت لي لسه شوية.. والكلام كان إمبارح؟
- إيه ياعم.. إنت هتعّدِل علينا ولا إيه؟ إنت تسمع الكلام وإنت ساكت.. افرض يا أخي حصل تعديل في الكلام.. فيها حاجة دي؟
- لا أبداً يا معلم.. اللي تشوفه.. بس كنت تقولي أجيب الورق معايا ولا حاجة...
- لا متشغلش بالك.. دي كلها حاجات بسيطة والراجل مش هيركز عليها قوي.. مش قولت لك دا حبيبك...
- مهو انت مش عاوز تطمني وتقولي مين حبيبي ده؟؟

- من غير كتر كلام.. إنت دلوقتي هتطلع مع أخوك "النونو".. هيوصلك بالمكنة لحد الشركة.. هتطلع تقابل الراجل هناك.. وهتسلمه الظرف ده.. ومن بكره الصبح هتروح شغلك عادي.. وتبغلني بكل حاجة أكلفك بيها.. أول.. بأول..
- حاضر يا معلم.. إنت تؤمر...
- آه بس مفيناش من تأخير.. إنت اتأخرت النهارده ساعة عن معادك.. اللي جاي مينفعش فيه دقيقه واحده تأخير.. فيها رقبتك يا حبيب.. فاهمني؟
- غصب عني يا معلم والله.. راحت عليَّ نومه.. أصل كنت تعبان إمبارح ونمت و.....
- خلاص خلاص.. إنت هتحكيلي قصة أبو زيد.. سماح النوبة.. بس مرة تانيه برقبتك.. ومش رقبتك إنت وبس!!

رمقني بنظرة يملأها الشر.. قبل أن يبصق على الأرض، متوجهاً لأحد الأشخاص بحركة من جانب وجهه.. تحرك الأخير بعدها ليدخل الحجرة التي خرج منها "سالم" منذ قليل..

ثواني وخرج الرجل ومعه شخص مكبل ومغطي رأسه بكيس قماش أسود.. لم أتبين من هو.. حاولت استراق النظر لمعرفته لكن بادرني "سالم "...

- بص يا سي الأستاذ.. طبعاً حركة الجدعنه اللي إنت عملتها مع الظابط اللي بيموت دي مكنتش في الاتفاق.. وأنا محبتش أعاتبك عليها.. بس مش مهم.. المهم إن الظابط ده أكيد ها يجيبك.. وها يقولك انه في خدمتك ويرسم

عليك دور إنه صاحبك وحبيبك.. وإنت زي الجردل طبعاً ممكن تحكيله على اللي إحنا عملناه وهانعمله.. يبقي أنا بقي أعمل إيه؟

تمنيت لو أن سقف البيت ينطبق على هذه الرأس اللعينة المحشوة بأفكار يعجز إبليس نفسه أن يأتي بمثلها.. تمنيت أني لم أهرب ولم ألتقي بهذا اللعين.. كيف عرف وكيف توقع؟ لكني حمدت الله سراً لأنه لم يكن يعرف أني التقيت "طارق" و"حسام".. فكلامه هذا بالتأكيد كان سيتغير تماماً لو علم بلقائي معهما بالأمس...

- معايا يا سي الأستاذ.. متسرحش مني وحياة والديك.. خليك معايا..
- معاك يا معلم...
- اللي قدامك دي بقي يبقي مين؟ يبقي صاحبك وحبيبك أبو سمرة..

اقترب من الشخص المكبل ونزع الكيس القماش من على رأسه فظهر "سمير"..

- ها يفضل ضيف عندنا.. نخلص مصلحتنا ونقسِّم الغلة وكل واحد يروح لحاله.. طبعا لو إنت طلعت جدع.. بس هتقل عقلك ولا تروح هنا ولا هنا ولا متكملش الحكاية.. ولا تعملي فيها أدهم الشرقاوي.. يبقي لا.. ساعتها تتشاهد على نفسك وعلى زميلك وعلى..... ولا بلاش.. خليها مفاجأة.. إحنا مبنحبش نسبق الأحداث.. خلي كل حاجة في وقتها..

لم يكن كلامه يحتاج إلى مزيد من التوضيح.. وددت لحظتها أن أنقض عليه وأنتزع كبده.. أمضغه بين أسناني حتى أُسقط هذه الأسطورة الوهمية التي صنعها لنفسه هذا المتعجرف الأبله.. لكني آثرت التحفظ لنفسي بما اتخذت من قرارات دون أن أبدي شيئاً منها.. فقد قررت أن أخوض اللعبة معه حتى نهايتها على أن أجعله يندم يوماً أن اختارني في فريقه..

– ليه بس يا معلم.. ذنبه إيه "سمير" ولا غيره.. إنت مش واثق في ولا إيه!

لأول مرة أشعر برغبة في الانتقام لم تراودني يوماً مع كل ما ألم بي من أحداث.. أتوق شوقاً للعب مع الكبار.. لم أرتعد.. لم أشعر بنبضات قلبي تزداد.. سكنت العواصف الهوجاء في رأسي.. لم تتمرد مثانتي وتطلق إنذارات كاذبة كعادتها.. أحسست بشعور مختلف.. ربما لأني أعلم بمن يقف خلفي ويدعمني؟ لم تهمني الإجابة.. فقط تهمني النتيجة..

– يا معلم إنت أهم عندي من أى حد وأنت عارف.. لولاك كان زماني يا مقتول يا مرمي في اللومان.. إنت تؤمرني وأنا على التنفيذ..

بضحكة متعجرفة مغموسة في بئر من الغرور خرجت من جانب وجهه الأسود..

– تعجبني ياسي الأستاذ.. كلها أيام هيقضيها صاحبك الغالي في ضيافتنا.. ومتخافش أنت عارف إحنا كرما قد إيه.. ومتخدش بالك موضوع التربيط والكيس والكلام ده بس لزوم الدخلة.. علشان تعرف النتيجة.. إنما الراجل زوق ولازم نوجب معاه.. آه بالمناسبة.. فين موبايلك...

– الموبايل بتاعي؟؟ أه.. إتفضل يا معلم...

– اهو ده ها يفضل معايا في الحفظ والصون وهنقفله كمان.. احتياط أمن بس مش أكتر..

– كلك زوق يا معلم.. اللي تشوفه.. أنا جاهز..

بصوت جهوري أطلق له العنان ليدوي في أرجاء الفناء: يا نونو.. وصل الأستاذ لمكان المصلحة.. ولمّ يخلص تكون مستنيه تجيبه على الاستراحة.. خلاص.. يلا يا رجاله بالتوفيق...

اقترب هذا "النونو" بلبانته التي تملأ فمه وسيجارته التي لم تزل تتدلي من جانب فمه.. رمقني بنظرة حتى اتبعه.. ركبنا الدراجة البخارية التي انطلقت حتى وصلنا إلى حديقة الفسطاط.. وبجوار السور.. توقف..

- بص ياسي الأستاذ.. إنت هتنزل هنا.. شايف الشارع ده.. هتمشى فيه طوالي لحد الناصية اللي جاية.. على شمالك على طول في شركة.. هتطلع الدور التانى.. وتنفذ اللي المعلم قالك عليه.. هتخلص وتنزل تلاقيني مستنيك في نفس المكان ده.. خلاص... طريقك سالك يا هندسه..

أنهي "النونو" محاضرته التثقيفية قبل أن يملأ صدري بدخان هذا الشيء المسمى مجازاً موتوسيكل.. كان صوته مزعجاً بما يكفي.. لكني تماسكت وأخذت طريقي نحو المكان المقصود..

(الشركة العالمية للتجارة والتوزيع).. نظرت إلى الظرف في يدي.. وبخطوات ثابته ونظر ممتد إلى الأمام.. تقدمت نحو الأمن، وبعد كلمات معدودات سُمح لي بتجاوز الاستقبال والسلم حتى وصلت إلى الأستاذ "فتحي".. الذي استقبلني بابتسامة رقيقة..

- صباح الخير يا فندم.. أنا "محمد أحمد محمود مصطفي".. جاي لحضرتك بخصوص وظيفة الأمن المطلوبة..

- صباح الخير إيه.. إنت مش معاك ساعة ولا إيه.. الساعة الوقتي تلاته بعد الظهر..
- أسف يا فندم.. بس الرهبة من المكان وكده..
- لا أبداً ولا رهبه ولا حاجة.. إتفضل استريح..

استقبال مطمئن.. ووجه بشوش.. مد يده وأخذ المظروف وأخذ يفند أوراقه بعناية.. ثم رفع بصره نحوي..

- إنت جاي من طرف "سالم الصياد".. مش كده؟؟
- أيوة يا فندم..
- طيب انتظر ثواني....

التف بكرسيه حتى واجه جهاز الاتصال الداخلي.. ثم ضغط الذر الخاص بالتحدث..

- يا فندم.. الراجل اللي جاي من طرف "سالم الصياد" موجود عندي..

بعد سماع الإذن بالدخول.. اعتدل الرجل وضبط ملابسه.. ثم بحركة شبه آليه أعطاني المظروف والأوراق..

- إتفضل حضرتك.. "ثابت بيه" في انتظارك..

بدأ القلق يراودني.. هل وصل نفوذ هذا الأبله لهذا الحد.. أم أنها علاقات تبادلية؟ ومن هو "ثابت" هذا الذي يأذن بدخول شخص من طرف أحد مرتادي السجون؟؟ وهل أعرفه ويعرفني كما ذكر "سالم" مسبقاً؟ بعد خطوات خلف هذا المتأنق الذي فتح الباب الجرار.. ليكشف عن غرفة واسعة جداً يتوسطها طاولة كبيرة

من الواضح أنها خاصة بالاجتماعات، على يسارها أنتريه فخم.. وعلى يمينها مكتب فخم جدا يجلس خلفه!

توقفت فجأة بعد أن رأيت الرجل الجالس خلف المكتب.. كان آخر من يمكن أن أتخيل يوماً أن ألتقي به.. وقعت عيني عليه فتسمرت في مكاني.. لم أتحرك خطوة أخرى.. فقط اكتفيت بالتحديق بواسطة هاتان المقلتان المفتوحتان على مصرعيهما هذا العقل المتوقف عن العمل.. كان آخر من يمكن أن أتوقع لقاءه في يوم من الأيام..

انتشلني من حيرتي وذهولي بابتسامة عذبه قبل أن يدعوني للدخول..

- أهلا يا أستاذ "محمد".. حمد لله على السلامة إتفضل..
- هواااا.. هواااا.. هو إنت؟ .....

****

سجن المزرعة.....

يجلس "الطحان" مرتدياً بدلته الزرقاء الخاصة بالسجن.. بعد أن تحول من سجين احتياطي إلى محكوم عليه بعشر سنوات في قضايا قتل المتظاهرين.. وفي مقابله كان مقر اجتماع مجموعة الأربعة.. لم يكن "سعيد" يكترث كثيراً لما يدور حوله من أحاديث أو تحركات.. كان كمن ينتظر شيء ما.. شيء لا يعرفه أحد.. صامت.. منفرد.. لا يتحدث إلا قليل، ولا يتفاعل مع من حوله إلا في أضيق الحدود..

فشلت جميع محاولات المحيطين في دمجه معهم.. حتى صهره فشل في تخطي حواجزه.. لم يكن يهتم كثيراً بالزيارات.. فقد كان من ينتظرها محرَّم عليها الوصول إلى

هذه النقطة.. لكنه كان في قرارة نفسه واثقاً كل الثقة من إن يوم خروجه قريب.. بل قريب جداً... بالرغم مما تنشره الصحف وتتناوله الأخبار والنشرات عن العقوبات والأحكام التي تنتظر قاطني سجني طره والمزرعة.. إلا أن "سعيد" كان له رأي مختلف.. حتى أنه كان يختلف مع من كانوا معه في نفس الحبس، فالجميع هنا يترقبون.. يفكرون.. يخططون لما بعد المذبحة.. يرسلون برسائل مخفيه أحياناً ومفضوحة أحياناً.. الجميع هنا لم يقتنع يوماً بكلام "الطحان".. لكنه كان واثقاً من كل حدس وشعور يحس به...

أما باقي المجموعة فقد انهمكوا في التخطيط للجولة القادمة.. فالجميع الآن نال شرف لقب سجين مع أحكام متنوعة بلغت في بعض الأحيان للمؤبد.. والجميع في تهم فساد وتربح وقتل وغيرها من التهم التي انهالت على رموز كبيرة، لم يسلم أحد من نيل هذا الشرف، فكل ساكني القصور ومرتادي الوزارات أصبحوا جميعا في ملتقي واحد وكأنه في اجتماع وزاري موسع..

أما "شوقي".. فقد كان جالساً أمام شاشة التلفاز يستمع لقصائد الذم والهجاء والتي فاقت المعلقات السبع.. كان جالساً كخيل الحكومة الذي ينتظر أن تأتيه رصاصة الرحمة لتنهي مسيرة العامرة بكل أنواع الشقاء.. كان "شوقي" من مؤيدي نظرية المذبحة التي تنتظر الجميع، فما قدمه في حياته كافياً لأن يعدم من أجله عشرات المرات..

يجلس "شوقي" في قمة تركيزه حتى أنه لم ينتبه لدخول "نافع" لزنزانته المفتوحة حتى تكلم: إيه يا "شوقي".. إنت هتفضل مسلم ودانك للتليفزيون.. ده لوحده ها يخلص عليك..

- أعمل إيه بس يا باشا.. مانت عارف أنا اللي في وش المدفع.. وأول القصيده كانت كفر.. 20 سنه وغرامة70 مليون جنيه.. ليه أنا معايا كام 70 مليون.. ولسه!
- إنت مالك خفيف ليه كده.. مكنتش فاكرك كده أبداً..
- يا باشا اللي شاف اللي أنا شوفته في حياتي حقه ما يعرفش ينام.. لما يلاقي كله قلب عليه مره واحده..
- ياعم ما إحنا معاك أهه.. إنت يعني شوفت نفسك جاي لوحدك..
- لا يا باشا، انتوا هنا آه بس أنا اللي شايل الليلة الكبيرة.. انتوا قضاياكم كلها مش عارفين يمسكوا عليها دليل.. إنما أنا.. يا خرابي.. إيه ده.. دا التلفزيون تقريباً شغال لحسابي!
- قوم بس بطل هبل.. الجماعة مستنينك بره وعاوزين نتفق على شوية حاجات..
- خير يا باشا حاجات إيه؟
- قوم بس وتعالي معايا علشان لسه هاشوف "سعيد"..
- اللي تشوفه يا باشا.. حاضر..

أطفأ "شوقي" جهاز التلفاز.. واتخذ سبيله في الممر مع اللواء "محمود" حتى وصلا إلى مقر الخلوة الخاصة بهذا الصامت المحدق في الفضاء.. يقفا أمامه مباشرة قبل أن يشير إليه "نافع" بيده: قوم يا "سعيد" الجماعة عاوزين يتكلموا معاك في حاجة..

لم ينطق "سعيد" واكتفي بإشارة من يده تبدي اعتراضه على الفكرة، اتبعها بدوران للوجه يكفي لغلق الطريق أمام أي محاولة للتفاوض معه..

– "سعيد" باشا الكلام مهم.. ومش هاينفع من غيرك.. إنت الكبير واللي ماسك في إيدك كل المفاتيح.. مينفعش حاجة تتم من غير رأيك.. معلش تعالي على نفسك واسمع بس ولو حاجة معجبتكش قول.. ولو في حاجة مهمه قولها غير كده مش عاوزين منك كلام..

بامتعاض وشفاه ممتدة وزفير حارق.. مدد "سعيد" قدماه ثم اعتدل قائماً.. وتحرك الثلاثي حيث كانت طاولة المفاوضات قد أعدت مسبقاً، وبهذا يكون اكتمل النصاب القانوني لمجموعه الكبار...

الفولي: أيوة كده يا جماعة.. والله انتوا ما عندكو أي حق، كل واحد واخد جنب وقاعد لوحده.. إحنا مش في مركب واحدة ولا إيه؟؟

شوقي: مش في مركب واحده قوي، انتم مهما كان ليكي وضعكم إنما أنا اللي يا حاسرة لو اتفعصت محدش هايدري بي...

شاكر: ليه بس يابو الشوق.. إنت واحد من المجموعة وليك زي اللي لينا.. إنت بس أعصابك لسه تعبانة من الحكم..

نافع: حكم إيه؟ ما كلنا في الهوا سو.. بس "شوقي" يقصد إن كل حاجة باسمه.. فاكر إننا هنتخلي عنه ونسيبه في البحر لوحده..

الفولي: لا بقي تصدق إنت غلطان.. لو بتفكر كده يا "شوقي" تبقي بجد غلطان.. ثم إحنا جايبينك دلوقتي علشان نشوف هنتصرف إزاي في اليومين الجايين..

شوقي: هنتصرف في إيه بالظبط مش فاهم؟؟

شاكر: "سليمان" يقصد إن البلد طالما كده مش باين لها راس من رجلين.. يبقي نسحب نفسنا بهدوء ونخلع من البلد باللي نقدر عليه..

شوقي: برضه مش فاهم؟

الكومي: مش فاهم إيه بس يا "شوقي".. بيقولك هنسحب اللي نقدر عليه ونصفي اللي نقدر عليه ونسيله ونبعته على بره.. كل واحد في حسابه ذي ما إحنا شغالين.. بس في السر من غير شوشرة...

شوقي: يعني نصفي الشركات ونسيل الفلوس ونحولها على الحسابات بره.. حلو خالص.. وأنا بقي ألبس البدلة الحمرا وانتوا تطلعوا براءة تتمتعوا بالفلوس والعز.. وأنا ألبس في عشماوي..

شاكر: إيه التخريف اللي إنت بتقوله ده يا "شوقي"، إنت اتجننت باين عليك..

شوقي: لا يا "أحمد" باشا متجننتش بس الكلام معناه كده، ملهوش معني تاني، أنا غلطان ولا إيه.. حد يفهمني لو أنا فهمت غلط؟

مع انفعاله واتخاذ صوته نبره غير المعتاد عليها في الحديث مع الكبار.. فلم يكن "شوقي" بينهم سوي دميه يؤدي دوراً محدداً.. لكن من الواضح أن الأمور قد اتخذت منحني أكثر خطورة.. فارتفاع نبرة "شوقي" بهذا الشكل واعتراضه على الفكرة، وكونه المتحكم الرئيسي في حركة الأموال وتدفقها إلى حسابات الكبار.. كان هذا يؤذن بتغيير في مراكز القوي يستلزم تدخل سريع من حاكمدار العاصمة..

مع ارتفاع صوت "شوقي" واعتراضه الفج على الفكرة ورفضه إكمال الاقتراح.. رمقه "الطحان" بنظرة أذابت أحشاءه.. لم يتكلم ولكنه اكتفي بنظرة واحدة حملت كل ما يمكن أن يقال في مثل هذا الموقف.. كانت هذه النظرة كفيلة بأن يفقد "شوقي" السيطرة على الحروف الخارجة من فمه، فتساقطت دون ترتيب...

شوقي: إنت.. إنت.. يعجبك كده يا "سعيد" باشا.. الكلام ده معناه اني بتسلم لعشماوي متنفض..

الكومي: صحيح ما ترد يا "سعيد" عاجبك اللي بيعمله "شوقي".. وأنت اللي كنت بتقول عليه الراجل بتاعنا وعمره ما هيخرج عن طوعنا..

شوقي: أنا مخرجتش ولا حاجة يا "محسن" باشا.. بس الكلام كده معناها بيع.. أنا كده باتنفَّض يا اخوانا ومينفعش بعد خدمة العمر كله مع "سعيد" باشا يكون دا جزاتي..

شاكر: متعقل يا "شوقي" وبلاش هبل ومتفرجش الناس علينا.. جزاتي إيه وكلام فاضي إيه.. إحنا بنقولك صفي وحول الفلوس كل واحد في حسابه بره، يعني زك زينا.. فيها إيه دي..

شوقي: فيها كتير يا باشا.. فيها إن أنا أساساً مش موجود.. يعني لو مطلعتش ولا خدت حكم ولا إتعدمت هنا مش هطول لابيض ولا أسود.. وبعدين "سعيد" باشا عارف الليلة كلها.. يعني يوم ما يحصل حاجة ويتكشف القديم بتاعى محدش ها يرحمني....

كانت هذه الكلمات كفيله بإثارة "سعيد" لدرجه أنها استوجبت تدخل غير متوقع.. فقد سبقت قبضة "سعيد" إلى رقبة "شوقي" كلماته.. ومع قبضة محكمة كادت تخرج حنجرته بين يدي "سعيد".. وبصوت خافت مهدد وصارم: إنت كده بتحفر قبرك بإيدك.. كلمة زيادة ومش هايطلع عليك نهار.. وكلام في اللي فات لو سمعت منه حرف واحد، أنا بنفسي هاكتب شهادة وفاتك وهامضي عليها كمان....

لم يكن رد فعل "سعيد" متوقع من أي من الحاضرين.. فصمت مطبق ألجم ألسنة الجميع.. العين تتحرك في دوائر مغلقة محاولة أن تجد أحد فرسان المعبد الذي يتدخل

ليفض هذا الاشتباك.. لكنهم جميعاً التزموا الصمت.. واكتفوا بانتظار ما سينتج عن هذه المواجهة..

- بص يا "شوقي".. بعد يومين في زيارة.. هتبلغ البت المايصة اللي بتجيلك هنا دي تبدأ مع الشئون القانونية في الشركة في إجراءات الانسحاب من السوق.. وفي ظرف شهر واحد تكون كل حاجة مترتبه من غير غلطه.. كل واحد من الجماعة يتبعت له إشعار البنك بالتحويلات على البيت.. وصورة منه تيجي هنا.. فاهم.. مش عاوزك تخليني أتصرف تصرف إنت نفسك هتندم عليه..

ترك "الطحان" رقبة "شوقي" الذي انكفأ على وجهه مطلقاً سيلاً من السعال من جسده المرتعد، لم يكن هذا أبداً "شوقي" أو "الوزير" الذي لطالما تلذذ باستعراض قوته على حساب هامات الرجال.. بالفعل استطاع "الطحان" ترويض هذا الغول المتمرد.. وتحويله إلى قط بدون مخالب أو أنياب..

تراجع "شوقي" زاحفاً على مقعدته للخلف، ممسكاً برقبته محدقاً في عيني "الطحان" الذي استمر في إطلاق أسهمه المسمومة من عيناه المتسعتان نحو قلب وعقل "شوقي" مباشرة، فهكذا دائماً يصطاد القط فأراً..

بين الصمت والنظرات المتبادلة، تدخل "شاكر" قاطعاً الطريق على الشيطان حتى لا يزيد في إشعال نار الغضب بين الجميع، فلو تأخر قليلاً لأخذ الشيطان بمجامع "سعيد" ونفخ في أنفه حتى تنتفخ أوداجه وتحمر عيونه وينتفض قلبه، ساعتها لا يمكن أبداً أن تتنبأ بما يمكن أن يحدث..

شاكر: إيه يا جماعه مش كده، ما تهدي شويه يا "سعيد".. إنت طول عمرك ساند على "شوقي" وهو الراجل بتاعك.. هو بس ها عاوز يفهم، والراجل من حقه..

سعيد: الكلام انتهي.. و30 يوم من النهارده يا جوابات البنك يا جواب تاني خالص هايطلع من هنا على زينهم... عارف زينهم يا "وزير"؟

****

الفصل التاسع عشر

منزل أم رامي...

تظهر أم رامي وقد بدا عليه القلق.. "فحاتم" الذي خرج منذ الظهيرة لم يعد ولم يتصل لتطمئن عليه بعد نزوله المفاجئ.. و"سمير" الغائب منذ الأمس ولا يجيب على هاتفه.. سيطر القلق عليها، مما اضطرها للذهاب لبيت "إيمان" ربما تكون على علم بما يحدث، أو أن "حاتم" قد اتصل بها....

استقبلتها "أم إيمان" بحرارة بالغه كالعادة.. وبعد سيل من الترحيبات.. دخلت "إيمان" مشرقة كعادتها.. يبدوا عليها آثار العمل الشاق في المطبخ.. فهي تحب "أم رامي" وتجلها كثيراً فلم تتأخر حتى لتبديل ملابسها..

- إيه النور ده "أم رامي" عندنا.. وحشتيني والله..

قابلت "أم رامي" هذه التحية الرقيقة بقبلات مع أحضان لم تخفي ما تشعر به من قلق...

- ازيك انتي يا عمري عامله إيه؟
- أنا تمام والله الحمد لله.. مالك شكلك كده مش رايقه زي عوايدك؟

قاطعتهما أم إيمان: أنا هقوم أعمل الشاي علشان تاخدوا راحتكم في الكلام...

- تعيشي يا ست الكل.. ربنا يفرحك "بإيمان" عن قريب إن شاء الله...

- سيبك من الكلام ده يام رامي.. إيه سر الزيارة المفاجأة دي؟
- انتي كلمتي "حاتم" النهارده؟
- لا والله.. من إمبارح من ساعة لما كنا مع بعض مكلمنيش، وأنا رنيت عليه كذا مره تليفونه مقفول أو غير متاح.. بس عادي قولت يمكن في مشوار والشبكه وحشه..
- لا يا فالحه مش طبيعي..
- ليه بس يا خالتي ما تقلقنيش والنبي.. أنا أساساً مستويه من اللي حصل إمبارح مش ناقصه قلق والله...
- إيه بقي اللي حصل إمبارح دي كمان؟
- الله، في إيه يا حاجة، هو انتي جايه تساليني ولا أنا اللي هسألك؟
- اصبري بس، أصل "حاتم" صاحي وش الظهر النهارده وياعين امه مكنش شايف قدامه، ولسه بقوله الساعة 12... لقيته نط زي ما يكون لسعته عقربه..
- نط إزاي يعني.؟
- إزاي يعني إيه، يعني مره واحده اتنفض ولبس هدومه وهو بيجري على السلم.. زي ما يكون حد واقف له بمدفع!
- وبعدين.. مش يمكن وراه مشوار واتأخر.. عادي برضه..
- انتي مالك يا "إيمان" فيكي إيه، كله عادي عادي.. بقولك نزل على ملا وشه ومعرفش راح فين ومبيردش.. تقولي عادي..
- إيه بس يا خالتي.. انتي محسساني إنه عيل في الحضانة ونزل يجيب حلاوة واتأخر.. حاتم ده راجل، وبصراحه بعد اللي شوفته إمبارح وعرفته، مش

هخاف عليه تاني.. أصله طلع جدع بصراحة، والجدع دايماً ربنا بيسترها معاه.. مش كده.

- يا بنتي افهمي، "حاتم" وماشي، طيب و"سمير" اللي خرج من إمبارح الصبح ومرجعش لحد دلوقتي، وبرضه مبيردش؟
- الله، انتي مصممه تقلقيني ليه بس، طيب و"سمير" ده كمان هيكون راح فين؟
- مهو أنا لو أعرف كنت جيت لك وسألتك؟
- لا كده بقي الموضوع يبقي مش طبيعي.. بصي أنا هتصرف.. انزلي انتي روحي ولو حد منهم رجع كلميني.. ماشي، وأنا هتصرف..
- لا مش نازله غير لما أعرف هتعملي إيه.. إيه هتصرف هتصرف..

قطع الحديث دخول أم إيمان تحمل صينية الشاي: جرا إيه يا "إيمان "، يعني خالتك جايالك تستنجد بيكي تقوليها هتصرف، طمنيها الأول وبعدين نشوف هنعمل إيه..

- حاضر أمري لله، بصوا بقي.....

اعتدلت "إيمان" في جلستها ومدت يدها بكوب الشاي لأم رامي وأخذت الكوب الخاص بها، وبعد أن أخذت رشفتين.. استدركت في الحديث..

- إمبارح اتعرَّفت على ست زي الشربات جوزها كان ظابط في السجن اللي محبوس فيه "حاتم"، ويوم ما اتفتح السجن وهرب المساجين إتصاب الظابط، وفي حد أنقذه.. وكان رافض يتكلم عن اللي أنقذه خالص، المهم مطولش عليكم.. أمبارح بقي كان "حاتم" وأنا عند الظابط ده في المستشفى ليه؟ علشان "حاتم" هو اللي أنقذ الظابط ده، والظابط ده كان عاوز يشكر

"حاتم"، فإيه بقي، مرات الظابط وقفت معايا شويه وأديتني رقمها وحلفتني لو حصل أى حاجة أو احتجت أى حاجة أكلمها على طول.. فهمتوا بقي؟

- ظابط إيه ومستشفى إيه.. انتي فاهمه حاجة يام إيمان؟
- والنبي يا ختي منا فاهمه حاجة من كلامها..
- مش فاهمين إيه بس! طيب خلوني بس أكلمها وأقولها يمكن تكلم جوزها يتصرف هو.. إحنا مش هنعرف نتصرف زيهم برضه.. مش كده؟
- وهي اسمها إيه الست دي؟
- دي بقي الست "صافي" هانم مرات "طارق" بيه الظابط.. استنوا التليفون بيرن..

ألصقت إيمان الموبايل بأذنها متجاهلة نظرات الترقب المتبادلة بين المندهشتان..

- ألو.. أيوة يا هانم.. مع حضرتك "إيمان".. خطيبة "حاتم"..

آه.. أهلا بحضرتك.. أخبارك حضرتك إيه؟

طيب بس لو فيها ثقاله عاوزه من حضرتك خدمه..

تعيشي يارب..

أقول لحضرتك.. "حاتم" خطيبي نزل من الصبح متلهوج ومتسربع ولحد لدوقتي مرجعش ومنعرفش عنه حاجة.. وحتى موبايله مقفول من الصبح، و خايفه يكون جرا له حاجة ولا حد اتعرض له..

لا.. أصل مش هو لوحده، دا كمان الأستاذ "سمير" اللي ساكن معاه برضه خرج من إمبارح ومرجعش وبرضه تليفونه مقفول...

منعرفش أي حد غير حضرتك و"طارق" بيه..

اه.. بس لو ممكن حضرتك تكلمي "طارق" بيه يتصرف أو يشوف لو يقدر يعتر لنا عليه.. أصل كل الجماعة هنا قلقانين جدا ومش عارفين نعمل إيه والله..

آه يا فندم.. دا رقمي معايا على طول...

خلاص.. هنتظر من حضرتك اتصال.. ألف ألف شكر يا هانم..

ربنا ما يحرمنا منكم أبداً.. مع السلامة..

- ها قالت لك إيه يا إيمان طمنيني؟

يدخل الحاج "إبراهيم" يستند على عصا غليظة في يده..

- احم احم.. يادي النور يا ست "أم رامي"، وأنا أقول البيت منور!!
- منور بوجودك يا حاج..
- ما تيجي تشوف يا حاج.. "أم رامي" بتقول "حاتم" نزل من الصبح متسربع، وادينا بقينا الساعة 8 ولا حس ولا خبر، وتليفونه مقفول..
- إيه بس يا جماعه.. الغايب حجته معاه.. وهو يعني" حاتم" صغير!!
- لا يا بابا.. هي قصد ماما تقولك انه نزل متلهوج ومنعرفش هو فين ومتصلش وتليفونه مقفول.. والمشكلة بقي إن كمان "سمير" من إمبارح منعرفش هو فين!!
- آه والله، أنا من ساعة ما صبَّح على إمبارح مشوفتوش.. طيب مش يمكن راح عند حد معرفه ولا حاجة وبات عنده..

- معرفة مين يا حاج، مانت عارف انه مقطوع ولا له حد ولا سبت.. ولا عمره عملها وبات بره البيت.. المشكلة أنا خايفه يكون جرالهم حاجة ولا حد اتعرض "لحاتم".. إنت عارف ظروفه.. أنا مش مطنه والله "يابو إيمان"..
- ياستي.. استعيني بالله.. ربنا قادر يحفظه.. اللي نجاه من كل اللي فات ده.. "حاتم" ابن حلال وربنا هيسترها معاه.. بس انتوا ادعوا له ربنا يرجعه بالسلامة..
- يعني هنقعد حاطين إيدنا على خدنا كده يا حاج ومش هنعمل حاجة؟
- ولا حاطين ولا غيره.. انتوا بس استعينوا بالله وهو ها يفرجها.. قومي يا "إيمان" جهزي العشا خلي خالتك "أم رامي" تتعشي معنا علشان تحصل لنا البركة..
- ألف هنا يا حاج.. لا.. أنا نازله ولو حصل حاجة هبلغكم..
- انتي بتقولي إيه ياختي.. والنبي حتى تبقي عيب.. يعني تبقي عندنا وتنزلي من غير ماتتعشي.. والله هزعل منك كده.. ما تتكلم يا حاج!!
- لا يا ماما.. دي باين عليها خايفه.. أصلها شايفه اني اللي بجهز العشا.. فباين عليها خافت ولا حاجة..
- لا والله بس أنا مليش نفس.. قلقانه على الجدعان..
- ياستي ربك اللي بيدبرها ودول رجاله.. يعني لاهم عيال ولا بنات.. يعني هم اللي يقلقوا علينا.. يلا "إيمان" شهلي أومال..
- ثواني هتلاقي احلي عشا لأحلي "أم رامي"..

****

في القصر العيني.. غرفة طارق..

يدخل "حسام" بعد إن طرق الباب.. يحمل وجهاً قد امتلئ بتعبيرات مختلطة.. ليواجه وجهاً آخر قد حمل تعبيراً واحداً فقط.. لم يكن "طارق" يخشى أن يصيب "حاتم" مكروه قدر ما كان يخشى أن يتم اصطياده في فخ من تأليف وإخراج السفاح الهارب.. كان يدرك جيداً أن استعانة "الصياد" "بحاتم" في عمل ليس من أجل سوداء عيونه، وإنما ليقدمه ككبش يفتدي به نفسه.

كان أكثر ما يشغل بال "طارق"، هل بالفعل سينجح "سالم" في الإيقاع بفريسه ساذجة هذه المرة؟ وما هي الجريمة التي سيلقي "حاتم" بها في غياهب السجن هذه المرة؟ هل يمكن "لطارق" أن يرد الجميل وينقذ "حاتم"؟ هل سيكون استعداد "سالم" وخطته أقوي وأسرع من تحركات "طارق" و"حسام"؟ تساؤلات كثيرة رسمت على وجهه شحوباً واضحاً وجعلته يسرع بطلب "حسام" الذي جاءه على الفور..

- خير يا "طارق" حصل إيه.؟
- شوفت يا "حسام"، اللي كنت عامل حسابه ها يحصل؟
- إيه هو اللي كنت عامل حسابه وإيه هو اللي هيحصل؟
- خطيبة "حاتم" اتصلت "بصافي".. وقالت لها إن "حاتم" خرج الصبح ومرجعش وماتصلش.. وتليفونه مقفول!
- طيب إيه الغريب في كده؟
- الغريب إن "سمير" صاحبه خرج إمبارح ومرجعش لحد لدوقتي وبرضه تليفونه مقفول ومحدش عارف عنهم حاجة!

- وبعدين، إيه المطلوب يعني.. عادي دا كل الحكاية مكملتش 10 ساعات، يعنى حتى مش اختفاء ولا ينفع نتحرك.. المدة مش مستاهلة!
- أيوة عارف إن المدة قصيرة، بس إنت سمعت "حاتم" وهو بيحكى عن العملية اللي كلفه بيها "الصياد"، وأكيد "الصياد" هو اللي ورا الحكاية دي..
- طيب ياخد "حاتم"، ماشي، منطقي.. إنما هياخد "سمير" يعمل بيه إيه؟ ولو عاوز ورقة ضغط مثلا، مثلاً يعني.. مش كان خطف "إيمان" ولا "أم رامي"، أهو يبقي عمل حاجة كبيرة.؟
- لا إنت متعرفش "الصياد" زيي، أكيد هو اللي خطف "سمير" و"حاتم" معاه دلوقتي، بس لو كنت أعرف هو فين أو مكان العملية..
- خلاص خليتها عملية وكبرت الحكاية.. إهدى ياعم مش كده
- أهدي إيه بس أنا مش خايف على "حاتم" ولا "سمير" ولا خايف من "الصياد".. الفكرة كلها إن يبقي قدامك حد مظلوم مش مهم مين هو.. وشايفه قدامك بيتبهدل ومش عارف تمد إيدك تساعده..
- يعني هو "حاتم" و" سمير" بس اللي مظاليم يا "طارق".. انت لو اشتغلت كده يبقي مش هتخلص..
- مش مهم.. المهم يبقي في حد على الأقل بيفرق معاه إنسان بريء..
- بص سيب الحكاية دي وأنا هتصرَّف متشغلش بالك، إنت بس خد بالك من صحتك.. المفروض هتخرج بعد كام يوم؟
- المهم خد بالك إنت بتدور على إبره في محيط مش في كوم قش...
- يعني إيه؟

- يعني خد بالك أكيد "الصياد" واللي معاه مغيرين أساميهم وضاربين بطايق.. يعني مستحيل توصل لحد فيهم بسهولة.. شوف بقي هتحلها إزاي يا بطل؟
- متشغلش بالك إنت.. مفيش حد مبيسبش وراه غلطات.. المهم إنت هتخرج إمتي من هنا؟؟
- الدكاترة بيقولوا على أسبوع كده.. الحالة بقيت مستقرة..
- طيب كده تمام.. إنت هترتاح وأنا هتابع الموضوع ده.. ولو حد كلمك أو كلم المدام ياريت تبلغني..
- ماشي يا "حسام"، معلش أنا عارف اني تعبتك معايا، بس أنا صعبان على "حاتم" يلبس قضيه جديده وهو لسه مطلعش من القديمة..
- لا متخدش في بالك.. المهم لو معاك رقم خطيبة "حاتم" اديهوني، ورقم "حاتم ".. أكيد معاك؟
- طبعاً .. خد.. اكتب عندك..

****

لم أكن أتوقع يوماً أن أجتمع بهذا الرجل وجهاً لوجه.. هذا الشخص الذي مُنعت من الحديث معه قهراً.. لم أكن وحدي الذي منعت.. بل كان محاطاً بسياج من الغموض والصمت.. لم أنسَ يوم أن قدم لي التهنئة.. يوم خطبتي في السجن.. أيضاً لم أنس زجر "الصياد" و"شيحة" لي عندما هممت أن أتحدث معه..

ها هو الرجل الغامض الصامت المنزوي.. يجلس خلف المكتب الفخم في هذه الشركة التي يبدوا عليها الحداثة شيئاً ما.. فالأثاث والموقع والمبني والعاملين.. كل شيء يدل على أن الشركة قد بدأت نشاطها منذ فترة قليلة..

- إيه يا أستاذ "محمد".. هتفضل واقف كده كتير.. اتفضل..؛ "فتحي".. اتنين قهوة مظبوط بسرعه.. تجيبها بنفسك ومتدخلش حد علينا...

لم تفارقه الابتسامه التي لم أرها على وجهه من قبل.. كان كمن يبعث إلى برقيات متتالية بأن لا تخف واقترب فهنا مكان آمن لا خوف فيه ولا ترقب.. بالفعل استجبت لدعوته بدون أن أتكلم.. فقط التفت لأتابع الباب الكبير الذي أغلق بهدوء...

- هو حضرتك..... مش حضرتك برضوا!!
- أنا يا سيدي اللي كنت معاك في اللومان..
- "جميل" بيه.. مش كده؟
- الله. ما أنت عارف اسمي كويس.. أومال إيه الذهول والخضة اللي إنت فيها دي؟
- معلش ياباشا والله بس أنا مكنتش متخيل إني أشوف حضرتك هنا.. أصل "سالم " بعتني علشان أسـ..... أقصد.. علشان أشتغل هنا ومجابليش سيرة خالص..
- بص يا "حاتم".. زي مانت اسمك بقي "محمد ".. أنا اسمي بقي "ثابت".. ودي شركتي.. طبعا بالاسم والصفة الجديدة....
- طيب وحضرتك اللي طلبت أني اشتغل هنا ولا "سالم" اللي عرض على حضرتك؟

- لا أبداً.. "سالم" كلمني وفكرني بيك وقالي إنك بتدور على شغل، وبما إن الشركه زي مانت شايف جديده، فمفيش مانع إنك تكون معانا.. ولا عندك مانع؟
- لا ياباشا أبداً، بس أصل.....
- لا بس ولا أصل.. إنت هتكون مبسوط معنا هنا جداً.. والمرتب هيكون مجزي.. بس علشان العشرة القديمة...
- طيب بس ممكن أسال حضرتك سؤال؟
- اتفضل يا سيدي.. خير..
- هو "سالم" هو اللي جاب الورق لحضرتك.. والبطاقة الجديدة اللي خرجت بيهم مش كده؟؟

ارتسمت على وجهه ملامح المفاجأة لكنه أخفاها خلف هذه الابتسامه التي بدت مصطنعة في هذه اللحظة..

- ليه بتسأل السؤال ده؟
- لا أبداً.. أصل هو اللي جاب لي الورق وهو اللي جابني لحضرتك..
- أيوة يا سيدي.. "سالم" هو اللي جاب الورق والبطاقه وهو كمان اللي ساعدني في الخروج و.....

قطع الحديث طرقات على الباب تؤذن بدخول "فتحي" حاملاً القهوة.. خطوات نحو المكتب ووضع القهوة ثم انصرف في هدوء مغلقاً خلفه الباب..

- شوف يا "حاتم".. الدنيا دي فرص وانت طالما جت مصلحتك مع حد يبقي متقولش بلاش أو مينفعش.. لا.. خد فرصتك واتمسك بيها وبعد كده اتصرف على الوضع الجديد..
- معلش يا باشا أصل اللي أنا سمعته عن حضرتك إنك إنت مش قليل يعني..
- آه.. فهمت قصدك.. يعني إنت بتسأل ازاي حد زيي ألجأ لحد زي "الصياد". مش كده؟
- يعني.. تقريباً؟
- بص يا"حاتم" ولا.. يا "محمد".. مش هاتفرق.. لو إنت ملك أو رئيس وفي وسط البحر وهتغرق.. وجالك واحد حقير وراكب على خشبة وضيعة جداً متتناسبش مع ملك ولا رئيس زيك.. هتركب معاه ولا هتقول دا مش من مقامي؟
- لا طبعاً يا باشا.. هركب معاه لو هو إيه.. دي الروح حلوة برضه..
- أنا عملت كده.. جالي "الصياد" وعرض على إنه يساعدني، وأنا وافقت..
- طيب يا باشا معلش في السؤال.. هو إنت ممكن تقتنع إن "الصياد" هيعمل ده لله.. يعني من غير مقابل كده؟
- طبعاً لا.. لازم كل حاجة بتمن.. والتمن متفقين عليه مسبقاً قبل أي حاجة.. بس زي ما قولت لك.. إمسك الأول في الحبل وبعدين اتصرف على الوضع الجديد..
- يا باشا اللي زي "الصياد" عامل زي الديب اللي بيأكل المعزة الصغيرة علشان تسمن وتكبر علشان تستاهل الاكل..

- عارف يا "حاتم".. ومتأكد انه راسم على حاجة.. بس أنا عامل احتياطاتي.. وكويس انك بقيت معانا.. أنا عارفك شاب كويس ومحترم.. علشان كده أنا ماترددتش لحظة انك تيجي تشتغل..
- بس ياباشا.. إنت عارف "الصياد" عاوزني اشتغل هنا فين، وليه؟
- اه.. هو قالي.. إنك طلبت انك تشتغل في الأمن.. مع إني شايف انك ممكن تكون معايا هنا في المكتب.. بس طالما دي رغبتك خلاص..
- لا أبداً..... أقصد... مش مهم يعني أي حاجة اللي تشوفه حضرتك..
- طيب يا سيدي.. إنت هتخرج دلوقتي على "فتحي".. أنا مفهمه كل حاجة.. ودا رقمي الخاص.. لو احتاجت أي حاجة في أي وقت كلمني.. يمكن منتقابلش كتير أثناء الشغل بس مش عاوزك تقلق خالص..
- ياباشا.. طيب بس أنا كنت عاوز أقول لحضرتك.....
- عارف انت عاوز إيه... "فتحي" عنده تعليمات بكل حاجة.. "حاتم ".. أنا عاوزك تكون الراجل بتاعي هنا.. أي حاجة مش طبيعية تبلغني فوراً..
- يا باشا بس انا عاوز أقول لحضرتك.. "الصياد" مش.....
- ياعم سيبك من الصياد والسماك... خليك في شغلك الجديد.. هتطلع مع "فتحي" وهو هايعمل معاك الواجب..
- خلاص يا فندم اللي تشوفه..
- أنا نازل دلوقتي.. ومواعيدي وكل تفاصيل الشغل مع "فتحي".. وتيجي تستلم من الصبح..
- اللي تشوفه ياباشا.. حاضر..

لم أعرف لم كل هذا الجبن والخوف والخنوع الذي انتابني.. كم كنت وضيعاً وحقيراً.. أعلم بما يدبره "سالم" لهذا الرجل وأصمت كشيطان أخرس.. الآن لم يعد لك الحق في عقاب "سالم".. لقد أصبحت مثله.. تجرعت من نفس كأسه.. فكرت برأسه وتتحدث بلسانه..

ها أنا أضع السم بيدي لهذا الرجل.. ها أنا أطعنه بخنجر مكتوب عليه "سالم الصياد".. كثيراً كنت جباناً لكن هل يصل بي الجبن إلى هذا الحد؟ هذ أُصبح الأفعي التي تقتل صاحبها لأنه احتضنها خوفاً عليها من البرد؟

لكن لا.. سأخرج عن صمتي.. سأحطم سجن خوفي.. سأقتل شيطاني الأخرس الذي يلجمني عن كلمة الحق.. لن أدع الأيام تترك جرحاً آخر غائراً في جسدي كجرح الوزير.. لن أصمت هذه المرة...

سأبدأ خطة الانتقام من المتغطرس المتعالي "سالم".. من هنا.. من المكان الذي زرعني فيه.. سأجعلك تندم أيها السفاح على استهانتك بي..

- استاذ "محمد".. اتفضل حضرتك..
- ها..... آه حاضر.. أيوة يا أستاذ "فتحي"...
- إيه اللي واخد عقلك.. لا ركز مش هاينفع السرحان في الشغل بتاعنا.
- لا أبداً بس افتكرت حاجة قديمة...
- طيب خير.. الورق بتاعك خلاص جاهز.. وهتيجي معاي دلوقتي تستلم اليونيفورم..

استطرد "فتحي" في سرد كل تفاصيل العمل بداية من المواعيد وأنشطة الشركة ونظام العمل.. مروراً بالمهام التي ستقع على عاتقي.. أخذ يشرح ويستفيض.. لم يترك

أي شيء حتى ذكره بكل توضيح.. حتى جاء سؤالي الذي جعل وجهه يتغير من المفاجأة..

- هو الشركة دي بيكون فيها فلوس كتير؟
- يعني إيه يا مش فاهم سؤالك؟
- أقصد يعني ليه كل الإجراءات والأمن كده.. دي شركة استيراد وتصدير وتجارة داخلية.. يعني أوراق ومخازن على ما فهمت يعني..
- تمام.. كده إنت فاهم صح.. إيه بقي المشكلة؟
- أنا بسأل حضرتك.. هو الشركة بيكون فيها مبالغ ماليه ضخمه بتاعت شغل مثلا أو كده؟
- مش دايما.. معظم التعاملات بتاعتنا تحويلات بنكيه.. لكن أوقات مش كتيره بيكون في صفقات بتتسدد كاش...
- طيب ليه مش بتروح على البنك مباشر.. أصل المكان مهما كان متأمن مش هايبقي زي البنك؟
- عندك حق في دي.. البلد مش أمان خالص.. وعموما أي مبلغ مهما كان كبير مش بيبات في الشركة أكتر من 24 ساعة.. يعني تاني يوم على طول بيكون في البنك..
- طيب معلش في السؤال.. هو "ثابت" باشا فاتح الشركة دي من قريب ولا إيه؟
- المكان نفسه كشركة مش جديد.. دا كان مقر شركة بس صاحبها دخل السجن من فتره والشركة تم تصفيتها وبيع كل الأصول بتاعتها.. حتى تم تسريح كل الموظفين..

- **يعني "ثابت" باشا عمل الشركة دي مكان شركه تانيه.. أصل المكان باين عليه نظيف وجديد.؟**
- **اه فعلاً هو "ثابت" باشا أول ما أخد المكان غير فيه كل حاجة... ديكورات ومكاتب..**
- **طيب معلش.. إنت تعرف صاحب الشركة اللي كانت هنا؟**
- **لا أبداً.. بس أنا سمعت إن كان حد مش قليل في البلد بس خبَّط مع حد من الكبار واترمي في السجن.. بس دلوقتي محدش يعرف عنه حاجة..**

للحظة أحسست أن العملية ليست مجرد سرقه أو شركة أو بعض أموال.. فما جري في خاطري أن صاحب هذا المكان هو نفسه صاحب المكان القديم.. لا أعلم لماذا جال في خاطري هذا الشعور.. لكن لماذا؟ لم أجد تفسيراً...

****

الفصل العشرون

الساعة الآن تشير إلى الثامنة مساء.. موعد لقائي بهذا "النونو".. بجوار سور الحديقة.. خرجت من باب الشركة.. التفت إلى المبني.. رأيته علامة استفهام كبيرة لا يبدوا لها اجابة مقنعه أبداً.. خيوط متداخله.. أشخاص متحولون.. وغيرهم يخططون ويدبرون.. إنها حرب قذرة بين أشخاص كل منهم يبحث فقط عن مصلحته.. لا يهمه من يُفقد.. أو يموت أو يدهس تحت وطئ الأقدام.. إنه صراع من نوع آخر.. صراع الكبار...

لم أتأخر كثيراً على هذا الغبي المتشدق بلبانته اللعينة وسيجارته ودراجته البخارية العتيقة ذات الصوت القاتل..

- يلا ياسي الأستاذ.. المعلم مستني.. اتأخرت ليه كده؟

رمقته بنظرة تحمل الكثير من الدونية والضيق: سوق وانت ساكت.. يلا...

- وماله ياسي الأستاذ.. هاسوق وأنا ساكت.. أصل المعلم موصي عليك.. باين عليك مهم..

أيها الغبي.. كم أتمنى أن ألقي بك من أمامي.. لكن ليس الأن، فمصيرك مع سيدك سيأتي يوماً دون محال.. سأستمتع كثيراً برؤيتكما في أحضان البدلة الحمراء.. في ضيافة عشماوي..

أخيراً بعد معاناة مع هذا الضجيج الذي لا يحتمل وصفع الهواء لوجهي من أثر سرعة هذا الأبله.. وصلت إلى مرقد السفاح في هذه الحارة الضيقة.. التي رأيتها فرصة لاصطياد هذا الأبلة بسهوله.. لكن فقط عندما يحين الموعد..

دخلت خلف "النونو".. حيث كان "الصياد" جالساً مع باقي أفراد مجموعته.. لكن زادهم شخص آخر.. فقد انضم إليهم العضو الجديد.. "سمير".. كانت الوضع حميمياً للغاية.. فقد كان جالساً بينهم ممسكاً بالشيشة التي يتجلى منها رائحة الحشيش.. مع صينية من الطعام وزجاجات البيرة المتراصة في نظام...

كدت أن أصب جمَّ غضبي ولعناتي عليه، فبينما أنا أصارع نفسي وأعتصر جمجمتي في إيجاد مخرج لك، تجلس أنت في أُنْسٍ وهناء مع الحشيش والطعام.. لكني توقفت.. فكرة الذئب الذي يسمن ضحيته مازالت مسيطرة على تفكيري.. لكن لماذا "سمير"؟؟ هل سيكون فريسه جديدة لهذا "الصياد"..

هززت رأسي لأسقط كل الأفكار منها.. أريد ذهناً صافياً لأبدأ به الجولة الأولي من مباراتي مع "الصياد".. الجولة الأولي من " الفوز أو الموت "

- نورت يا بطل.. على الله تكون رفعت راسي..
- أكيد يا معلم.. "ثابت" باشا باعت لك السلام كتير..
- تسلم يا غالي.. ها.. طمني عملت إيه؟
- كل خير يا معلم زي مافهمتني بالظبط.. واستلمت الشغل ومن بكره هكون هناك..
- حلو خالص.. إنت كده حبيبي..

تدخل "سمير" بصوت يملأه التيه من تأثير الحشيش: إنت غلطان يا "حاتم" والله.. مش كنت تعرفني على الناس الطيبه دي من زمان.. عليَّ النعمة أنضف حتة حشيش شربتها في حياتي..

- ماشي ياعم "سمير".. أديك عرفتهم يا سيدي.. يارب تكون انبسطت.؟
- الله، وما يتبسطش ليه بس ياسي الاستاذ، دا من طرفك.. يعني من طرف الغالي..
- تعيش يا معلم.. بس كنت عاوز أسألك سؤال يا معلم؟
- خير ياحبيب.. اسأل براحتك..
- هو "الصياد" ده اسمك ولا شهره يعني؟

بدا سؤالي كمونولج قديم لإسماعيل ياسين على خشبة المسرح.. فبمجرد أن سمعه الموجودين حتى اهتز المنزل من ضحكاتهم العالية التي لم أكن اتوقع أن تكون رداً على سؤال كهذاً.. ضحكات مصحوبة بسعال شديد من "الصياد" و"شيحة" تحديداً..

- خير بس يا معلم أنا قولت حاجة غلط؟؟

استمر الضحك الهستيري الغير مبرر بالنسبة لي على الأقل.. لكنه قطعه "سالم" بصوت صارم لا يتناسب أبداً مع ضحكاته منذ ثوان...

- سؤالك ده له معني واحد بس يا سي الاستاذ.. بس أنا هعتبر نفسي مسمعتوش.. ماشي.. وبلاش تطاوع دماغك دي.. أصلك شكلك كده مش ناوي على خير..

تمالكت أعصابي وكأني لم أسمع شيئاً.. ففقدان توازني في بداية المباراة سيجعل صمودي شبه مستحيل.. كان عليَّ أن أكمل ولا أتراجع، فتراجعي يؤكد كلامه.. أما تقدمي سيجعله يغير رأيه بكل تأكيد..

- لا يا معلم.. إنت فهمتني غلط.. أصل كل المعلمين بيكون ليهم إسم شهره.. زي المعلم "شيحة" كده وغيرهم.. سؤال عادي يعني..
- خلاص ياسي الاستاذ.. أنا هريحك.. أنا اسمي "سالم".. بس الصياد دي شهره.. ماشي ولا لسه عاوز تعرف سبب الاسم كمان؟

الآن أيقنت أنه قرأ ما يدور بداخلي وكأني كتاب مفتوح بالنسبة له.. كان لابد من إجراء مناورة سريعه أفلت من وطئ قبضته..

- لا يا معلم.. بس النهارده أنا لقيت حاجة غريبه في الشركة..
- خير.. اشجيني..
- الشركة دي كانت بتاعت "ثابت" باشا قبل ما يدخل السجن ولم خرج جددها على إنه مشتري جديد وغير اسمها.. مش كده؟
- ايه النصاحة دي.. مش بقولك إنت مش هتجيبها لبر.. أقولك.. تعالى أقعد كل لك لقمه علشان أفهمك..
- تعيش يا معلم.. أنا هاكل في البيت لما أروح..

للمرة الثانية تتعالي الضحكات.. أحسست بأني بهلوان أتراقص على أحبال سيرك..

- إيه بس يا معلم.. أنا مش هاروّح وأجيلكم بكره على هنا؟

- يعني بزمتك ده كلام.. يعني المعلم مكلف نفسه وأكل وحشيش وقعده فل الفل.. وتقول أروح وأجي..
- مش القصد يا معلم "شيحة" والله بس...
- ماتقعد ياسي الأستاذ وبطل بسبسبه.. إنت ضيفنا لحد ما العملية دي تخلص.. اترزع خلينا نقول الكلمتين.. إنت مش هتبطل الطبع الهباب اللي فيك ده!
- هدي خلقك يا معلمي.. دا لسه مستجد بس مش فاهم.. إقعد بقي يا "حاتم" كل لقمه.. يا أخي حتى علشان صاحبك اللي مشعشع ده متطيرش الحجرين من راسه..

نظرت إلى "سمير" الملقي على الأرض يمسك بزجاجه البيرة يرتشف منها القليل ويسقط الكثير على الأرض وعلى ملابسه.. أفقده الحشيش اتزانه تماماً فأصبح كخرقة مهلهلة لا عصب فيها ولا عظم..

- اؤمرني يا معلم.. بكره إن شاء الله هروح الساعة 8 الصبح الشركة..
- حلو.. عاوزك بقي تصحصح معايا كويس..
- أؤمرني يا معلم...
- الصبح هتوصل الشركة أول حاجة هتعملها عاوزك تدخل مكتب ثابت بيه.. وتركب البتاعه دي في بطن المكتب بتاعه.. في حته مستخبيه.. فاهم طبعاً..
- ماشي.. حاضر.. فاهم..
- هتنزل بعدها تقف في شغلك عادي خالص.. بكره بعد الظهر هايجي الشركه جماعه.. أول ما يوصلوا هتتصل من التليفون ده على الرقم ده.. هتتصل

وتحط التليفون في جيبك.. هتسيب الخط مفتوح.. فاهم.. ولم ينزلوا هتقفل الخط.. ولم تيجي هتجيب لي العدة دي..

- حاضر يا معلم.. بس كده؟
- لا لسه.. لما كل اللي في الشركة هيمشوا هاتكون الساعة 8 مساءاً تقريباً.. هتطلع عند المكان اللي بتقابل فيه النونو هايجيبك لحد هنا.... كل حاجة بسيطة خالص..
- بسيطة يا معلم..
- أصل إنت فاكر اننا ماشين ندبَّح في مخاليق ربنا.. بالعكس خالص وبكره هتعرف..
- طيب لو فيها رذاله يا معلم.. ممكن بس أخد الموبايل بتاعي أتصل على الجماعة أطمنهم عليَّ أنا و"سمير" بدل ما يقلقوا علينا..
- لا عندك حق.. واجب برضه.. حتى علشان ميعملوش قلق..

دس "سالم" يده في جيبه وأخرج الموبايل الذي ظل مقفولاً يوماً كاملاً تقريباً.. قمت بتشغيل الهاتف واتصلت على "أم رامي".. بالطبع انهالت على بكم من الأسئلة تحتاج لأشهر للإجابة عليها، لكن بالطبع الوضع لم يكن يسمح بأي إجابات مفصلة.. لكن اجمالاً طمأنتها عليَّ وعلى "سمير" وأننا بخير وسنعاود للمنزل قريباً.. وكان لازماً لإثبات حسن النية أن أؤكد عليها ألا تتصل بي.. انما سأقوم أنا بالاتصال من وقت لآخر وهو الشيء الذي انفرجت له أسارير "سالم".. أحس وقتها أنني قد تجاوبت معه وبدأت أندمج في اللعبة..

- خلاص يا سي الأستاذ.. طمنت الجماعة.. هات بقي الموبايل...

- آه يا معلم بالمناسبة.. كنت عاوز أخد رأيك في حاجة كده..
- خير! اتفضل..
- بكره لما الجماعة يمشوا وأنا أقفل الموبايل.. إيه رأيك "النونو" يجي ياخده ويجيبهولك على طول بدل ما يفضل معايا لأخر النهار.. ممكن حد يأخذ باله ولا حاجة واتفتش تبقي مصيبه.. الأحسن إني أسلمه "للنونو"..

ازدادت مساحة الابتسامة على وجه "الصياد" بشكل لم أعهده.. ربما كانت ابتسامه الرضا شيئاً ما.. وربما ابتسامة أخري.. كنت أتعامل فقط من وجهي نظري، فقد رأيتها رضا بما قلت وزيادة ثقة.. أما الواقع لم أكن أدركه حقيقة..

- لا ياسي الأستاذ.. أنا عارف كويس أنا قولت لك إيه.. التلفون ده هيفضل معاك وفي الليل هاتجيب العده دي معاك..
- طيب وبالنسبة للحتة اللي هاتتزرع في المكتب.. هاطلع أجيبها في الليل ولا هاسيبها لتاني يوم ولا إيه؟
- لا هتسيبها.. زي ماهي وأنا اللي هاقولك تعمل إيه.. متشغلش بالك إنت بحاجة.. إنت تنفذ وبس..
- أوامرك يا معلم.. حاضر
- ها تقوم تنام وتريح جتتك.. عندك في الأوضه هدوم وعندك الحمام وفيه بانيو وميه سخنه وبارده وآخر جمال.. قوم متع نفسك وروق وبكره يحلها ربنا..
- تعيش يا معلم.. ربنا يخليك..

انصرفت متجهاً نحو غرفتي التي حددها لي "سالم" سلفاً.. وبالفعل وجدتها غرفة جيدة جداً لا تتناسب مطلقاً مع هذا المنزل المهجور.. سرير مرتب وبجواره منضدة

صغيرة عليها زجاجة مياه.. بيجامة مطويه بعناية تبدو جديدة وضعت على السرير.. تقدمت إليها وأنا أدور ببصري في أرجاء الغرفة حتى التقطت عيناي باباً في أقصي يسار الغرفة.. اقتربت منه.. كان الحمام الذي أشار إليه الصياد في حديثه..

بعد الاغتسال وتغيير ملابسي خرجت للغرفة وذهبت إلى السرير.. لكن ما هذا؟ كانت زجاجة المياه على المنضدة الصغيرة بجوار السرير وبجوارها قرص المسكن الذي اعتاد "سمير" أن يأتيني به..

مددت يدي وأمسكت بالقرص.. أدرته بين أصابعي.. كنت في أشد الحاجة إليه فعلاً.. لكني لم أفعل.. لم أتعجب من وجود القرص "فالصياد" يعلم به منذ أن كنت في السجن.. لكن ما جعلني أتعجب لماذا يأتي به الصياد إلى الآن.. هل هي مجرد هدية؟ أم أنه يريد أن يخبرني أنه يعرف عني كل شيء.. وهذه رسالة مباشرة بأن احترم مقامي وحدودي معه؟ بالفعل كانت حركه في غاية الدهاء.. لأني بعدها أعدت التفكير في امكانات هذا الرجل.. أدركت أنه يحتاج عقليه من نوع خاص للتعامل معه، لن يجدي معه التفكير التقليدي.. هذا الخبيث متفرد الرأي، الذي لا يأمن أحد على سره مهما بلغت صلته به يجب إن يستدرج من حيث يعتقد أنه في مأمن.. فقط هذا هو الطريق.. الآن عرفت مهمتي.. الآن سأبدأ في دق أول مسمار في تابوت هذا المتعجرف.. فقط انها مسألة وقت ليس أكثر..

تناولت القرص وشربت معه بعض من الماء.. تعمدت أثناء رفعي للزجاجة أن أفحص زوايا الغرفة.. بالفعل وجدت ما أبحث عنه.. كاميرا مراقبة مثبته خلف حامل ستارة خشبي لا يظهر منها سوي بريق خافت للعدسة.. كنت أعرفه جيداً.. وها هي شكوكي تتأكد.. فهذا الرجل يشعر بالخوف ويتوقع الخيانة من كل من حوله.. فوضعه

كاميرات مراقبة يدل على حذره وترقبه لحدوث أمر ما.. إذن فلتكن هذه نقطة البداية..

****

في نفس الوقت..

تتصل "أم رامي" "بإيمان" لتبلغها بالمكاملة ومحتواها.. طلبت منها أن تبلغ ما حدث "لطارق" بيه لأنه هو الأقدر على التصرف في مثل هذه الظروف.. وبالفعل.. سارعت "إيمان" بالاتصال "بصافي" هانم زوجة "طارق" بيه لتخبرها.. وما هي الا دقائق حتى رن هاتف "إيمان"...

- أيوة.. أنا إيمان.. مين معايا؟

أيوة يا "حسام" بيه.. طبعاً فاكرة حضرتك..

أيوة يا فندم.. "حاتم" كلم "أم رامي" وقالها انه كويس وإن "سمير" معاه..

لا يا فندم.. التليفون اتقفل تاني..

هو قالها انه هايتصل هو..

حاضر.. لو حصل أي حاجة هاتصل بحضرتك

أيوة يا فندم احنا ساكنين جنب "أم رامي" في نفس الشارع..

حاضر يافندم.. مع السلامة..

- خير يا "إيمان".. حصل إيه؟
- مفيش يابابا.. "أم رامي" اتصلت وقالت إن "حاتم "كلمها وطمنها عليه.
- ومين اللي كان بيكلمك دلوقتي؟

- دا "حسام" بيه الظابط اللي كان ماسك قضية "حاتم".. مش أنا حكيت لك؟
- أيوة.. افتكرت.. طيب وقالك إيه يابنتي؟
- قالي انه هايتصرف وسألني عن العنوان بالتفصيل.. وقالي انه بكره هايجي عند "أم رامي" وعاوزني هناك..
- إمتي الكلام ده؟
- لسه معرفش هو هيتكلم لما يكون جاي..
- طيب خير.. ربنا يستر ويجيب العواقب سليمه إن شاء الله....

****

اليوم التالي:

"أم رامي" و"إيمان" على السطوح.. ينتظران قدوم "حسام" الذي اتصل بإيمان وأخبارها بأنه يريد إلقاء النظر على حجرة "حاتم" و"سمير".. وبالفعل لم يمضي كثير من الوقت على اجتماع السيدتان حتى دخل عليهما "حسام" يتبعه ثلاثة من أمناء الشرطة ومخبر..

كان "حسام" يحمل في يده حقيبة.... بخطواته الواثقة المتأنية وبنظراته التي أطلقها لتحصد كل تفصيله في طريقه..

- صباح الخير يا جماعه.. معلش هنزعجكم شويه..
- لا أبداً يا بيه.. تحت أمرك بس يارب يكون تعبك بفايده..
- اطمني ياحاجة إن شاء الله خير.. بس كنت عاوز أسألك على شوية حاجات.. ممكن؟
- أيوة يا باشا اتفضل.. تحت أمرك..

- طيب أنا هنزل ثواني تحت اعملكم شاي على ماتخلصوا كلام...
- لا.. ملوش لزوم.. أنا كمان عاوزك..
- تحت أمرك يا يا باشا.. اتفضل

ألقى "حسام" بظهره على الكنبة.. المقر الدائم للاجتماعات.. اتجه بنظره نحوهما قبل أن يخرج علبة السجائر ويخرج سيجارة ويشعلها..

- قوليلي "يام رامي".. هو "حاتم" كلمك إمبارح الساعة كام تقريباً؟
- التليفون أهه حضرتك.. فيه المكالمة ومدتها والوقت كمان..
- الله.. جميل خالص.. طيب كده تمام..
- وانتي يا "إيمان".. آخر مره كلمك فيها كان إمتي؟
- حضرتك هو مكلمنيش من ساعة لما رجعنا من المشوار بتاع ال.....
- اه.. ماشي خلاص.. تمام.. طيب؛ طبعاً "حاتم" ميعرفش أي حد بيروح له ولا بيبات عند ولا بيتردد عليه؟
- يابيه من ساعة لما جه هنا لما بيته وقع، لا يعرف حد ولا بيروح لحد.. من شغله على هنا وبس.. ملوش غيري أنا و"سمير" والمحروسة خطيبته وبس..

فتح "حسام" الحقيبة الصغيرة وأخرج منها زوج من أجهزة الموبايل...

- طيب.. تمام.. شوفي "يام رامي".. الموبايل ده هتستخدميه بدل اللي معاكي.. وساعة لما "حاتم" يتصل تردي منه وتحاولي تطولي في المكالمة بأي شكل.. خلاص.. وأنا هتصرف بعدها.. ماشي..
- حاضر يابيه..

- وانتي يا "إيمان".. برضه نفس الوضع.. الجهاز ده معاكي.. لأنه ممكن يكلمك انتي المرة الجايه.. خلاص.. ونفس الكلام مطلوب منك..
- حاضر يا باشا.. تحت أمرك.. وأنا لو عرفت أي حاجة أو حصل حاجة هاتصل بسيادتك على طول..

لم يكن اهتمام "حسام" باعادة "حاتم" هو المحرك الرئيسي لكل هذا الاهتمام.. إنما كان يرمي بسنارته لأبعد من هذا بكثير.. فكلام "حاتم" عن جريمة السرقة واشتراك "الصياد".. يجعل من القضية صيداً سميناً يستحق أن يتحرك من أجله...

- كمان.. أنا عينت لكم حراسه.. المخبر ده هايفضل تحت البيت.. لو حصل أى حاجة هايكون معاكم.. هايبدل معاه مخبر تاني.. يعني هيكون معاكم على مدار الـ 24 ساعة.. في أى وقت يرجع "حاتم".. أو "سمير" أو حد غريب يجي هنا.. لأي سبب.. استعيوا بيهم وهم هايتصرفوا.. خلاص..
- حاضر يابيه.. إلى تشوفه..

اعتدل "حسام".. وعدل ملابسه، قبل أن يتقدم نحو باب الغرفة المفتوح.. فقد تركه "حاتم" مفتوحاً عندما نزل مسرعاً آخر مرة.. لم ينتبه ليغلقه..

الفصل الحادي والعشرون

تتوقف آلة الزمان المزعجة التي كنت أركبها خلف هذا "النونو" بجوار السور في نفس المكان السابق.. بخطوات مهزوزه تقدمت نحو الشركة وأنا أضع يدي على

الجهاز والقطعة الصغيرة التي أعطاني إياهم "الصياد" بالأمس.. الآن أحسست بشعور الزملاء رأفت الهجان وجمعه الشوان أثناء اختراقهما لأجهزة المخابرات الاسرائيلية..

وصلت إلى الشركة لم يكن أحد موجود غير ثلاثة رجال من الأمن.. اثنان سيغادران لانتهاء وردية الحراسة الليلية.. و"شكري" زميلي الذي سيكون رفيقاً لي في وردية النهار.. بالطبع كنت أعرف إن تغيير الوردية يكون في هذا التوقيت لكن قفز إلى رأسي سؤال فجأة.. لماذا اختار لي "الصياد" وردية النهار مع أنه من المنطقي أن تتم السرقة في أثناء الليل.. هل من بين الثنائي الحارس للشركة في فترة الليل من يدين بالولاء لهذا "الصياد"؟

ها هي الأمور تزداد تعقيداً.. ماذا لو كان هناك بديلاً عني في هذه الشركة.. ربما فرد أمن؟؟ أو ربما "فتحي" شخصياً؟ وربما عامل المكتب؟ ربما شخص آخر؟؟ الأكيد إن "الصياد" لم يكن ليعتمد عليَّ منفرداً في هذه العملية لكونها كبيرة كما ذكر سابقاً..

لم يكن أمامي متسع من الوقت، فما طلبه "الصياد" يجب أن ينفذ وبالحرف.. اعتذرت من زميلي بحجة أني سأقوم بجولة أتعرف فيها على تفاصيل المبنى.. بالطبع لم يمانع فهذا من صميم عملي..

دخلت إلى المكتب وأغلقت الباب خلفي.. تعجبت كثيراً عندما وجدت باب غرفة "ثابت" بدون مفتاح.. أهذا من الطبيعي.. أعتقد أنه من المفترض أن يكون مغلقاً ولا يفتح إلا عند قدوم "ثابت" بيه.. لم أتوقف كثيراً فهذا السؤال يجب أن يكون محل نقاش في وقت آخر..

بدون أن يشعر أي أحد دخلت المكتب وثبت الجهاز أسفل المكتب في تجويف لن يستطيع أحد أن يراه.. وخرجت بعد أن تأكدت أن أحداً لم يراني..

من المكتب إلى غرفة تبديل الملابس وحفظ المتعلقات الخاصة بالعاملين.. ذهبت وبدلت ملابسي ثم أخرجت جهاز الهاتف وأمسكته.. أدرته بين أصابعي متأملاً شكله.. راودني شعور بأن أجربه الآن وأعرف ماذا سيحدث.. لكن تذكرت كلمات "الصياد".. لم أشأ أن أبدأ بتحطيم قواعد الثقة من أول لحظة.. فالخبر الآن بفلوس بعد قليل سيكون مجاناً..

****

الساعة العاشرة..

يدخل "ثابت" من باب الشركة بعد أن أوقف سيارته الفارهة عند الباب مباشرة.. استقبله "شكرى" مسرعاً ليحمل عنه حقيبته.. إلا أنه بهدوئه المعتاد.. رفع يده موجهاً له الشكر.. ثم أشار إليَّ.. أن تعالي..

تقدمت إليه.. حملت الحقيبة وسط دهشتي من هذا التصرف.. لكني لم أتردد ولم أبد أي رد فعل.. بهدوء تقدمت حتى دخلنا المكتب ووضعت الحقيبة على مكتبه.. ثم استدرت لانصرف.. لكنه استوقفني: استني عاوزك..

تلقيت كلمته كصارخ أرض أرض اصطدم بقلبي مباشرة.. أحسست للحظة أنه على علم بما فعلت.. أووو.. لقد نسيت أمر كاميرات المراقبة المتراصة في كل مكان.. كيف لم أضعها في حسابي ولماذا لم يخبرني "سالم" بأمرها؟ أم أنه تجاهلها عامداً حتى يتركني أنسج حبل اعدامي بيدي.. أحسست أني أقف عارياً امام الرجل الذي وقف صامتاً يحدق في وجهي مباشرة.. لم أستطع ساعتها مواجهته فأسقطت رأسي للأسفل.. لابد أنه علم، كيف سأبرر.؟؟ لم يكن هناك أي سبيل ولا وسيله ولا مبرر يمكن أن أقدمه لأقنع هذا الرجل الثابت بحق.. ماذا لو مد يده تحت المكتب الآن وأخرج

الجهاز الذي وضعته.. أعتقد أني أستحق ساعتها الرمي بالرصاص في ميدان عام.. خيانة في أولي لحظات العمل.. خيانة عظمي مع سبق الإصرار..

– اؤمر يا ثابت باشا..

بصوته الهادئ الذي حمل بعض من الصرامة هذه المرة.. ومن خلال جهاز الاتصال الداخلي...

– "فتحي" لو سمحت.. متدخلش حد علينا دلوقتي..
– تحت أمرك يا فندم.. بس الضيوف على وصول سعادتك..
– ماشي.. عارف.. مش هاتأخر.. أول ما يوصلوا بس بلغني..
– أوامرك يا فندم..

التفت ثم تقدم نحو مقعده.. ألقى بجسده خلف المكتب.. ثم رفع رأسه في مواجهتي.. لم أكن قد رفعت وجهي من الأرض وقتها.. فثقل جبل كامل أحسست به فوق عنقي يجبرها بأن تظل منكسة إلى أسفل.. ثبت نظرة إلى وجهي مباشرة قبل أن يسأل..

– مالك يا "حاتم".. مش خير؟

لم يكن شعوراً بالخوف بقدر ماكان شعوراً بالضآلة والخزي..

– أبداً يا فندم مفيش أي حاجة..
– طيب.. شوف.. أنا عارف إنك شاب كويس ومكافح.. إنت قولت لي إنت ساكن فين يا "حاتم"؟
– أنا.. أنا ساكن في..... ساكن في صقر قريش.

- ياه.. وجاي من صقر قريش لهنا مواصلات؟
- لا.. مواصلات.. آه مواصلات.. لا دا في واحد صاحبي موصلني بالموتسيكل بتاعه..
- صاحبك.. طيب واخبار "الصياد" إيه.. بتشوفه؟؟
- "الصياد".. مين؟ أه تقصد المعلم "سالم".. آه لسه كنت معاه..
- طيب.. كويس.. أنا جاي لي ضيوف.. بعد ما يمشوا تجيني عاوزك.. ماشي
- حاضر يا فندم.. تحت أمرك..

بدأت أرض المبني تتسع تدريجاً تحت أقدامي.. اتسعت لتكشف عن فوهة بركان ثائر، أطلق حممه الملتهبه في أعماق قلبي وجسدي وعقلي.. كنت أحترق من داخلي.. لم يكن الأمر بالهين.. فهل كان يعرف ما فعلت وأراد أن يلفت انتباهي ويتركني في حيرتي؟ أم انه لم يعرف بعد؟؟ لكنه حتى لو لم يعلم الآن، سيعلم في وقت لاحق.. الأمر كله مرتبط بالوقت.. تباً لك أيها "الصياد" اللعين.. لقد جعلت مني مجرماً تافهاً غبياً..

انصرفت من أمامه وأنا أحدث نفسي بطوفان من الأسئلة.. كيف سيتلقي الأمر؟ وماذا عن كاميرات المراقبة.. لم يحدثني "فتحي" عنها؟ من يتحكم بها؟ وأين أجهزة المراقبة؟ راودتني نفسي أن أتجه إلى "فتحي" لأسئله.. لكن توقفت.. ساعتها سأكون مجرماً يحوم حول جريمته.. هل اسأل "شكري"؟ هل أصبر حتى أعرف ماذا يريد "ثابت"؟ هل انصرف وأترك العمل وأخبر "الصياد" بما حدث؟ للأسف كلها اختيارات تؤدي جميعها في اتجاه واحد.. النهاية..

بعد معاناة مع البركان والعواصف الضاربة لأركان جسدي وعقلي.. انتهيت لمكاني في مدخل الشركة.. كنت هائماً متجهماً.. لم أنتبه كثيراً لما أفاض به عليَّ "شكري" زميلي.. لم أسمع منه أي كلمة.. فقط كنت أتخيل سيناريو اللقاء الذي سيجمعني بثابت بعد قليل..

- إيه ياعم "محمد".. أنا بكلمك من ساعة وإنت ولا إنت هنا.. مالك؟
- مفيش يا "شكري" بس مصدع شويه..
- مصدع إيه ياعم إنت لحقت.. دا إنت مكملتش 3 ساعات على بعض.. مش هينفع كده إجمد شويه..
- معلش يا "شكري" بس أنا دماغي أوقات كده بتقلب لوحدها..
- طيب بص أنا هاطلب لك شوية شاي.. علشان تفوق كده وتصحصح..
- ياريت والله.. يبقي كتر ألف خيرك..
- على إيه ياعم.. دي حاجة بسيطة.. آه.. خد بالك بقي الضيوف اللي "ثابت" باشا مستنيهم وصلوا..

جالك الموت ياتارك الصلاة.. هكذا بلغت كلمات "شكري" إلى مسامعي.. كيف أتصرف الأن؟ هل أكمل ما بدأت وأرضي "سالم" وأغضب "ثابت".؟ أم أتوقف وأرضي "ثابت" وأغضب "سالم"؟؟ ام أطلق ساقاي للرياح وأهرب بما فعلت وأغضب الاثنان وألقي حتفي؟ كل الاختيارات صعبة.. لكني قررت أن أستمر..

فما أن دخل الرجال الأربعة المنتظرين حتى استغللت انشغال "شكري" باصطحابهم للمصعد، وأخرجت الجهاز من جيبي واتصلت بالرقم الذي أعطانيه "سالم".. ثم وضعته في جيبي مرة اخري..

ثواني قليله وعاد "شكري"...

- عارف يا "محمد".. لو الصفقة دي تمت.. "ثابت" باشا هيظبطنا..
- هيظبطنا ازاي يعني؟
- أقولك.. الناس دي جت هنا من حوالي شهر كد.. كنت أنا لسه جديد، زيك كده.. تانى يوم "ثابت" باشا صرف لكل الموظفين شهرين مكافأة..
- شهرين! ليه يعني؟
- آه والله زي ما بقولك.. أنا معرفش ليه، بس اللي سمعته انهم بيتعاملوا في بيزنس جامد.. ربنا يوسع عليه كمان والله "ثابت" باشا راجل ما شوفت زيه..

في ظل هذه النشوة والأحلام الوردية التي يسبح فيها "شكري" قررت أن أحصل على ما أريد: ألا صحيح يا "شكري".. مش المفروض الشركة تكون متأمنه أحسن من كده؟

- أحسن من كده إزاي يعني؟
- يعني أنا شايف الأمن قليل! يعني مش ماشي مع حجم المكان.. المفروض يكون فيه شركة أمن كبيرة وعدد أكبر من الأمن!
- يابني إحنا ديكور بس.. الشركة كلها شغاله بنظام مراقبه على أعلي مستوي.. إحنا بس للمنظره ولو حاجة حصلت على السريع كده..
- منظرة ازاي؟ ونظام عالي ازاي؟ حتى مش باين يعني!! مشوفتش حجرة مراقبة ولا شاشات بقي ولا الحركات دي!

يستقبل "شكري" سؤالي الأخير بضحكة ساخرة: إنت باين عليك بتتفرج على أفلام أجنبي كتير.. لا يا سيدي دي كلها متوصله بنظام أمني عالي والمراقبه عند "ثابت" باشا شخصياً..

- ثابت باشا شخصياً ازاي يعني؟ هو الراجل فاضي.. مش كان يعملها عادي يعني وخلاص!!
- بص أنا حاولت أعرف زيك كده بس محدش اداني عقاد نافع.. كل واحد بيخمن بدماغه.. بس اللي أنا متأكد منه إن المتحكم في السيستم كله "ثابت" باشا شخصياً.. ومبيعديش دبانه غير لما يعرف هي جت منين وراحت فين.. دي ملايين يابا.. هي لعبة..

لم أحصل على ما كنت أريده من "شكري".. لكني حصلت على جرعة إضافية من الخوف والشك.. فما يقوله "شكري" وما فعله "ثابت" منذ قليل ليس له إلا تفسير واحد وفقط.. أنني قد انكشف أمري من أول لحظة.. أحسست بجفاف حلقي.. أكاد أختنق من قلة الهواء المندفع إلى رئتاي.. قلبي تزداد دقاته بشكل غير طبيعي.. قطرات العرق تظهر على جبهتي كورقة شجر تغطيها قطرات الندى.. لم أستطع أن أخفي توتري الذي لاحظة "شكري"..

- إيه بس يابني مالك.. الشاي معملش حاجة.. إنت باين عليك تعبان.. بص استني الجماعة دول يمشوا.. واستأذن من "ثابت" باشا.. الراجل محترم وعمره ما هيرفض.. دا حتى ممكن يبعتك للدكتور كمان..
- لا.. لا.. أنا كويس بس شويه تعب خفيف كده وهايروح لحاله..

– براحتك.. خلينا في شغلنا بقي علشان محدش يقول دول مقضينها رغي في الفاضي..

مضي من الزمن ساعتان حتى ظهر هؤلاء الأربعة مرة أخري يتقدمهم "فتحي" الذي ودَّعهم ثم عاد إليَّ مباشرة.. كنت أنتظره كمحكوم عليه بالإعدام ينتظر نزول المقصلة على رقبته حتى تفصل رأسه عن جسده..

– "محمد".. تعالي "ثابت" باشا عاوزك..

أري الآن (أنتوني كوين) في مشهد إعدام– عمر المختار– رجل مسن. مثقل بالقيود الحديدية التي تحجم حركته وتثقلها.. يتفقد ببصره كل من حوله.. هذه الجموع التي احتشدت لتشهد نهاية هذا الرجل المناضل.. أري حبل المشنقة يتدلي داخل مكتب "ثابت".. أتقدم إليه بخطواتي مثقلة.. حلق جاف.. عرق يزداد غزارة.. قلب ينتفض.. بركان ثائر في جمجمتي يكاد يفتك بها.. رعشة انتابتني من أثر استغاثة كاذبة من مثانتي اللعينة.. كنت قد نسيت هذا الأمر.. فتُح أمامي باب الغرفة ثم أغلق دوني حتى من غير كلمة..

"ثابت" يجلس خلف مكتبه.. مشبكاً بين أصابع يديه الممتدتان على المكتب.. ينظر إليَّ ويتابع خطواتي.. كان مظهري وحده كفيلاً بأن يثبت أنني قد ارتكبت جريمة كبري.. لم أكن بحاجة للأسئلة أو الانكار أو الاعتراف.. فهيئتي وحدها كفيلة بإثبات أي جريمة تريدها.. حتى لو لم أكن أنا الفاعل..

تقدمت خطوات حتى وقفت أمام المكتب في مواجهة هذا الصامت.. قبل أن أنطق بأي حرف، رفعت بصري نحوه لأستقي أي معلومة من عينيه أو من تعبيرات وجهه.. لكنه باغتني بطعنة نافذة في الصدر مباشرة.. لم أستطع تفاديها.. ساعتها

أحسست بأن العالم كله أصبح ضيقاً كخرم أبرة ضيق يقبض على جسدي فيكتم أنفاسي.. كان ثابت جالساً في قمة هدوئه.. ثم رفع يده ممسكاً بالجهاز الذي كنت ألصقته بالمكتب.. وبدون أي كلمة.. أشار إلى جيبي..

بالطبع فهمت أنه يريد الجهاز الذي اتصلت به.. بدون أي تعقيب.. مددت يدي ببطيء شديد وأخرجت الجهاز ووضعته على المكتب.. مد يده والتقط الجهاز.. حركه بين أصابعه حتى تأكد أن الخط قد اغلق ولم يعد هناك أى اتصال.. وقتها تحدث بعد أن اشار لي بالجلوس..

صاعقة رعدية تضرب كياني فيهتز بشده مجبراً قدماي على الجلوس رغماً عني.. ألقيت بجسدي على المقعد المقابل للمكتب وبدون أن أتلقي اذن منه انقضضت على كوب الماء الموجود على المنضدة الصغيرة أمامي وألقيته بداخل جوفي الملتهب.. قطرات ماء أجبرت حلقي على الحركة وتمكنت بعدها من ابتلاع ريقي بعد مقاومة..

ظل "ثابت" يرقبني ولم يتكلم.. كأنه يشاهد فيلماً للمرة المائة.. لم يبدي أي اندهاش أو تعاطف أو غضب.. وكأنه يعلم ردة فعلي، بل وينتظرها.. كأنه اتحد مع الشيطان ليلعبا بي ككرة اسكواش صغيرة تتقاذفها المضارب وتضربها الحوائط.. كل منهما يريد أن يقذف بي في ملعب الآخر ليحقق أعلي المكاسب دون النظر إلى ما يحدث لي..

- هتفضل كده كتير يا حاتم؟
- أنا.. أنا.....

بلعت ريقي بصعوبة بالغة، قبل أن أنطق: أنا مش عارف أقول لحضرتك إيه..

بدت على وجهه ابتسامة صفراء يملأها الخبث غير ما كنت أتوقع منه تماماً....

- "سالم" باعتك هنا علشان تركب البتاعه دي وتسجل الكلام وتبعتهوله مش كده.؟
- يا باشا.. أنا.....
- إنت إيه يا حاتم! إنت متعملش كده من نفسك وأكيد "سالم" مهددك بحاجة كبيره.. مش كده؟

لم أجد داعي للمقاومة فخسارة قريبة خير من خسارة أكبر بعيده...

- حصل يا باشا.. خاطف صاحبي وأنا كمان قاعد عنده غصب ومهدد إنه هايقتله لو معملتش اللي هو عاوزه..
- وإيه بقي اللي هو عاوزه؟

أطلقت نفساً عميقاً حارقاً، وبدون أي تفكير أطلقت لساني: عاوز يسرق حضرتك....

ازدادت ابتسامته قليلاً قبل إن يتحول وجهه إلى "زكي رستم" في أعتي أدوار الشر....

- إنت فاهم وعارف إنت بتقول إيه؟
- أيوة يا باشا.. هو باعتني علشان أسجل وبعدين هايجيبني هو رجالته يسرقوا حضرتك..
- وبعدين؟
- معرفش ياباشا.. بس كل اللي أعرفه إنه عاوز يسرق سعادتك اليومين دول..

زادت ضحكته قبل أن يعلوا صوتها قليلاً.. ويستند بظهره على كرسي المكتب.. ثم يفتح درج مكتبه ليخرج مسدساً ويضعه أمامي مباشرة..

التقطت عيناي المسدس فازداد توتري وعاد جفاف حلقي.. ازدادت ضربات قلبي.. أشعر بمثانتي ستنفجر ربما ليس انذاراً كاذباً هذه المرة.. بركاني الثائر اللعين يكاد يفتك برأسي.. قطرات العرق تغزوا عيناي التي جاهدت أن أمسحهما بيدي المرتعدة لكني فشلت.. بصوت مرتعد سألته..

- إيه... إيه.. ده يا باشا؟
- دا ياا سيدي... مسدس!!
- أنا عارف حضرتك.. بس ليه المسدس ده ولمين؟
- دا اللي هاتقتل بيه "الصياد"....

****

فناء السجن.....

نفس المشهد يتكرر بنفس التفاصيل.. الأربعة الكبار يجلسون في اجتماع دائم لبحث مستجدات الأمور.. وخامسهم "شوقي" حبيس التلفاز والأخبار.. وسادسهم الصامت المنعزل عن العالم..

لم يتغير من الموقف كثيراً فنفس المشهد يتكرر يومياً باستثناء دخول أحد الطرفان المنفصلان في تفاصيل بسيطة لا يلبث أن يعود الوضع إلى ما كان عليه.. أربعة يتهامسون ورجل محبوس والأخير هائم في ملكوته الخاص..

بدأت خطة التصفية في جني ثمارها.. مدة قصيرة لكنها كانت كافية لبيان مدي نجاح الخطة من عدمه.. الرباعي كان جالساً لتفقد الوضع وإجراء الحسابات المنطقية واللامنطقية للمرحلة المقبلة..

أما "شوقي" فبعد أن وجه إليه "الطحان" تهديداً صريحاً وألزمه بتصفية جميع الأعمال، آثر بعدها الصمت تماماً وأخلد إلى التلفاز يستقي منه الأخبار ليحسب فرص بقائه على قيد الحياة وكذلك فرص زفافه إلى مرقده الأخير..

أما السادس فلم يأبه كثيراً للحسابات المادية ولا غيرها.. فيقينه بهزلية الأمور كان يسيطر عليه.. لم يكن يريد أن يخرج من فكرة الاستجمام وأنه هنا لمجرد تغيير الجو والراحة بعيداً عن زحام العمل ومشاكل الحياة..

شاكر: أنا شايف يا جماعة أن الأمور ماشيه تمام جداً لحد دلوقتي..

الفولي: عندك حق.. تعرفوا لو تمت الأمور بالمعدل ده.. مش بعيد خلال أسبوعين بالكتير تكون كل حاجة اتستفت وبقيت تمام..

نافع: بس ربنا يهدي الاتنين البؤساء دول ويرجعوا يقعدوا معانا ويشوفوا هنعمل إيه..

الكومي: هو بس لو كان "سعيد" يسمع الكلام ويجي بس يفكر معانا شويه بدل سكوته اللي هيجنني ده..

نافع: "سعيد" على فكره مش مطنش ولا حاجة.. دا جوز بنتي وأنا عارفه.. هو بس مش عاوز يشغل دماغه بكلام كتير.. تعرفوا.. دا زمانه الوقتي عارف إحنا بنتكلم في إيه من غير ما يكون معانا..

موافي: أيوة يا سيدي ومين يعني هايشهد للعروسه.. مش إنت حماه برضه..

نافع: لا والله يا جماعه.. شوفتوا آخر مره لما الواد "شوقي" حب يعمل الشويتين بتوعه.. بصه واحدة بس خلصت الموضوع..

شاكر: اه والله متفكرنيش.. دنا نفسي إترعبت.. أنا مش عارف "شوقي" استحمل ازاي.. أنا لو مكانه كنت عملتها على روحي..

موافي: بجد "سعيد" كان مزودها قوي.. أنا لو مكان "شوقي" كنت قلبت الترابيزة وقولت لكم أعلي ما في خيلكم اركبوه.. ولا حد هايطول أي حاجة عندي..

نافع: لا.. بيتهيألك.. دا "سعيد" بيمشي "شوقي" بالريموت.. عن بعد يعني.. واللي عمله ده شويه هبل.. بس "سعيد" لحقه قبل ما يصدق نفسه ويفتكر إنه ممكن يلعب بديله ولا حتى يرفض ينفذ الكلام..

تعالت الضحكات واستمرت المناوشات بين الرباعي الكبير.. حتى توقفت فجأة على صوت "شوقي" يصرخ من زنزانته وهو يقترب منهم مسرعاً (عليه العوض.. كله راح..) ندب وعويل وهروله جعلت الرباعي يهرعون لاستقباله، حتى الصامت المنعزل لم يصمد طويلاً واضطره نواح "شوقي" وعويله للقيام لينظر ما حدث..

شاكر: إيه يا "شوقي" مالك.. إنت اتجننت ولا إيه؟

بصوت متقطع يكسوه النجيب والعويل: كله راح يابشوات.. معدش حاجة خلاص.. كله راح.. عليه العوض..

موافي: إيه بس اللي راح اهدي بس وفهمني..

نظر "شوقي" إلى "سعيد" متشفياً وشامتاً وصارخاً: كله راح يا باشا.. مش كنت عاوز تموتني.. أديني قدامك أهه.. موتني بقي.. خلاص معدش حاجة يتبكي عليها..

رمقة "سعيد" بنظرة حادة قبل أن يبادره: ماتهدي واعقل كده وبطل شغل الندابه ده.. وقولي إيه اللي حصل؟

شوقي: اللي حصل كله راح.. الحكومة اتحفظت على كل حاجة.. خدت كل حاجة.. المصانع والشركات والمكاتب.. كله تحت الحراسة.. معدش فيه ولا مليم.. حتى حسابات البنك اتقفلت..

سعيد: إيه التخريف اللي إنت بتقوله ده.. إنت جبت الكلام ده منين؟

شوقي: من الأخبار ياباشا.. من النشرة.. دي صورتي منورة الدنيا كلها.. وطلعت رمز الفساد ومبوظ البلد.. دنا طلعت أخطر من ريا وسكينه وخط الصعيد وأنا مش عارف!

موافي: وهو حد بيصدق التليفزيون برضه يا جماعة؟

شاكر: عندك حق والله.. هو حد ياخد أخباره من التليفزيون.؟

شوقي: يا باشا والله كل القنوات بتقول نفس الكلام.. حتى الفيلا اتحطت تحت الحراسة.. والعربيات وكل حاجة.. كله راح..

سعيد: طيب اهدي بس شويه لحد ما نتأكد ونشوف الكلام ده إيه صحته..

الكومي: هنتأكد ازاي بس الوقتي.. إنت عارف إن احنا بعد العصر والراجل بتاعنا اللي بيجيب لنا الموبايل بيكون موجود الصبح بس..

سعيد: ما تشغلوش بالكم أنا هتصرف..

استمر "شوقي" في تقمص دور الندابة.. بينما الصدمة والقلق أخذا في التسلسل للمجموعة بالكامل بما فيهم "الطحان" الذي استطاع أن يخفي تعبيراته بحنكه وقدرة عالية، بينما الآخرون افتضح أمرهم بسهوله.. لم تمض نصف ساعة حتى دخل عليهم أحد الحراس..

– "شوقي الموجي" و"سعيد الطحان".. جناب المأمور عاوزكم..

تلاقت الأعين.. للمرة الأولي يستدعي فيها الرجلان مقترنان.. والسبب مجهول.. لم تكن الدعوي ذات أهمية كبيره "للطحان" ولكنها كانت بالنسبة "لشوقي" كل شيء.. فيكفيه أنه في مكان واحد وسوار واحد يجمعه مع سجانه السابق.. تساوت الرؤوس وانطفأت الأنوار عن وجوه الكبار وأصبح الجميع سواء في الظلام..

في حجرة مأمور السجن..

يدخل "سعيد" ويتبعه "شوقي" خلف الحارس إلى غرفة المأمور كان "شوقي" في حالة يرثي لها.. أما "سعيد" فقد كانت رباطة جأشه يتعجب لها الرجال.. فلم تكن تبدوا على أي انفعالات تذكر.. يستقبلهما المأمور ليقدم لهم ضيفاً كان يجلس معه في غرفته.

– أهلا يا "سعيد".. أهلا يا "شوقي".. اتفضلوا.. "جمال" بيه كان عاوزكم في موضوع.. أنا هاسيبكم ربع ساعة كده وأرجع لكم تاني..

انصرف المأمور بعد أن تلقي تحيته من هذا الشخص المدعو "جمال" والذي لم يكن معروفاً بالنسبة لكلاً من "سعيد" و"شوقي".. بالطبع كان رجلاً ذا شأن.. فأسلوب الحوار مع مأمور السجن يوحي بأنه رجل ذو مكانه..

- أعرفكم بنفسي أولاً.. أنا "جمال البسيوني".. جاي لكم في موضوع مهم جداً..

رمقه "سعيد" بنظرة فاحصة تخصص فيها رجال المباحث المخضرمين..

- أهلا بيك يا "جمال" بيه.. حضرتك جاي لنا ليه خير؟
- أنا جاي لكم تحديداً بخصوص القرار اللي صدر النهارده من النائب العام..

بنبرة تحمل هستيرية وانفعال صرخ "شوقي": مش قولتلك يا باشا.. يبقي الكلام صح.. أنا قولت لكم الخراب حلّ على الكل وأنا أولكم....

قاطعه "سعيد" بنبرة آمرة: ممكن تسكت شويه لحد ما نفهم إيه الحكاية..

جلس الثلاثي كل على مقعده قبل أن يخرج هذا الأخير علبة السجائر ويعطي واحدة "لشوقي" بينما أشعل الثانية بعدما رفضها "سعيد".. نفث دخانه في الهواء قبل أن يستطرد...

- الحكاية ببساطه النائب العام اتحفظ على كل أموال وشركات "شوقي" بيه.. طبعاً دا إجراء احترازي بيتم بناء على الأحكام اللي صدرت الفترة اللي فاتت..
- طيب وإيه الجديد.. واحنا هنعمل إيه.. احنا محبوسين ولا في ادينا حاجة.. والكلام ده "لشوقي".. أنا دخلي إيه؟
- "سعيد" باشا.. أنا جاي لكم هنا بصفة وديه.. مش رسمي قوي زي مانت واخد بالك..
- مش فاهم ممكن توضح؟

- أفهّم سيادتك.. الأسبوع اللي فات بدأت مجموعات الشركات اللي يملكها "شوقي" بيه في التصفية السرية وبالطبع سرية في مصر يعني نص البلد بس بياخد خبر.. احنا بقى من النص اللي خد خبر بالموضوع..
- أيوة بقي.. انتوا مين؟ وحضرتك تبع مين؟
- يا "سعيد" باشا كل شيء بأوان.. أنا بس هابلغ سيادك عرض وهمشي وانت تشوف مع "شوقي" بيه.. وتبلغوني بالرد؟
- مانا لازم أعرف إنت مين وجاي من طرف مين؟
- هاقول لسيادتك كل حاجة بس كل حاجة في وقتها.. الأول أنا جايب لكم عرض.. أكيد مش هاترفضوه..
- خير اتفضل.. ممكن نسمع...
- العرض هو إن مجموعة مستثمرين ها تشتري كل الشركات والمصانع اللي انتم بتصفوها.. والدفع كاش بس المبلغ هايكون يعني..... إحنا اللي هنحدده..

لم يجرؤ "شوقي" على الحديث على الرغم من التحفز الشديد الواضح عليه.. فقد ألجمه أمر "سعيد" بعدم الكلام.. أما الآن فقد زاغت عيناه وبدأ جسده ينفعل لكن لسانه مازال محبوساً داخل فمه مرغماً .

- طيب أسمع العرض كامل..
- العرض 400 مليون جنيه والتحويلات خلال يومين لأي حساب سواء هنا أو بره.. زي ماتحبوا..

لم يستطع "شوقي" الصمت أكثر من هذا.. فانفجر كبركان ثائر: نعم.. ربعمية إيه.. إنت اتجننت إنت ولا إنت جاي تهزر..

رمقه "سعيد" بنظرته المميتة مرة أخري.. ليعود إلى مكانه متحسرًا صامتًا كقط مستأنس منزوع المخالب: إنت عارف الرقم ده يعني إيه؟

- طبعاً يا باشا.. كل حاجة بقيتمها.. إنت عارف التجارة عرض وطلب..
- طيب جميل.. والعرض ده مش عارف إن الأصول كلها متحفظ عليها.. يعني مش هاتقدر تستلمها..
- يا باشا كل ده مقدور عليه.. عقود بيع بتاريخ قديم قبل تاريخ القرار بتاع النائب العام.. يبقي كل حاجة بتاعتنا وأنتم فلوسكم معاكم.. ولا تصفوا ولا حاجة.. إيه رأيكم..

بعيون زائغه وكلمات محبوسه يستجدي "شوقي" أن يترك له "سعيد" الفرصة للحديث.. إلا أن يد "سعيد" كانت أسرع.. رفعها في وجهه حتى ينتظر نهاية الحديث..

- جميل خالص.. يعني انتم عارفين القرار وواخدين قراركم على أساسه وعاملين حسابكم على الخطوات.. بس مبلغ الـ 400 مليون بالنسبة للأصول المعروضة.. تهريج وانت عارف..
- ياباشا إنت بتبيع ميت.. واحنا بنشتري جثة.. يعني لا إنت هاتعرف تبيع لغيرنا.. ولا غيرنا هايقدر يشتري منك.. يعني الـ 400 مليون دول من الهوا كده.. بتحيي ميت يعني..
- طيب جميل.. ادينا فرصه نعرض الموضوع والرد خلال يومين بالكتير..
- جميل جدا.. أنا سعيد بتفهمك يا باشا.. واتمني إن تكون فاتحة خير.. وربنا يهون عليكم..

- برضه مش هاتقولي إنت مين باعتك.. أو مين هم المستثمرين دول؟
- يا باشا دي كلها شكليات.. يعني إنت سيد العارفين.. البيزنس مش بيهتم بالاسم على قد ما بيهتم بالتنفيذ..
- عموما ياخبر النهارده بفلوس.. بكره يبقي ببلاش..
- على رأيك.. أنا هاستأذن وهاجي المرة الجايه وعاوز أسمع الرد بالموافقه.. علشان نخلص اجراءاتنا قوام قبل ما حد يشم خبر.. انتوا عارفين الحاجات دي بتتنظر...

خرج الرجل من الغرفة تتبعه عيون "سعيد" و"شوقي".. خرج وأغلق خلفه الباب ليدخل المأمور ويطلب الحارس الذي رافقهما في طريق عودتهما إلى حيث يجلس باقي أعضاء الفريق على طاولة الاجتماعات على أحر من الجمر..

وصل الثنائي إلى حيث مقر الاجتماع فالتقطهما الرباعي المنتظر كذئب التقط فريسة أنهكته قبل إن يظفر بها بعد عناء طويل..

نافع: خير.. المأمور كان عاوزكم في إيه.. واشمعنى انتو يعني؟

شوقي: يا جماعه اللي بيحصل دا كتير وأنا بقي معدتش قادر أستحمل أكتر من كده.. دا واحد مجنون جاي يشتري كل حاجة بربعمية مليون.. والباشا منعني إني أنطق ولو كان سابني عليه كنت طبقت في زمارة رقابته طلعتها في ايدي..

سعيد: للمرة الاخيرة.. أنا مش هاسمح لك إنك تعلي صوتك أو تهبل في الكلام تاني.. لو اتكلمت من غير ما ناخد رأيك إعتبر إنك مش موجود معانا.. وملكش دية.. وانت عارف وأنا عارف.. ماشي..

كلمات "سعيد" انطلقت كرصاصة أصابت لسان "شوقي" مباشرة.. فوضع يديه الاثنين على فمه مشيراً أنه لن يتفوه بأي كلمه مطلقاً..

شاكر: بس "شوقي" عنده حق برضه، 400 مليون إيه.. إنت عارف الشركات دي ولا 10 مليار جنيه.. وانت سيد العارفين..

سعيد: وحد قالك إني موافق.. بس قبل ما نرفض حد فيكم عنده اقتراح تاني.. مع الاعتبار إن كل حاجة تحت الحراسة.. يعني ممكن "شوقي" ياخد حكم نهائي وكل حاجة تطير في الهوا ومحدش يطول مليم..

شاكر: وممكن ياخد براءة ويبقي وسطنا اتقسم واتخرب بيتنا خراب مستعجل..

موافي: إنت شكلك متشجع للبيع.. مع إنك طول الوقت عمال تقول دي تمثيليه.. إحنا في أجازة.. يومين وهنخرج.. اشمعني الوقتي؟

الكومي: آه صحيح.. إنت متأكد إن كل القضايا فشوش.. يعني كده بنرمي الفلوس ويمكن نطلع و"شوقي" يطلع يبقي كده فعلا اتقسم وسطنا بجد..

سعيد: يا جماعه احنا نرفع العرض لـ 600 مليون.. وكل واحد من المجموعة يكون نصيبه 100 مليون جنيه.. وأعتقد عصفور في اليد أحسن من ألف على الشجرة. دا رأيي...

الفولي: مش عوايدك تسلم بالساهل كده يا "سعيد".. إنت اللي بتقول نبيع وعصفور في اليد.. أنا مش مصدق بصراحة!!

سعيد: كل وقت وله أذان.. ولم تعرف إن كل حاجة هتتاخد وتطلع بـ 100 مليون يبقي 100 مليون أحسن من مفيش.. ولو طلعنا براءة أو حصل في الأمور أمور.. يبقي نصيب كل واحد مش قليل.. دا غير اللي الجزء اللي تم تصفيته بالفعل.. يعني مش خسرانه قوي..

لم يتمالك "شوقي" الصمت أكثر من هذا فانطلق كثور هائج: لا يا باشا.. أنا مش بايع بالمبلغ ده.. يا جماعه دا كده حرام.. دا المبلغ المعروض مش مكمل عشر التمن ولا حتى بعد الزيادة..

سعيد: أنا مش عارف إنت ليه غبي كده.. إنت مش طايل منهم ولا مليم.. دا اول حكم 70 مليون غرامه.. يعني ممكن تطلع مديون.. وبعدين إنت هتنفذ الكلام اللي احنا نتفق عليه.. ونصيبك تاخده وإنت حر فيه.. طالما مش عاجبك ابقي اتبرع بيه واعتبره مجاش.. مش كده كده الفلوس رايحه.. يبقي إيه اللي مزعلك؟

شوقي: خلاص ياباشا.. اللي تشوفوه...

استسلم شوقي لضغط المجموعة وأعلن خضوعه لكل ما يملونه عليه.. فهو الأضعف الآن بالرغم من أنه يمتلك كل شيء.. لكنه يعلم يقينا أنه لا يساوي عند "الطحان" أكثر من ثمن رصاصة واحدة أو أقل من ذلك.. كان يشتري رضاهم لأخر لحظة في حياته..

الفصل الثاني والعشرون

تيبثت أطرافي عندما رأيت المسدس أمامي مباشرة.. اخترقت كلمات "ثابت" صدري وعقلي مباشرة فاتسعت عيناي لا إرادياً لعلي أستطيع أن أتأكد أنني مازلت حياً ولا أحلم..

– أنا أقتل يا باشا.. أنا عمري ما مسكت سلاح أبداً ولا أعرف أقتل..

بضحكته الصفراء التي لم تفارقه...

– إزاي بقي.. إنت مش كنت في السجن في جريمة قتل؟

رعشة أخري تمتلكني..

– يا باشا والله دي متلفقه وأنا مظلوم.. وأنا عمري ما أذيت حد.. والله ياباشا دي الحقيقية..

يقف" ثابت"، ثم يدور حول مكتبه ويجلس في مواجهتي على الكرسي المقابل..

– مظلوم ولا مش مظلوم إنت دلوقتي مضطر إنك تقتل.. مش اختيار..

التقطت كوب الماء ورفعته على فمي.. كان فارغاً لكني كنت أستجدي أي قطرة ماء أشق بها جفاف حلقي الذي بدا وكأن أكوام من التراب قد دست فيه دفعة واحدة..

– ياباشا.. أنا هحكي لحضرتك على كل حاجة بالتفصيل.. ولو كنت غلطان أنا خدامك إعمل فيَّ اللي إنت عاوزه بس بلاش موضوع القتل ده..

ألقي ثابت بظهره إلى الكرسي قبل أن يمد يده ويمسك بالمسدس ويحركه في وجهي..

– أنا مش عاوز أسمع حكايات.. إنت هتنفذ وبس..
– يا باشا أنا تحت أمرك.. اللي إنت عاوزه هاعمله..
– جميل خالص.. إنت هتنزل دلوقتي تاخد مكانك تحت.. لحد ما تروح آخر اليوم وتتكلم عادي خالص ولا كأن حاجة حصلت نهائي.. ولم توصل تسلم له الجهاز بتاعه..
– يعني إيه ياباشا.. يعني هكمل زي ما "سالم" عاوز؟
– أيوة.. عليك نور.. هتنفذ اللي هو قالك عليه بالحرف الواحد.. وأنا بقي هاتصرف بمعرفتي..
– يعني امشي سعادتك.. ومفيش قتل ولا مسدس؟
– لا.. متستعجلش.. اصبر وكل حاجة هاتعرفها في وقتها..

لم أكن أعلم أن وجوها صامته تحمل قلوب ذئاب لا ترحم.. لم أكن أتصور يوماً ان هذا المنزوي الصامت يحمل هذا الخبث والدهاء والخسة.. أهذا هو عاملنا.. أأصبح القوي يستمتع باللعب بقلوب الضعفاء.. أهذا هو عدل السماء..

جررت أقدامي المتعلقة بجسدي المنهك.. ملابسي قد ابتلت كمن سقط في حوض ماء من كثرة العرق.. يداي ترتعدان بشدة.. رأسي تكاد تنفجر.. أشلاء إنسان تتحرك في الطرقات قبل أن تستقر على أحد المقاعد في مقدمة المبني بجوار "شكري"..

– إيه يابني إنت حد دلق عليك ميه ولا إيه.. إنت شكلك ميت!

سعال متواصل حتى أجبر حنجرتي على العمل..

– شوية مية يا "شكري" الله يسترك..

انطلق "شكري" مسرعاً ليعود بزجاجة مياه كبيرة.. أفرغتها كاملة في جوفي الخاوي.. قبل أن أطلب زجاجة أخري..

– إيه بس يابني.. مش قولت لك استأذن وروح لدكتور يشوفك..

زفير عميق بنفس ملتهب..

– لا ياشكري أنا هابقي كويس.. بس ينوبك ثواب قولي الساعة كام دلوقتي..

نظر "شكري" في ساعته..

– الساعة دلوقتي 2 بعد الظهر.. ليه مستني حد..

قبل أن يتم شكري سؤاله كان صوت القطار البخاري يتوقف في محطته معلناً وصول النونو.

انتفض جسدي كمن تم شحنه بألف فولت دفعة واحدة.. وانطلقت مسرعاً نحوه لأكمل تعليمات الخطة..

- الله.. مالك ياسي الاستاذ.. إنت حد دلق عليك مية غسيل ولا إيه؟

لم يكن عندي أي استعداد للدخول معه في نقاش أو استكمال سخافاته..

- يلا من هنا.. اخلص وشوف حالك..
- طيب ياسي الاستاذ متزوقش طاه.. خد الشنطة دي باعتها لك المعلم سالم بيقولك تخبيها في الدولاب بتاعك ومحدش ياخد خبر بيها.. فاهم ولا نقول تاني
- فاهم.. غور من هنا يلا..

استقبل انفعالي بابتسامة ساخرة قبل أن يطلق العنان لقاطرته لتغادر المكان مخلفاً وراءه سحابة من الدخان الأسود..

حملت الحقيبة وبدون أن ألتفت لنداء "شكري".. توجهت مباشرة نحو مكتب "ثابت" بيه.. لأخبره بالتطور الجديد.. بالطبع "فتحي" قد تلقي تعليمات بدخولي فوراً في أى وقت..

دخلت الغرفة وأغلقت الباب.. ثم توجهت نحو "ثابت" بيه الذي كان جالساً خلف مكتبه يشاهد نشرة الأخبار.. كان مهتماً لأحد الأخبار لدرجة أنه أشار لي بالجلوس دون أي كلمة حتى ينتهي عرض الخبر..

ألقيت بجسدي على المقعد وأنا أختلس النظر إلى الشاشة العملاقة المواجهة للمكتب.. كان الخبر يتحدث عن المحاكمات لرجال أعمال.. أسماء كثيرة تم ذكرها ما بين متهرب ومحكوم عليه وهارب خارج البلاد ومن تم التحفظ على أموالهم والشركات الخاصة.. لم أنتبه للخبر قدر انتباهي لشدة متابعة "ثابت" بيه.. والورقة التي وضعها أمامه يخط فيها بقلمه بعض الكلمات التي لم أستطع تبينها..

لم أتكلم ولم أحدث أي ردت فعل حتى لا أخرجه من تركيزه.. حتى ظهر رجل على الشاشة.. رجل أعرفه جيداً.. رجل ترك أثراً محفوراً في جسدي وآخر في ذاكرتي..

ما أن رأيته حتى انتفضت مسرعاً إلى الشاشة أقطع المسافة بينها وبين "ثابت" بيه، حتى أن الأخير قد امتعض لهذه الفعلة الحمقاء.. وزجرني بعنف:

- إيه يا هباب إنت.. إنت بتعمل إيه؟

بصوت مرتعد ونبره هستيرية..

- ياباشا.. أنا اعرف الراجل ده.. يا باشا أنا أعرفه كويس..
- تعرفه منين يامجنون.. دا من أكبر رجال الأعمال في البلد.. وعضو مجلس شعب..
- دا "الوزير" ياباشا.. أنا عمري ما أتوه عنه أبداً..
- "وزير" مين إنت مخك حصل له حاجة.. دا "شوقي الموجي".. أقعد هنا لم أخلص..

رفعت قميصي موجهاً أثر الجرح القديم إلى وجه "ثابت" مباشرة..

- باقولك "الوزير" يا باشا.. أهه.. شوف.. هو دا الوزير.. أنا ماتوهش عنه أبداً ولا بين مليون واحد...ورحمة أبويا ما بكذب..

أمسك "ثابت" معصمي بقوة وجذبني...

- إنت متأكد من الكلام اللي إنت بتقوله.. ولا بتخرف؟
- باخرف إيه بس ياباشا.. بقولك دا "الوزير".. أهه ياباشا الخبطه دي من مطوة "شيحة".. "شيحة" ياباشا اللي كان معانا في اللومان.. "شيحة" يا باشا دا كان الدراع اليمين "للوزير".. يا باشا هو والله..

جذبني "ثابت" ثم دفعني نحو المقعد.. وبنبرة آمرة...

- إنت هتحكيلي كل حاجة بالتفصيل.. كل حاجة فاهم..

أسرع نحو ثلاجة مكتبه وأخرج منها زجاجة مياه كبيرة وعلبتان من العصير..

- اشرب الأول واحكيلي.. كل حاجة.

قبل أن يكمل كلمته كنت قد أفرغت كامل زجاجة المياه في جوفي.. أتبعتها بعلبتي المشروب.. قبل أن أطلق نفساً عميقاً كمن وصل لتوه من مارثون اختراق الضاحية..

وبدأت في سرد قصتي بداية من حادثة "الوزير" وانتهاء بالموقف السيء الذي أنا فيه الآن.. لم أدري كم من الوقت قد مر.. كل ما أعلمه أن "ثابت" نسي أمر الحقيبة والمسدس والصياد والجهاز وكل شيء وتعلق فقط بحكايتي مع "الوزير" وتفاصيلها التي أجبرته على أن يصغي إلى تماماً دون أن يعلق أو يعقب أو يناقش..

- إنت عارف كلامك ده معناه إيه؟
- يا باشا والله اللي أعرفه هو اللي قولته غير كده ولا أعرف أى حاجة..

- قولي.. إنت بتروح فين بعد ما تطلع من الشغل؟
- ما أنا قوت لسيادتك.. واحد بياخدني بالموتسيكل..
- اه.. طيب.. المفروض إنك هتاخد الجهاز ده وتروح بيه "للصياد"..
- تمام سيادتك..
- شوف بقي.. إنت هتعمل اللي هقولك عليه بالحرف الواحد.. فاهم. أى غلطه كده ولا كده.. إنت حر.. فاهم..
- يا باشا أنا من إيدك دي لإيدك دي.. بس بلاش موضوع القتل ده.. والنبي ياباشا..
- الساعة دلوقتي تلاتة ونص.. إنت هتنزل مكانك.. وأنا هتصرف..
- طيب والشنطة دي سعادتك؟
- شنطة إيه دي كمان؟
- معرفش والله يا باشا.. بس لسه "النونو" جايبها وقالي أخبيها في الدولاب بتاعي ومحدش ياخد بيها خبر..
- طيب خلاص سيبها هنا.. والصبح هتيجي هتلاقيها في الدولاب بتاعك زي ما "الصياد" طلب منك بالضبط..
- اللي تشوفه سعادتك..
- بس الأول تنزل تغير هدومك دي... فاهم..

أحسست للحظة أنني قد أسْقِطت في وادي الذئاب.. ما نجوت من أنياب أحدهم حتى تخطفتني مخالب الآخر.. إلى متي سأظل في هذا العذاب.. ألم يحن الوقت أن أستريح..

في بيت الصياد..

استقبلني "الصياد" استقبال الأبطال الفاتحين عندما رآني أدخل عليه وفي يدي الجهاز.. كانت ضحكته تسبقه.. دخلت الفناء وسلمته الجهاز.. درت ببصري أتفقد المكان لعلي أجد "سمير" في أي مكان.. لكن الصياد لحق بي..

- إنت بتدور على صاحبك؟
- أيوة يا معلم.. أنا مش شايفه يعني.. هو فين؟
- لا متقلقش هو بس بيريح شويه جوه.. أصله تقل في الشرب حبتين..

كتمت غضبي وتصنعت اللامبالاة وبادرته بسؤال: طيب أنا كده تمام يا معلمي.. أظن كل حاجة تمت زي مانت عاوز بالضبط..

ارتسمت على وجهه ضحكه صفراء.. أستطيع أن أشم رائحة السخرية واضحة: لا تمام..و عفارم عليك.. بس ألا صحيح.. عملت إيه في الشنطة وكنت في مكتب "ثابت" كل ده بتعمل إيه؟؟

بصوت بارد دون انفعال أو توتر...: عملت زي ما قولت وخبيت الشنطة ومحدش خد خبر بيها وبالنسبة "لثابت" بيه.. الراجل بعت لي كان عاوز يعرف حكايتي وليه دخلت السجن..

أحسست به يحاول قراءة وجهي.. فقررت أن أقطع عليه الطريق: خلاص كده ولا لسه مطلوب مني إيه تاني.؟

- لا يا استاذ.. إنت كده فل الفل.. هتدخل تتعشي وتغير هدمك علشان في حاجة مهمه هنعملها.. وبكره قبل ما تروح الشغل هاقولك هتعمل إيه..

- طيب لو ممكن خدمه يعني يا معلم..
- خير.. هتقولي عاوز تكلم الجماعة.. مش كده.. ياواد خلي قلبك جامد.. بلاش الدلقة اللي إنت فيها دي.. إيه الرجاله المايله دي ياجدعان.. وربنا إنت بتفكرني بالتلاميذ..
- معلش يا معلم.. إنت عارف الظروف.. هم بس دقيقتين وخلاص.. هكلم خطيبتي أطمنها..
- ماشي ياسي الأستاذ.. وماله.. اتفضل اتكلم.. بس مطولش علشان متخلصش الرصيد..

تعالت ضحكته الساخرة واستجاب معه رجاله في توزيع كميات لا بأس بها من السخافة بين ضحكاتهم المستفزة..

فتحت هاتفي المغلق منذ آخر مكالمة.. اتصلت "بإيمان".. بينما كانت عيون "الصياد" تراقب كل حركة أقوم بها.. كان يحاول أن يقرأ ما يدور بداخلي.. لكنه فشل.. فقد أتقنت التعامل معك أيها الثعلب الغبي..

بصوت تملأه اللهفة ردت "إيمان".. تحدثنا لمدة قصيرة لم تتعد الأربعة دقائق بالتحديد.. أنهيت بعدها المكالمة بعد إلحاح الصياد بأني قد تجاوزت المدة المحددة.. كنت أشعر بشيء ما في صوت "إيمان".. لا أعلم ما يدور عندها.. لكني أحسست أنها لم تكن على طبيعتها بشكل كامل.. لم أتوقف كثيراً عند هذه النقطة.. فما مررت به اليوم يكفي لأن أنام أسبوعاً كاملا..

تناولت عشائي وبالطبع حبتي المقدسة.. دخلت الحمام.. كنت قد ملأت البانيو بالماء الساخن.. مددت جسدي وأطلقت العنان للماء يخدر كل خلايا جسدي بالتعاون مع القرص السحري..

وقع أقدام متباطئة أسمعها من خلفي تقترب.. خطوات ثم توقف الصوت.. استدرت برأسي حتى أتبين مصدر الصوت وصاحب الخطوات.. لكن.. انطفأ النور وعم الظلام.. حاولت أن أصرخ بكل ما أوتيت من قوة لكن لا أحد يجيب.. أحس بالخطوات تتقدم نحوي مرة أخري.. أشعر بأنفاس تقترب من وجهي.. التفت.. أحرك ذراعاي في كل اتجاه أحاول أن أعثر على شيء..

ومضات المصباح النيون قبل أن يضيء كادت تصيبني بالعمي.. قبل أن يعود الضوء... كانت جالسة أمامي على مقعد خشبي صغير.. كانت تنظر إلى وتحرك رأسها يميناً ويساراً.. نظرات تعَّجُب من هيأتي التي أصبحت مذريه.. تذكرت فجأة أنني أقف عارياَ.. جذبت ستارة البانيو لكي أستر بها جسدي.. ابتسامة خافته ترتسم على وجهها.. لففت جسدي بستارة البانيو قبل أن أتحرك نحوها..

قطع طريقي الظلام الذي عاد مرة أخري.. دقائق.. أكثر.. أقل.. لا أعلم.. صوت بكاء خافت.. أستطيع تمييز صوتها.. بدأت أنفاسي في التسارع.. نبضات قلبي يرتفع صوتها وتعلوا وتيرتها.. رعشه تنتاب يدي.. اتشبث بالستارة التي على جسدي بكل قوتي..

تعود الومضات الحارقة للعين مرة أخري.. أرفع يدي اليسرى لأتفادى اصطدامها بعيناي مباشرة.. أراها جالسة في مكانها.. تخفى وجهها بين كفيها.. تكتم دموعها لكن

صوتها نحيبها يفضحها.. اقتربت منها أكثر.. حاولت أن أكلمها لكن صوتي لم يخرج حلقي.. فقط صوت فحيح مكتوم يستنزف أحبالي الصوتية..

مددت يدي لألمسها.. لكنها وقفت.. ابتعدت.. مدت يدها لتفتح باباً لم أكن أراه من قبل.. باب يطل على فناء تغطي الرمال أرضيته.. كأنه قطعة من صحراء.. ظل جبل شاهق.. وشواهد قبور مبعثرة في كل مكان.. أحسست بلسعة برد قارص.. هواء بارد يخترق جسدي.. حاولت أن أناديها لكن صوتي لم يخرج مرة أخري..

استدارت بجسدها نحو الجبل.. تقدمت بخطوات متباطئة نحو أحد القبور.. جلست بجواره.. اقتربت منها.. جلست بجوارها.. حاولت أن أفهم ما تريده.. كانت تعبث في الرمال حول شاهد القبر.. استعطت أن أقرأ ما كتب على هذا القبر..

"ولاء مبروك إبراهيم.. 2000/6/12 نسألكم الفاتحة"

صوت بكاءها يرتفع.. حركة يدها في الرمال تزداد. بدأت تنبش القبر حتى فتحته.. مدت يدها.. أخرجت لفافة من القماش، لفافة تغطيها الأتربة.. رفعتها من القبر باتجاه وجهي.. لم أفهم ماذا تريد.. لكني مددت يدي وأمسكت باللفافة.. هممت بفتحها لكنها أشارت إلى ألا أفعل..

وقفت.. ثم استدارت ناحية الجبل.. وبدأت في السير مرة أخري.. تتبعتها بنظري.. حاولت أعرف وجهتها.. إلى أين ستذهب.. لكنها تبددت في الفراغ كسراب ظهر فجأة واختفي فجأة.. أخذت أقلب في هذه اللفافة.. حاولت فتحها لكني تذكرت أنها منعتني.. قمت والتفت نحو الباب الذي دخلت منه.. لكن هذا الضوء اللعين يباغتني للمرة الثالثة..

يسود الظلام مرة أخري.. تشبثت باللفافة وبستارة الحمام.. كاد قلبي أن يسقط على الأرض.. أنفاسي اللاهثة المتلاحقة عرق ساخن غزير يغزوا جسدي كله.. تقدمت في الظلام لعلي أستطيع أن أجد أي شيء ألمسه.. لكني تعثرت.. اصطدمت قدمي بشيء ما على الأرض.. ربما صخرة أو أحد شواهد القبور المتناثرة.. أحسست بشيء ساخن يحيط جسدي من كل اتجاه.. صوت ضحكات رجل أسمعها بوضوح.. وفحيح أفعي أسمعه يقترب مني.. شعرت بها عند قدمي.. لم أتحرك.. فقد فقدت القدرة على كل شيء.. أصرخ بكل ما أوتيت من قوة لكن صوتي لم يخرج من حلقي.. كان صوتي يشبه فحيح تلك الأفعي المتحركة بجوار قدمي على الأرض.. يعود الضوء فيومض مرة أخري يكاد أن يقتلع عيناي.. صوت طرقات شديدة انتفض لها جسدي..

– ياسي الأستاذ.. إنت مت ولا إيه.. خلّص المعلم عاوزك...

بالكاد استطعت أن أجبر جفوني لتفتح أبوابها.. مع استمرار الطرقات وأصوات النداء المتتالية. رفعت يدي لأجد ستارة البانيو كما هي.. كنت مازلت ممداً في ماء البانيو.. تلفت حولي لم أجد الباب.. لم أجد "ولاء".. لا قبور ولا شواهد ولا صحراء.. قمت من الماء مذعوراً أبحث عن اللفافة التي كانت في يدي.. لم أجدها.. سحبت الفوطة وبدأت أجفف جسدي..

– طيب طيب.. حاضر.. دقايق وجاي..

كان لابد من أيقاف هذا المنادي المأجور الذي لم يتوقف عن الطرق والصراخ على باب الحمام.. إرتديت ملابسي وأنا أفكر في كل ما رأيت.. كان حلماً لكني

أجزم بأني عشته وكأنه حقيقة.. بالتأكيد هذا من تأثير التعب والشد العصبي الذي تعرضت له..

خرجت من غرفتي لأجد "الصياد" جالساً وسط رجاله يمسك بالشيشة وسط ضحكات الجميع..

- إيه ياسي الأستاذ.. حمام العافية يا سيدي.. أنا قولت إن السر الإلهي طلع وهتخلي بينا..
- لا أبداً يا معلم بس كنت تعبان وباين نمت في الحمام..

تعالت ضحكات الجميع..

- نمت في الحمام.. مش خايف لا حاجة تلبسك.. بسم الله، اللهم احفظنا..
- هتلبس في إيه بس يا معلم.. منا ملبوس جاهز..

أشار بيده مع نفس عميق من الجوزة وسحابه بيضاء تغطي المكان...

- طيب تعالي هنا جنبي.. عاوزك في موضوع مهم..

تقدمت نحوه حتى جلست بجواره..

- خير يا معلم.. اؤمرني..
- خير ياحبيب.. عاوزك تقوم تلبس هدومك علشان هنعزل من هنا..
- هنعزل إزاي يعني يا معلم.. مش فاهم!!
- هو إنت لسه مفهمتش نظامنا يا واد.. إسمع الكلام وإنت ساكت.. المعلم بيقولك هنعزل يبقي تدخل تلبس هدومك..
- بس بالراحة ع الواد يا "شيحة"..

- يا معلم.....
- خلاص بقي "يا شيحة".. يلا ياسي الأستاذ.. العربية واقفة بره.. هنغير المكان علشان بكره هنخلص في المصلحة..
- بكره.. بكره.. مش إنت قولت يا معلم..
- أيوة بكره ياسي الأستاذ.. هو في مانع لامؤاخذه؟
- لا أبداً يا معلم.. بس إنت قولتلي إن لسه في كلام تاني الصبح..
- وأنا عند كلامي.. وهو لسه الصبح جه.. لم يجي الصبح يجي كلامه..
- أوامرك يا معلم.. دقايق بس وأجهز...

****

في نفس الوقت..

يصل الرائد "حسام" شقة "إيمان" بعد أن اتصلت به، اخبرته باتصال "حاتم"....

- مساء الخير ياجماعه..
- مساء الخير يا باشا.. اتفضل..
- فين الجهاز يا "إيمان".. هاتيه بسرعه..
- طيب اتفضل استريح بس ياباشا.. خد نفسك من السلم..
- مفيش وقت ياحاج.. لازم نتحرك بسرعه...
- اتفضل ياباشا الجهاز.. هو متصل من حوالي ساعة تقريباً..
- طيب كويس.. الاتصال فعلاً كان من ساعة وخمس دقايق.. والمكان... آه.. طيب كويس مش بعيد من هنا.. يلا يا بني تعالي معايا..
- خير يا باشا مش هاتقولي إيه اللي حصل ولا هتعمل إيه؟

- مش وقته هكلمكم بعدين..

ينزل "حسام" الدرج مسرعاً نحو سيارة النجدة التي تبعها سيارة بوكس زرقاء.. واتجهوا مسرعين نحو العنوان...

لم يستغرق الطريق أكثر من نصف ساعة.. تتبع حسام الطريق المرسوم على جهاز الـ GPS ليصل إلى المكان الذي أجري منه "حاتم" اتصاله..

بالفعل وصل "حسام" ومعه بعض أفراد الشرطة إلى المكان.. كان باب المنزل مغلقاً من الخارج بقفل حديدي.. أمسك حسام القفل ودار به بين أصابعه قبل أن يسأل أحد المتواجدين بالمكان..

- قولي ياااا.. هو البيت ده مفيش حد ساكن فيه ولا إيه..
- لا يا باشا.. كان فيه ناس بقالهم مده قاعدين.. بس مشيوا من يجي ربع ساعة كلهم..
- مشيوا راحوا فين؟
- العلم عند الله يا باشا..

يتدخل رجل آخر كان يقف في الجوار..

- لامؤاخذه يا باشا.. إنت بتسأل عن سكان البيت..
- أيوة ياحاج.. تعرف هم راحوا فين.؟
- لا يا باشا، بس الناس دي غريبه عن هنا.. جم هنا من يجي أسبوع أو أكثر بحاجة بسيطة.. ولسه ماشيين دلوقتي حالاً.. أصل سيادتك متعرفش.. البيت ده أصلا مقفول من سنين.. صحابه قافلينه من زمان..
- ولم هو مقفول.. الناس اللي كانت قاعده فيه دخلت ازاي؟

- يا باشا هم فتحوا القفل ودخلوا.. ولم سألنا قالوا إنهم قرايب صحاب البيت.. والناس مبقيتش زي زمان كل حي في حاله يا باشا..
- كل حي في حاله.. يعني تبقوا في الحارة والبيت يتفتح وناس تسكن فيه ومحدش يقولهم انتوا مين؟
- يا باشا كل واحد حر في حاله والبيت ملوش أصحاب يسألواعليه.. يبقي إحنا مالنا.. !!
- إحنا مالنا صح.. طيب متعرفش راحوا فين ياحاج؟
- لا يا باشا.. بس أعرف السواق اللي كان سايق لهم العربية.. أعرفه كويس ياباشا..
- اسمه إيه السواق ده ولا ساكن فين؟
- يا باشا دا واد خطر ومسجل.. اسمه "النونو".. معرفلوش اسم تاني يا باشا.. بس هو شهرته "النونو".. لو سألت عليه أي حد في قسم الخليفه يعرفه..
- قسم الخليفه؟ الله.. قسم الخليفه ورانا ورانا باين.. دا شورة ايه المهببة دي.!
- أيوة يا باشا.. قسم الخليفه.. أصل سيادتك هو أساساً كان ساكن هناك.. بس الوقتي ملوش مطرح.. محدش يعرف له طريق..
- طيب ياحاج كتر خيرك..؛ يلا يابني.. عفريت الخليفه خطف الرجاله...

انصرف "حسام" والقوة التي رافقته بسياراتهم فاقدين الخيط الأول الذي كان سيقودهم إلى "حاتم" أو بمعني أدق "الصياد" وقضيته..

*****

الفصل الثالث والعشرون

غرفة طارق في القصر العيني:

يدخل "حسام" غرفة "طارق" في المستشفى والذي استقبله بحرارة بالغة..

- **إيه يا "حسام" طمني.. عملت إيه.. قلقتني**
- **مفيش يا سيدي.. "حاتم" اتصل بخطيبته ومسافة السكة يادوب.. روحت ملقيتش حد..**

تلون وجه "طارق" بصبغة التعجب: يعني إيه ملقيتش حد؟

- يعني روحت لقيت الباب بتاع البيت اللي كان منه الاتصال مقفول بقفل من بره..
- يعني إيه؟ مش فاهم برضه؟
- يعني "حاتم" اتصل من المكان ده وبعد الاتصال بساعة ونص تقريبا كنت في المكان.. لا لقيت" حاتم" ولا لقيت حد في البيت من أساسه.
- مش جايز البيت اللي إنت روحته غلط.. ويكن هو في البيت اللي جنيه ولا اللي وراه..
- لا.. أنا شكيت في كده برضه.. بس لم واحد من الجيران قالي إن البيت مقفول أصلاً والناس اللي فيه كانوا أغراب وإن اللي كان سايق العربية مسجل.. يبقي أكيد هم دول..
- طيب ما تشوف المسجل ده...
- أشوف ايه انت عارف هو مسجل فين؟
- فين.؟
- عند صاحبك الكبير.. قسم الخليفة.....
- يادي الليلة.. ايه هو "الطحان" ده عامل زي العمل الردي.. ناطط في كل مصيبه..
- أنا قولت كده والله.. فين الميه.. عاوز أشرب..

يجلس "حسام" على أحد المقاعد ويمسك بزجاجة مياه يشرب منها القليل ثم يخرج سيجارة ويشعلها...

- طيب.. كده معناها إن "الصياد" كشف "حاتم" وغير المكان علشان عرف إن التليفون متراقب..

- لا.. معتقدش.. أصل مش باين إن التليفون متراقب..
- طيب أومال إيه اللي خلاهم يغيروا المكان فجأة كده.. وبعد ما "حاتم" اتصل على طول.؟
- معنديش إجابة بصراحة.. بس اللي خايف منه إن يكون "الصياد" ناوي على مصيبه كبيرة وتغيير المكان احتياط.. وده معناه إن في كارثه هتحصل اليومين الجايين دول..
- وبعدين يعني.. كده "حاتم" و"سمير" معاهم.. يعني ممكن يخلص على الاتنين ولا من شاف ولا من دري..
- طبعاً دي سهله جداً.. خصوصاً في الوضع الهباب اللي إحنا فيه.. يعني ولا حد هايحس بيهم أساساً..
- طيب والعمل؟
- ولا حاجة.. هننتظر تاني على أمل إن "حاتم" يتصل تاني من مكانه الجديد، وساعتها نتحرك..
- ودا طبعا مش هايكون قبل بكره.. لأنه مش بيتصل غير في الليل..
- أكيد.. مفيش قدامنا غير كده..
- طيب الواد السواق ده متعرفش توصل له يا "حسام"؟
- للأسف.. محدش يعرف عنه حاجة.. ملوش مكان.. أراجوز كل يوم في نصيبه..
- يعني كده إنت بتدور على إبرة في كوم قش؟
- لا ولا إنت الصادق.. أنا بدور على الرجل الخفي.. يعني حد مش موجود أساساً...

****

في منزل أم رامي:

تجلس "إيمان" بصحبة والدها.. بدا الشحوب والقلق على وجهها.. وفي المقابل تجلس "أم رامي" تحاول أن تقرأ الموقف وتساعد فى إيجاد مخرج من هذه المشكلة بأقل الخسائر..

- قالك إيه "حاتم" يا إيمان يابنتي طمنيني..
- منا قولت لك يا خالتي.. هو بس كان بيطمني عليه وقفل على طول..
- يعني مقالش راجع إمتي ولا هو فين.. ولا "سمير" معاه ولا لا.؟؟
- والله ياخالتي ما لحق يقول أي حاجة.. دي المكالمة كلها مكملتش أربع دقايق..
- إن شاء الله سليمة.. الظابط جه في ساعتها وشاف المكالمة ونزل طوالي.. يعني زمانهم الوقتي جابوهم..
- يارب ياحاج.. والله أنا خايفه على الجدعان قوي..
- يا خالتي لما إنتي تعملي كده أنا أعمل إيه بس.. أنا جايه علشان انتي تطمنيني تقومي تخوفيني أكتر..
- حقك عليَّ يا إيمان.. بس أنا قلقانه عليهم ليكون حصل حاجة لاسمح الله..
- إن شاء الله خير.....

يقطع حديثهم صوت الهاتف الخاص "بايمان".. كان المتصل هو الرائد" حسام"..

- استنوا يا جماعه الظابط "حسام" بيتصل...

ألو.. أيوة ياباشا..

أيوة أنا معايا "أم رامي" جنبي أهه..

حاضر.. هقولها..

هو انتم ملقيتوش "حاتم" و"سمير" ولا إيه ياباشا؟

لسه؟

طيب حاضر.. هقولها

حاضر ياباشا.. هتصل على طول حاضر.. مش هاتأخر

مع السلامة..

أغلقت الهاتف مع نظرات تزداد شحوباً وقلقاً...

- خير.. طمنيني يابنتي..
- أبداً ياخالتي.. بيقولك لو حد اتصل بيكي تعرفيه على طول...
- الله.. هم ملقيوهمش ولا إيه؟
- بيقول لا لسه!
- لسه إزاي يعني؟
- معرش يابا والله، بس هو شكله مخنوق وبيتكلم من طرف مناخيره. وبيقفل في الكلام..
- ربنا يجيب العواقب سليمه..
- طيب يلا بينا يا "إيمان".. سيبي خالتك ترتاح وبكره هنعدي عليكي..
- مانتوا قاعدين شوية ياحاج مونسني..
- معلش ياحاجة الوقت متأخر وبكره إن شاء الله إيمان هتجيلك..
- طيب.. مع ألف سلامه ياحاج..

تغادر "إيمان" ووالدها تاركين "أم رامي" محدقة في فراغ الشباك المفتوح أمامها.. رافعة يديها بالدعاء للغائبين..

****

اليوم التالي....

يبدوا أن هذا اليوم لن يكون يوماً عادياً.. فمنذ أن تم تحويل مكان إقامتنا فجأة والظنون والشكوك تلعب برأسي.. لم يكن عندي تفسير لما حدث.. لكن الجميع بدا وكأنه على علم مسبق.. "سمير" غائب عن الوعي بصفه مستمرة.. بين حشيش وخمر وأقراص مخدرة. بدا جسده هزيلاً ووجهه بدا عليه الشحوب واكتست عيناه بلون أزرق قاتم يكاد يكون أسوداً.. حاولت مراراً أن أوقفه عن الشرب لكن كرم "الصياد" الزائد ونهم "سمير" المفرط جعلاه يقع فريسه سهله في يد صياد قذر...

لم أستطع النوم طيلة الليلة السابقة.. فبين الانتقال المفاجيء وما حدث مع "ثابت" وما ينتظرني من أحداث وهذا الحلم الغريب الذي رأيته.. بدا على وجهي الشحوب من قلة النوم والاجهاد...

الساعة تشير إلى السابعة صباحاً...

المائدة العامرة بفطور فخم أقيمت وامتدت في فناء هذا المكان الغريب.. كان عبارة عن جراج كبير تتراص فيه بعض السيارات يبدوا بعضها معطلاً من هيئته.. وفي نهايته يبرز سلماً حديداً يؤدي إلى مجموعة من الغرف التي قضيت ليلتي في إحداها.. لم تكن بنفس مقدار الغرفة السابقة لكنها أدت الغرض المطلوب منها..

تناولت إفطاري مع الجميع قبل أن ينفرد بي "الصياد" ليتلو عليَّ بنود خطته التي سأقوم بتنفيذها اليوم..

- صحة وعافية يا سي الأستاذ.. بس أكلتك مش عجباني وشكلك هفتان.. مش كده أنا عاوزك أسد علشان اليومين الجايين دول فيهم شغل ياما...
- لا يا معلم.. أنا تمام الحمد لله.. بس أنا كان لي طلب عندك يا معلم.. ينوبك ثواب يعني..
- خير ياسي الأستاذ.. عنيا ليك..
- عاوزك تخف عن "سمير" شويه.. كده ممكن يموت!
- أخف إيه بس دا صحبك اللي بلاعه.. هو حد عارف يوقفه.. دا شغال سحب ولا اللي داخل كاس العالم.. وعلى كلٍ.. أنا هوصيهم يخفوا عنه علشان يصلب حيله مره تانيه..
- تعيش يا معلم.. كتر خيرك.. بس هو فين أنا مشوفتوش؟
- هتلاقيه لسه نايم.. بص بقي وركز معايا متشغلش بالك بأي حاجة الوقتي خالص...
- اتفضل ياملعم.. أنا معاك...
- هتخرج دلوقتي.. النونو هيوصلك.. هتروح الشركة.. الجماعة بتوع إمبارح هيرجعوا تاني.. هتاخد بالك.. لو لقيتهم داخلين الشركة بشنط هتكلمني في ساعتها..
- يعني أول ما يدخلوا أكلمك على طول؟
- تمام.. ولم يخرجوا تكلمني تاني علشان تعرفني الشنط اللي دخلوا بيها خرجت ولا لا..

- طيب وبعدين.. وبالنسبة للشنطة اللي هناك من إمبارح دي؟
- لا متاخدش في بالك.. ملكش دعوة بيها خالص..
- مليش دعوة بيها ازاي مش ممكن حد يلاقيها عندي ويسألني؟؟
- قولت ملكش دعوة ومحدش هايسألك.. المهم تكلمني على طول..
- طيب والجهاز اللي أنا ركبته إمبارح في المكتب؟
- لا.. أنا هتابعه أنا من عندي.. متشغلش بالك..
- مش تفهمني يا معلم.. كل حاجة مشغلش بالي.. أومال هشغل بالي بإيه بس؟
- ياغشيم أنا مش عاوز أشغلك.. أنا عاوزك تركز بس في اللي بطلبه منك..
- يا معلم.. بصراحة اللي انتي بتطلبه ده كله حاجات بسيطة متستاهلش كل ده.. يعني أي حد كان ممكن يعملها..
- وأي حد ليه.. مانت موجود.. إعتبر نفسك أي حد يا سيدي ولا تزعل..
- خلاص يا معلم.. لسه في حاجة تانيه؟
- اه.. بعد ما الكل يمشي.. هاتطلع تشيل الجهاز اللي إنت ركبته في المكتب..
- كده إنت هاتنفذ النهارده يا معلم.. مش كده؟
- يادين أمي.. يابني بلاش غلبه وبطل ذكاوتك دي.. اتنيل ونفذ وانت ساكت.. ألا وعليَّ الحرام ما هيطلع عليك شمس.. إنت خنقتني..
- خلاص يا معلم.. حقك عليَّ.. مش هاسأل تان.. أنا همشي علشان متأخرش وهكلمك على طول..

تركته لألتقي بنصيبي.. "النونو" ذو السجارة واللبانة ولكن هذه المرة كانت التوصيلة مختلفة.. كانت سيارة ميكروباص سرفيس.. انطلق بها لنصل إلى مقر الشركة.. كانت الساعة الثامنة تماماً.. موعد تغيير الوردية..

****

تعود سوزي للظهور مرة أخري بعد أن اختفت عن الأنظار من دخول "سعيد" إلى السجن.. كان ظهورها مسبباً كما كان غيابها.. اتصال من "سعيد" يريد مقابلتها في أسرع وقت في السجن.. وبناء على طلب "سعيد" توجهت "سوزي" لمكتب أحد المحامين الذي استخرج لها تصريح الزيارة وبالفعل ذهبت للقاء "سعيد"...

***

في غرفة مأمور السجن:

"سوزي" ترتدي ملابس سوداء ونظارة سوداء تغطي معظم وجهها بالإضافة إلى قبعة سوداء تغطي ما تبقي من ملامح وجهها.. تجلس في المقعد المقابل لمكتب المأمور حيث دخل "سعيد" ليقابلها على أنها ابنه خالته القادمة لزيارته..

يتركهما المأمور وينصرف بناء عن طلب "سعيد".. وما إن يخرج المأمور ويغلق الباب حتى يتيه الاثنان في عناق طويل يحمل الكثير من الشوق واللهفة.. ثم يتبعه "سعيد" بقبله صغير قبل أن يجلسا..

- وحشتني قوي ياحبيبي، إنت مش عارف الأيام اللي فاتت دي عدت على ازاي؟ أنا كنت عامله زي المجنونة.
- وانتي كمان والله وحشاني جدا.. بس مش وقته.. بصي أنا عاوزك تركزي معايا..
- خير..
- هاكلفك بموضوع تخلصيه فاهمه من غير ما جنس مخلوق ياخد خبر..
- ماشي.. عيوني لك حبيبي..

- بصي.. هتروحي العنوان ده.. وهتطلبي تقابلي مدير الشركة..
- اسمه إيه المدير ده؟
- مش مهم الاسم.. هاتطلبي تقابلي المدير بشكل شخصي.. لأنه ممكن يكون مغير اسمه..
- وهيغير اسمه ليه؟
- أرجوكي بلاش أسئلة.. انتي بس هتروحي الشركة دي..
- طيب طيب.. كمل..
- انتي هتروحي تقولي له إنك جاياله من طرف "شوقي بيه الموجي".. وانه بيعرض عليه إنه يشتري كل أصول شركات المجموعة..
- وكام المبلغ ولا مش هاقول دي كمان؟
- لا طبعا.. هو هيسألك.. هتقولي 250 مليون دولار..
- ياه.. دا يطلع كام مصري.؟
- تقريبا مليار و500 مليون جنيه.. بس مش مهم.. المهم ركزي بقي.. هو هايقولك ازاي هشتري وكل حاجة محجوز عليها؟
- هي كل حاجة محجوز عليها؟ صحيح طيب هايشتري ازاي؟
- هتفهميه إن عقود البيع جاهزة وهتكون بتاريخ قديم قبل تاريخ الحجز.. يعني هايستلم فوراً من النيابة بالعقود دي ومش هايدفع مليم قبل ما يستلم العقود بتاعته ومتوثقه كمان..
- طيب والمبلغ الكبير ده هيتوفر ازاي يعني؟

- متشغليش بالك.. هو بس يوافق.. وساعتها هاقولك تعملي إيه بالتفصيل.. المهم.. انتي هتخلصي الموضوع ده.. وتديله فرصه تفكير مش أكتر من 24 ساعة..
- بس قليل قوي 24 ساعة على قرار زي ده!
- يا "سوزي" اسمعي الكلام.. انتي هتروحي وتنفذي.. ولو قالك المبلغ كبير.. وحب يفاصل.. ممكن ينزل لحد 200 مليون دولار.. المهم يكون دولار مش مصري..
- حاضر.. بس إنت وحشني قوي يا حبيبي..
- يا حبيتي انتي أكتر بس الوقت مهم جداً.. انتي هاتطلعي دلوقتي على الشركة مباشرة.. الساعة دلوقتي 11 صباحاً.. يعني بالكتير هتكوني هناك على الساعة واحدة.. تخلصي وتكلميني على الرقم ده..
- هو الرقم ده معاك هنا ولا إيه؟
- يا حبيتي أرجوكي.. الرقم ده هيكون معايا لمده 48 ساعة بس.. انتي مش عارفه أنا جبته ازاي هنا..
- طيب خلاص.. هنفذ المطلوب وأول ما يرد هكلمك وأبلغك اللي حصل..
- لا.. انتي تطمنيني بس هو قالك إيه.. ولم هايرد عليكي.. هتروحي للمحامي هو هيعملك طلب زيارة بعد بكره.. يعني هاتيجي تاني بعد بكره هتبلغيني الرد وأنا أقولك هتعملي إيه..
- طيب حاضر..
- الوقتي مش عاوز جنس مخلوق يعرف الموضوع ده.. ومتتكلميش مع أي حد.. فاهمه..

تنتهي الزيارة بدخول المأمور الذي يودع الفاتنة ذات الرداء الأسود.. ويخرج "سعيد" يبدوا عليه القلق والتفكير العميق.. حتى يصل إلى حيث يجتمع الفرقاء الخمسة..

****

مكتب "حسام"....

يدخل طارق مكتب "حسام" الذي استقبله بكل ترحاب وحفاوة بالغة.. "فطارق" الذي يسير معتمداً على عكاز أصبح خارج حسابات الدولة الآن.. بعد أن أفقدته هذه الإصابة وظيفته وتحول إلى بطل أسطوري على الورق فحسب..

- ياااا.. إيه الخطوة العزيزة دي... طيب ليه ماتصلتش وأنا جيتلك بدل ما تتعب نفسك؟
- ازيك يا "حسام" عامل إيه.. أنا ماصدقت أخرج من المستشفى..
- يعني يوم ما تخرج تيجيلي القسم.. طيب كنت كلمني وأنا عزمتك عزومه ترجعك عشرين سنه لورا..
- عشرين سنه هاتعمل إيه يا "حسام" في اللي أنا فيه دلوقتي..
- ياعم والله إنت ربنا بيحبك.. خلصت من الدخليه وقرف الشغل.. أنا لو منك بقي.....

- لو مني إيه بس.. والنبي بلاش تواسيني..
- أواسيك إيه بس.. إنت تعمل لك مشروع.. ويا سلام بقي لو شركة أمن خاصة وانت المدير بتاعها..
- شركة أمن إيه بس.. خلينا في الموضوع اللي أنا جايلك علشانه....
- موضوع.. موضوع إيه خير؟
- شوف يا سيدي.. طبعا أكيد مش هاجيلك غير علشان "حاتم" وقصته..
- أكيد.. هو إنت وراك غيرها.. دنا هترفد بسببك إنت وهو إن شاء الله..
- لا ولا هترفد ولا حاجة.. شوف.. أنا فكرت وقولت مين اللي ممكن يكون "الصياد" بيفكر يسرقه.. زي ما "حاتم" قال؟
- مين بقي ياعم كرومبو؟
- اقولك.. كان في مسجون اسمه "جميل".. دا راجل أعمال كبير وخبَّط مع الكبار وحبوا يقرصوا ودنه فرموه في السجن.. إنت فاهم؟
- طبعا فاهم.. وبعدين ماله سي "جميل" دا كمان؟
- أقولك.. "جميل" كان طول فترة سجنه منعزل ولا بيكلم حد ولا حد بيكلمه.. غير "الصياد" و"شيحة" بس.. هم اللي كانوا دايما بيكلموه.. حتى كانوا مانعين أى حد يكلمه غيرهم..
- طيب ودا إيه علاقته "بحاتم"؟
- يابني فتح مخك شويه.. مش "حاتم" قالك في عمليه سرقه كبيره.. أنا باقولك يمكن يكون هو..
- ويمكن يكون مش هو.. ثم إنت فاكر "جميل" ده لسه قاعد لك في البلد بعد ماهرب من السجن.. أكيد ضرب ورق وهرب على بره..

- والله إنت تخدمني انك تروح الشركه بتاعته.. عنوانه مش بعيد وتسأل هناك وتشوف.. والله لقيته يبقي خير وبركه ممكن يكون في هناك خيط.. لقيته سافر زي ما بتقول يبقي مخسرناش وأدينا بننتظر اتصال "حاتم" علشان نحدد مكانه..
- والله فكره مش بطالة.. ويمكن ألاقيه وأرجعه السجن وأهو الواحد بيلقط رزقه.. حاجة على الماشي كده..
- بيلقط رزقه.. ماشي "ياحسام".. هتروح أمتي الشركه؟
- بهزر معاك ياعم.. فكها.. قولي بقي.. معاك العنوان؟
- أيوة طبعاً....
- طيب ساعتك كام؟
- الساعة عشرة..
- فاضي الوقتي يعني؟
- هيكون ورايا إيه يعني!!

يقف "حسام" من مقعده حاملاً أغراضه...

- طيب قوم بينا نخبط المشوار ده على السريع وأوصلك وارجع تاني..
- يا سلام عليك.. انت كده تبقي خدمتني.. يلا بينا..

****

تقف سيارة "ثابت" أمام باب الشركة.. أسرعت نحوها لأحمل حقيبته فلم أنتظر حتى يستدعيني هذه المرة.. نظر إليَّ قبل أن يرفع نظارته السوداء.. وبلهجة آمره..

- تعالي معايا بسرعه على المكتب..

تبعته إلى داخل الشركه متجهاً إلى مكتبه وسط نظرات من "شكري" لم تعجبني مطلقاً لكني تغاضيت عنها.. فليس وقت الحديث معه الآن..

دخلت المكتب وأغلقت الباب.. ألقي "ثابت" بجسده خلف مكتبه ونزع نظراته ليلقيها على المكتب قبل أن يخرج زفيراً حارقاً أحسست به على بعد أمتار....

- إنت عملت إيه إمبارح قولي..
- "الصياد" غير المكان اللي كنا فيه... والتعليمات إن أول ما الضيوف بتوع إمبارح يوصلوا هاتصل عليه.. ولم يخرجو أكلمه أقوله عن الشنط بتاعتهم وأوصافها..
- طبعا الشنطة بتاعت إمبارح قالك ملكش دعوة بيها؟
- أيوة ياباشا.. صح.. هو إنت عارف إزاي؟!
- مش ده المهم.. أنا هاتصرف في موضوع الشنطة.. المهم أنا عاوزك دلوقتي تنزل مكانك.. وساعة لم الناس توصل فعلا تتصل "بالصياد".. بس هاتقوله إن معاهم شنط شكل دي..

أخرج شنطه من جانب المكتب لم أرها من قبل كانت سوداء وكبيرة الحجم..

- تمام يا باشا.. أوصف ابوها..
- هتقوله 4 شنط.. وإنت و"شكري" كل واحد شال اتنين وطلعتوهم مكتبي.. هتقوله إن الشنط كانت تقيله.. هو هايفهم لوحده...
- أيوة ياباشا... تمام..
- ماشي كويس.. الوقتي بقي هتنزل مكانك.. اه

- لم يمشي الجماعة.. هتبلغ "الصياد" انهم خرجوا بنفس الشنط تاني وإنت و"شكري" اللي نزلتوها.. بس المرة دي كانت خفيفة خالص عن المرة الأولانيه.. يعني الشنط اتفضت أو اتبدلت.. بس نفس الشكل للشنط.. فاهم..
- تمام يا باشا.. فاهم..
- ومتتحركش من مكانك لأي سبب.. غير لو أنا بس باعتلك..
- حاضر يا باشا..
- يلا امشي دلوقتي ومتنساش..

****

منزل أم رامي:

تطرق الباب إمرأة ثلاثينية.. ترتدي عباءة سوداء وبصحبتها طفلة صغيرة لن تتجاوز العشر سنوات.. تفتح لها "أم رامي"..

- صباح الخير.. انتي " أم رامي" مش كده؟؟
- صباح النور يا حبيبتي.. أيوة.. أنا أم رامي.. مين حضرتك..
- أنا "بهيرة" طليقة "سمير".. اللي ساكن عندك..

****

الفصل الرابع والعشرون

تقف سيارة فخمة ينزل منها أربعه رجال.. أسرعْتُ إليهم أنا و"شكري" لنحمل عنهم أربعة حقائب.. حتى وصلوا إلى مكتب "ثابت" بيه.. ثم عدنا أدراجنا إلى مدخل الشركة.. استأذنت من "شكري" لأدخل الحمام..

في الحمام أخرجت الهاتف واتصلت "بالصياد" لأخبره أن الرجال وصلوا بالفعل إلى الشركة...

- ألو.. أيوة يا معلم..

أيوة الناس لسه واصلين حالا.. وطلعوا على مكتب "ثابت" باشا على طول..

أيوة.. معاهم أربع شنط كبيرة لونها أسود..

أيوة يا معلم أنا و"شكرى" زميلي اللي كنا شايلين الشنط.. بس يا معلم في حاجة.. الشنط كانت تقيله..

أيوة تقيله يعني فيها حاجات تقيله مش فلوس...

مين قالي انها فلوس..... أيوة..... أصل... مش إنت قولت انك.....

طيب يا معلم خلاص حاضر..

أول ما هينزلوا هاتصل عليك على طول.. مع السلامة..

أغلقت الخط وأخذت أحدث نفسي: مين قالي انها فلوس.. أومال هي فيها إيه.. وهو هايسرق إيه؟ اه يابن الـــ.....

لم أعد أفهم أي شيء.. فقط خطرت لي فكرة.. ماذا لو اتصلت الآن "بإيمان" أخبرها عن مكاني.. لا.. ليس وقته.. سأنتظر.. ربما يكون هناك الجديد..

في الحمام تأخرت ما يقرب من العشر دقائق.. حتى أعيد ترتيب أفكاري.. ثم خرجت إلى "شكري"..

ما أن وصلت إلى الباب حتى رأيت سيارة سوداء تتجه مبتعدة عن الشركة.. تتبعتها بنظري حيث لفت انتباهي نسر كبير يغطي الزجاج الخلفي للسيارة.. لابد أنها لضابط شرطة..

- عربية مين دي يا "شكري"؟
- لا متاخدش في بالك.. دي ناس قديمة قوي..
- ناس قديمة ازاي يعني؟
- بيسألوا عن صاحب الشركة الأولاني.. اللي اسمه "جميل"..

بالطبع لم يكن "شكري" يعرف أن "جميل" هو "ثابت".. ابتلعت الكلمات في صمت..

- ها وإنت قولت لهم إيه؟

- أبداً.. قولت لهم إن الشركة صاحبها اسمه "ثابت" باشا.. هو موجود بس معاه ناس مهمين.. لو عاوزين تقابلوه ممكن تتفضلوا..
- يعني مسألوش عن "جميل" ده تاني؟
- حتى لو سألوا وهو أنا اعرفه أصلاً.. أنا أسمع عنه إن كان صاحب الشركة.. لكن لا عمري شوفته ولا أعرفه.. ثم أنا هشغل بالي ليه؟
- اه صحيح.. وانت هتشغل بالك ليه؟ ومعرفتش هم مين بقي وعاوزينه في إيه؟
- لا طبعاً ولا شغلت بالي.. بس واحد فيهم كان ماشي على عكاز والتاني قالي انه ظابط مباحث...

أثارت كلمات شكري الأخيرة انتباهي: ضابط مباحث.. إنت بتقول ضابط والتاني على عكاز.. ماقلكش اسمه إيه؟

- ياعم ماقليش.. ثم إنت مالك اتخدت ليه كده؟

حاولت السيطرة على انفعالي..

- لا وأنا هتاخد ليه. بس كنت عاوز أعرف ظابط مباحث هايسأل ليه؟

قطع حديثنا دخول امرأة فاتنه بحق.. لوحه فنيه متحركة على الأرض.. لم تغفل أي تفصيله يمكن أن تظهر جمالها إلا وأظهرتها.. تقدمت تسبقها رائعة العطر النفاذ..

- صباح الخير.. ممكن أقابل مدير الشركة؟

بالطبع طفت الغريزة الذكورية على وجه "شكري" الذي انتفض مقتربا منها..

- طبعاً يا فندم.. اتفضلي أنا هوصل سيادتك..

تقدم "شكري" تاركاً رقبته بكاملها تسير خلفه تكاد تسقط من فوق كتفيه.. لم أتعجب من تصرفه قدر تعجبي من هذه الفاتنة التي تسال عن "ثابت".. لكن تفكيري

الآن بأكمله منصب نحو هذا الشرطي وصاحبه وهل هما "حسام" و"طارق".. لكن كيف وصلا إلى هنا؟ هل كانت صدفة؟ قطعت شكوكش بقرار ترددت كثيرا فيه...

ما أن وصل المتيم الهائم.. حتى طلبت منه هاتفه.. لم يمانع مطلقاً فقد كان تحت تأثير منوم مغناطيسي قوي..

ابتعدت قليلاً حتى اختفيت من أمامه.. ثم ضغط على الازرار واتصلت "بإيمان"..

- ألو.. أيوة يا "إيمان".. اسمعيني بس ومترديش لو سمحتي..
أنا عاوزك تكلمي "طارق" بيه او "حسام " بيه أي حد منهم.. أنا موجود في شركة اسمها الشركة الـ.....

****

يتوقف حسام بسيارته أمام عمارة شاهقة.. كان معه "طارق" الذي فتح باب السيارة لينزل منها..

- أنا عارف إني معطلك وتاعبك معايا.. بس بعشمي يا "حسام"..
- متقولش كده.. والله هزعل.. مش كفايه بخلان عليَّ بغدوة..
- قريب إن شاء الله.. أوعدك بس الأمور تتحسن ونعمل عزومه على كيفك..
- يارب.. بس ياريت تفكر كويس في المشروع اللي أنا عرضته عليك.. وأنا هساعدك على قد ما أقدر..
- تعيش يا حبيبي والله.. هاعرض الموضوع وأشوف وأرد عليك..
- المهم سيبك من موضوع "حاتم" وأديك شوفت أنا مركز معاه والله ومش هاسيبه.. بس إنت ارتاح علشان صحتك..

- كتر خيرك يا "حسام".. كان نفسي موضوع "جميل" ده يطلع بفايده.. بس خير مش مشكله..

يقطع حديثهما صوت هاتف "حسام"..

- استني.. دي "إيمان" بتتصل..
- طيب ما ترد بسرعه شوف عاوزه إيه..

رفع "حسام" الهاتف على أذنه وهو يشير" لطارق"...

- أيوة يا "إيمان".. خير..

امتي اتصل؟

قالك فين طايب مكانه؟

اتقطع ازاي؟

طيب تعرفي تحددي مكانه زي ما قولت لك؟

طيب فين؟

متأكده؟

طيب سلام سلام.

يغلق "حسام" الهاتف ويدير محرك سيارته..

- اقفل بابك يا"طارق" بسرعه.. هنرجع الشركه تاني..
- شركة إيه؟ ما تفهمني يا"حسام"؟
- هفهمك كل حاجة في الطريق.. بس نلحق بسرعه..

****

منزل أم رامي.....

بخبطات متتالية ومتسارعة تطرق إيمان الباب.. تفتح "أم رامي".. تدخل إيمان مسرعة لتزف إليها خبر اتصال "حاتم".. ما أن دخلت إلى الشقة حتى استوقفها الضيفان الجالسان مع "أم رامي" في الصالة..

- معلش يا خالتي.. صباح الخير الأول..
- صباح النور.. مالك.. خير يابنتي في إيه؟
- كنت عاوزاكي في كلمتين..
- اتكلمي.. آه نسيت أعرفك.. دي أختك "بهيرة".. مرات "سمير".. ربنا يرجعه بالسلامه..
- بجد... ازيك يا حبيتي والله معلش مخدتش بالي.. والقمر الصغيرة دي بنتك.. ما شاء الله.. عسل..
- انتي الأحسن.. ربنا يخليكي يا ست "إيمان"..
- لا ست "إيمان" إيه.. انتي زي أختي واكتر.. والقمر دي اسمها إيه.. اسمك إيه يا جميل؟
- اسمي.. سارة سمير إبراهيم..
- ماشاء الله عليكي قمر.. ربنا يبارك لك فيها يارب..
- يارب يا "إيمان".. طيب شوفي يا ست "أم رامي" "إيمان" عاوزاكي في إيه.. أنا هنزل..
- لا والنبي مانتي منقوله من هنا.. أنا هاخد "إيمان" جوة دقيقتين وراجعالك حالاً.. إوعي تتحركي من هنا.. هزعل والله..

تدخل "إيمان" بصحبة "أم رامي" إلى المطبخ...وبصوت هامس..

- خير يا بنتى قلقتيني؟
- "حاتم" اتصل من شويه وكان بيتكلم والخط قطع فجأة..
- قطع إزاي.. طيب ومقالش هو فين ولا أى حاجة؟
- بقولك الخط قطع ياخالتي ومكملش كلامه.. المهم أنا كلمت "حسام" بيه وقولت له.. وعرفته المكان كمان..
- فين المكان ده؟
- في شركة هنا في مصر القديمة جنبنا...
- وقالك إيه "حسام"؟
- قالي انه يعرفها ومسافة السكة هايكون هناك...
- طيب كويس.. تعالي بقي نطلع نطمن الست اللي قعده بره دي..
- آه صحيح.. هي مرات "سمير" بجد؟
- أيوة يا بنتي.. طليقته.. كانت مراته.
- وعرفت المكان هنا ازاي؟
- بتقول راحت له الشغل وصفولها المكان هنا وجايه عندها مشكلة وفكراه هنا وهايساعدها...
- طيب وانتي هاتتصرفي ازاي؟؟
- كويس إنك جيتي أصلا.. أنا هاقنعها تقعد هي وبنتها في الأوضه بتاعت "سمير" اللي على السطح.. لانها طبعا مش هتوافق تقعد معايا في الشقة..
- آه طبعا باين عليها غلبانه.. طيب أنا هاجي معاكي أكلمها..

****

لا أعلم من أين ظهر فجأة.. هذا اللعين وجدته أمامي.. كان يقف مستنداً إلى حائط المبني المجاور... هل رآني وأنا أجري المكالمة.. بالتأكيد سيهرول ليخبر"الصياد" بما فعلت.. لم ينقذني من براثن نظراته وابتسامته الصفراء التي شقت وجهه إلى نصفين سوي "شكري"..

- إيه ياعم "محمد".. إنت واقف عندك بتعمل إيه؟
- لا أبداً كنت باعمل مكالمة والشبكه وحشه مش سامع الصوت...
- طيب تعالي عاوزينك.. ومين الجدع اللي واقف وفارد وشه سته في تسعه ده.. تعرفه؟
- أنا.. لا.. هاعرفه منين؟ إنت بتقولي مين عاوزني؟

لم أستطع أن اخفي الاضطراب الذي حل بي فجأة.. تصنعت الشعور بالصداع حتى لا يمطرني "شكري" بمزيد من الأسئلة السخيفة..

وصلت إلى مكتب "فتحي" حيث كانت الفاتنة ذات العطر الصارخ تنتظر..

- خير يا أستاذ "فتحي".. "شكري" قالي إن حضرتك طلبتني..
- لا مش أنا يا "محمد".. دا "ثابت" بيه.. ثواني بس هتدخل حالاً ..

استغللت فترة الانتظار واختلست بضع نظرات.. كانت فاتنه بحق.. تخلت عن نظارتها السوداء التي كانت تخفي ضوء القمر في ليلة تمامه.. أخذت أرسم صورتها في خيالي.. حتى أخرجني "فتحي" من عالم الخيال إلى أرض الواقع..

دخلت المكتب بعد أن سحبت نفس عميق.. ملأت صدري بعبيرها.. ثم أغلقت الباب خلفي..

- اه.. تعالي يا "محمد".. أهو دا بقي يا جماعه اللي شاف صاحبنا وعرفه.

- اؤمرني يا باشا..
- شوف يا "محمد" وقولهم مين اللي في الصورة ده..
- دا.. دا "الوزير" سعادتك..
- "الوزير" مين يا "ثابت" بيه.. دا "شوقي بيه الموجي"..
- لا يا باشا.. "ثابت" باشا كان فاكر زي سعادتك كده.. بس أنا اللي عرفته أصل دا عشرة ومعرفة قديمه قوي..
- يعني يا "محمد" إنت متأكد إن اللي في الصورة ده "الوزير" مش "شوقي"
- ياباشا أنا أبصم بالعشرة..
- طيب هو اسمه إيه.. يعني "الوزير" دا أكيد شهره.. اسمه إيه بقي؟
- الصراحة ياباشا اللي أعرفه إن أسمه "الوزير".. أسمه الحقيقي معرفوش والله..
- لا يا "ثابت" بيه.. كلامك جميل وكل حاجة بس مينفعش نتكلم بدون أساس قوي.. تعرف لو "محمد" يكون عارف اسمه الحقيقي كان الوضع يختلف.. لأن ساعتها هنقدر نتصرف على أساس..
- يا جماع اسمه الحقيقي دا أمر بسيط.. ساعات ويكون عندنا.. لكن الكلام دلوقتي على اللي أنا قولته.. موافقين ولا؟
- سيبنا لبكره وهنرد عليك.. بالكتير بكره..
- أوك.. تمام.. أنا هنتظر ردكم وعلى أساسه هكلم المحامي يبدأ في اجراءاته..
- وانت يا "محمد" وصل البهوات بالشنط و"شكري" خليه يساعدك..
- أوامرك يا باشا..

.. حملت الحقائب وتوجهت إلى السيارة وتبعني "شكري" سريعاً.. ركب الرجال الأربعة سيارتهم ورحلوا من أمام الشركة.. بينما أنا استأذنت من "شكري" لأدخل

الحمام مرة أخري.. كان لابد من تبليغ أمر الرحيل ولكي أصلح ما أفسدته منذ قليل..

- أيوة يا معلم.. الجماعة لسه خارجين حالاً..

أيوة بس نزلوا معاهم الشنط تاني..

أيوة يا معلم هي هي الشنط..

ازاي يعني إيه.. معرفش والله يا معلم.. هي نفس الشنط

اه بس في حاجة يا معلم.. الشنط المرة التانيه كانت أخف خالص من المرة الأولانيه...

مش عارف والله.. بس أنا وزميلي كمان لاحظنا كده.. هي هي نفس الشنط بالملي.. بس المرة التانيه كانت خفيفة ويمكن فاضيه كمان!

تليفون.. اه يا معلم.. دا تليفون "شكري" زميلي..

لا يا معلم أتكلم إيه بس.. أنا كنت بارد بس على واحد صاحبه علشان هو مكنش فاضي والتليفون ضرب كنت بارد عليه واقوله إن "شكري" جاي حالا..

طيب يا معلم خلاص.. هاقفل العدة دي حالا.. حاضر.. سلام

غسلت وجهي بالماء.. نظرت إلى المرآة طويلاً .. مددت يدي لأسحب هذه الستائر الزرقاء المائلة للسواد المتدلية تحت عيناي لتكشف عن شجرة حمراء تمتد أفرعها الجرداء في بيضاء عيناي.. وجه نحيل وجسد هزيل.. شعرات بيضاء غزت رأسي بشكل كبير.. كم مر بي من الوقت لم أقف فيه أمام مرآة.. نفس عميق عدلت بعده ملابسي وسحبت بعض المناديل الورقية لأجفف يدي ووجهي وانطلقت نحو "شكري" الهائم...

- إيه ياعم إنت مالك النهارده؟
- مالي ازاي يعني.. مانا كويس..
- إمبارح صداع وجسمك بيتنفض وعرقان وحالتك حاله، والنهارده كل شويه حمام.. مش طبيعي إنت خالص على فكره..
- لا أبداً مفش حاجة.. ها قولي حاجة تانيه حصلت وأنا مش هنا.. النهارده باين عليه مش هايعدي على خير..
- النهارده.. النهارده يوم تاريخي.. أحلي يوم ليَّ في الشركة..
- حقك ياعم مانت شابط مع الحسناء الفاتنة اللي دوختك.. اتهد شويه
- أروح أجيب اتنين شاي أصل راسي هتنفجر...
- لالالالالالالالا.. إستني بقي دا أنا مستنيك ترجع على نار.. أروح الحمام الأول..
- يا"شكري" يا أخي مش هاتأخر... دقيقه..
- لا ياعم إنت بتقول دقيقة وتروح تقعد بالساعة والاتنين.. استني إنت بقي...

وسط اصرار "شكري" اضطررت للانتظار.. مرت عشر دقائق كانت الأفكار تتقافذ في أرجاء عقلي كفريق سريك يؤدي عرضاً بهلاونياً استعراضياً...

عاد "شكري".. يترنم ببعض كلمات الأغاني غير المفهومة.. كنت أنظر إليه وأحسده على ما هو فيه من صفاء ذهن وراحة بال..

- ها.. أنا جيت.. لو عاوز تروح اتفضل..
- لا خلاص.. أنا هفضل معاك هنا.. مش رايح..

يضرب "شكري" كفاً بكف مطلقاً ضحكه ساخرة...

– شوفت بقي.. والله أنا عندي حق إنت مش طبيعي خالص.. يابني روح أكشف أحسن لك..

بعد دقائق رائحة البرفان النفاذة الصارخة تنذر بقدوم الفاتنة قاتلة "شكري"..

– بس بقي خليني أركز مع اللي أحسن منك...

استقبلها "شكري" بفضول ذكر جاموس بري في موسم التزاوج.. واصطحبها إلى أن وصلت إلى سيارتها.. اعتقدت لوهله أنه سيمد يده ليصافحها ثم يطبع قبلة على يدها قبل أن يودعها.. لكنه بالفعل لم ولن يفعل..

يخرج صوت "فتحي" من جهاز الاستقبال..

– "محمد".. تعالي بسرعه "ثابت" باشا عاوزك...

– حاضر..

نظرت في ساعتي كانت تشير إلى الثانية عشر.. مسرعاً توجهت لغرفة "ثابت" بيه وأنا أضرب أخماساً في أسداساً.. كل الأمور معقدة ولا أعرف أي الاتجاهات تؤدي إلى أي الطرق..

دخلت إلى المكتب مباشرة ثم أغلقت الباب خلفي..

– "حاتم".. عاوزك ترمي "للصياد" موضوع المدام اللي كانت هنا من شويه.

– مش فاهم سيادتك؟

– يعني تلمح إن في واحدة جت الشركه وفضلت منتظرة لحد ماقابلتني، وإنك سمعت كلام بيقول انها جايه تخلص في الصفقة اللي أنا شغال فيها.. فهمت

– اه يعني حاجة يتلهي يعني بيها عن الموضوع الاصلي..

– مؤقتاً.. عاوزه يفكر تاني في خطوته الجايه لحد ما أرتب أنا حالي..

- طيب سعادتك بالنسبة للجماعة اللي كانوا هنا.. خلاص خلصوا ولا لسه؟
- متشغلش بالك أنا وصلت " للصياد" اللي أنا عاوزه خلاص.. المهم دلوقتي تلعب على موضوع المدام دي.. ركز قوي عليها.. فاهم..
- حاضر سعادتك. آه صحيح نسيت.. في حاجة مهمه حصلت
- خير.. قول..
- في ظابط جه الصبح وقابل "شكري" وسأله عن سيادتك..
- و"شكري" ما طلعوش ليه هنا؟
- يا باشا حضرتك مش واخد بالك.. هو سأل عن "جميل" بيه، و"شكري" ميعرفش الموضوع ده..

بدا على وجهه التغير فجأة رغم أنه ليس من السهل التأثير على ملامحه...

- بتقول ظابط؟ مين هو معرفتش؟
- لا يا باشا.. ساعتها أنا كنت بكلم "الصياد" أول مرة.. و.....

بحركة مفاجأة أوقفت الكلمات في حلقي...

- "فتحي".. تعالالي حالاً..

يدخل "فتحي" فوراً..

- أؤمر يا "ثابت" بيه..
- أى حد يسأل عني أي حد قوله إني مش موجود.. قول خرجت.. قول أى حاجة.. فاهم.. لحد ما أبلغك..
- حاضر يافندم..
- وانت.. تبلغ "شكري" بنفس الكلام وانت معاه طبعاً.. أي حد يسال عني أنا مش موجود أيا كان السبب وأيا كان هو مين... فاهمين..

لم أري "ثابت" بهذا الشكل من العصبية والتوتر منذ أن كان معي في السجن.. لكني أتفهم سبب ثورته وأقدره تماماً..

- بص بقي.. أنا عاوزك مركز وصاحي اليومين دول.. الحكاية كلها مش هتاخد أكتر من تلات أيام؛ وبلاش "شكري" يقابل حد.. حاول إنت اللي تقابل أى حد يسأل واتصرف.. فاهمني طبعاً؟
- فاهم.. طيب وحضرتك هتعمل إيه مع "الصياد"؟
- مش دلوقتي انا عندي الأهم من "الصياد" مليون مرة دلوقتي.. هافضاله بس لم أخلص الموضوع الجديد ده....
- أقولك خد الشنطة دي واسبقني على العربية.. عاوزك معايا في مشوار.. مش هنتأخر.. ساعة بالكتير وهترجع..
- حاضر يافندم..

****

تدخل "سوزي" شقتها.. تقابلها الفتاة الصامتة لتحمل عنها حقيبتها.. تخلع حذائها وتستلقي على إحدي التحف المتناثرة في بهو الشقة.. تُخرج الهاتف وتتصل "بسعيد" لتبلغه بما أسفرت عنه المفاوضات مع جميل..

- ألو.. أيوة يا حبيبي وحشتني..

اه بالملي زي مانت قولتلي..

أيوة طبعاً قابلته طلع اسمه "ثابت" بيه..

أيوة منا عارفه مش مهم الاسم.. المهم التنفيذ..

تمام زي ما فهمتني..

هو طلب مهله النهارده.. يعني بكره هايكون عندك الرد النهائي..

خلاص ياحبيبي..

أنا فاهمه ومرتبه أموري كويس متقلقش عليَّ..

خلاص أول ما يرد على لو تمام هكلم المحامي ونطلع عليه على طول ونخلص وتبقي واقفه عليك إنت بقي

آه عرفته المبلغ ومبقاش مصدق.. اتصدم من الرقم..

لا.. كان فاكر أكتر... دا بيقولي كان عنده ناس وكانوا داخلين في موضوع التصفية اللي "شوقي" عامله..

لا كان طاير ومش مصدق..

اه طبعاً فهمته الفلوس كاش، هو في الأول قالي مستحيل بس إنت عارف حبيبتك بقي..

أيوة هو هايتصرف بس كان بيقول إن الدولار قليل في البلد ومبلغ زي ده ها ياخد وقت على ما يجمعه..

اوكي يا روحي زي ماتشوف.. أنا فهمت وهاتصرف ولا إنت مش واثق في حبيبتك؟

خلاص يا حياتي أنا هاخلص وابلغك..

مع السلامة حبيبي وحشتني موووووووت.... باي باي...

****

الفصل الخامس والعشرون

تقف سيارة "حسام" أمام الشركة.. ينزل الاثنان ليقابلهما "شكري" للمرة الثانية.. لكن هذه المرة كان عنده تعليمات صارمة نفذها بكل دقة..

تقدما نحو "شكري" الذي بدا متأهباً للزود عن مكان عمله ضد هؤلاء المتطفلين.. لم يخف أبداً على "حسام" حالة التأهب التي اعترت وجه هذا الحارس لكنه استخدم حنكته كضابط مباحث ليصل إلى ما يريد بأسرع وقت..

- صباح الخير.. تاني
- صباح الخير ياباشا.. مش حضرتك كنت هنا من شويه و.....
- أيوة أيوة.. إنت قولت لي إن صاحب الشركه دي اسمه "ثابت" مش كده؟
- تمام سيادتك.."ثابت" باشا هو صاحب الشركة..
- طيب كويس عاوزين نقابله..
- للأسف سعادتك هو مش موجود لسه خارج..

التفت "حسام" إلى "طارق" ثم اومأ برأسه...

- لسه خارج؟ طيب عاوزين نقابل أى حد من الإدارة لو ممكن..
- طيب يافندم ثواني..

يمسك "شكري" بجهاز الاتصال الداخلي ليخبر "فتحي" بوجود الضيوف.. يسمح لهم "شكري" بالصعود بعد سماع الإذن من "فتحي" الذي بدوره كان يحفظ التعليمات عن ظهر قلب..

بوجه بشوش وابتسامة عريضة يقابلهما "فتحي"..

- مش هانعطلك كتير.. بس كنا عاوزين نتعرف على صاحب الشركة..
- أيوة يا فندم هو مش موجود.. خرج ومقالش هايجي تاني امتي..
- طيب جميل.. طبعاً إنت عرفت أنا الرائد "حسام"، مباحث... وسيادته الرائد "طارق".. مصلحة السجون..

أطلق "فتحي" نظره نحو العكاز الذي يستند إليه "طارق" محاولاً أن يستمع إلى تعليق أو تفسير ليجعل من العكاز ما يناسب هذه الوظيفة...

- دا الكارنيه بتاعي.. لو حابب تتأكد..
- لا أبداً يا "حسام" باشا.. العفو.. بس أنا أقدر أخدم سيادتك في إيه؟

أعاد "حسام" الكارنيه في محفظته التي أعادها إلى جيب بنطلونه الخلفي قبل أن يكمل حديثه...

- عاوزين نشوف أي صورة "لثابت" بيه صاحب الشركة..

استقبل "فتحي" الطلب بدهشة وحيرة واستغراب بدا واضحاً من حركة عيناه وكتفيه..

- مش فاهم هو حضرتك عاوز صورة "لثابت" بيه؟
- لا أبداً مش صورة بالتحديد.. إنت فهمت غلط.. "حسام" يقصد أي حاجة يكون فيها صورة علشان نتعرف عليه لم يجي.. مش أكتر.. وإحنا هناخد معاد وهنجيله تاني.. وأعتقد مفيش فيها حاجة موضوع الصورة.. دا راجل مجتمع ودا عادي..
- اه يافندم طبعاً.. ثواني طيب وراجع لكم حالاً ..

يدخل "فتحي" المكتب ويغلق الباب خلفه ويخرج هاتفه المحمول ويتصل "بثابت"..

- أيوة يا باشا.. في اتنين ظباط بيسألوا على سيادتك..

يافندم أنا قولت كده والله بالظبط

أيوة.. هم عاوزين يشوفوا صورة لسيادتك

حاضر يافندم.. حاضر فهمت..

تمام يافندم.. مع السلامة..

يتحرك "فتحي" ليصل إلى خلف المكتب.. يمد ذراعاه ليصل إلى صورة "ثابت" الكبيرة المعلقة على الحائط.. يحملها بهدوء قبل أن يخفيها تحت المكتب حسب تعليمات "ثابت" بيه..

يخرج "فتحي" بيدين فارغتين.. يمط شفتاه رافعاً كتفاه لأعلي.. لكن "حسام" قرأها وأمسك بزمام الأمور بسرعة وحزم..

- عيب قوي لم تدخل تعمل نفسك بتجيب الصور وتكلم "ثابت" بتاعك ده في التليفون.. وتطلع تمد شفايفك....

صدم "فتحي" من أسلوب "حسام" الذي تحول إلى العصبية والعنف وبصوت مرتعد..

- يا "حسام" باشا.. أنا هخبي ليه يعني؟

رمقه "حسام" بنظرة فككت أوصاله قبل أن يقترب من وجهه..

- أدخل هات صورته أحسن أشدك دلوقتي وأعملك قضية تستر على مجرم هارب من تنفيذ حكم.. ماشي

بدا على "فتحي" التوتر وهو في طريقه للمكتب مرة أخري.. لكن هذه المرة صحبه "حسام" و"طارق" للغرفة.. مد "فتحي" يده أسفل المكتب ليخرج الصورة الكبيرة التي أخفاها في دخوله السابق..

رفع "حسام" الصورة في وجه "طارق" ليصله الاجابة بإيماءة دون أي كلمة..

- طيب يا أستاذ "فتحي".. احنا آسفين جداً.. معلش بقي واعذرني إن كنت اتعصبت عليك...
- خير ياباشا.. وصلت لحاجة؟
- لا يا سيدي خلاص.. رجع الصورة مكانها وابقي اعتذر "لثابت" بيه..
- إنت تؤمر يا "حسام" باشا.. أى خدمه تانيه؟
- لا يا سيدي شكراً.. نستأذن إحنا بقي.. يلا يا "طارق" بيه..

ما أن تأكد "فتحي" من انصرافهما حتى أخرج هاتفه واتصل "بثابت"...

- أيوة يا باشا.. مشيوا خلاص..

لا يا باشا أصروا انهم يدخلو المكتب بس لم شافوا الصورة متكلموش

لا يافندم.. اعتذروا ومحدش فيهم علق..

أيوة سيادتك.. مفيش حاجة تانية.. خلاص.. تمام سيادتك..

****

يقف "ثابت" بسيارته أمام إحدي البنايات الشاهقة المطلة مباشرة على النيل.. رفعت رأسي لأتبين نهايتها لكن صوت "ثابت" قطع نظرتي وأفكاري..

- شوفت يا سيدي.. اللي حسبته لقيته وكلامك صح.. "طارق" بيه كان في المكتب..
- "طارق" بيه اللي كان في الـ....
- أيوة هو.. يعني كده الوقت مش في صالحنا يا "حاتم".. إنت طبعا مش عارف إنت هنا ليه.. كلها دقايق وهتعرف بس عاوزك تخليك جنبي اليومين دول وأنا هعوضك عن كل اللي شوفته..
- أنا تحت أمرك يا باشا.. من غير أي حاجة والله...

شوف أنا عاوزك تفتح مخك كويس وتنفذ اللي هاقولك عليه بالحرف.. أنا هستناك هنا.. عشر دقايق بالكتير وتكون خلصت.. مش عاوز أي تأخير فاهم!

- اللي تشوفه سعادتك بس فهمني أنا هاعمل إيه!
- بص يا "حاتم ".....

****

يدخل "النونو" على "الصياد" الجالس وسط رجاله، وما أن رآه "الصياد" حتى انتفض واقفاً مبدياً اعتراض وسخط شديدين لوجوده في مثل هذا الوقت من النهار، فالمتفترض به أن يكون ملاصقاً لمبني الشركة ومتابعاً "لحاتم" طوال الوقت..

- إنت إيه اللي جابك يا زفت إنت؟ أنا مش مأكد عليك متتنقلش من مطرحك مهما حصل .....
- أيون يا معلمي بس كان لازمن أعرفك باللي حصل النهارده..
- ومكلمتنيش في التليفون ليه يا بأف؟

- يا معلمي بس اسمع وبعدين هتعرف إن كان لازم اجي وعارفني كويس مش ممكن أكسّر لك كلمة أبداً...
- اخلص.. قولي إيه اللي جابك على ملا وشك كده؟
- الواد الأستاذ..
- ماله الزفت.. عمل إيه؟ أنا عارف إن الواد ده مش هايجيبها لبر أبداً..
- صبرك بس يا معلم لم نشوف "النونو" جايب إيه!
- ماشي يا "شيحة".. قول يا سيدي، بس تعرف لو كلام فاضي عليَّ الحرام ماحد هايحوشك من تحت ايدي..
- يا معلم اسمعني بس.. الصبح مش الواد "حاتم" كلمك وأنا بعدها كلمتك انه بيتكلم في الموبايل وإنت كلمته ورجع كلمك تاني لم الناس خرجوا من الشركه....
- إيه اللي كلمك وكلمني وكلمته.. إيه الكلام ده.. ماتظبط نفسك ياض شويه..
- يا معلم في عربية سودا شبها كده بتاعت ظابط...جت الصبح عند الشركه و"حاتم" مكنش واقف...
- اشمعني يعني.. بتنجم حضرتك؟
- لا يا معلم العربية مفيمه والنسر مرشق على النمر وعلى الإزاز الوراني...
- لا ناصح ياض.. ومعرفتش طبعا هو مين وعاوز إيه؟
- لا يا معلم دا كان اتنين مش واحد.. منهم واحد بعكاز!!

لحظة من الصمت سادت الجميع بعدما التفت "سالم" نحو "شيحة" وباقي المجموعة التي اتسعت عيونهم جميعاً بعد سماع كلام "النونو ".. الجميع ألقي في صدره نفس الشك في الوقت ذاته..

بصوت منخفض على عكس مجريات سير الحديث.. وبعيون زائغة سأل "سالم"...

- متعرفش توصف أبو عكاز ده ياواد؟
- لا يا معلم لابس نضارة شمس هو والتاني برضه.. المهم انهم مطولوش ومشيو على طول.. بعدها بقي دخلت الشركه حاجة كده شبه حريم السيما صاروخ يا معلم وقفت الرجالة اللي في الشارع والشركة.. فضلت شويه وخرجت.. بعدها اتسحب الواد "حاتم" من مكانه.. غطس شوية وبعدها نزل هو "ثابت" بيه وركبوا العربية ومشيو..
- وبعدين.. انطق..
- مانا جايلك أهه يا معلم.. هم مشوا بالعربية من هنا ورجعت العربية السودا بتاعت الظابط تاني، بس المرة دي طلعوا فوق فضلوا بتاع ربع ساعة كده ونزلوا تاني بس كان باين عليهم مستعجلين...
- طيب معرفتش تشمشم كده وتعرف هم مين ولا عاوزين إيه؟
- لا والله يا معلم.. أنا لم لقيت الواد "حاتم" خلع مع "ثابت" بيه والظابط ده رايح جاي على الشركة قولت أطير أبلغك علشان تتصرف أنت!
- لا عفارم عليك يا "نونو".. اخلع إنت بقي على مطرحك ولو في حاجة كلمني متجيش.. فاهم!
- تؤمرني يا معلم.. سلام..

انصرف "النونو" وسط سحابة الصمت التي ألقت بظلالها على الجميع.. قبل أن يلتفت "سالم" نحو "شيحة" وباقي الرجال المتراصين من حوله...

- إنت شامم الريحة اللي أنا شممها يا "شيحة"؟
- أيوة يا معلم.. أنا الفار بيلعب في عبي من كلام الواد "نونو"..
- "شيحة".. هتاخد الرجالة وتطلعوا على المخزن القديم.. هتجهز كل حاجة مش هنستني لم "ثابت" ولا غيره لم يتعشوا بينا....
- طيب ما نستني لم الواد "حاتم" يرجع ونشوف إيه الحكاية برضه مش عاوزين نتسرع
- اسمع يا "شيحة" اللي بقولك عليه.. أنا شامم ريحه مش ولابد.. وأنا محبش أكون مدافع أحب أنا اللي أضرب الضربة الأولانيه... فهمت..
- اللي تشوفه يا معلم..
- "شريده" و"مانو" هاتيجو معايا نخلص مصلحة على السريع كده ونتقابل هنا تاني..
- طيب الواد "حاتم" لم يجي مين هايقابله يا معلم مش جايز يرجع بدري..
- بدري ولا متأخر ماهو كده كده "النونو" هايكون معاه، متقلقش إنت المهم مش عاوز تأخير.. مش عاوز غلط يارجاله...

****

- أدي بقي يا سيدي اللي كنت عامل حسابه وكلامي طلع صح.. هنعمل إيه؟
- شوف يا طاروق يا حبيبي.. العملية مستويه ومتظبطه بس ايدي تقع على "حاتم" علشان أوصل بيه "للصياد" واللي معاه..
- "حسام" إنت عارف أنا مش عاوز "حاتم" رجله تيجي في الموضوع!

- عيب يا حبيبي دي بتاعتنا.. بس أوصل للزيبق اللي اسمه "الصياد" وأعرف إيه اللي بيتم والفيلم الهندي اللي بيحصل ده كله ليه؟
- طيب و"جميل".. قصدي "ثابت"؟
- "جميل" ولا "ثابت" كله هايتلم ونفنط بقي الكوتشينه من أول وجديد، ونشوف بقي مين اللي هايلعب ومين اللي هايركن على جنب..
- طيب فهمني بقي إنت ناوي تعمل إيه؟
- أقولك يا سيدي.....

****

يتوقف المصعد أمام الطابق الرابع.. نزلت من المصعد حيث لافته نحاسية بارزة كبيرة تفترش الحائط (شركة بلازا بيتش للاستثمار العقاري والمنتجعات) وقفت أمامها قبل أن أدير بصري يميناً ويساراً ثم تقدمت نحو الباب المفتوح... بخطوات متباطئة دخلت لألتقي بأفراد الأمن وبعد حوار مقتضب تقدمت نحو الفاتنة الجالسة خلف مكتبها تمسك بالهاتف، لم تعرني اهتماماً كافياً فملابسي العادية التي أرتديها لم تكن يوحي أبداً بأني شخص ذا أهميه لكي تهتم بالتفرغ للقائي... أنهت مكالمتها ثم التفتت..

- اتفضل حضرتك..
- صباح الخير يا فندم، مش هاخد من وقت حضرتك كتير..
- لا أبداً مفيش مانع اتفضل.. خير؟
- أنا اسمي "محمد" شغال في الشركة العالمية للتجارة والتوزيع، صاحبها "ثابت" بيه..

- أه طبعاً.. "ثابت" بيه غني عن التعريف.. اتفضل اؤمر أقدر أخدم حضرتم في إيه؟
- أبداً.. هو بس "ثابت" باشا باعتني أسال إن كان "شوقي" باشا موجود ولا مش موجود وكان عاوز يعرف كمان.....
- ازاي يعني.. أكيد "ثابت" بيه يعرف كويس إن "شوقي" بيه في السجن من فترة.. وكان ممكن يتصل بينا ويسأل عن أي حاجة.. مش لازم يعني يبعت حد!!
- يا فندم هو حضرتك مستعجلة ليه! هو باعتني علشان أتأكد أنه مخرجش لأن في حد كان عنده في الشركة النهارده من طرفكم.. علشان كده هو باعتني أشوف الموضوع..
- حد مين اللي راح من طرفنا.. مفيش حد راح لحد ولا "شوقي" بيه خرج ولا بعت حد.. أنت بتهرج صح؟
- أنا ههرج ليه حضرتك.. الكلام مش كده.. سؤال أنا قولته لو عند حضرتك اجابه يبقي أسمعها وأبلغها لو مفيش يبقي ياريت تبلغي "شوقي" بيه إن في واحدة جت من طرفه "لثابت" باشا النهارده بخصوص عملية التصفية..

توقفت السكرتيرة مع كلماتى عن التصفية.. فالأمر انتقل من حيز المزاح او التلاعب لحيز الأمور الخاصة التي لا يعلمها أحد.. لم تكن الكلمة عابرة.. فكلمة واحدة كانت كفيله لتحويل الموقف مائة وثمانون درجة.. وفقت بعدها السكرتيرة معدلة ثوبها ثم طلبت الإذن لدقائق.. لتختفي وتعود بعدها بصحبة شاب.. مد يده بالمصافحة قبل أن يبدأ بالحديث..

- هو حضرتك بتشتغل مع "ثابت" بيه.. بتشتغل إيه بالظبط؟

- هتفرق كتير يعني.. أنا شغال في الأمن!!

لم يرق الرد لكلا المتعجبين فنظرات مع التفاتات مع ايماءات انطلقت مع كلمة الامن..

- الأمن؟
- أيوة حضرتك الأمن.. إيه المشكلة يعني؟
- طيب وحضرتك جاي من طرف "ثابت" بيه علشان نرد عليك ولا هنكلمه هو؟
- يا فندم قولت لحضرتك لو المدام اللي كانت عندنا من طرفكم يبقي الرد معايا.. لو مش من طرفكم يبقي تبلغوا "شوقي" بيه وبعدها تردوا على "ثابت" بيه وبسرعة.. خلص الكلام لو في حاجة تانيه علشان أنا مستعجل جداً..
- لا أبداً خلاص مفيش. بس هو ممكن حضرتك تقولي بس مين هي المدام أو اسمها؟؟
- لا طبعا مش ممكن دي عندكم بقي!!
- أنا هاستأذن ودا رقم "ثابت" باشا الخاص علشان تبلغوه الرد.. سلام..

انصرفت أنا الرجل الغامض من بين نظرات المتعجبان تاركاً كارت يحمل رقم موبايل ومكتوب عليه " ثابت التوني ".

****

الفصل السادس والعشرون

أشعرت فجأة وأنت تخالط الناس بأنك تعاني وحدة قاسية؟ الكلام من حولك مفهوم، ولكن بلا جدوى كأنهم عمي وأنت تريد أن تسمع خبرًا عن النور ممن رأى النور، وأيقنت ألا أنس لك إلا إذا اهتديت لنفسك ووصلتها أولاً بالكون كله؟

خاطراً تردد في عقل "إيمان" الشاردة في شرفة غرفتها تتأمل قمراً شاحباً في سماء تكسوها الغيوم.. لم تكن تدرك إلى أي طريق تحملها أقدارها.. أسألة كثيرة مُلحّة كانت تتزاحم في عقلها المنهك من تكرار الصدمات.. وها هي الآن تجلس منتظرة صدور قرار الإعدام..

لم تعد تنظر في عين أبيها ولا أمها ولا أي من أصدقاءها.. الجميع يرددون عبارة واحدة لم تنطقها شفاههم ولم تتحرك بها ألسنتهم ولكنها جرت من عيونهم.. الجميع يريد أن يُقطع دابر هذه الزيجة المجهولة المصير.. لكن أحداً لم يُصرّح.. الجميع يكتفي بنظرات.. نظرات وفقط..

قطع شرودها يد أبيها تمتد على كتفها برفق.. لكن رفقه وهدوءه لم يمنعها من أن تنتفض رعباً.. فقد كانت في عالم آخر.. عالم كله أحلام بغد مشرق يرفع عنها ظلمة حاضرها البهيم..

- إيه بس يا بنتي.. مالك فيكي إيه؟
- أبداً يا بابا.. بس كنت سرحانه شويه ومخدتش بالي إنك دخلت..
- وبعدين.. هتفضلي على الحال ده كتير يا بنتي؟

زاغ بصرها وبرقت عينيها بدموع ترقرقت إحداها في خجل على وجنتها.. رفعت يدها بسرعه لتخفيها وتمحوا أثرها بابتسامة مصطنعة..

- حال إيه بس.. ما أنا كويسه أهه.. وإن شاء الله "حاتم" هايرجع ونسافر الإسكندرية زي ما اتفقنا.. مش كده برضه ولا رجعت في كلامك..

رسم الحاج "إبراهيم" ابتسامة شاحبة على وجهه لم تكن كافية للظهور جليةً عبر تجاعيد وجهه التي رسمتها الأيام وأثقلها الزمن..

- يا بنتي أنا مش عاوز عمرك يتسرق منك وتلاقي الأيام فلتت من إيديكي ومعملتيش حاجة..
- فيه إيه بس يا حاج وهو أنا اشتكيت لك.. أنا مبسوطة ومرتاحة وهستنا "حاتم"..
- وهو انتي عارفه هيرجع إمتي؟
- يرجع وقت ما يرجع، إيه يعني!
- يا بنتي إفهميني.. أنا مش عاوزك تقطعي مشوار حياتك بإيدك..
- يعني بدل ما تيجي تقولي ربنا يصبرك وتدعي معايا إن "حاتم" يرجع تقوم تقولي أسيبه..
- يابنتي أنا مقولتش تسيبيه..
- أومال معناه إيه كلامك بس.. مش معناه إني أسيبه..
- أنا بس أقصد إنك تفكري كويس.. ومتتعلقيش بسراب أو بوهم أو أمل كداب..
- برضه مش فاهمه.. متوضح ياحاج..
- "نادر" ابن خالتك..

- ماله دا كمان؟
- كان عندي في الدكان النهارده ولَّح بالكلام...
- كلام إيه؟
- كلام يعني إنه عاوز يجي ويتقدم و.....

أثارت هذه الأخبار حفيظة "إيمان" التي لم تكن لتظهر عصبيتها ولا حنقها أمام أبيها.. إلا أن إسم "نادر" كان له مفعولاً خاصاً..

- الله.. في إيه بس يا بابا.. هو مش عارف إني مخطوبة ولا إيه؟
- يابنتي أنا قولت إنه لَّح بس متكلمش بالصريح كده..
- شوف يا حاج.. "نادر" إنت عارف انه مبينزليش من زور.. ومش بطيقه ولو خيرتني بين "حاتم" و"نادر" هاختار "حاتم" لو هستناه عمري كله..
- خلاص يابنتي اللي يريحك.. أنا قولت أعرفك يمكن تفكري...
- لا يا حاج وياريت لو جالك تاني سي "نادر" ده قوله معندناش بنات للجواز...
- خلاص يابنتي.. ألا هو مفيش أخبار جديده عن "حاتم"؟
- لا والله يا حاج بس أنا بكره إن شاء الله ناويه أخطف رجلي عند "طارق" بيه.. أزور مراته وأشوف يكون وصل لحاجة.
- عموما ربنا معاكي ويكتب لك الخير يا حبيبتي...

ينصرف الحاج "إبراهيم" وتعود "إيمان" لصمتها ودموعها.. عينان شاخصتان.. مثبتتان نحو فراغ الكون المظلم.. وقلب معلق بمجهول.. مر من الوقت الكثير.. لم تدرك "إيمان" تحديداً كم مر ولكن قطع خلوتها صوت هاتفها المحمول.. كان المتصل رقماً لا تعرفه لكنها بادرت بالرد لربما يكون المتصل هو "حاتم"....

- ألو... أيوة أنا مين معايا..

مش مهم ازاي مش لازم أعرف حضرتك مين وعاوز إيه؟

أيوة "حاتم" خطيبي.. ماله؟

أيوة حاضر حاضر..

طيب إمتي وفين؟

حاضر حاضر.. عارفاه طبعاً وهاجي لوحدي.. فهمت...

لا خلاص حاضر.. مش هاقول لأي حد خالص...

أيوة عارفاه...

طيب حاضر...

مع السلامة...

****

- حمد لله على سلامتك يا سي الاستاذ..
- الله يسلمك يا معلم..
- على الله تكون انبسطت في المشوار مع الباشا؟

سحقاً لهذا المخنث ذو السيجارة واللبانه.. فلا شك أنه من أبلغ عن تحركاتي كلها...

- دا مشوار شغل يا معلم.. الباشا كان واخدني معاه لمشوار شغل عادي يعني..
- وماله يا حبيب.. الشغل مش عيب ومحدش يقدر يتكلم..
- طيب مش عاوز تعرف اللي حصل النهارده بالتفصيل زي كل يوم؟
- لا متتعبش نفسك.. إنت زمانك جاي مهدود..

- لا أبداً يا معلم لا مهدود ولا حاجة.. ألا صحيح "سمير" فين مش شايفه يعني؟

تلفت "الصياد" وتبادل النظرات مع "شيحة" والآخرين قبل أن يطلق تنهيدة طويله ألقت الرعب في قلبي..

- مش خير يا معلم؟ "سمير" فين؟ الصبح إنت قولت لي نايم والوقتي؟
- بس صبرك متبقاش خولقي كده يا سي الأستاذ.. المعلم "سالم" عمل معاه الواجب.. ألا صحبك ده طلع بلاعة..
- متقولش كده يا "شيحة".. دا صاحب صاحبي.. يعني لازم نوجب معاه ونهتم بيه مش كده ياسي الأستاذ؟
- ماشي كتر خيرك يا معلم.. بس برضه معرفتش هو فين؟
- لا متشغلش بالك.. أصله تقل في العيار حبتين قومنا بعتناه للعياده يعملولوا غسيل معده ويروقوه علشان لم يرجع ميبانش عليه حاجة.. شوفت بقي إحنا بنعمل في الصالح إزاي؟؟

لم يعجبني مطلقاً ردود "سالم" ولا تلميحات "شيحة".. أيقنت أن شيئاً ما حدث لسمير" والكل يحاول خداعي....

- عيادة إيه دي اللي انتا بعته ليها.. أنا عاوز أروح أشوفه؟
- هنروح كلنا بس بكره.. إن شاء الله في الليل هتكون معاه وتطمن عليه بنفسك..
- إيه بس يا "حاتم" إنت يعني فاكر إن المعلم ممكن يضرك ولا يضره.. طب شوف الشنطة دي كده وافتح وشوف..

- شنطة إيه دي كمان؟
- ما تفتح وتتفرج وإنت تعرف..

مددت يدي نحو حقيبة ملابس كبيرة.. فتحتها لأجد فيها كل ملابسي ومتعلقاتي أنا و"سمير".. كل شيء تم جمعه في هذه الحقيبة.

- دي حجاتي وحجات "سمير"!
- عفارم عليك.. ما انت صاحي ومركز أهو..
- طيب إنت مجمعها ليه في شنطه كده؟
- علشان تستلم إنت الشنطة.. مش واجب برضه نعمل معاكم أى حاجة.. انتو رجالتنا.. مش كده ولا إيه؟
- مش فاهم برضه.. متوضح يا معلم.. إيه الحكاية؟
- إيه بس يا "حاتم".. لا حكاية ولا رواية.. المعلم شاف إن كل الحاجات دي اتبهدلت.. قام بعت اشتري لكم جديد في جديد.. وحاجات إيه.. وربنا المعبود كلها حاجات أصلي وهتعجبك..

فتحت الشنطة وبدأت أفند في محتوياتها متعجباً لما رأيته..

- ودا ليه بقي كل ده يا معلم.. هو حد كان اشتكي من لبسه القديم.. دا كل حاجة لحد الموبايل كمان!!
- موبايل إيه بس.. وانت بتسمي البتاع اللي كان معاك ده موبايل.. طيب بص واتفرج على الموبايلات بجد..
- مع إني مش مطمن بس على كل حال تشكر يا معلم...

- لا متشكرنيش.. إنت تقوم تغير هدومك كلها وتلبس الجديد وتيجي توريني.. عاوز كل القديم ده نخلص منه.. مش عاوز أى حاجة منه خالص..

لم أصدق مطلقاً ما رواه "شيحة" عن الكرم الحاتمي الذي اعتري "سالم" بين عشية وضحاها.. فما أقْدم هذا الأخير على شيء حتى كان من خلفه مصيبة عظمي وطامة كبري.. لكني لا أعرف.. لم يكن بوسعي أن أتخيل ما يسعي "سالم" للوصول إليه من تبديل كل متعلقاتنا.. لكني للأسف.. ومع كل خطواتى في طريقي المجهول اعتدت فقد أشياء كثيرة.. الآن وصل الأمر أن أفقد حتى ملابسي دون أن أبدي اعتراضاً.. أصبح التسليم مبدأ والاستسلام طريقاً..

ارتديت الملابس الجديدة وخرجت لألتقي بالجمع الذي كان يتخفى وسط سحب الدخان الأزرق.. ما أن رآني سالم حتى أطلق ضحكه عالية توالت على أثرها سيل الضحكات من الجميع..

- أيوة.. أيوة.. شوفت يا راجل.. أهو دا الشغل ولا بلاش..
- تسلم يا معلم.. بجد الحاجات دي حلوة.. كتر خيرك..
- شوفت بقي يا "حاتم".. مش قولت لك المعلم بيحبك وهايظبطك.. بس إنت تركز معاه وهو هاينطقك ويخليك مية فل وأربعتاشر..
- تشكر يا معلم.. اتفضل دي بقيت الحاجات القديمة.. معلش بقي متوسخه.. إنت عارف يوم الشغل..
- لا دا أحلي حاجة فيها إن فيها ريحتك.. دي هتبقي للذكري.. علشان لم تغتني وتنطق للعلالي تبقي تبص عليها وتضحك على الأيام دي.. مش كده يا رجاله...

أطلقت كلمات "سالم" وضحكاته ضحكات الجميع بشكل هستيري ساعدهم على ذلك الحشيش والزجاجات المتراصة على الأرض منها الفارغ ومنها الممتلئ.. لكن ظل فكري متعلقاً بالغائب "سمير" وما حل به.. وهل فعلاً بخير ولماذا لم يسألني "سالم" عما حدث اليوم؟

استأذنت من الجمع لأعود أدراجي إلى مكان نومي لأجد أقراصي موجودة في مكانها.. التهمتها وألقيت بجسدي على السرير لأنهي بهم رحلة يوم شاقة من التعب والتفكير..

****

صباح اليوم التالي...غرفة مأمور السجن..

يدخل "شوقي" و"الطحان" غرفة مأمور السجن الذي يستقبلهما بحفاوة يفسرها وجود "جمال البسيوني" الزائر الأنيق ذو الشأن.. ثم ينصرف تاركاً الأخير وقد نُقشَت على وجهه ابتسامة ثقة تصل إلى حد الغرور....

- مرحب "سعيد" باشا.. أهلا "شوقي" باشا.. منورين..
- أهلا بيك يا "جمال" بيه..
- ها.. يارب يكون الرد جاهز.. الناس منتظره على أحر من الجمر.. مش عاوز أرجع لهم بإيدي فاضية..

يتبادل "سعيد" و"شوقي" النظرات قبل أن يبادر "شوقي" بالرد..

- عرضك مرفوض يا "جمال" بيه..

يرمقه "سعيد" بنظرة ثاقبه كادت تخترق قلبه... قبل أن يعقب "جمال"...

- ليه بس يا "شوقي" باشا.. الكلام أخد وعطا.. إيه بس اللي مزعلك..
- استني يا "جمال" بيه.. خلي الكلام معايا أنا..
- وماله يا "سعيد" باشا.. أنا تحت أمركم بس ياريت بلاش حكاية مرفوض ده أصل الكلمة دي بتزعل...
- لا مش مرفوض ولا حاجة.. بس الرقم هو اللي عليه الكلام..
- طيب ماشي نتفاهم.. أنا معايا صلاحيه بالتفاوض لحد ما نوصل للي يرضيكم.. أنا عارف إن الموضوع مش سهل..
- متزعلش مني يا "جمال" بيه السوق عرض وطلب وإنت عرضت 400 مليون جنيه.. احنا جالنا عرض أحسن بكتير.. مش كده يا "شوقي"..
- اه طبعا.. 400 مليون إيه احنا جايلنا عرض أحسن من كده بكتير..
- أحسن من كده.. مستحيل طبعاً.. أنا عارف السوق وعارف مين اللي ممكن يشيل وبكام.. فياريت يا جماعه نقرب المسألة.. عاوزين كام..

التقت عينا "شوقي" و"سعيد" وقبل أن يتحدث "شوقي" أشار إليه "سعيد" بالصمت..

- شوف يا "جمال" بيه.. احنا معنا عرض بـ 200 مليون.... دولار

علت الدهشة وجه "جمال" قبل أن يسيطر على ملامحه ويحولها لابتسامه مصطنعة باهتة...

- 200 مليون دولار.. وهو حد معاه دولارات أساسًا في البلد يا باشا... ثم الرقم ده مفيش حد لا في مصر ولا برا مصر هايشيل بيه.. أنا عارف أنا بقول إيه كويس إحنا مش قولنا دي فطيس..

- عموما دا اللي عندنا.. شاور وقدامك 24 ساعة للرد..
- "سعيد" باشا.. إنت كده مش عاوز تخلص.. وأنا سبق وفهمت حضرتك إن العملية دي بتاعتنا.. من الأساس.. يعني فيها لاخفيها..

تغيرت ملامح "سعيد" وعلت صوته نبرة تهديد واضحة..

- إنت جاي هنا تشتري على مزاجك ولا إيه.. الكلام خلص. يعني لو عاجبك السعر شيل.. مش عاجبك يبقى.....

قاطعه "جمال" بابتسامة تحمل الكثير من الخبث وبعضاً من الثقة: ما يبقاش ولا حاجة يا "سعيد" باشا.. عموما أنا هزود العرض لـ 600 مليون جنيه.. يعني كل واحد فيكم 100 مليون.. مش أنتم 6 شركاء برضه..

ضربه مباشرة في وجه الطحان استقبلها بحرفية شديدة فلم يبدي أى انفعال لما ذكره "جمال" من معلومة مباشرة تكشف علمه بأشياء أكثر مما يعتقد "الطحان" نفسه.. لكن "شوقي" المهتز أصابته الكلمات بصدمة مباشرة جعلته يخرج عن صمته..

- أنا موافق.. أنا موافق يا "سعيد" باشا.. خلينا نخلص

رمقه "سعيد" بنظرة حادة: أنا قولت الكلام معايا أنا.. والعرض مرفوض..

- خلاص متزعلش نفسك كده يا "سعيد" باشا.. وزي ما سعادتك قولت من شويه السوق عرض وطلب.. وأنا عرضت وانت رفضت.. بس متنساش حاجة مهمة.. اللعبة اتغيرت والجوكر بتاع امبارح النهارده شاب..

اعتدل "سعيد" واقفاً من جلسته قبل أن يرفع يديه باتجاه "جمال" لمصافحته..

- شكراً على عرضك يا "جمال" بيه
- شكراً على إيه بس يا "سعيد" باشا.. كان نفسي نتقابل في نقطه لكن برضه مش هاقفل الباب.. معاكم لحد بكره زي دلوقتي ممكن الكلام يتغير.. العرض 600 مليون جنيه كاش..
- مع السلامة يا "جمال" بيه..

****

الساعة تشير إلى تمام العاشرة صباحاً..

تجلس "إيمان" المتوترة على إحدى مقاعد الإنتظار في محطة أتوبيس العباسية.. ترفع يدها لتطالع عقارب الساعة التي تمضي ببطيء شديد قبل أن يقف بجوارها شاب يحمل حقيبة كبيرة.. وفي يده الأخرى يمسك بسيجارته..

- بسم الله ما شاء الله.. إيه كل ده.. يا بختك يا سي الأستاذ..

لم تعره "إيمان" أى اهتمام فقط استمرت في حركة قدمها المتوترة مع رفع يدها لمطالعة الساعة كل دقيقة تقريباً.. تتجول برأسها في كل اتجاه كمن يبحث عن شيء مفقود.. قبل أن تتوقف مع كلمات هذا المجهول..

- ست "إيمان".. الشنطة دي ليكي.. متفتحيهاش غير في البيت لم تروحي.. وربنا يصبركم بقي..

- إنت مين وإيه الشنطة دي؟

لم تتلق أى إجابه فقد ترك الشاب الحقيبة وأطلق العنان لخطواته بين جموع الناس ليختفي عن نظرها.. لتعود لتنظر إلى الحقيبة التي خلفها ورائه.. تقلبها بين يديها.. تمد يدها لتداعب هذا القفل الصغير الذي شبك بين طرفي السحاب الخاص بالحقيبة..

****

في نفس الوقت...

تقف سيارة "ثابت" أمام الشركة.. يهرع إليها "شكري" كالعادة محاولاً أن يكون له السبق في حمل حقيبة "ثابت" الذي يتجاهله ويشير إلى بحمل الحقيبة واتباعه إلى مكتبه..

يرمقني "شكري" بنظرة تحمل في طياتها معاني كثيرة من الاستهجان والغيرة والحسد والفضول لمعرفة سر العلاقة بين رجل أمن لم يمضي في شركة أيام معدودة وصاحبها الذي لم يكن ليبدي أي اهتمام بأي من العاملين بالشركة..

- تعالي يا حاتم.. حط الشنطة دي هنا واقفل الباب..
- تمام يا "ثابت" بيه..
- قولي... "سالم" عمل إيه معاك إمبارح.. أكيد سألك روحت فين معايا؟
- لا يا باشا والله.. أنا حتى استغربت وحبيت أقوله رفض..
- رفض!! ماشي.. وبعدين محصلش حاجة ولا سمعت حاجة؟
- لا يا باشا.. دا كان مزاجه عالي قوي إمبارح وجاب لي لبس وحاجات جديده لي أنا و"سمير" صاحبي..
- حاجات جديده إزاي يعني؟

- يعني لبس وحاجات شخصية لحد لا مؤاخذة.. يعني لحد الغيارات وكده يعني..
- آه مفهوم.. طيب وحاجاتك القديمة فين؟
- خدها كلها وحطها في شنطة هي وحاجات "سمير"..
- وبعدين..
- بس يا باشا.. نمت وصحيت جيت على هنا..
- يابني آدم عارف إنك نمت.. أنا بقولك على حاجاتك القديمة..
- معرفش يا باشا هو قالي هتبقي ذكري...
- هو مين ده؟
- مين إيه يا باشا.. أقصد الهدوم والحاجات القديمة هتبقي ذكري..
- لا.. ولا إنت الصادق.. إنت اللي هتبقي ذكري يا عبيط..
- أنا؟
- أيوة يا فالح.. إنت تليفونك فين؟
- أخده يا باشا وجابلي تليفون جديد..
- فين هو؟
- أهو ساعدتك..

مددت يدي في جيبي وأخرجتك الهاتف الجديد.. ما أن رآه "ثابت" حتى انتفض من مكانه بشيء من الجنون والصخب لم أره فيهما من قبل.. مد يده وانتزع الجهاز من يدي وأخذ يعبث به قليلاً قبل أن يصيح في وجهي غاضباً: إيه دا يا غبي.. أنا قولت إنك غبي.. غبي..

لم أجد مبرراً لهذه الثورة والعصبية، غير أنه لم يدع لي فرصه للتفاوض أو الاستفهام، فقد كانت يده أسرع من تفكيري.. مد يده وفتح درج مكتبه وأخرج مسدسه.. ثم ساحب أجزاء الأمان..

- إيه بس ياباشا.. ليه المسدس ده..
- علشان إنت غبي.. وأنا باكره الأغبيا..

رفع ثابت الهاتف بيده اليسرى أمام فمه وهو يحدثني بينما كان المسدس في يمينه مصوب نحوي..

- ثابت باشا.. فهمني بس أنا عملت إيه..
- إنت فاكر إنك هتقدر تلعب بيا.. إنت كده بتسلم رقبتي "لسالم" بتاعك..
- يا باشا والله ماعرف.. والله يا باشا ما عرف..
- كفايه عليك كده.. إنت خدت أكتر من وقتك ومش هتجيب فايده.. بالعكس إنت كده هترجعني ورا.
- ثابت باشا.. والنبي.. لا.. والنبي.. لالالالالالا

انطلقت ثلاث رصاصات سمع دويها في أرجاء الشركة جعلت الجميع يهرعون إلى مكان الصوت...

****

منزل أم رامي...

أمام باب شقة "أم رامي" يطرق الباب الحاج "إبراهيم".. ثم ينتظر قليلاً حتى فُتح الباب..

- صباح الخير يا حاجة..
- صباح الفل يا حاج إتفضل.. إيه النور ده، خطوة عزيزة..
- يزيد فضلك يا غاليه.. هي: إيمان، عندك مش كده؟
- لا والنبي يا خويا مجتنيش النهارده.. أنا كنت لسه هسألك عليها حالاً!

تعلوا الدهشة وجه الرجل...

- تسأليني إزاي.. دي نزلت ومقالتش هي رايحه فين وأنا وأمها فاكرينها عندك!
- إنت بتتكلم جد يا حاج؟ والنبي يا خويا ما جاتني ولا أعرف هي فين!!

بدأ الاضطراب يكسوا ملامح الحاج "إبراهيم".. وبالطبع "أم رامي " بشكل أكبر..

- أومال راحت فين دي بس؟ دي عمرها ما خرجت إلا ما قالت رايحه فين!!
- طيب ما ترن علينا يا حاج وتشوف هي فين؟
- أنا رنيت عليها تليفونها مش بيرد..
- إنت هتقلقني ليه بس يا حاج.. تلاقيها نزلت تجيب حاجة وزمانها راجعة.
- أنا معدش في أعصاب يام رامي والله..
- استهدي بالله.. زمانها جايه دلوقتي.. تعالي بس إشرب لك شوية شاي وربنا هايبعتها..
- شاي إيه بس! أنا هنزل أدور عليها..
- هتدور إيه بس تعالي ياحاج.. نستني شويه لو مجتش يبقي نلحق نتصرف..

أصوات أقدام متثاقلة تصعد درجات السلم ببطيء شديد.. يلتفت الحاج "إبراهيم" نحو مصدر الصوت.. يري "إيمان" فينزل إليها مسرعاً حاملاً عنها الحقيبة التي كانت في يدها.. كانت في حالة تشبه التنويم المغناطيسي..

- "إيمان".. كنتي فين يا بنتي.. تعالي اطلعي.. وإيه الشنطة دي؟

لم يتلق أى إجابة.. فقد كانت "إيمان" كمن حط على رأسها الطير فأفقدها صوابها..

- أصبر يا حاج بس لم تطلع وتاخد نفسها ونعرف كل حاجة.. تعالي يا بنتي أدخلي..

دخل الثلاثة إلى شقة "أم رامي" وأُغلق الباب دونهم..

- أنا هاعملك كوباية لمون تروقك وتفوقك على ما تاخدي نفسك..
- لا متعمليش حاجة يا خالتي..
- خير يابنتي قلقتينا عليكي.. مش عوايدك تنزلي من غير ما حد يعرف!!
- متزعلش مني يابا.. بس أنا الوقتي عاوزه أفتح الشنطة دي...

ينظر الحاج "إبراهيم" بتعجب إلى الشنطة التي كانت أمامه مباشرة.. ثم يسأل متعجباً: فيها إيه الشنطة دي يا بنتي؟ وجبتيها منين؟

- دا واحد كلمني إمبارح في التليفون وقالي أقابله وهو اللي إدهالي..
- مين دا؟ ومقولتيش ليه حتى كنتي تعرفي "حسام" بيه ولا "طارق" بيه!
- هو قالي محدش يعرف..
- هو مين دا يا بنتي؟
- معرف يابا والله دا حتى ماتكلمش معايا.. سابها ومشي..
- يبقي يا حاج لازم نكلم "حسام" بيه.. مش كده يا "إيمان"..
- اللي تشوفيه يا خالتي.. المهم أنا عاوزه أعرف فيها إيه الشنطة!!
- يبقي كلام "أم رامي" صح.. نكلم "حسام" بيه وهو يفتحها بمعرفته..

– أيوة يا حاج مش يمكن فيها حاجة كده ولا كده وتضرك يا بنتي..

انصاعت وأمسكت بهاتفها لتتصل "بحسام" لتخبره بأمر الحقيبة والاتصال.. كانت متأكدة من شيء ولكنها كانت ترغم نفسها على إنكاره أو تكذيبه.. ففقدان "حاتم" وكلمات الشاب المجهول ((ربنا يصبركم)) كانت ترسم صورة معتمة لغد مظلم ربما تفوق ظلمته سواد القبر..

****

الفصل السابع والعشرون

قبل نصف ساعة في مكتب "حسام"..

تتصاعد أعمدة الدخان الأبيض من السيجارة التي يمسكها "حسام" بيمينه.. يجري مكالمة تليفونية.. بينما كان "طارق" جالساً على الكرسي المقابل لمكتبه يتناول كوباً من القهوة الخصوصي التي أوصي له بها "حسام" قبل قليل..

ينهي "حسام" مكالمته قبل أن يلتفت نحو "طارق" مشكباً بين أصابع يديه..

- ها ياعم "طارق"..
- ها إيه.. إنت اللي هتقول مش أنا!!
- هقول إيه؟
- هتقول إيه ازاي يعني؟

يلقي "حسام" بجسده للخلف رافعاً رأسه لأعلي ينفث دخان سيجارته...

- شوف ياعم "طارق" الحكاية عاوزه ترتيب صح علشان تخلص صح..
- مش فاهم!!
- أفهمك.. دلوقتي "ثابت" ولا "جميل" أياً كان.. دا راجل هربان من حكم.. بس مفيش عليه حاجة لأنه مغير اسمه وأكيد مرتب أوراقه ومش بعيد يكون ملفه اللي في مصلحه السجون اتبخر...
- يعني منقدرش نكلمه.. صح!
- صح.. والتاني "سالم" منعرفش مكانه ومعاه "سمير" و"حاتم "اللي عاوزينه يطلع من الموضوع "سليم"..

- ماشي.. يعني دا كمان مش تحت إيدنا..
- جميل.. يبقي فاضل خيط واحد بس هو اللي هيوصلنا لليله دي..
- إيه هو بقي؟
- نشوف "حاتم".. يعني نمشي وراه.. يعني نقطره وهو خارج من شغله.. طالما عرفنا مكانه يبقي سهل نبعت حد يقطره وهو خارج وساعتها هنعرف هو بيروح فين.. وأكيد المكان اللي هيروحه هيبقي فيه كل الحبايب..
- طيب ومستني إيه بس.. ما تخلص يا "حسام" الوقت مش في صالحنا..
- مستني إيه بس اصبر بس ومتبقاش حمقي كده..
- أنا عملت كده فعلا من إمبارح بعد ما رجعت من معاك بعت أمين شرطه علشان يعرف "حاتم" بيروح فين لم يخلص..
- وعرفت المكان؟
- أيوة عرفته..
- الله.. وساكت ليه بس يا "حسام"..

اعتدل "حسام" من مقعده وتقدم نحو "طارق" حتى جلس على المقعد المقابل له..

- ساكت علشان الأمين اللي بعته يسأل في الحته اللي حاتم راح فيها وعرف إن اللي موجودين مش "سالم" ولا "رجالته"..
- أومال مين يعني؟
- جماعه صعايدة من بتوع اليومية.. عمال يعني..
- و"حاتم" بيروح هناك ليه؟
- معرفش..

- مش يمكن يكون الأمين غلط في السؤال ولا حد ضلله علشان منوصلش هناك؟
- يمكن.. ويمكن يكون صح.. بس لازم قبل ما نتحرك يبقي الخطوة سليمة..

بدا الإنفعال يظهر على ملامح وصوت "طارق" الذي سحب أخر نفس في سيجارته ثم أطفأها بشيء من العصبية..

- إنت هتجنني يا "حسام".. يعني عارف المكان وبتتعامل بالبرود ده..
- لازم البرود يا "طارق".. لازم كل خطوة تتحسب.. المرة اللي فاتت روحنا لقيناهم مشيوا من المكان.. المرة دي ممكن "حاتم" يتأذي ولا "سمير"..
- طيب وانت ناوي على إيه؟
- أقولك يا سيدي.. احنا هننزل بقوة وإذن نيابة معانا ونمشي ورا "حاتم" وهو خارج من شغله.. المكان اللي هيدخله نلم كل اللي فيه ويطلع زي ما يطلع.. صعايدة ولا عفاريت مش مهم.. هنوصل ساعتها لحاجة أكيد..
- طيب ومستني إيه متخلص يا "حسام"..
- أنا بس مستني إذن النيابة والتحرك هيكون عند المغرب وقت ما "حاتم" بيروح..
- طيب ومن هنا للمغرب هتعمل إيه؟
- ولا حاجة.. أنا مثبت أمين شرطه قدام الشركة أي حركه غريبه هيبلغني فوراً و.....

يقطع الحديث صوت هاتف "حسام".. كان المتصل "إيمان "..

- استني علشان" إيمان" بتتصل..

- "إيمان" خطيبة "حاتم"؟

أومأ "حسام" برأسه مع إشارة من يده وهو يرفع الهاتف ليجيب على الهاتف...

- أيوة يا "إيمان".. خير.. في جديد؟

امتي دا حصل..

وبعدين..

طيب استني متفتحيش حاجة أنا جايلك..

مسافة السكة.. مع السلامة..

- خير!! إيه ياعم في إيه؟
- تعالي معايا هافهمك في الطريق مفيش وقت.. العملية باينها هتتعقد ولا إيه..

****

في ذلك الوقت كانت "سوزي" تطالع الأخبار وفي يدها فنجان القهوة تغطيها سحابة بيضاء من أثر السجائر التي تناثرت بقاياها في قاع الطفاية أمامها.. تتناول رشفة من فنجان قهوتها.. تطلق نفساً عميقاً يحمل آلاماً وأحلاماً وأفكاراً تتصارع داخل عقلها مسببة لها صداعاً أرغمها على تناول بعض الأقراص المهدئة والمسكنة لعلها تستطيع السيطرة عليه..

يرن هاتفها فتسرع بالتقاطه.. كان المتصل هو "سعيد"...

- أيوة يا حبيبي.. ازيك عامل إيه؟

لا ليه محدش اتصل..

أيوة مانا اتصلت بيه من شوية ومحدش رد عليَّ

حاضر هحاول تاني..

حاضر..

خلاص لو مردش هاروح له الشركه تاني وأبلغك..

لا مش هتأخر.. مسافة الطريق..

أيوة.. على12 بالكتير يكون عندك الرد

خلاص يا حبيبي إطمن أنا هتصرف..

سلام يا حبيبي..

تضع "سوزي" الهاتف وتستدير برأسها نحو النافذة المطلة على بنايات القاهرة المتزاحمة.. تطلق دخان سيجارتها ثم تغمس المتبقي منها في الطفاية وتتجه نحو غرفتها لتدبل ملابسها..

****

بخطواته المتباطئة وبثقته المصطنعة المرسومة بحرفة شديدة.. يتقدم "سعيد" نحو المجموعة الجالسة في دائرة يتوسطها النادب حظه والمتحسر على عمره وماله.. الذي تقمص دور الندابة أو المعَدِّدة يحيطه خمس من السنيده..

لم يكترث "سعيد" كثيراً لهذا المشهد الدرامي المتبذل فهو يعرف جيداً أن كلاً من هؤلاء يبيع أهله من أجل حفنة من الأوراق الخضراء..

تقدم وجلس في مواجهة شوقي الذي أمطره بوابل من العتاب واللوم على تضييع الفرصة التي كانت بين يديه ولم يحسن استغلالها...

تمادي "سعيد" في تصنع اللامبالاة قاصداً إذلال "شوقي" وجعله يفرغ ما في جوفه من مهاترات قبل أن يبدأ هو في فرض بنود ولايته وسطوته على الجميع...

- سعيد: ها.. خلصت كده يا "شوقي"..
- شوقي: بعصبية وثورة.. لا يا باشا لسه مخلصتش.. بس لو حابب تتكلم أحب اسمع سعادتك..
- نافع: إيه بس يا جماعه ما تهدوا كده وخلونا نعرف نتصرف.. الوقت مش في صالحنا خالص..
- شوقي: ما تقوله والنبي يا "محمود" باشا.. "سعيد" باشا بيعطل المراكب السايرة وبيحط أرقام خيالية هو عارف إن محدش ها يخلص بالرقم ده..
- سعيد: مش إنت اللي عملت فيها سبع رجاله وقولت مش ها نبيع وعرضك مرفوض..
- شوقي: حصل يا باشا.. بس ده اللي كنا متفقين عليه والراجل قدم الرقم اللي تكلمنا عليه وقال 600.. وأنا كنت هاخلص وانت منعتني...
- نافع: طيب يا "سعيد" ما هو فعلاً إحنا متفقين على 600 ليه مخلصتش؟
- الكومي: أيوة مش الكلام كان على 100 لكل واحد ونخلص قبل ما الحاجة تتسحب من إيدينا ولا نطول أبيض ولا أسود؟
- سعيد: يا غبي إفهم.. دا مينفعش نبيع له.. دا عارف إن إحنا عددنا سته وقال كل واحد 100 على سته.. إفهم.. يعني حد عارف كل حاجة.. ممكن يكون فيها غدر ومحدش يقدر يتكلم..
- شوقي: لا بقي أنا مش معاك.. دا أحسن حد يشتري.. علشان بيشيل على عيبه وهو عارف..

– شاكر: "شوقي" عنده حق يا "سعيد".. هو كده بيقولك إن البيعه بتاعته يعني نرضي باللي يدفعه أحسن ما تروح خالص.. وأنا من رأيي تكلمه وتخلَّص

– موافي: وأنا مع الرأي ده.. كلمه يا "سعيد" وخلَّص..

– شوقي: شفت يا باشا كلنا على رأي واحد والمفروض رأي الأغلبيه هو اللي يمشي..

– سعيد: انتوا شايفين كده!!

– نافع: ما تخلص يا "سعيد" خلينا نفوق من الوش ده ونشوف اللي ورانا..

– سعيد: خلاص.. تمام.. كلم يا "شوقي" البت اللي عندك خليها تجيب العقود والورق وتجي علشان نتمم كل حاجة

****

تقف سيارة "حسام" أمام منزل "أم رامي" وينزل منها مع "طارق" قاصدين شقة "أم رامي".. دخلا مباشرة حيث كان الباب مفتوحاً وعدداً من الأشخاص لا بأس به تذخر بهم الصالة..

– صباح الخير يا جماعة في إيه خير؟

– "حسام" باشا.. كويس إن حضرتك جيت.. هي دي الشنطة اللي جابتها "إيمان"..

يتقدم "حسام" نحو "إيمان" التي كانت خارج الخدمة.. فالذهول والخوف كانا قد تملكا منها تماماً وأجلساها صامتة وسط الجمع..

– ليه يا "إيمان" ما بلغتنيش إن حد كلمك؟

- والله يا باشا هو قالي مقولش لحد وأنا خوفت..

يصيح "طارق" معنفاً "حسام": يا أخي مش وقته افتح الأول الشنطة نشوف فيها إيه؟

يخرج "حسام" ميدالية المفاتيح كانت تحوي طفاشة صغيرة.. استخدمها بحرفية استطاع إن يفتح بها القفل بمنتهي السهولة.. ثواني وانفتحت الحقيبة ليظهر منها أغراض "حاتم" و"سمير" التي عرفتها "إيمان" و"أم رامي" التي صدمت بمجرد أن سقطت عيناها عليها..

- ياهوي.. إيه ده.. دي حاجات "حاتم" و"سمير" أنا عرفاها...

مد "طارق" يده بعصبية شديدة إلى الورقة المطوية أعلي الملابس.. فردها.. كانت تحتوي على كلمات مقتضبة لكنها قاتله.. (شدوا حيلكم.. كلنا لها..)

ترنح "طارق" وشخصت عينا" إيمان" وشهقت "أم رامي".. قبل أن يتدخل "حسام" محاولاً السيطرة على الموقف: إيه يا جماعة بس استنوا لم نتأكد.. مش جايز حد بيلعب معانا لعبة..

- هتتأكد إزاي بس يا "حسام"؟
- استني يا "طارق"..

أخرج "حسام" هاتفه ليجري اتصالاً.. انتظر لثواني قبل أن يجبه الطرف الآخر..

- أيوة يابني أنت فين دلوقتي؟

إيه خير إيه اللي حصل؟

بتقول إيه؟

امتي ده حصل؟

إزاي متكلمتنيش على طول وتبلغني؟

يعني ايه مستني تعرف أي حاجة.. كنت كلمتني برضه حتى لو معرفتش؟

طيب مفيش إسعاف ولا شرطة وصلت المكان؟

طيب لم هو فيه.. ما دخلتش ليه ياغبي تشوف إيه الحكاية؟

طيب و"حاتم" دخل الشركة النهارده الصبح ولا مشوفتوش دا كمان؟

متأكد إنه في الشركة.. متأكد..

طيب حاول تاني تدخل وشوف الحكاية وبلغني فوراً..

بسرعه...

يغلق "حسام" الهاتف قبل أن يستدير إلى الجمع المحيط به.. يرسم ابتسامة مصطنعة على وجهه ويرفع يديه أمامه ليشير إلى الحقيبة والورقة..

– لعبه.. حركه بس علشان يتعبوا أعصابنا.. "حاتم" في الشركة من الصبح..

مد "طارق" يده ليمسك بكتف "حسام"..

– أومال إيه اللي قولته للأمين ويتأكد من إيه؟

– لا دي بس خناقة في الشركة والناس إتلمت والغبي معرفش مين اللي فيها.. بس.. دي الحكاية.. يلا بينا بقي..

مع أخر كلمات "حسام" تسقط "إيمان" على الأرض فاقدة الوعي تماماً.. أعقب سقوطها صرخة مدوية من "أم رامي" تحولت على أثرها الشقة الصغير إلى خلية نمل تكتظ بالبشر...

ينسحب "حسام" و"طارق" بعد أن ركبت "إيمان" سيارة الإسعاف متجهة نحو المستشفى يصحبها أبيها وأمها و" أم رامي" بينما ظلت "بهيرة" مع ابنتها في المنزل لتخبر "حسام" إن حدث أي جديد وتتصل به على الفور لو لزم الأمر...

يركب "حسام" و"طارق" السيارة ويغلقا الأبواب قبل أن يستدير الأخير بحركة حادة وقد بدا عليه الانفعال.

- خناقة إيه اللي كنت بتتكلم عليها يا "حسام".. وهو فعلاً "حاتم" راح الشغل؟
- أنا عاوزك تهدي خالص لأننا داخلين على اتنين مدَّربين طالعين من نفس المدرسة وبيلعبوا بنفس الخطة وفي ماتش واحد..
- مش فاهم.. تقصد مين؟
- أقصد "سالم" و"ثابت" والكورة هي "حاتم".. "حاتم" مماتش ومش هايموت إطمن..
- مش ها يموت إزاي؟ وإيه الشنطة والحاجات اللي فوق دى؟
- اسمع اللي بقولك عليه.. "حاتم" وإن كان غير ذات أهمية "لسالم" ولا "ثابت" ولا حد فيهم يستعني يدوسه بجزمته.. بس دلوقتي هو الكورة اللي بيلعبوا بيها.. ينفع ماتش يبقي من غير كوره؟
- كورة إيه وماتش إيه.. يا "حسام" والنبي كلمني كلام أفهمه..
- يعني شوف تمن الكورة وتكلفتها قبال تمن اللعيبه والجهاز في الفرقتين.. هتلاقيه ولا حاجة.. بس اللعيبه والجهاز من غيرها برضه ولا حاجة.. يعني "حاتم" مش ها يموت.. ها يكمل.. على الأقل لحد ما اللعبة دي تتفض...
- طيب وبعدين هتعمل إيه؟

- تعالي بينا نطلع على الشركة ونشوف الوضع على الطبيعة

****

قبل ساعة

يقف " النونو" على مقربة من مقر الشركة ممسكاً بهاتفه المحمول وقد بدا عليه القلق..

- الحق يا معلم.. شوفت اللي حصل.؟

في صوت ضرب نار في الشركة والناس ملمومه وليله كبيره..

لا يا معلم معرفش.. بس عربية "ثابت" بيه وصلت والواد "حاتم" طلع معاه ومفيش عشر دقايق بالكتير وسمعت ضرب النار..

أيوة يا معلم زي ما بقولك..

حاولت أدخل بس الأمن منعني..

لا يا معلم مفيش لسه لا بوليس ولا إسعاف وصل..

حاضر يا معلم

خلاص أول ما أعرف ها كلمك دوغري

سلامي يا معلمي..

يغلق "سالم" التليفون قبل أن يستدير ناحية رجاله.. يحك ذقنه بظهر يده ثم يرفعها ليمسح أنفه ساحباً بعدها نفس عميق..

- شوفت يا "شيحة".. أهو صاحبك باينه اتهوي..

ينتبه "شيحة" ويعتدل في جلسته...

- هو مين ده اللي اتهوي يا معلم..
- الأستاذ أبو نص لسان.. الكلام وصل أهه..
- يعني اللي سمعناه في الجهاز طلع جد و"حاتم" اتكل..
- باينها كده.. بس دا لو حصل يا "شيحة" تبقى لا مؤاخذة لبسناها..
- ليه بس يا معلم.. ما فداهيه.. انت يعني عجبك اللي عمله ورايح ينقل الكلام وللزبون..
- ينقل إيه يا "شيحة" وزبون إيه.. وأنا اللي بقول عليك بتفهم...
- خير بس يا معلم..
- يا "شيحة" الواد ده ملوش أى تلاتين لازمه.. بس في المصلحة دي كان له لازمه ولازمه كبيرة.. مع إنه حب يلعب بديله ويشتغل فيها عميل مزدوج بس كان لازم نسيبه وفعلاً "ثابت" عمل الدنيئة وخلص عليه يبقي كده هو ناوي على الغدر.. فهمت
- آه.. كده وصلت.. يعني إنت حاطط "حاتم" (بلف) أمان.. طول ما "ثابت" محافظ عليه يبقي لسه عند كلمته والاتفاق والكلام يبقي تمام.. ويوم ما يفكر يلعب ولا يبص نحيته يبقي كده بيقولك اللي بيني وبينك بخ..
- أديك فهمت يا دغف..

- تلميذك يا معلمي. طيب وهتعمل إيه دلوقتي؟

يلتفت "سالم" نحو "شريده"..

- "شريده".. جاهز..
- تمام يا معلمي.. جاهز ومستنظر إشارتك..
- خير يا معلم.. ناوي على إيه؟
- مش كل حاجة جاهزة يبقي ليه نتأخر.. كده هنخلص بكره في الليل.. سوا رجع "حاتم" ولا مرجعش..
- طيب و"النونو" اللي واقف هناك ده؟
- لا سيبه يمكن يطلع بيشتغلنا ودي لعبه ولا فيلم هندي يبقي نعرف برضه..

يخرج من أحد الأركان أحد الرجال مسرعاً يتخبط من التوتر.....

- جرا إيه ياد يا "مانو".. مالك السلك ضربك ليه كده..
- الحق يا معلم.. الجدع اللي جوه..
- ماله دا التاني..
- من إمبارح كان قاطع النفس وعملنا له غسيل معده وعمالين نسقيه في قهوة ونديله محاليل ولا فايده.. ودلوقتي قطع خالص..

ينتفض "سالم" من جلسته: مين اللي قاطع خالص؟

يجيب "مانو" بصوت مرتعد: الجدع اللي اسمه "سمير"..

يركل "سالم" زجاجة كانت أمامه بقدمة قبل أن يقتنص هذا المانو ويمسك برقبته ويجذبها بشده مع ازدياد حدة انفعاله وارتفاع صوته...

- مش قولت تجيب له الدكتور يا غبي.
- الدكتور بتاعنا جوه من الصبح..
- ومحدش إدانى خبر ليه يا ولاد الكلب؟
- محبناش نقلقك يا معلم وقولنا هتعدي زي كل مرة.. بس المرة دي قاطع خالص والدكتور بيقول انه مات..

دفعه "سالم" بعيداً ليسقط على الأرض بعد أن تعثرت قدماه من أثر الدفعة الشديدة..: بتقول مات.. مات إزاي.. ينهار أبوكو أسود..

يسرع "سالم" ومن معه نحو الركن الذي خرج منه "مانو" منذ قليل وعلى وجوهه أثر الغضب العارم..

يدخل الجميع بينما كان هناك رجل ينزع إبرة من ذراع "سمير" ويلقيها جانباً قبل أن يرفع ملائة بيضاء ويمددها فوق جسد "سمير" الممد على سرير خشبي في ركن الغرفة...

يندفع إليه "سالم" ويزيحه بدفعة قوية أسقطته أرضاً ويمد يده ليزيح الغطاء ويكشف وجه "سمير" الذي اعتلته الزرقة وتيبست أطرافه وسقط فكه السفلي مع عينان جاحظتان ووجه معدم..

- إيه اللي انتوا هببتوه ده يا كلاب يا ولاد الكلاب...

يتدخل "شيحة" و"شريده" محاولين تهدأت "سالم".. لكنه رفض وأزاح أيديهما من على كتفه كثور هائج يعلوا خواره من شدة انفعاله وغضبته..

- اهدي يا معلم.. إيه اللي حصل يعني لكل ده.. ما يموت إنت مزعل نفسك ليه بس؟
- إيه ده اللي يموت يا "شيحة".. يعني لو خبر "حاتم" صح.. يبقي الكارتين اللي بلعب عليهم يرحوا مني كده في لحظة.. يعني إنزل الحرب من غير عساكر..
- أومال إحنا روحنا فين يا معلم.. ماحنا جنبك ورجالتك أهه..
- لا يا مفتح منك له.. انتوا تضربوا وتنضربوا لكن دول اللي كنت بتحامي فيهم، دول اللي يخلوا البوليس ميضربش ولا "ثابت" يقلب نفسه..
- خلاص يا معلم.. نجيب لك غيرهم..
- تجيب مين يا فالح؟ قولي كده!!
- نجيب البت خطيبة "حاتم".. أهي دي بقي تركَّع الكل وأهي مطواعه وبتسمع الكلام ولسه كانت مع "كابو" من شوية وهو بيديلها الشنطة..
- مع إني مبحبش شغل الحريم بس باين إن مفيش غيرها.. قدامك ساعتين زمن تكون البت دي هنا.. وشوفوا صرفه في البتاع المرمي ده.. مش عاوز أشوفه هنا....

****

الفصل الثامن والعشرون

يتوقف "حسام" بسيارته على مقربة من مقر الشركة ويستدير بنظره في أرجاء المكان، يتفحص المارين والمشاهدين والعاملين وعربة الإسعاف الواقفة أمام باب الشركة وسيارات الشرطة التي أخذت موقعها هي الأخرى في المكان.. فمن حسن الحظ أن قسم الشرطة لا يبعد كثيراً عن موقع الشركة..

ينظر "طارق" إلى وجه "حسام" المتجهم.. يلتزم الصمت بعد أن رأي التركيز والاهتمام قد ارتسموا على ملامحه..

مرت خمس دقائق أو تزيد على هذه الوضعية.. "حسام" يراقب و"طارق" صامت حتى رفع "حسام" يده بحركة مفاجأة جعلت "طارق" ينتفض من جلسته فزعاً..

- طارق.. لقيتها!!
- هي إيه دي.. منك لله وقّفت قلبي!!

يضحك "حسام" ويلوح بيده في الهواء بحركة دائرة يختمها بطرقعة من أصابعه..

- بص حبيبي.. زي ما قولت لك من شوية.."حاتم" مماتش ومانضربش بالنار.. والإسعاف والشرطة دول هنا علشان الدور يتظبط.. أمريكاني يعني.. ليه بقي؟ علشان الخبر ده يوصل "لسالم" ورجالته.. يقوموا يعرفوا إن "ثابت" ضرب نار على "حاتم" الراجل بتاعهم (الكورة يعني).. وده معناه إيه بقي؟ معناه حضرتك أن "ثابت" اخترق الخطوط الحمراء وقطّع الكورة اللي بيتعلب بيها.. يبقي كده بيقولهم من الآخر بيقولهم " مش لاعب.. وأعلي ما في

خيلكم اركبوه ".. ودا يستلزم رد فوري وعنيف.. يعني ممكن نلاقي الشركة دي متفورة في خلال أربعة وعشرين ساعة.. بالكتير قوي بكره يكون يا "ثابت" مقتول يا الشركة دي كوم تراب..

- بسم الله.. الله أكبر الله أكبر.. مالك يا "حسام" مانت كنت كويس.. إنت بتهلوس ولا إيه؟

يخرج "حسام" سيجارة من علبة أمامه على طابلوه السيارة.. يشعلها وينفث دخانها من شباك السيارة .....

- بهلوس إيه بس.. ركز معايا.. دلوقتي فرصتنا وجت لنا على طبق من دهب.. نلعب معاهم
- نلعب.. منلعبش ليه؟
- أيوة نلعب.. تعجبني.. شوف.. إحنا دلوقتي هنطلع على قسم الشرطة السياحي.. المحضر هيتعمل هناك.. ونشوف "حاتم" هيروح أي مستشفى ولا مش هيطلع من الشركة أساساً.. وبعدين نتصرف..
- طيب ما تكلم الأمين اللي هناك.. ولا نروح نشوف الأول في الشركة مش جايز يكون فى ضرب نار بجد فعلا.. و"ثابت" و"سالم" مرتبين مع بعض.. إنت ناسي إن كان بينهم كلام في السجن وأكيد بعد ما خرجوا..
- لا مش ناسي وسيبك من الأمين لأن الشركة مانعه دخول أي حد.. بس أنا قولت لك الاثنين من مدرسة واحدة وأنا بقي فهمت المدرسة دي.. وتقريباً أقدر أرسم ملامح وطريقة تفكيرهم.. وهنشوف مين فينا اللي هيطلع الأول على الفصل..

****

كعادته يجلس "شوقي" في زنزانته وحيداً.. يزفر أنفاساً حارقة تحمل معها دخان سيجارته التي لم تفارق يده منذ أن انتهي من اجتماعه مع "سعيد" والآخرين.. كان الغضب يسيطر على عقله.. أهذا هو "الوزير" الذي كان يقف له الرجال يخشونه ويطلبون وده ويستجدون رضاه!! هل وصل به الحال أن يكون "دلدول القعدة"؟ لم يتخيل نفسه يوماً جالساً ذليلاً وحيداً خلف قضبان السجن وقضبان "سعيد" وقضبان الحسرة على ما فات..

"الوزير" الذي ولد من جديد على يد "سعيد الطحان" وأضحي من أكبر رجال الأعمال في البلد.. يجلس الآن وقد اكتشف حقيقة ما حدث له على يد "الطحان".. فقد حوله "الطحان" إلى مجرد دمية صماء يتلاعب بها وقت ما يشاء ويلقيها في القمامة عندما يمل منها..

الآن أيقن أنه نهايته أصبحت أقرب مما يتوقع.. نهاية يرسمها "الطحان" منذ فترة ويعد لها.. وها قد ظهرت ملامحها..

طرقات على باب الزنزانة الغير محكم الغلق تجعل "شوقي" ينتفض من مكانه مفزوعاً.. يرفع يده ليمسح قطرات العرق الغزيرة التي غطت جبهته ووجهه.. يطفئ سيجارته بعنف بجوار أخواتها اللاتي سبقنها لمثواهن الأخير.. ثم بصوت متحشرج بائس يجيب: أيوة.. مين بره؟؟

لم يسمع إجابة.. فقط انزاح الباب ببطيء شديد حتى ظهر شاب ثلاثيني العمر لا يبدوا عليه مطلقاً أنه من نزلاء السجن غير أنه زي السجن الأزرق الذي يرتديه يغير هذه الفكره...

يدخل الرجل ويعيد الباب إلى وضعه كما كان.. يتقدم نحو "شوقي" مخرجاً علبة سجائر مستوردة ويخرج منها سيجارة ويمد بها يده إلى "شوقي".. الذي مد يده والتقطها في ذهول واستغراب..

- مسا الفل على "شوقي" باشا عين أعيان مصر كلها...
- مساء الفل عليك يا زميل.. إنت مين وعاوز إيه؟

يخرج الشاب ولاعته ويشعلها ثم يمدها إلى "شوقي" الذي استجاب بإشعال سيجارته.. قبل أن يسحب الشاب يده ويشعل سيجارته وينفث دخانها محدثاً سحابة بيضاء بينه وبين "شوقي"...

- معالي الباشا.. أنا محسوبك اللي تعتبره كده نجده من السما وجت لحد عندك..
- نجده مين.. ومحسوبك مين.. يا تتكلم عدل يا تشوف مصلحتك أنا مش فايق لك واحيات أبوك..
- لا.. لا لا لا.. استني بس يا كبير.. إنت اللي عاوزني مش أنا اللي عاوزك!

ينفث "شوقي" دخان سيجارته.. تضيق عيناه وينحني عنقه ويقترب من ذلك الشخص هامساً: أنت "سعيد" باعتك علشان تخلص مني.. مش كده؟

ابتسامه عريضة على وجه الشاب متبوعة بضحكة مكتومة.. قبل أن يقترب هو الآخر من "شوقي" ويهمس له...

- وهو أنا لو جاي أخلص عليك.. هقولك أنا نجده من السما.. دا أنا جايلك مخصوص.. مش إنت عاوز تخلص في البيعه من غير ما حد يشم خبر..

يعتدل "شوقي" في جلسته..

- إنت تبع "جمال البسيوني"؟؟

يعتدل الشاب هو الآخر وتزداد ابتسامته...

- الله عليك يا كبير.. تعجبني دماغك.. إيه بقي.. قولت إيه؟ نخلص على أربع ميات وبينا وبينك ومحدش ياخد خبر... والفلوس تحويل على بره عدل ومتمضيش ورقة إلا وشيكاتك في إيدك.. نخلص الورق ونسجل.. تسملنا الشيكات نسلمك ورق التحويل.. قولت إيه يا كبير....

تلمع عينا "شوقي" وتنتقل إليه عدوي الإبتسامة العريضة هو الآخر قبل أن يلقي بظهره إلى الحائط ساحباً نفساً طويلاً من سيجارته كاد يقضي عليها تماماً.. ثم ينفث دخانها في وجه الشاب الذي استقبلها بابتسامته..

- كده يبقي نخلَّص يا كبير.. مبروك عليك..

****

قسم الشرطة السياحي.....مكتب العقيد: رضا الجندي...

يدخل "حسام" و"طارق" إلى المكتب.. يستقبلهما العقيد "رضا" بالترحاب.. قبل أن يجلسوا جميعاً على الكراسي الجلدية المتراصة في جانب حجرة المكتب..

يمد "رضا" أصبعه ليضغط جرس الاستدعاء ليُقرع الباب.. ثم يفتح ليدخل عسكري الخدمة رافعاً كفه الأيمن بمحاذاة رأسه: أؤمر يا فندم..

- شوف الباشوات يابني يشربوا إيه؟

يرد "حسام" بابتسامه عريضة..

- ملوش أي لازمه يا باشا.. كفاية معطلين معاليك وإحنا عارفين إنك مشغول..
- إنت بتقول إيه يا راجل دي حاجة بسيطة.. تشربوا إيه بس هاااا؟
- خلاص يبقي قهوة مظبوط..

صرف العسكري بطرف أصبعه.. هات يابني 3 قهوة مظبوط بسرعة..

سحب "رضا" علبة سجائره المعدنية ودفعها باتجاه "حسام": إتفضل يا "حسام" باشا.. إتفضل يا "طارق" باشا.. منورين والله..

قابلها "حسام" بإخراج ولاعته ليشعل سيجارة "رضا" ثم "طارق" ثم انتهي بسيجارته..: دا نور معاليك والله.. إحنا مش هانعطلك كتير يا باشا.. بس إحنا جايين بخصوص الحادثة اللي كانت جنبكم في الشركة الدولية...

ينفث "رضا" دخان سيجارته قبل أن يلقي بظهره إلى الخلف...

- أيوة مش بتاعت ضرب النار؟ لا دي حاجة بسيطة وإتلمت وخلاص.

باستغراب شديد يرد "طارق":

- بسيطة إزاي يا معالي الباشا هو مفيش حد مات ولا إصابة.. طيب وعربية الإسعاف والشرطة اللي قدام الشركة؟
- مات إيه وإصابة إيه بس.. متكبرش الموضوع يا "طارق" بيه.. الحكاية بسيطة..

يقطع الحديث طرقات الباب الذي يفتح ويدخل العسكري المتحجر ويضع الصينية قبل أن ينصرف بحركة شبه آليه..

- يا باشا.. الراجل كان بينضف مسدسه وخرجت منه طلقتين غصب.. واحده منهم جت جنب كتف واحد من بتوع الأمن إتعور..

ينفث "حسام" دخان سيجارته ويتبعها برشفة من فنجان القهوة...

- طلقتين وهو بينضف المسدس... أومال لو بيلعب رماية كان هايضرب كام طلقة..

لم تلقي كلمات "حسام" ردت الفعل التي توقعها.. لكن استقبلها "رضا" باتسامه خفيفة باهته...

- "حسام" باشا.. متركزش في الحاجات التافهة دي.. المصاب مشتكاش والمحضر اتقفل.. وانت عارف البلد مش ناقصه كل حاجة نقف لها على الوحده في حاجات تانيه أهم.. مش كده برضه..

يتبادل "حسام" و"طارق" النظرات بامتعاض..

- آه والله عندك حق يا "رضا" باشا.. بس إصابة الواد بتاع الأمن دا إيه ظروفها؟
- لا دي حاجة بسيطة مجرد جرح سطحي حتى مراحش المستشفى وبتوع الإسعاف اتعاملوا معاه في الشركة والمحضر كمان اتقفل هناك...

يتدخل "طارق" بشيء من الحده..

- إزاي.. ضرب نار واتقفل المحضر بالتراضي ومفيش أى حاجة والناس كلها في الشركة زي ماهي؟
- تمام يا "طارق" بيه وزمان الناس شغاله عادي دلوقتي كمان..

– آه بس إحنا لسه جايين من هناك والإسعاف والعربيات بتاعت الشرطة هناك..

– آه هم كانوا هناك فعلاً وزمانهم مشيوا خلاص.. إنت عارف لازم بنتمم شوية إجراءات روتينية يعني وبتوع الإسعاف لازم يتراضوا.. إنت فاهم..

يتدخل "حسام" متبسماً حتى يخفف من حدة "طارق" في الحديث..

– يعني سيادتك اطمنت على الوضع بنفسك ياباشا.. يبقي خلاص بقي..

ينفث "رضا" دخان سيجارته مع أخر رشفة من فنجان قهوته..: هو في حد تبعكم هناك في الشركة دي ولا إيه!! مهتمين يعني بالموضوع؟

– لا أبداً يا باشا.. أصل "ثابت" باشا صاحب الشركة معرفة وكنا جايين نطمن إن الموضوع اتقفل ومفيش مشاكل ولا أى ديول للموضوع.. إنت عارف رجال الأعمال الكلمة معاهم بتفرق..

– لا أبداً إطمن خالص والراجل طلع محترم الصراحة ومقصرش معانا.. وأنا وعدته يبقي خلاص.. وعموماً طمنه وقوله كل حاجة تمام..

يضرب "حسام" كفيه على ركبتيه إيذانا بالنهوض وإنهاء هذه الجلسة.. راسماً على وجهه ابتسامة عريضة صفراء فاقع لونها.. ثم مد يده مصافحاً المأمور مبدياً امتنانه وشكره العميق..

ينصرف الرجلان حتى يصلا إلى السيارة وما أن يغلقا الباب حتى يصيح "حسام" رافعاً أصبعه مشيراً إلى رأسه..

- عيب عليك يا معلم.. هنا مخ مش فاصوليا.. مش قولت لك.. أهو كلامي طلع صح.. لا وإيه كمان اتكتم على الموضوع علشان محدش يعرف إن العملية فشنك ومش بعيد لو روحت الشركة كمان دلوقتي يقولك إن حادثه كبيرة وممكن كمان يقولوا مات..
- مات إزاي ما هو بيقولك إصابة سطحية!
- دا بيني وبينك وفي المحضر.. إنما الكلام في الشركة والكلام اللي هيوصل "سالم" إن "حاتم" بخ.. خلاص..
- ليه بقي إن شاء الله...
- يا "طروق" يا حبيبي أنت الآن في مدرسة "سعيد الطحان".. يعني الرجاله دي شربت الصنعة تمام وشغاله زي المعلم الكبير...
- صحيح.. ايه بقي موضوع مدرسة ونفس الفصل.. مش فاهمها دي؟

يطلق "حسام" ضحكه عالية: مدرسة اللهو الخفي.. يعني لو عندك كارت مهم وعارف إنك متقدرش تقش بيه يبقي تخبيه في كم القميص... فهمت؟

- والله ما فهمت حاجة.. كارت إيه وقميص إيه؟
- بص.. فاكر فيلم التوت والنبوت؟
- آه عارفه.. آه.. بس بس فهمت.. لم "سمير صبري" كان بيخبي الورق في المنديل في كم البدلة!
- أيوة بقي عليك نور.. يعني الكارت المهم أخفيه بأي طريقة وبعدين ألعب براحتي.. دي مدرسه "الطحان"..
- يعني بقي بذكائك كده تعرف الخطوة الجايه إيه؟

- آه طبعاً.. الخطوة الجايه هنلحقها دلوقتي قبل ما تتم..
- إيه بس ما تفهمني!
- "إيمان" يا "طرووق"..

تجحظ عينا "طارق" ويلتفت بحده نحو "حسام"...

- إنت بتهرج.. "إيمان" مالها دى نايمه في المستشفى..

تتعالي ضحكات حسام ويلوح بيده في الهواء قبل أن يطرق بقبضة يده على مقود السيارة: تراهني إن "سالم" بعت رجالته دلوقتي يخطفوا "إيمان".. طبعاً مش هايلاقوها.. ومش بعيد يروحوا لها المستشفى..

- يا نهار مش فايت.. طيب ما تتصرف يا "حسام"...
- ما تقلقش.. كده أنا بقيت زي اللي بتفرج على ماتش متسجل وممكن أقولك على الأحداث.. ناقصني بس شوية تفاصيل وأقولك على النتيجة كمان.. دلوقتي بقي هاسحب أمين الشرطة من عند الشركه معدش له لازمه وهابعت حد يقف حراسة عند "إيمان" في المستشفى ومش هخليها تغيب عن عيني..
- يعني هتعمل "إيمان" طعم ولا إيه؟
- لا هم ممكن يغيروا ويختاروا حد تاني لو "إيمان" منفعتش بس أنا هاقفل عليهم على قد ما أقدر.. وكويس أن كل الجماعة مع "إيمان" في المستشفى دا هايسهل كتير..
- طيب لو طلع كلامك غلط؟

يتمدد" حسام" في مقعده مرتكزاً ببصره إلى الأمام....

- ميبقوش تلاميذ "سعيد الطحان".. بس أنا معاهم.. هقفلك عليهم كل فتحات أجحارهم علشان اخنقهم جوه الجحر واصطاد فيهم براحتي.. حقي يا "طارق" دي هتبقا خبطة العمر يا كبير...

يلتفت "طارق" نحو شباك السيارة مطلقاً تنهيده..

- يارب.. بس أنا عوزك تركز مع "حاتم" عاوزه يطلع منها سليم..

"حسام" ضاحكاً : عيييييب عليك.. هو أنا تلميذ.. "حاتم: خلاص اعتبره الراجل بتاعك في الشركة.. إنت نسيت ولا إيه؟

- لا منستش بس خايف حد من الناس اللي بتطحن في بعضها دول يخلص عليه وهو ملوش لا ظهر ولا سند ولا حد ها يدري بيه..
- ربك بيسترها مع الغلابة.. انسي وسيبها على الله وأنا هظبطهالك.

****

حجرة إيمان في المستشفى.....

يدخل رجل أربعيني إلى غرفة "إيمان" الممددة على السرير وما زالت في عالمها الجديد، فاقدة الاتصال بعالم الصدمات والآلام والوحدة.. تسبح في سماء السلام والصفاء غير مكترثة بدموع النائحين من حولها.. لم تتركها أمها ولا "أم رامي" ولا أبيها الكهل.. الذي انتفض واقفا عند رؤيته لهذا الرجل يتقدم نحو "إيمان" ممدداً رقبته متفحصاً وجهها ومتأملاً إياها قبل أن يمصمص شفاهه..: ربنا يصبركوا يا جماعه وتقوم لكم بالسلامة..

يتقرب منه الحاج "إبراهيم": خير يا بيه هو فيه حاجة لا سمح الله؟

يمد الرجل يده ويمسك بذراعه ويجذبه مقرباً أذن الأخير من فمه وبصوت هامس: متقلقش يا حاج " إبراهيم".. "حسام" بيه باعتني هنا علشان أخد بالي منكم.

- ليه بس خير في إيه؟
- متقلقش ياحاج.. وطي صوتك بس علشان البنية شكلها تعبانة.. أقولك تعالي معايا بره نتفاهم...

يخرج الحاج "إبراهيم" مع الرجل بعد أن يلقي نظرة إلى "أم رامي" ولزوجته بأنه سيعود...

- خير يا بيه بس فهمني هو "حسام" باشا قلقان من إيه؟
- يا حاج أولاً أنا هاعرفك بنفسي. أنا الصول "فاروق" تبع "حسام" بيه.. أنا هنا مش في منطقتي يعني تعتبرها مش رسمي.. فهمت يعني ولا أقول كمان.؟؟

يرفع الحاج "إبراهيم" كتفاه لأعلي ماطاً شفتاه ومعقبًا: والله يا بيه مانا فاهم!

- بالراحه يا حاج.. الباشا باعتني هنا أفضل معاكم لحد ما المحروسة بنتك تقوم بالسلامة وتخرجوا من هنا، وكمان هكون معاكم لحد ما تروحوا.. ولحد ما "حسام" بيه يقول خلاص يبقي خلاص..
- طيب ولزومه إيه بس يا بيه التعب ده، ماهي الأمور ماشيه عال والحمد لله على كل حال.. وربنا يجيب العواقب سليمه..

يخرج "فاروق" زفيراً طويلاً قبل أن يمسك بكتف الحاج " إبراهيم"...

- شوف يا حاج.. الدنيا مبقتش زي زمان والناس بتاكل بعضها.. إحمد ربنا إن الباشا متابعكم.. وياريت تخليني على علم بأي حاجة تحصل علشان أبلغ بيها "حسام" باشا أول بأول..
- اشمعني يعني.. هو في حاجة هتحصل؟
- العلم عند الله.. والله هي دي التعليمات ومشدد عليَّ..
- يعني لو البنت فاقت والدكتور كتب لها على خروج..
- لا يا حاج مش ها تخرج غير بأمر من "حسام" باشا شخصياً وهو هيكلم المستشفى ويخلص كل حاج.. هتفضلوا هنا كده كلكلم بربطة المعلم لحد ما يحلها ربنا..
- طيب يا بيه اللي تشوفوه...

****

الفصل التاسع والعشرون

أولئك الذين يتلذذون بامتصاص آخر قطرة من مشاعر البشر، ينتظرون اللحظة الأخيرة والنفس الأخير حتى يوجهون لهم الضربة المميتة.. براعتهم المطلقة في التمثيل والغواية تجعل الضحية تظن أنها لن تلدغ منهم.. يظنون أنهم بذلك قد تجاوزوا حدود العبقرية لكنهم لا يدركون أنهم في أدنى سقطات الدناءة، يصفون أنفسهم بالقوة لكنها

قوة مزيفة ستنقلب عليهم حين تجردهم الأيام من كل شيء، حتى ظلالهم التي كانت تلتصق بهم طول حياتهم ستذهب للأبد حين تتعامد عليهم شمس....

لم يكن "الطحان" يشك ولو للحظة بأنه بدون ماله وسلطته سيتحول إلى جرز شوارع أجرب يتقاذفه الناس بأحذيتهم.. كان يضع هذا اليوم نصب عينيه وكأنه يسير إليه بخطوات ثابته.. لم يكن موقف "شوقي" والأخرين بجديد ولا بمستغرب.. فالجميع الآن يبحث عن فداء يفدي به نفسه وماله مهما كلفه الأمر.. حتى لو اضطروا جميعهم بأن يسحقوه ويلقوا به في بئر النسيان...

الآن وقد انتهت اللعبة وأصبحنا في الرمق الأخير والرابح هو من يتمكن من تسديد لكمة النهاية بكل دقة متناسياً كل آلامه وواثقاً من فوزه متمسكاً بآخر أماله في النجاة..

أفكار تدور كصخور رحىً عملاقة تطحن خلايا عقله وتحولها إلى رماد يكسوه سواد الليل البهيم المحيط به من كل اتجاه.. ينتفض من جلسته مع الصوت القادم من خلفه.. لم يكن ليهتز يوماً.. أما الآن فجسده لم يعد يقوي على المكابرة ولا العناد..

– "سعيد" باشا.. في تليفون علشانك..

يلملم "سعيد" أشلائه قبل أن يستوي قائماً ليواجه الشاويش "صبري" المكلف باستقبال وإجراء المكالمات من هاتفه الخاص مقابل حفنة من الأوراق المالية يلقيها له "سعيد" و"شوقي" من أجل تيسير إجراء الاتصال..

– شكراً يا "صبري".. استناني ولم أخلص هنادي عليك..

يترك "صبري" هاتفه ويستدير بحركة متباطئة ليبتعد ويتركه في خلوته مع هاتفه وأفكاره...

يرن الهاتف.. يجيب "سعيد" بسرعه، فقد كانت "سوزي" وبالتأكيد تحمل معها البشارة..

- أيوة.. أيوة يا "سوزي" يا حبيبتي طمنيني عملتي إيه؟

إيه.. بتقولي إيه!

إزاي وإمتي دا حصل؟

طيب وبعدين والعمل؟

أنا اللي أفكر.. أنا مش عارف أفكر.. طيب والعمل إيه دلوقتي؟

أنا عاوز أفهم إزاي معرفتيش تقابليه ومبيردش على التليفون هو لعب عيال؟

عارف إنك ملكيش ذنب يا روحي بس اعذريني أنا مضغوط..

طيب.. إسمعى.. في حد تاني هقولك عليه ممكن تخلصي معاه؟

طيب تمام.. أنا هظبط معاه وأكملك حالا..

أيوة.. إستني مني تليفون دلوقتي..

أيوة متسيبيش الموبايل من إيدك..

ماشي سلام..

ارتسمت العصبية الشديدة على وجه "سعيد" والتي لم يستطع أن يخفيها بل وزاد عليها حدة صوته ونبرته في الحديث التي جعلت من حوله يلتفت إليه متعجبين من إنفعاله وثورته التي لطاما نجح وباقتدار أن يخفيها عنهم طيلة الشهور الماضية..

يتقدم إليه صهره اللواء "محمود معروف".. يقف أمامه مباشرة.. ينفث دخان سيجارته في وجه "سعيد" قبل أن يحدثه هامساً...

- مالك يا "سعيد".. إنت كنت بتكلم مين؟ وليه؟ ومين اللي مرضاش يقابله ولا بيرد على اتصاله؟

لم يتمالك "سعيد" أعصابه كما يفعل كل مره.. فقد أفلت الزمام من بين يديه وخرج المارد المحبوس داخله يزمجر ويحرق كل من يقف أمامه...وبنظرة قاتله وصوت متحشرج من فعل الغضب: إرجع مكانك.. محدش له دعوة بحاجة..

لم يناقش "محمود " رغم ما بدا عليه من سخط وعدم الرضا من الرد ومن الأسلوب لكنه كان أدري الباقين بزوج ابنته الذي يترنح الآن كثور مطعون يصارع الجميع ليظل فقط واقفاً على قدميه ولا يسقط..

بعد هذا التدخل يبدو أن المكان أصبح غير مناسب لإكمال الحديث.. وهذا ما جعل "سعيد" يتحرك بعيداً عن أعين ومسامع الجميع حتى يكون في مأمن منهم ولا يعلم بأمره أحدا.. يرفع الهاتف ويتصل برقم يحفظه جيداً.. ينتظر قليلاً قبل أن يأتيه صوت من الطرف الآخر..

- أيوة.. "جمال" بيه معايا؟

أنا "سعيد".. "سعيد الطحان".....

أهلا بيك.. أنا بكلمك علشان وصلنا لاتفاق والجماعة وافقوا على سته..

إيه بس اللي بيضحكك؟

إيه.. بتقول إيه! خلصت على أربعه مع مين؟

لا يا باشا لازم تقولي ما هو مفيش غيري أنا و"شوقي"..

يابن الكاالب..

لا مش إنت يا "جمال" بيه.. أنا أقصد ابن الكلب التانى...

خلاص يا باشا.. أنا ها خلص معاك على تلاته ونص.. موافق؟

طيب أديني عنوانك وأنا هبعت لك اللي يخلص معاك دلوقتي..

لا كاش زي اتفاقنا.. ماشي..

إزاي بقي كده مينفعش.. طيب خلاص ساعة ويكون عندك الورق وجاهز..

ماشي بكره بالكتير استلم المبلغ..

سلام يا "جمال" بيه.. آه نسيت أقولك.. مفيش داعي حد يعرف إني خلصت معاك..

****

مكتب ثابت.....

يجلس "ثابت" على مكتبه مشبكاً بين أصابعه واضعاً يديه أمام وجهه.. صمت مطبق يخيم على المكان بعد نزوح جميع المسعفين ورجال الشرطة من المكتب.. لم يتبقى سوانا..

كنت ممداً على أريكة جليده في ركن من الغرفة تحيط ذراعي لفائف من الشاش الأبيض يكسوها رباط ضاغط ويظهر عليه بقعة حمراء من أثر الإصابة بالرصاص الطائش..

حاولت جاهداً أن أستوعب أو أن أجد تفسيراً منطقياً لما قام به "ثابت".. لكن عقلي فشل تماماً في إيجاد سبب مقنع.. لم يعد أمامي سوي الصمت والاستسلام للواقع وانتظار أن يبوح هذا الصامت المنكس رأسه بين كفيه عن تفسير ما حدث...

أدمتُ التركيز والنظر إلى "ثابت" حتى رفع رأسه وأخفض يديه ثم نظر إلي محدقاً....

- طبعاً إنت بتضرب أخماس في أسداس ونفسك تعرف إيه اللي حصل وليه؟
- ياريت والله يا باشا..
- الحكاية كانت تمثيلية ودا مشهد.. وكان لازم يتنفذ كده..
- تقوم تضرب على نار.. يعني كان ممكن تقتلني يا باشا وتقولي تمثيل.!!
- كان لازم.. علشان تيجي الإسعاف والشرطة والخبر يتنقل زي ما أنا عاوز.. دلوقتي بقي نقدر نرسم طريقنا على كيفنا من غير ما حد يزعجنا...
- إزاي يا باشا.. أنا مش فاهم؟

يعتدل "ثابت" من جلسته.. يتقدم نحو الثلاجة الصغيرة ويخرج منها علبتين من العصير.. دفع إلى بواحدة قبل أن يفتح الأخرى ويتجرع نصفها على دفعه واحدة.. قبل أن يكمل: شوف يا "حاتم".. طبعا إنت مش هتروَّح النهارده لأن الكلام اللي وصل "لسالم" إنك خلاص.. انضربت بالنار..

رفعت جسدي لاعتدل جالساً: إيه! انضربت بالنار إزاي يعني.. مانا كويس أهه سعادتك والناس بتوع الإسعاف نزلوا.. والمحضر اتقفل إصابة بالخطأ..

تعلوا وجه "ثابت" ابتسامه ماكرة...

- مش بقولك إنت لسه صغير على اللعب الكبير ده.. عموماً أنا وضبت كل حاجة وزمان صاحبك بيشد في شعره..
- ألا قولي يا باشا.. كان في سؤال محيرني من زمان ونفسي أعرف إجابته..
- خير.. قول.. أنا هاجوبك على أي حاجة..
- هو إيه اللي بيحصل بالظبط بينك وبين "سالم".؟
- بيحصل إزاي يعني.. حدد سؤالك علشان أقدر أجاوبك !!
- اللي اعرفه إنه هرَّبك من السجن وإنكم كنتوا سمن على عسل يعني.. منين كده ومنين كل واحد فيكم عاوز يخلص من التانى؟ هاتجنن وأفهم وليه أنا بالذات اللي جبتوني في اللعبة دي؟ أنا هاتجنن وأعرف ليه كل ده؟

تتحول ابتسامته إلى ضحكة عالية.. تبعها بإشارة من يسارة في مقابل وجهي قبل أن يرفع علبته المعدنيه ليدفع ما بقي منها إلى جوفه..

- شوف يا حاتم.. أنا قولت هاجوبك يبقي لازم أجوبك.. فتَّح مخك وركز معايا وإنت تفهم....
- أنا معاك يا باشا وإن شاء الله هافهم كل حاجة..
- شوف.. أنا دخلت السجن بغلطه غلطتها مع الكبار ومن أول يوم و"سالم" لزق لي ومعاه "شيحة".. زي القمل في الراس.. وأي حد يقرب مني يبعدوه..
- أه.. دي حصلت معايا..
- بالظبط.. لقيت نفسي متحاصر والدنيا داقت في وشي لا بكلم حد ولا في زيارة وكل اللي عملته في حياتي لقيته بيتسحب من بين إيديا، قولت يبقي بدل

ما أعادي "سالم" والرجاله.. أكسبهم وأخليهم يخدموني بدل ما هم متسلطين عليا..

- يعني اشتريتهم في صفك.. طيب والناس الكبار اللي مسلطينهم عليك؟
- لا.. أصل الاتفاق كان سر بيني وبين "سالم" وعلى فكره كان في خطة هروب "سالم" مجهزها وطبعا مش علشان سواد عيوني.. لا.. علشان الاتفاق اللي كان بينا اللي هقولك عليه بعدين..
- يعني انتوا كنتوا هتهربوا من السجن قبل الحكاية بتاعت الثورة والكلام ده؟
- أيوة.. و"سالم" كان مجهز كل حاجة..
- طيب وإيه بقي علاقتي أنا بالحكاية دي.. أنا أساساً لا لي علاقة بيك ولا "بسالم" مجرد كلام.. ليه بقي رجلي تيجي في الموضوع من الأساس..
- شوف.. "سالم" ورجالته كانوا تبع الكبار.. بس "سالم" خد خط لوحده لم أنا اتفقت معاه واستكفي "بشيحة" والكام راجل اللي معاه في السجن..
- آه عارفهم اللي كانوا معايا في الزنزانة..
- تمام.. بره كان كل الرجاله تحت العين فكان لازم نجيب حد متأكدين انه مستحيل يخون ونقدر نسيطر عليه وينفذ اللي عاوزينه ومن غير ما حد يعرفه ولا يعرف يجيبه.. فكنت إنت وصاحبك اللي خلص موضوع البطايق وجاب الحقن والشنطة والهدوم واللي إنت عارفه ده..
- "سمير".. تصدق !!... طيب ما "سالم" خطف "سمير" دلوقتي.. يبقي علشان ميسبش وراه حاجة حد ممكن يوصل له بيها..
- تمام.. كده ولم خرجنا من السجن بدأ "سالم" يطلب الاتفاق طبعا بعد ما رجعت شركتي بالاسم الجديد والصفة الجديدة.. وكل اللي يثبت إن "جميل

المسيري" على قيد الحياة اختفي سواء من سجلات أو أوراق أو ملفات.. انتهي "جميل" تماماً..

- يعني نهيت "جميل" وعملت "ثابت"... بس دي مش دماغ "سالم"..
- عليك نور.. دا كان كلام "شيحة".. بس عرفت إزاي إنها مش دماغ "سالم"؟

ابتسمت رافعاً علبتي المعدنية إلى فمي.. تجرعت نصفها تقريبا وسط دهشة "ثابت"...

- لا يا باشا.. أصل الفيلم ده اتفرجت عليه قبل كده مرتين.. وبسببه أنا كنت معاهم في السجن..
- مش مهم.. المهم إن العملية تمت و"سالم" فضل يزن عليَ إنه عاوز الاتفاق.. وطبعا كان لازم بعد ما تخلص العملية ينضف وراه.. لأن الجماعة الكبار مش هايسكتوا عنه وفعلاً هم قالبين عليه الدنيا دلوقتي بس هو مختفي...
- طيب وإنت يا باشا.. مش خايف انهم يوصلوا لك وتتأذي.. معتقدش إن ممكن يخيل عليهم حركة الإسم والشركة والحوار ده؟
- لا.. أنا لم خرجت أول حاجة عملتها روحت وصفيت القديم.. كان لازم أضمن حمايتهم على الأقل.. البلد إتغير حالها..
- يعني إنت روحت ليهم بنفسك وفديت نفسك!
- كان لازم أعمل كده.. وكلفني الموضوع ده تقريبا نص ثروتي.. بلاش تعرف الرقم علشان ميحصلكش حاجة.. المهم اشتريت نفسي بالفلوس وكان فاضل أخلص من "سالم" واللي معاه...

- طيب برضه أنا لسه معرفتش أنا إيه اللي رجعني معاكم في الحوار.. مش أنا خرجت من السجن ومهمتي خلصت أنا و"سمير".. يبقي ليه يجيبني تاني وأدخل في حوار وشنط ومووايل وأجهزة وفلم ملوش أخر؟
- إفهم بقي متبقاش غبي.. إنت مجرد طعم.. طول مانت هنا وأنا محافظ عليك "سالم" هيبقي مطمن إنه مسيطر.. ويوم ما يحصل حاجة زي اللي حصلت النهارده يعني إني أخلص منك ولا أبعدك عن عنيه يبقي كده أنا بقوله إشرب من البحر وملكش عندي حاجة ودي بقي هتجننه..
- يعني ممكن يقلب عليك إنت؟
- لا مش هايقلب ولا حاجة.. بس هياخد حقه بدراعه.. يعني مش بعيد تلاقيه دلوقتي بيجهز رجالته وكلها ساعات والشركة دي تلاقيها كوم تراب أو مسروقه.. يعني خبطه بخبطه...
- طيب مش خايف إنه يخلص عليك وإنت بتقول إنه بقي مجنون؟
- هيستفيد إيه.. يبقي خسر كل حاجة.. الاتفاق وإنت وأنا والجماعة الكبار هيفرموه.. لأني اشتريت حمايتهم بالفلوس..
- ياااااه.. معقول يا باشا الفلوس تعمل كل ده في الناس. وذنبهم إيه الغلابة اللي زي حلاتي نروح في الرجلين وندفع تمن حاجة معملنهاش؟
- شوف يا "حاتم" بلدنا دي مقسومه نصين.. ناس غلابه بتاكل من الزبالة وناس زبالة بتاكل من الغلابة.. لا الغلبان بيشبع ولا الزبالة بتنضف...
- يعني هنعيش طول عمرنا ملناش تمن حتى في بلدنا وبين أهلنا يا بيه...

تحول "ثابت" بوجهه بعيداً ثم اعتدل قائماً مبتعداً عني لخطوات وقد بدا عليه الوجوم:

- يا "حاتم".. أنا كنت يوم من الأيام عايش في الزبالة.. سفّيت التراب وعملت أراجوز للي يسوا واللي ميسواش.. تعبت واتمرمط واتبهدلت لحد ما عليت.. بقيت فوق وشوفت ده وشوفت ده..

بلدك بلد منظره يعني لو في حفله ولا مؤتمر تحس إنك في أغني بلد في العالم.. ولو بصيت يمينك وشمالك وشوفت المطحونين هاتحس أنك في أفقر بلد في العالم.. البلد دي يوم ما تحب تعيش فيها تعيش والفقير شبعان ومستور.. لكن طول ما اللي فوق شبعان ومبسوط هيفكر ليه في اللي تحت!

وضعت علبتي على المنضدة.. أطلقت زفيراً حارقاً.. واستدرت بوجهي عن "ثابت".. رفعت يدي لأمسك جرحي القديم ثم مددتها لألمس جرحي الجديد.. وما بين الجرحين سري جرح أكبر.. جرح في قلبي من كلمات "ثابت" التي نزعت أخر ما تبقي لي من أمل في الحياة..

شردت فيما قاله "ثابت".. أحسست أني أسير إلى نهايتي يوم أن تنازل أبي وأمي ورحلوا من نيران الحرب إلى نيران أقسي وأشد ضراوة.. نيران الفقر والذل والعشوائية...

- ها.. روحت فين.. مش عايز تعرف هنعمل إيه بعد اللي حصل؟
- لا يا باشا في حاجة تانيه لو تسمح لي يعني؟
- خير..
- المشوار اللي روحته للشركة إمبارح ده.. بتاعت "شوقي" بيه.. الـ..... شوقي بيه الموجي ده؟
- تقصد" الوزير"؟

- أيوة يا باشا "الوزير".. هو "الوزير" بقي غني قوي كده ازاي، وإيه اللي وصله هناك كده والست اللي جت لسعادتك دي كانت عاوزه إيه؟
- اييييييييه.. إيه ياعم حيلك.. إنت قلبت معاون نيابة ليه كده! قوم بس معايا.. أنا هنزل من الباب الرئيسي وإنت هتنزل من الباب بتاع الطوارئ ومتخرجش من الشركة غير لم أقف لك بالعربية ورا.. هالف لفه سريعه وأجيلك.. ماشي.. متقلقش.. وكل حاجة هعرفهالك بعدين.. بس دلوقتي لازم تختفي..
- حاضر يا باشا اللي تشوفه..

يقف "ثابت" ويتوجه إلى مكتبه ثم يضغط على زر الانتركوم الداخلي ليدخل "فتحي" ثم يغلق الباب خلفه..

- "فتحي".. الناس اللي في الشركة كلها تروح دلوقتي، وإنت ومعاك "سميح" و"منصف" و"شادي" وبس.. فاهم إنتو الأربعة بس، والأمن مايباتش في الحراسة.. فاهم.. عاوزك من دلوقتي الساعة واحدة تقريباً.. يبقي معاك لحد الساعة أربعة أو أربعة ونص تلم لي كل الأوراق المهمة في الشركة في شنط مش مهم ترتيب وكمان الهاردات بتاعت الأجهزة.. فاهم الهاردات بس.. تجمعها من الأجهزة في شنطة لوحدها.. وقبل الساعة أربعة ونص تكون الشركة مفيهاش أى حد..
- تؤمر يا باشا..

- ومتنساش تبلغ الناس إن في أجازة لمدة 3 أيام لحد ما الوضع يهدي ونشوف ها يحصل إيه.. وتنبه على الكل مفيش جنس مخلوق يطلع كلمه عن أي حاجة بتحصل في الشركة.. فاهم؟
- تمام يا باشا حاضر.. بس لو سمحت.. الحاجات اللي هتتجمع دي هتروح فين؟
- دي هتجمعها وفي شنطة عربيتك الشخصية وتطلع على موفمبيك الهرم.. هتحجز غرفة مزدوجة وغرفة فردي وتسيب شنطة الهاردات في الأمانات والورق تطلعه الأوضة الزوجي.. وأنا وحاتم هانحصلك على هناك بس مش دلوقتي..
- تمام سعادتك.. اعتبر كل حاجة تمام..

يخرج "فتحي".. يلتفت "ثابت" نحوي مبتسماً: أنت مستغرب.. بس لسه شويه.. عموماً كل شيء بأوان ولازم تعمل حساب لكل خطوة.. الغلطة دلوقتي بجون..

- طيب وإنت تضمن "فتحي" دا يا باشا.. مش يمكن "سالم" اشتراه ولا الجماعة الكبار.....

يقاطعني "ثابت" بضحكه عالية اهتز لها جسده قبل أن يمد يده ويضعها على كتفي المصاب: شوف مش معني إن في ناس خاينة يبقي كل الناس خاينين.. بدليل إنت أهه.. لسه نضيف محاولتش تخون حتى اللي بيستغلك وممكن يموتك.. صوابعك مش زي بعضها..آه.. نسيت.. مش عاوز تعرف الشنطة اللي بعتهالك سالم فيها إيه؟

- أنا سألت وحضرتك قولت لي ملكش دعوة وهو كمان قالي مكلش دعوة..

يعاود "ثابت" ضحكته العالية الغير مبررة بالنسبة لي على الأقل.. قبل أن يرفع يده نحو مجسم للشركة كان أمامه على طاولة الاجتماعات...: عارف الشنطة دي لوحدها كفيله تخلي كووووووول ده شوبة تراب.. شوفت بقي الناس بتبص لبكره إزاي

- يادين النبي.. ليه كل الغل ده ياباشا.. والله حرام..
- سيبك انت بقي من الحرام والحلال واجهز علشان تقابلني تحت بسرعه..
- حاضر يا باشا.. بس أنا كنت عاوز أطمن على " إيمان" و"أم رامي".. أنا خايف "سالم" يأذيهم.. أصل زي مانت بتقول كده هيبقي زي المجنون ممكن يعمل أي حاجة، واللي خلاه يخطف "سمير" ممكن يخطف أي حد..
- حاضر.. أنا هنزل وإنت ورايا زي ما فهتمك وبعدين نتفاهم ونشوف كل اللي إنت عاوزه..

****

يدخل "شيحة" ومعه رجلان على "سالم" الذي بدا متوتراً على غير عادته.. فضربات متتالية لم يكن يتوقعها أفقدته اتزانه وهدوئه المعهودان وتحول إلى بركان ثائر متحرك يقذف بحممه الملتهبة في وجه كل من يقترب منه...

- إيه يا سي "شيحة" إنت كمان راجع بإديك فاضيه ليه؟
- البت في المستشفى يا معلم..
- بت إيه اللي في المستشفى.. متبقي زي ما تبقي ماجبتهاش ليه حتى لو في جهنم يا حمار.. أنا قولت تيجي يبقي تيجي...
- صبرك بس يا معلم، أصل في حاجة مهمه لازم تعرفها..
- خير يا وش المصايب قول...

- لم سألت عليها قالوا إن في ظابط شرطه إسمه "حسام" بيه ومعاه واحد على عكاز كانوا معاها وهم اللي جابولها الإسعاف.. قمت خطفت رجلي على المستشفى عرفت إن في حراسه قدام الأوضه.. اللي قاعد لابس ملكي أه.. بس أنا أعرف البوليس لو لابس طقية الاخفي..

يستدير "سالم" بوجهه ويرفع كفه ماسحاً رأسه: آاااااخ.. يا فرحت أمك بيك يا خويا.. بتعرف البوليس لو لابس طقية الاخفا.. طيب "حسام" دا إيه كمان وتبع مين وإيه اللي وداه هناك؟

- يا معلم أنا شاكك أن "حسام" ده اللي كان راح الشركه، لم الواد "النونو" قال ان فيه ظابط راح هناك.. ومش بعيد يكون معاه الظابط التاني " طارق " بتاع الشئون اللي "حاتم" أسعفه يوم ما خرجنا من اللومان..

يسقط "سالم" على مقعد خلفه بعد سماع اسم "طارق" قبل أن يدفن رأسه بين كفيه..

- الله يخرب بيوتكم.. كده اتقفلت...
- خير بس يا معلم...

ينتفض "سالم" من مقعده صارخاً في كل من حوله: اسمعوا يا شويه بقر.. النهارده أخر يوم لينا كلنا، مش بعيد الشمس متطلعش علينا.. بس قبل ما يخلصوا علينا لازم نندم الكل.. لازم المعبد يتهد على راس الكل...

يقترب منه "شيحة" ماسكاً ذراعه: إهدا بس يا معلم أنا عمري ما شفتك متعصب كده!

يزيح "سالم" ذراع "شيحة" بعصبيه قبل أن يقبض بيده على عنق الأخير حابساً أنفاسه..

- اسمع اللي بقولك عليه ومحدش يتفلسف ولا يتكلم.. اللي مش عجبه الكلام يقول علشان نخلص منه دلوقتي.. كل ما الحمولة خفت نعرف نتصرف... فاهم يا زفت...

يفلت "شيحة" رقبته ويأخذ في السعال محدقاً في وجهه "سالم" الذي تحول إلى مسخ مجنون لن يرحم من يقف في طريقه..

- إحنا الوقتي هنتقسم لفريقين.. "شيحة" ومعاه 3 رجاله هايطلع على الشركة ومع الليل يخلوها كوم تراب.. مش عاوز فيها قالب طوب واقف على جنبه.. وشريدة ومعاك 3 رجاله.. تطلع على المستشفى تجيب "إيمان" ولو طلبت تجيبها واللي معاها حتى لو معاهم مدير الأمن تجيبوه معاهم يا تخلصوا عليهم كلهم..

أنا بقي هاطلع أصفي حسابي مع "ثابت" باشا لوحدي راجل لراجل.. علشان أنا عمري ماحد خدني على قفايا إلا الجدع ده.. يبقي لازم أنا اللي أخلص عليه وأجيب حقي بدراعي ده..

تقدم "سالم" خطوات حتى وصل إلى دولاب خشبي، نزع قفله في عصبيه قبل أن يسحب منه صندوقاً خشبياً كبيراً.: دا سلاح خدوا منه اللي انتوا عاوزينه.. أنا مش عاوز حد يرجع بإيده فاضيه.. فاهمين.. اللي هيرجع منكم من غير ما ينفذ اللي أنا قولت عليه.. ميرجعش أحسن يشوف له أي خرابه يرمي نفسه فيها بعيد عني علشان

أنا لو عترت فيه مش هرحمه.. فاهمين.. يالا، كل واحد يشوف هايعمل إيه جهزوا نفسكم..

****

تجلس "سوزي" منتظرة اتصال "سعيد" على أحر من الجمر.. بدا التوتر والعصبية عليها وعلى بقايا السجائر المتناثرة حول الطفاية التي امتلأت عن آخرها بفلاتر سجائرها المحترقة..

يرن الهاتف فتنتفض وتمسك لتجيب بسرعه..

- أيوة يا "سعيد" عملت إيه؟

طيب حاضر ثواني أجيب قلم وورقة

تمد يدها لتجذب مفكره صغيرة وقلماً تضغط عليه ليبرز سن الكتابة..

- أيوة معاك..

أمممم.. ماشي.. ماشي... تمام.. أيوة عارفه المكان.. حاضر

تمام.. هكلمهم قبل ما أوصل.. أيوة المحامي مجهز كل حاجة وكنت مستنيه كلامك..

حاضر.. فهمت.. مع السلامة يا حبيبي.. أول ما أخلص هاكلمك.. باي

****

الفصل الثلاثون

يدخل "حسام" و"طارق" على "إيمان" في غرفتها في المستشفى وقد استردت وعيها وجلست على سريرها لكنها كانت متجهمة صامتة رافضة الحديث والطعام..

- ها يا عروسه.. إيه بقي الحركات دي.. إيه يا "أم إيمان" مش تخليها تشد حيلها كده علشان تجهز حاجات فرحها..

لم تتملك "أم إيمان" ولا "أم رامي" دموعهما التي حاولا جاهدين إخفائها بعد أن نزلت دموع "إيمان" الصامتة من عيناها دون أن تنطق بكلمه أو تحرك ساكناً..

- إيه بقي يا جماعه مش كده الله.. حد يعمل كده مع عروسه قبل فرحها؟ ما تتكلم إنت يا حاج "إبراهيم".. ولا إنت يا عم "طارق"..
- فرح إيه بس يا "حسام" بيه.. هي فيها حيل.. دا يا عيني ما نطقت ولا راضيه تحط حاجة في جوفها من الصبح والنهار قرب يخلص ومفيش فايده معاها.. هتموت نفسها يا حبة عيني.. أقول إيه بس.. ربنا يجازي اللي كان السبب...
- إيه يا حاج إنت راجل مؤمن.. والمؤمن مصاب.. ثم دي زعلانه ليه أنا عاوز أفهم؟
- يا "حسام" هي بس بتدلع.. علشان نجيب لها "حاتم" أفندي.. وأدينا ياستي عرفنا كل حاجة عنه..

لم تلتفت "إيمان" لكلام "حسام" ولا "طارق" رغم أن الجميع قد تهللت أساريره واستبشر بكلماتهم عن "حاتم" وعودته والفرح...

- بجد يا "حسام" بيه.. بجد يا "طارق" بيه "حاتم" جاي.. والنبي أنا قلبي ها يقف من الفرحة.. أنا مش مصدقة!!
- لا صدقي "يام رامي".. إحنا لسه راجعين من الشركة ومطمنين عليه..
- طيب ومجبتهوش معاكو ليه أومال؟

يبتادل "طارق" و"حسام" النظرات قبل أن يبادر "طارق"...

- لا.. إحنا مرضيناش نقوله إن "إيمان" تعبانه.. كان هايتجنن ويجي معانا بس ظروفه منعته.. بس هو قدامه بالكتير 48 ساعة ويكون معاكم وكلها أسبوع بإذن الله ويتم الفرح على خير...

تحولت الفرحة إلى صمت مفاجئ.. فلم يكن كلام "طارق" مقنعاً لأي من الحاضرين ولا "لطارق" نفسه الذي بدا عليه التوتر مع سؤال" أم رامي" القاتل....

- طيب "حاتم" وفي شغله ومجاش.. و"سمير" فين؟

لم يكن "طارق" قد أعد جواباً لهذه الهجمة العنترية المفاجأة من "أم رامي"، فقد أفقدته السيطرة على حروفه فسقطت الكلمات من فمه مبعثرة قبل أن يدركه "حسام"..

- "سمير" بخير يا أم رامي متقلقيش.. بس إحنا اللي اطمنا عليه كان "حاتم".. وعلى العموم أنا و"طارق" جايين ناخدكم كلكم عنده في شقته.. عامل عزومه هناك ومصمم إنكم كلكم تحضروها.. وبالمرة تتعرفوا على مدام "طارق" والمدام بتاعتي.. مراتي.. أهي فرصه تخرجوا من الجو اللي انتوا فيه ده..

لم يلقي العرض قبولاً وبدا عدم الارتياح على الجميع، لكنهم صمتوا متبادلين النظرات حتى صرّح بها الحاج "إبراهيم": كتر خيرك يا "حسام" بيه إنت و"طارق" بيه.. إحنا لو خرجنا من هنا هيبقى على بيتنا عدل.. لا هنروح يمين ولا شمال... كتر خيركم يا جماعه..

- يعني إنت بتكسف الراجل اللي جاي لك يعزمك لحد عندك.. دي أصول برضه.. ثم لو مجيتوش معانا هنقبض عليكم كلكم ونرحلكم على هناك.. دي أوامر عليا ولازم تتنفذ وفوراً....

لم يكن منهم غير الانصياع لكلمات" حسام" و"طارق" وبدأ الجميع في جمع المتعلقات إيذانا في الخروج من المستشفى نحو بيت "طارق"..

****

فندق موفمبيك الهرم..

يدخل "ثابت" إلى بهو الفندق الفخم وتبعته بقلق وخوف وترقب.. فمكان مثل هذا لم أكن أحلم يوماً أن أكون من مرتاديه تحت أي ظرف من الظروف.. كنت أسير خلفه متلفتاً كلص يخشى أن تقع عليه أعين رجال الشرطة.. تبعته حتى وقف أمام أحد موظفي الاستقبال الذي انتفض واقفاً كاشفاً عن صف أسنانه الأمامية في ابتسامة عريضة بالتأكيد هي من لوازم ومتطلبات وظيفته..

بدأ "ثابت" يتحاور مع هذا الشاب بينما أخذت أدور ببصري في أرجاء المكان.. شردت بمخيلتي للحظات متذكراً الحارة وبيتي وعربات الفول وسلك الكهرباء، صنابير

المياه المتناثرة على رؤوس الشوارع يتصارع النساء عليها للحصول على ما يسد رمقهم من قطرات مياه نظيفة.. درت ببصري مع الشباب المتأنقين بملابسهم البيضاء والسوداء والقفازات البيضاء والحركة المنظمة والمكان النظيف.. حدثت نفسي مردداً مقولة "سمير غانم" في إحدى مسرحياته القديمة (فعلاً أخويا هايص وأنا لايص)..

التفت إلى "ثابت" بحركة مفاجئة: خير يا "محمد" في حاجة؟

- لا أبداً يا باشا.. متخدش بالك أنا بس سرحت شويه..
- طيب يلا هات الشنطة دي وتعالي "فتحي" زمانه جاي..
- هو خلص؟ دي الساعة لسه خمسة.. لحق يخلص كل حاجة؟
- بطل كلام كتير "فتحي" وصل ولسه ماشي من ربع ساعة.. والشنط في الأمانات وكل حاجة زي ما قولت له.. يلا نطلع علشان في حاجات كتيره عاوز أعملها..
- أوامرك يا بيه.. إتفضل.. بس لو ممكن سيادتك كنت عاوز أكلم الجماعة أطمنهم..
- فوق.. فوق في الأوضه ابقي أطلب اللي إنت عاوزه بس خد بالك إوعي حد يعرف مكانك لو أبوك..
- أبويا تعيش إنت يا باشا.. طول العمر ليك.. فاهم طبعاً.. متقلقش..
- طيب يلا.. ومتخرجش ولا تتحرك غير لم أقولك.. فاهم؟
- حاضر.. بس لو تسمح لي.. هنقعد في العز ده كام يوم؟

نظرة بائسة وامتعاض واضح بدا على ملامح الرجل من سؤالي الغير منطقي من وجهة نظره.. اضطررت أن أنسحب دون أن أنتظر أي إجابه وأتوجه خلفه مباشرة

نحو المصعد الذي أغلق بابه خلفنا بعد أن ضغط العامل على زر أربعة لينطلق المصعد..

****

تصل "سوزي" إلى العنوان الذي أملاه عليها "سعيد" منذ قليل.. مكتب "جمال البسيوني" الذي استقبلها صاحبه استقبال حافل للغاية.. فقد كانت تحمل معها أوراقاً تزيد عن ثقلها ذهباً.. صافحها بكل شياكة وصحبها للجلوس بعد أن صرف السكرتيرة التي أغلقت خلفها الباب...

– منوره الدنيا يا فندم.. أنا لو أعرف إن "سعيد" باشا هايتعب حضرتك أنا كنت جيت لحد عندك وخلصت كل حاجة..

تبادله "سوزي" بابتسامه عريضة تهللت لها أسارير "جمال" وجعلته يقفز نحو ثلاجته الصغيرة في ركن مكتبه يفتحها قبل أن يسأل: ها تحبي تشربي إيه؟ عصير ولا كولا ولا نخليها.....

يمسك جمال زجاجه ويسكي.. يلوح بها رافعاً كتفيه لأعلي، مستقبلاً الإجابة بابتسامة ساحرة من "سوزي" التي أدركت ما يصبو إليه هذا المتأنق..

– لا بلاش دا مش وقته.. خليها عصير ولم نخلص نبقي نشوف ده..

سحب "جمال" علبتي عصير ثم اتجه نحوها مبتسماً: اعتبري كل حاجة خلصت خلاص.. لا وعمولتك عندي، عربون محبه..

مدت "سوزي" يدها بمظروف أبيض كبير: طيب.. دا كل الورق المطلوب المحامي جهز كل حاجة وواقف بس على التوقيعات وتسجيله بكره في الشهر العقاري..

والمحامي عامل حسابه على كل حاجة.. التسجيل بتاريخ قديم والفلوس مع الورق.. تمام..

- لا صح.. تمام.. شكلك مذاكرة كويس.. أنا هاخد الورق دا وثواني وارجع لك.. اخلص كل حاجة وبكره نتقابل تسلميني الورق خلصان أسلمك الفلوس.
- تمام كده..
- ثواني هاخلص الورق وأرجعلك.. مش هتأخر.. قبل ما تخلصي العصير هكون رجعت...

يخرج "جمال" من الغرفة وسريعاً تخرج "سوزي" هاتفها لتبلغ "سعيد" بما وصلت إليه وتزف إليه بشري سيل الأوراق الخضراء التي ستسقط عليه بعد ساعات الليل..

****

يتقدم "سعيد" المنتشي نحو جلسة المفاوضات المنعقدة بشكل دائم لتباحث متطلبات المرحلة الجديدة.. لم يكن يملكون سوي الكلام فالتنفيذ والرأي كان محصوران فقط في يد "شوقي" و"سعيد"، أما الباقين فربما بعض التعليقات أو التدخلات في الحوار هي أقصي ما يمكن أن يكون دورهم في العملية بأسرها..

يجلس "سعيد" وسط المجموعة صامتاً كعادته.. يحاول أن يرسم على وجهه ملامح الثقة والثبات.. يحاول جاهدا إخفاء مشاعر الفرح التي جعلت قلبه يتراقص بين ضلوعه بعد ما تلقي اتصال "سوزي" وأن كل شيء تم على ما يرام وهو الآن على بعد ساعات قليلة من صفقة عمره التي ستضمن له حياة كريمة بعد خروجه من السجن..

يتلقي نظرات من الجميع.. نظرات يعرفها جيداً فكل منهم داخل حلقة شوكة مسمسة تؤرق مضجعه لكنه يخشى البوح بها لعلمه بما يمكن أن يقوم به هذا المجنون.. جاهدا حاول تجاهل نظراتهم لكن هيهات فعل.. فقد كانوا ينتظرونه ليفرغوا سمومهم في جسده...

- نافع: على فكره أنا زعلان جداً من اللي عملته معايا من شويه يا "سعيد".. أنا يا "سعيد" تكلمني بالطريقة والأسلوب ده.. دي أخرتها..
- سعيد: إنت عارف أنا مشدود إزاي من موضوع البيع والتخليص ده.. كل ما أقول خلاص تقوم تتقفل تاني.. وانت دخلت في وقت مش مناسب...
- شاكر: متزعلش مني يا "سيعد" اللي بتعمله إنت و"شوقي" ده غلط والمفروض يا جماعه كلنا شركا وفي مركب واحده..
- الكومي: أيوة يا "سعيد" كلنا شركا والمفروض مفيش حاجة تتم غير بمعرفة الكل وتكون برأي الأغلبيه..
- الفولي: لو دا حصل كان زمان الموضوع انتهي.. بس نقول إيه.. لو كان الموضوع ده في وقت ومكان غير هنا كان كل حاجة اتغيرت..

يرمقهم "سعيد" بنظرة سخط وضيق.. يطلق زفيراً أحس بحرارته كل من في الجلسة..

- سعيد: يا جماعه في حاجات كتير محدش يعرفها.. وأنا باحاول ألم الموضوع علشان الموقف صعب.. إحنا مش قاعدين على كافتيريا وبنقسم أرباح شركة.. إحنا في سجن.. يعني ممكن أى حد من اللي حواليكم دول يكون مراقبنا وفي لحظة تلاقي الدنيا كلها فوق راسنا..

-نافع: مهما كانت الأسباب.. مكنش يصح يا "سعيد" تعمل اللي عملته.. أنا طول عمري باعتبرك زي ابني وفي الآخر تقوم تـ.....

يقطع كلامه صياح "شوقي" الآتي من بعيد.. صوت مرتفع التفت له كل من في المكان.. صياح وتهديد ووعيد وبعض من الألفاظ الخارجة التي تناثرت واستدعي الأمر تدخل بعض الحراس لمحاولة إيقاف زحف هذا الثائر المشتعل بنار غضبه..

-شوقي: لا بأاااا.. لا بأاا يا "سعيد يا طحان"... موصلتش للخيانة يا "سعيد يا طحان".. بتقرطسنا كلنا يا "سعيد يا طحان".. عليَّ الحرام ولا إنت ولا أي حد من البهوات الكبار دول هيطول مليم..

يقف "سعيد" متصنعاً الهدوء ومحاولا السيطرة على مجريات الأحداث..

-سعيد: لم الدور يا "شوقي" وبلاش هبل.. أحسن وديني أفرمك ولا ليك عندي دية وانت عارف..

-شوقي: لا يا "سعيد ".. كلامك ده تخليه لنفسك.. لو راجل وذكر وابن أبوك صحيح تقول للجماعة إنت كنت ناوي تعمل إيه من وراهم ومن ورايا أنا كمان... قول يا ذكر.

-نافع: عيب كده يا "شوقي" لم الدور الناس كلها بتتفرج علينا وكده مش كويس.. ما تعقلوه يا جماعه مش كده أومال.. هتودونا في داهيه كلنا..

-شوقي: لا يا جماعة.. الباشا اللي بتدافعوا عنه جالي أخبار انه بيلعب بديله وعاوز يخلص المصلحة لحسابه.. عاوز يلهطها كلها لوحده ونطلع كلنا من المولد بلا حمص..

يقترب "سعيد" من "شوقي".. حتى لم يعد هناك أي مسافة تفصل بينهما.. يقترب برأسه حتى وصل فمه جوار أذن "شوقي" تماما.. ثم همس في أذنه: كده إنت حفرت قبرك بايدك يا غبي.. وكده كده أنا كنت هخلَّص عليك.. بس إنت باين عليك مستعجل ومش قادر تصبر لم أخلص عليك براحتي..

سحب "شوقي" رأسه وبدل الوضع فأصبح فمه ملاصقاً لأذن "سعيد": اللي عنده حاجة يخسرها يعيط عليها.. إنما أنا يا عايش ملك.. يا ميت ملك.. معنديش حل تاني.. إنما إنت بقي.. يا عايش حرامي يا ميت حرامي.. شوفت بقي.. مين فينا اللي يخاف.. إنت انتهيت يا "طحان" حتى الفلوس اللي كنت ناوي تخدها وتخلع مش هتعرف تتهني بيها علشان أنا همسحك من على وشك الدنيا سواء وأنا عايش ولا لو موتني.....

يعتدل الرجلان وسط ضحكات هستيريه يطلقها "شوقي" في وجه "سعيد" الذي تنحي بوجهه بعيداً..

يتدخل "نافع" محاولاً جذب "سعيد".. بينما يتدخل "شاكر" و"الكومي" محاولين إبعاد "شوقي".. لكن "سعيد" فاجأ الجميع بقبضته تنطلق لتسكن في منتصف وجه "شوقي" تماماً الذي اختل توازنه وسقط على ظهره وقد تناثرت الدماء من فمه وسالت من أنفه..

يرفع "شوقي" رأسه ثم يمرر يده على أنفه وفمه ماسحاً بعضا من خط الدماء المنسدل من أنفه.. ثم يبثق على الأرض ليري دماء أخري قد ملأت فمه.. يستند على ركبته وذراعيه كمتسابق في بداية مارثون يستعد للانطلاق.. ثم ينتفض منطلقاً نحو جسد "سعيد" يحيط وسطه بذراعيه ويدفعه بكل قوته حتى سقط الاثنان أرضاً.. يحاول

"سعيد" مقاومته لكن "شوقي" كان قد أحكم ذراعيه على وسط "سعيد" بكل قوته.. تحول فناء السجن إلى حلبة للمصارعة الروماني..

تحول المشهد تماماً فالجميع يقف يشاهد دون تدخل حتى حراسة السجن لم تبدي اعتراضاً لما يحدث.. كان أشبه بحلقات (قتال حتى الموت)..

يستجمع "سعيد" قواه وينجح في الدوران بجسده على الأرض ليتحول الوضع إلى عكسه.. خلّص "سعيد" ذراعه وانهال على وجه "شوقي" بلكمات متتالية قبل أن يدفعه الأخير بقدميه ليسقط على ظهره بعيداً عنه.. يقف الرجلان "سعيد" متحفز يشير بيده "لشوقي" أن تقدم.. والأخير يمسحه سيل الدماء الساقط من أنفه وأسنانه...

يتدخل حراس السجن بعد أن أطلق المأمور رصاصات تحذيرية في الهواء لكبح جماح الرجال المتصارعين ولإجبار الجميع على التزام الهدوء.. وبنبرة آمرة وصوت جهوري يتخذ المأمور قرار نهاية اللقاء.. مؤقتاً..

– خد الاتنين دول حبس انفرادي يا عسكري..

أمسك الحراس "بسعيد" و"شوقي" وتم إيداع كل منهما في حبس انفرادي مما أصاب "سعيد" بطعنه نافذه في قلبه وعقله استشاط بعدها غضباً.. فكيف له الآن أن يتابع "سوزي" وما سيحدث بالخارج..

أخذ الشيطان يلعب بعقله وتفكيره.. "فسوزي" الآن تحمل أوراقاً تحمل توقيعات وبصمات "شوقي" بصفته المالك الأول وصاحب الشركات.. فقد كان "سعيد" يحتفظ ببعض أوراق بيضاء موقعة وعليها بصمة "شوقي" منذ أن بدأ يعده لعالم المال

والأعمال والشهرة..، كان يدرك تماماً أنه سيأتي اليوم ويحتاج هذه الورقات البيضاء.. وها هو المحامي حولها من مجرد ورق أبيض إلى عقود بيع وهي الآن في طريقها للتوثيق.. للتحول من اللون الأبيض إلى اللون الأخضر.. لون الدولارات والبنكنوت..

****

تتقدم سيارة ربع نقل بيضاء بمحاذات سور فيلا كبيرة.. تسير ببطيء بينما يطالع قائدها المكان متفحصاً.. أمتار قليله ثم توقف على مقربة من باب الفيلا كانت المسافة كافية ليري ويتابع كل من يدخل أو يخرج من باب الفيلا.. لم يكن هذا القائد الملثم بشالٍ على وجهه ورأسه سوي "سالم".. كانت ينتظر عودة "ثابت" من عمله فها هي الآن الساعة السادسة مساءاً..

لم يمض الكثير حتى إقتربت سيارة سوداء فخمه من باب الفيلا.. كانت سيارة "ثابت" حسب المواصفات التي حددها "النونو" "لسالم" مسبقاً.. لم يستطع تبين من فيها فزجاجها الأسود الفاميه يخفي الجالس فيها.. لكن لا يهم.. فالسيارة تتقدم ببطيء وفي خط مستقيم نحو الفيلا..

أدار "سالم" محرك سيارته متحركاً نحو السيارة التي لم تكن قد وصلت بالفعل إلى الفيلا.. يرفع سلاحه الآلي ويخرج ذراعه من شباك سيارته الأيمن ممسكاً بعجلة القيادة بيده اليسرى، لحظات وتحولت السيارة السوداء إلى ما يشبه الغربال، فقد أمطرها بوابل من الرصاص من سلاحه الآلي.. قبل أن يكبس بكل قوته على دواسة البنزين ليتصاعد الدخان من عجلات السيارة التي دارت بسرعه كبيرة محدثة صرير صاخب، لينطلق مخلفاً ورائه سيارة تحولت إلى مصفاة.. ثواني معدودة مرت قبل أن تضاء سماء

المنطقة بأسرها بانفجار ضخم كان للسيارة السوداء المنكوبة.. التفت "سالم" خلفه ليشاهد ألسنة النيران تتصاعد وتتصاعد معها ضحكاته الساخرة المدوية.. متزامنة مع طرقات من قبضة يمينه على مقود سيارته...

- إنت اللي عملت في نفسك كده يا صاحبي.. علشان أنا حذرتك.. بلاش تلعب مع الأسد.. بس إنت اللي طلعت خايب...

يرن هاتف "سالم" فيجيب وقد تهللت أساريره..

- ها يا "شيحة".. عملت إيه يا وش السعد إنت!

إنت قدام الشركة.. حلو.. عاوزك قبل ما تنفذ ترقد لك هناك شويه وتتابع المكان علشان لو فيه حكومة ولا كمين ولا حاجة.. من بعيد لبعيد.. تشمشم الأول ومتقربش من الشركة غير ساعة التنفيذ فاهم الوقت لسه معاك..

أيوة خلاص أنا خلصت اللي ورايا وزمانه الوقتي بيتشلقب في نار جهنم..

تسلم..

معرفش الواد "شريده" عمل إيه؟

طيب أنا هكلمه وأشوف.. على الله يكون خلص وجاب البت هو كمان خلينا نهيص ونروق وننسي الساعات الغم..

ماشي سلام إنت بقي أصل في لجنه.. سلام.. سلام

****

قبل نصف ساعة – الغرفة المزدوجة بالفندق.....

غرفة فخمة.. أثاث مرتب.. شرفة تطل على منظر يذهب بالعقل.. كل شيء رائع.. درت ببصري في أرجاء الغرفة التي تركني "ثابت" على بابها وانصرف على أن يعود لاحقاً.. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف.. بدأت أتحرك في الغرفة أتفحص محتوياتها.. أو بمعني أدق أبحث عن الحمام.. فقد كانت مثانتي على وشك الانفجار.. بالفعل وجدته كان لا يقل أناقة ولا نظافة عن الغرفة..

ألقيت بجسدي في البانيو الذي استغرق ربع ساعة أو يزيد حتى امتلأ بالماء الساخن الذي كنت في أشد الحاجة إليه حتى أنسلخ من جلدي.. نعم أريد ماء حارقاً ليس فقط ساخناً حتى أنزع جلدي القديم واستعد لحياتي الجديدة.. وانغمست في الماء مغمضاً عيناي ومطلقاً العنان للمياه تفعل بجسدي ما تشاء..

وقع خطوات متباطئة أسمعها رغم أنني كنتي قد دفنت رأسي بكامله تحت الماء إلا من فتحات أنفي فقط.. لكن وقع الخطوات سمعته جليا يقترب.. كنت مغمضاً عيناي لكني أري الضوء.. ضوء شديد يخترق جفوني ويصل إلى مقلتاي يكاد يقتلعهما من مكانهما.. تتوقف الخطوات أعلي رأسي تماماً.. يد تلمس كتفي جعلت جسدي ينتفض مع شهقة كبيره.. وعينان تكاد تحترقان من شدة الضوء.. حاولت كثيراً أن أفتحهما لكني عبثاً فعلت.. وضعت يدي أمام عيني تفاديت الضوء.. من بين أصابعي حاولت النظر فرأيتها تقف أمامي تماماً.. كانت بنفس ثوبها التي رأيتها فيه أخر مره..

أحسست بها تقترب.. إقتربت حتى أن حرارة أنفاسها شعرت بها بالقرب من رقبتي.. صوت هامس في أذني..

" إنت نسيت؟ مش قولت لك آخر مرة مكان الظرف؟ كان في إيدك وراح منك.. راح زي ما راح منك كل حاجة..."

تلفت بهستيريه وانفعال.. مع محاولة لتفادي الضوء المبهر المسلط في عيني.. "ولاء"... ردي على يا "ولاء"...

صرخت بكل ما أوتيت من قوه.. تقلبت بين أركان الحمام عارياً واضعاً يدي أمام عيناي.. أحاول جادهاً أن أمسك بها.. أن أجد عندها إجابه لما يحدث...

كنت أدور حول نفسي بلا جدوى دقائق مرت لا أعلم قلية كانت أم كثيرة.. لكني أحسست بجسدي قد انتهي وخارت قواي.. ألقيت بجسدي في ركن من أركان الحمام.. أجمع أشلائي في جلسة القرفصاء.. أضم جسدي إلى بعضه وأخفي رأسي بين قدماي.. أنفاس متلاحقة تطاردها دموع تنهال من عيوني وخيط ساخن أحسست به ينساب من أنفي.. كنت أعرفه جيداً.. فهذا الخيط المرتبط بكل ثورة عصبية تحدث لي..

رفعت رأسي ومددت يدي أتحسس هذه الدماء.. لم يزل الضوء مسلط في عيناي.. نفس الصوت يقترب مرة أخري.. صوت خافت.. " قوم يا "حاتم" بلاش دي كمان تضيع من أيدك زي كل حاجة.. قوم متضيعش وقت.. قوم قبل ما تروح في الرجلين وتندب حظك زي عوايدك؟؟"

توقف الصوت وبدأ وقع الخطوات يبتعد.. قليلاً.. حتى تلاشي تقريباً.. دقائق مرت في صمت مطبق حتى بدأت طرقات متتالية تعلوا تدريجاً حتى تحولت إلى ضربات قوية.. أصوات تنادي باسمي.. " حاتم".. إنت كويس.. حاتم.. حاتم "

انتفض جسدي مرة أخري لكن هذه المرة كنت ما زلت في الماء.. صوت "ثابت" من خلف الباب مع طرقات متتالية على باب الحمام..

بجسد متثاقل جذبت جسدي من الماء وبجهد استطعت أن أجيب عليهما.. وقفت على قدماي.. نظري إلى وجهي في المرآة.. ثم إلى ماء البانيو الذي تحول إلى اللون الوردي من أثر الدماء التي نزفتها من أنفي...

خرجت من الحمام مترنحاً.. حاولت التظاهر بالتماسك وبالقوة غير إن شحوب وجهي فضحني مع رجل مثل "ثابت"..

- إيه يا عم مالك.. إنت شوفت عفريت في الحمام ولا إيه؟
- لا أبداً يا باشا مفيش حاجة..
- مفيش إزاي.. دانت وشك مخطوف.!! وإيه اللي خلاك تفك الرباط من على دراعك؟
- خفت لا يتبل من الميه فكيته وهربطه تاني دلوقتي..
- يتبل إيه وتربطه إيه إنت بتهرج.. استني اطلب حد من المسعفين في الفندق يعملها لك..

بالفعل حضر أحد المسعفين يحمل حقيبه بيضاء وما هي إلا دقائق وعادت الضمادة كما كانت

***

عقارب الساعة تشير إلى السابعة ....

طرق خفيف على باب الحجرة.. يدخل "فتحي" حاملاً معه حقيبة يد سوداء صغيرة الحجم.. ابتسامه عريضة تملأ وجهه.. يبادله ثابت نفس الابتسامة.. بينما اكتفيت أنا بمشاهدة الموقف كما يقال " أطرش في الزفة "....

- سبع باين عليك كده يا "فتحي"
- سبع يا باشا طبعاً..
- طيب ورينا جبت معاك إيه؟
- إتفضل يا باشا.. كل اللي سعادتك قولت عليه تم بالحرف الواحد..
- حلو خالص.. وصاحبك شرب المقلب؟
- يا باشا إنت دماغك دي محدش مقدرها.. طبعاً شربه واتكيف كمان وزمان الرجاله بتلعب معاه القط والفار.. وهو فاهم انه عمل اللي محدش عمله..
- فهمتهم هايعملوا إيه؟
- تمام يا باشا.. كله تمام
- حد إتعور ولا حاجة من الرجاله عند الفيلا؟
- لا يا باشا.. العربية اتظبطت على مثبت السرعة وصاحبنا يادوب شافها مكدبش خبر فرتكها بالرشاش اللي معاه.. وطبعا العربية متفيمه مشفش انها كانت فاضية مفيهاش حد...

لم أكن أفهم معظم ما يدور من أحداث.. لكني استنتجت أن هناك شخصاً ما كان يحاول تصفية "ثابت" بيه لكنه اتخذ احتياطه ولم يصب أحد بسوء.. وعلى الأغلب هو" سالم "..

وددت لو أن أشترك معهم في الحديث لكني آثرت الصمت لأستمع.. أحسست بشغف يجتاح عقلي لتعلم كيف يفكر هؤلاء البشر.. بالطبع لهم عقول مثلنا لكننا نفتقد إلى إعمال عقولنا فركنا إلى الاستسلام ورضينا بالأمر الواقع أما هؤلاء فتمردهم على واقعهم وكفرهم بالمستحيل هو من جعل منهم أشخاص مختلفين.. على الأقل ليسوا مثلنا نحن ساكني المقابر..

- إيه.. اييييييه.. إيه يا عم ما تفوق وتخليك معانا.!!

انتبهت من شرودي على صوت ثابت بيه...

- أيوة.. أيوة يا باشا معاكم.. خير؟
- خير إيه إنت بتنام وانت مفتح عنيك.. ليه إنت ديب؟

تعالت الضحكات من الثنائي ومعها استمر ذهولي وشرودي..

- هيتنح تاني.. ما تقوم ياعم إغسل وشك ولا حاجة علشان تفوق.. ولا تغسل وشك ليه مش إنت لسه واخد دش....
- والنبي يا ثابت باشا لو تعرف اللي أنا فيه.. أنا استويت..
- بطل دلع وخيابه أنا عارف إنك خايف بس للأسف الجزء الجاي ده بتاعك إنت محدش يعرف يخلصه غيرك.. قدرك بقي تمشي المشوار لأخره..
- طيب مش أفهم بس؟
- حبيبك "طارق" باشا!
- ماله؟
- ماله إيه أنا داخل معاك قافيه؟
- هتكلمه..

- هكلمه ازاي؟ ما تليفوني مع "سالم" وكل الأرقام عليه، ما هو الرقم لو معايا كنت كلمته من زمان؟
- يا سلام.. يعني هي المشكلة في الرقم.. مش عارف بحس أوقات كده إنك راضع مفتقه.. مش بتقولوا كده برضه..
- الله يكرمك ياباشا.. طيب هاجيب رقمه إزاي طيب؟
- اعتبره معاك.. قوم يا "فتحي" اتصرف.. بس الوقتي الساعة 7.. هتكلمه وتقوله إنك في مكان مش عارف هو فين.. "سالم" مخبيك وإنت بتتكلم من وراه وهو ميعرفش.. وانك سمعته بيقول لرجالته يروحوا يسرقوا الشركة ويحرقوها كمان.. وانه هو اللي ضرب نار على عربيه "ثابت" بيه صاحب الشركة وإن إنت سمعته بيقول كده..
- طيب والمطلوب يعمل إيه بقي؟
- ولا حاجة.. هايبعت التليفزيون يصور وهم بيحرقوا الشركة.. عادي يعني.. إنت هتجنني يا بني والله.. حرام عليك..
- ليه بس يا باشا.. مش تفهمني بس بالراحة!!
- بص.. هو كده هايتصرف وممكن يقدر يمسك الناس اللي رايحه تحرق الشركة.. ومش بعيد كمان يقبض على "سالم" ويخلص صاحبك "سمير"..
- طيب ولو "سالم" مبعتش رجالته أصلاً للشركة.. يا باشا مش إنت قايل إن كل ده يمكن يحصل ويمكن لا؟
- لا.. طالما "سالم" خد الخطوة الأولي وراح للفيلا وضرب نار على العربية.. يبقي لازم رجالته يروحوا الشركة، دا كمان مش بعيد يكونوا هناك دلوقتي..
- طيب وبعدين؟

يدخل "فتحي" حاملاً في يده ورقه مدون عليها رقم هاتف.. يناولها "لثابت" الذي بدوره يسلمها إليَّ مع حركه من رأسه.. تسلمت بعدها الورقة واتجهت نحو الهاتف لأبدأ التنفيذ.. لكني توقفت فجأة.. ثم نظرت إلى "ثابت" مرة أخري مستجدياً: طيب يا باشا في مشوار مهم قوي كنت عاوز أروحه دلوقتي حالاً.. مهم جداً وممكن يغير كتير في اللي بيحصل ده..

- مشوار إيه بس مش ناقصه عطلة.. بص كل حاجة مترتبة تمام ومفيش وقت نضيعه..
- معلش يا باشا.. خليها عليك إنت المرة دي.. واستحملني.. بص حتى إبعت معايا "فتحي"..

بعد أن رأي "ثابت" إصراري على هذا الطلب وأنه لم يستطع إثنائي عنه بحجج التأخير، فما كان منه إلا أن يشاركني وجهتي..

- لا أنا اللي هاجي معاك.. "فتحي" واره حاجات كتيره ها يخلصها..
- ماشي يا باشا.. هنطلع على ترب الغفير.. ماشي يا باشا..
- ترب الغفير الساعة 7 بالليل إنت اتهبلت يابني؟
- معلش يا باشا.. خليها عليك المرة دي.. استحملني وتعالي معايا.. المشوار هياخد بتاع ساعتين رايح جاي بس ممكن يخلص الموال اللي إحنا فيه ده كله..

تبادل "ثابت" و"فتحي" النظرات ومع إصراري وتمسكي بالمشوار.. استجاب "ثابت" وقرر إن يخوض التجربة بعد أن أفرغ ما في جوفه من تعليمات "لفتحي" الذي انطلق لوجهته بينما انطلقت مع "ثابت" نحو موقع مرقد "ولاء".. في ترب الغفير..

الفصل الحادي والثلاثون

يصل الرجلان إلى ترب الغفير.. كان الظلام قد أسدل ستره على المكان فأضفي إليه رهبة ووحشة.. رائحة مميزة لهذه المنطقة تبينها "حاتم" مع نسمات الهواء التي استنشقها فور وصوله..

كان المكان مظلماً إلا من بعض الضوء الأصفر الباهت الصادر من مصابيح مغبره وضعها بعض ساكني المقابر لتضيء طرقاتها الموحشة..

يتقدم "حاتم" وخلفه "ثابت" نحو مقبرة بعينها.. يعرفها "حاتم" ويحفظ مكانها جيداً.. حتى وصلا إلى المكان المنشود.. يقف أمامه "حاتم" صامتاً تائهاً، حتى انتزعه من صمته صوت "ثابت": إيه يا حاتم.. إنت هتنبش القبر دا ولا إيه.. إنت عاوز تودينا في داهيه..

- إثبت يا باشا متقلقش.. إنت هتوتري وهتخوفني أكتر ما أنا مرعوب.
- ولم إنت مرعوب جايبنا هنا ليه.. عاوز تخلص علينا..

يقطع حديثهما صوت أجش يخطف القلب..

- وحدووووووه...

ينتفض "حاتم" و"ثابت" على حد سواء فالصوت والمفاجأة.. المكان والظلام كفيل بأن يحول الطفل إلى شيب..

كنت أعلم أنه سيلحق بنا.. فهو الحارس الأمين لهذا المكان منذ سنوات.. أجبته بصوت مرتعد...

- أنا ياعم " دسوقي ".. أنا حاتم ابن الحاج فهمي أبو السعيد..
- فهمي أبو السعيد؟

يقترب صاحب الصوت ليظهر شيخ مسن نحيل الجسد رث الثياب تساقطت أسنانه إلا من بعض القطع اللامعة من الذهب أو الفضة.. تعكس الضوء في ظلام الليل.. يقترب أكثر يسبقه ضجيج بفعل السعال وحشرجة متقطعة..

- خير يابو فهمي.. إيه اللي رماك عندنا الساعة دي؟ ثم لا أبوك ولا أمك هنا.. جاي اليمه دي لمين؟

جاهداً تمالكت أعصابي التي كادت أن تنهار وأسقط مغشياً عليَّ.....

- عم "دسوقي".. التربة دي بتاعت "ولاء" مرات "الوزير".. فاكرها؟
- ألا فاكرها.. الله يرحمها ويحجمه مطرح ما راح البعيد.. وإنت إيه اللي عاوزه منها؟
- بص إنت هتفتح لي التربة.. هاخد منها حاجة وأمشي على طول وانت اقفلها تاني..

أطلق "دسوقي" ضحكه تبعها بسعال وحشرجة شديده من أثر الدخان الذي لا يفارقه..

- خبط لزق كده.. طيب.. إطلع بأستك خلينا أروح أجيب العدة..
- أستك إيه بس.. دا أنا.....
- إخلص يابن الغالي.. ورحمة أبوك ما فتحها أقل من "خمس بواكي بس علشان إنت ابن حبيبي.. أبوك أصله كان حبيبي.. الله يرحمك يا "فهمي"..

التفت نحو "ثابت".. الذي غرق في عرقه تماماً وأصبح في حال يرثي لها..

- باشا.. مفيش معاك ألف جنيه.. علشان يخلَّص.. أصل أنا على الحديدة...
- حاضر.. بس اخلص من الجو الهباب ده والشيطان اللي واقف معاك ده اصرفه..

يخرج "ثابت" نقوداً عد منها خمس ورقات وأعطاها "لحاتم" الذي سلمها "لدسوقى".. الذي تأملها ضاحكاً..

- الله.. هي بقيت كده.. الأستك بقي خمس ورقات.. عليه العوض.. هي الدنيا جري فيها إيه يا جدعان..
- إيه بقي ياعم "دسوقي".. خلصنا مش فاضيين..

لم يجب "دسوقي" ودس الورقات في صدريته قبل أن يرفع طرف جلبابه ويغيب لثواني ليعود بعدها حاملاً فأساً وجاروفاً وما هي إلا دقائق وانفتح القبر..

- أدي التربة اتفتحت.. هتنزل إنت ولا هتقولي على المطلوب أجيبهولك؟

تلفتت وقد تملكني الرعب.. أنزل!! أنزل فين! إنت انزل هات إنت..

يطلق "دسوقي" ضحكته المصحوبة بسعال شديد أحسست أن روحه ستسقط أمام قدميه..

- يبقي تطلع بخمس ورقات حلوين كمان زي اللي فاتو..

لم ينتظر "ثابت" ومد يده ليخرج أوراقه.. عد منها خمساً وضعها في يد "دسوقي" الذي دسها في صدريته...

- ليلتك عسل.. قولي بأه؟ إيه اللي تحت وعاوزينه.. علبه.. ولا صندوق خشب.. ولا ظرف أصفر ملفوف بقماش...

أنهي كلماته ضاحكاً في بهستيرية وسعال زاد عن الحد وصوته الذي تحول إلى حشرجة متقطعة.. كان هذا كافياً ليمسك "ثابت" ذراعي بشده..

- أنا هستناك في العربية.. خلص الهباب اللي إنت بتعمله ده وحصلني..
- عم "دسوقي" هو الكلام بجد في ظرف تحت مدفون وإنت عارف؟
- إيه بس يابو فهمي.. إنت أبوك حبيبي.. وعلى العموم.. أنا عارف انك جاي وكنت مستنظرك.. أصل المرحومة موصياني عليك..

إقترب "دسوقي" حتى ملأ أنفي برائحة أنفاسه المحملة برائحه الدخان الكريهة.. وبصوت خافت: إنت متعرفش إن كل الميتين دول أسرارهم مع العبد لله.. مش عاوزك تستغرب.. بس إنت اتأخرت.. كان لازم تيجي قبل كده بشويه..

- طيب عاوز أعرف منك حاجة قبل ما تنزل.. الظرف ده هنا من إمتي ومين جابه؟

- كل ده.. بص هقولك.. هي جت وفهمتني على الحكاية وقالت إنها هتبعتك تستلم الظرف ده.. بس من يومها ولا حس ولا خبر.. سيبني بقي أشوف شغلي بدل ما أدفعك وقت ضايع..

يُخْرِج "دسوقي" من جلبابه ولاعة صغيرة بها كشاف صغير يكاد يضيء مدخل القبر.. يغيب لدقائق قبل أن يظهر مره أخري حاملاً في يده لفافة من القماش تغطيها الأتربة والرمال..

ما أن رأيتها أحسست بالدنيا تدور من حولي.. مددت يدي التقطها.. قلبتها يمينا ويساراً انها تشبه كثيراً التي أعطتني إياها ولاء في الحلم.. لم أتحدث.. ولم أشعر بنفسي إلا وقدماي تسابقان الزمن، تحملهما الريح نحو سيارة "ثابت".. الذي أدار محركها استعداداً.. ما أن رآني وركبت بجواره حتى أنطلق بكل سرعته.. انطلقنا مخلفين ورائنا شبح يضحك ويهلل بصوت عال.. لم أتبين أي من كلماته لكني الآن أحمل كنز الأسرار.. براءتي وحياتي كلها متعلقة بهذه اللفافة الصفراء..

يلتفت إلى "ثابت" وقد خارت قواه وغرق في عرقه وتبدل حاله: الله يخرب بيتك.. أنا قلبي كان هايقف.. منك لله..

- متزعلش يا باشا.. بس لم تفتح الظرف ده هتلاقي فيه اللي ينسيك كل اللي شوفته..
- فيه إيه بقي الظرف ده؟ ومين "ولاء" دي؟؟
- متستعجلش.. هنعرف كل حاجة.. بس أنا حاسس إني ميت من الجوع..
- نوصل الفندق.. توريني إيه الظرف ده وبعدين تاكل.. عارف لو طلع كلام فاضي.. هاخلص عليك.. والله لأخلص عليك..

****

في الوقت الذي كان فيه "حاتم" يصارع حلمه في ماء الحمام الساخن ويتلقي تعليماته من شبح "ولاء".. كان "سالم " يتقدم بسيارته البيضاء الربع نقل نحو كمين كان في طريق عودته.. لم يهتز "سالم" فقد كانت نشوته بالتخلص من "ثابت" تحطم أي خوف وتقهر كل صعب.. تقدم بهدوء حتى وقف أمام أحد أمناء الشرطة الذي طلب منه إظهار رخصه..

لم يتخلي "سالم "عن هدوءه ومد يده إلى التابلوه وأخرج رخصة قياده ورخصة سيارة وكلاهما بنفس الإسم.. بالطبع كان الإسم المستعار...

تطلع أمين الشرطة في الرخصتان قبل أن يلتفت ويشير إلى زميله الذي إقترب منه وبعد كلمات بينهما لم يعرها "سالم" اهتماماً.. تقدم الأول إليه..

- ممكن لو سمحت تركن على جنب وتنزل للباشا..
- ليه بس يا باشا خير.. الرخص تمام ومفيهاش الهوا.. أنزل للباشا ليه بقي.. ثم أنا مستعجل ورايا مصالح..

باقتضاب وصرامة: لما أقولك إركن وكلم الباشا متطولش في الكلام....

أطلق سالم زفيراً قبل أن يبدأ في التحرك بسيارته: اللهم طولك يا روح.. حاضر يا باشا..

يبدأ سالم بالتحرك بينما يبتعد الأمين عن طريقه ويشير للأفراد بفتح الطريق.. ما أن رفعت الحواجز حتى ضغط "سالم" على دواسة البنزين بكل قوته لتطلق السيارة

صريراً مزعجاً من احتكاك الإطارات بالأسفلت وتنطلق بعدها مسرعة وانطلقت خلفها سيارتا شرطة تطاردها..

لم تكن شوارع المنطقة مزدحمة كعادة المدن الجديدة.. فالشوارع الواسعة والخالية جعلت "سالم" يطلق العنان لسيارته تقطع الشوارع وتطويها بسرعة فائقة..

التفت "سالم" خلفه يطالع سيارتها الشرطة التي خلفه.. تعالت ضحكاته قبل أن يزيد من سرعته مختفياً عن الأنظار.. بعد أن نجح في الفرار من سيارات الشرطة التي عجزت عن اللحاق به..

بعد دقائق يتوقف "سالم" بسيارته في إحدي محطات البنزين.. ينزل من السيارة ويتحرك نحو الكفتيريا.. يشتري علبه مياه غازيه وعلبه سجائر.. ثم بعد خطوات قليلة يخطوها مبتعداً عن السيارة يخرج هاتفه وقوم باجراء اتصال..

- أيوة.. إيه يا "شيحة" طمني.. وصلت لإيه؟

أيوة يا أخي لسه مكلمك فيها إيه لم أطمن..

طيب أنا عوزك تتأكد الأول إن مفيش حد في المكان مترصدلكم.. إنت فاهم؟

أيوة تمام.. خليك راكن بعيد ومتستعجلش الأمور.. براحتك خالص..

تمام.. عفارم عليك..

أيوة أنا هقفل معاك واشوفهم عملوا إيه..

ماشي يا "شيحة".. لو في أى حاجة بلغني دوغري ما تستناش

ماشي سلام..

- وأدي "شيحة" ميه ميه.. لم نشوف يا "ثابت" ولا يا "جميل" مين اللي هيمسح مين.. لم نشوف بقي الواد "شريده" هبب إيه دا التاني..

يجري "سالم" اتصال آخر بشريده التي تأخر قليلاً قبل أن يجيب..

- إيه يا زفت إنت.. مبتردش على طول ليه؟

أصل إيه.. ماتنطق..

آه.. آه... آه وبعدين يعني؟

نعم يا خويا.. يعني إيه معرفتش تعمل حاجة؟

أنا مال أمي بالكلام الهري ده..

أنا قولت تجيبهم يبقي تجيبهم..

ماليش فيه بقي.. لا تقولي ظابط ولا مأمور..

شوف راحوا فينا نصيبه وتروح تجيبهم هم والظابط معاهم..

فاهم ولا لا.. أنا لو باعت جوز نسوان كانوا جابوهم...

اتفوو عليكوا رجاله انتو.. غور يلا.. وتبلغني هبت إيه..

اه.. تجيبهم وتجي على المخزن التاني.. فاهم

قليت مزاجي الله يعكنن عليك.. غور..

- ظابط إيه وزفت إيه.. هي كانت طالبه ظابط ولا بتاع... بس معلش.. مش كله بيجي بالساهل.. لازم حتة شغته كده علشان الميزان يطب...

يشعل سيجارته مع ابتسامه عريضة تكسوا وجهه.. قبل أن يشير إلى تاكسي.. يستقله تاركاً سيارته البيضاء في البنزينه وبداخلها السلاح الآلي...

****

شقة طارق...

يجلس الجميع وقد غطى الوجوم والصمت وجوه الجميع.. الكل شرد بذهنه في ملكوته الخاص.. كل يغني على ليلاه كما يقال.. طاوله طعام ممتده تحمل أصنافاً من الطعام لم تمتد إليها يد..

لم يجد "حسام" ولا "طارق" إجابات مقنعة لمعظم الأسئلة التي انهالت عليهما من كل الأطراف.. الجميع يدرك أو يؤمن بأنهم هنا فقط لإبعادهم عن شيء ما سيحدث.. لكن لا أحد يعلم ماهو!

يقطع صمت الجميع صوت هاتف "إيمان".. الذي انتفض "حسام" إليه قبل الجميع..

- ألووو.. أيوة دا تليفون "إيمان".. إنت مين؟

هي كويسه إنت مين اللي بيتكلم.. مين؟ بتقول مين؟ حاتم؟

كانت كلمة "حاتم" كفيلة بأن تعيد الحياة إلى قلوب الجميع بما فيهم "إيمان" الباكية التي انتفضت مسرعة تجذب التليفون من يد "حسام"..

- ألوا.. حاتم.. إنت حاتم..

أيوة يا حبيبي.. أنا عايش مش كده.. طمني يا حبيبي.. قولي إنت عايش؟

طيب إنت فين؟

اصبر إيه.. طيب هتيجي امتي؟

والنبي يا "حاتم" قولي أنا مش مستحمله..

لا قولي ورحمة أبوك إنت بجد هترجع ولا هتسيبني..

لا يا "حاتم" أنا مش هزعل بس قولي يا حبيبي.. إنت هتسبني مش كده؟

إنهالت دموع الجميع من وقع كلمات "إيمان" ودموعها.. مما جعل "حسام" يتدخل ويأخذ الهاتف من يدها..

- أيوة يا "حاتم".. قولي إنت فين.. مكانك فين بالظبط؟

طيب طيب فاهم.. ماشي خلاص..

طيب فهمت.. خد الرقم معاك..

ماشي سلام..

أغلق "حسام" الهاتف تعلوا وجهه ابتسامه عريضة مصطنعه.. بينما سادت حالة من الفرح والدموع.. مشاعر متضاربه ألقت بظلالها على المكان وكل من فيه..

- لا بقي يا جماعه أنا كده والله هزعل لو الأكل ده ما تنسفش في خمس دقائق.. ماتعزمي عليهم يا "صافي"..
- مش كلهم أطمنوا خلاص وسمعوا صوته.. يبقي مفيش داعي للزعل..

- أيوة كده يا "صافي".. قوم يا "حسام" إنت كمان كل معانا بقي..
- اكيد.. دا أنا واقع والله..

يبدأ الجميع في التحرك نحو طاولة الطعام بينما يمسك "طارق" يد "حسام" ويجذبه..

- إيه يا "حسام".. "حاتم" قال إيه؟
- ولا حاجة... بس بيقولي إن عنده كلام مهم جدا وعاوز يقابلني..
- طيب.. ماقالش مكانه ليه علشان نروح له..
- لا.. قال مينفعش.. هو خد رقمي وهيتصل علشان أروح له.. بس لوحدي..
- لا.. لوحدك ازاي.. أنا رجلي على رجلك..
- طيب بس تعالي نقعد مع الناس دي بدل ما يقلقوا..

****

في غرفة الحجز الانفرادي الخاصة "بسعيد"...

يدخل الشاويش "صبري" متلفتاً حيث كان يجلس "سعيد" على الأرض في وضع القرفصاء مستنداً بظهره إلى الحائط.. يغلق الباب خلفه بحذر شديد..

- "سعيد" باشا... في تلافيون مهم علشان حضرتك..
- طيب يا "صبري" متشكر..
- ألا قولي يا "سعيد" باشا.. ألا "شوقي" بيه كان بيتعارك معاك علشان إيه.. هو مش انتم حبايب برضك؟
- لايا "صبري" مش حبايب ولا زفت..

- طيب ياباشا متعصبش روحك كده.. أنا هاغيب عشر دقايق كده وارجع تكون خلصت تلافونك..
- تشكر يا "صبري"..
- على إيه يا باشا إنت خيرك سابق.. يلزمشي أيوتها خدمة مني أعملها عبال ما تخلص..
- لا.. شكراً..

يخرج "صبري" ويرفع "سعيد" الهاتف ليري من الذي اتصل به.. كان رقما غريباً عنه.. لم يكن رقم "سوزي" الذي كان يحفظه..، بدأ القلق يتسلل إلى نفس "سعيد" الذي بدأ في الاتصال بهذا الرقم الغريب..

- أيوة.. مين معايا؟

أيوة أنا "سعيد الطحان".. إنت مين؟

لا.. ماهو لازم اعرف مين معايا علشان أعرف أرد عليه...

ماشي ياعم فاعل خير.. عاوز إيه وجبت الرقم دا ازاي و.....

إيه.. بتقول مين؟ اللواء مين؟

أيوة.. أيوة..

إنت عرفت الكلام ده منين؟

لا.. متجننش أمي.. إنت مين وعرفت الحاجات دي منين.؟ وعاوز إيه؟

إنت بتضحك على إيه.. إنت مين؟

الوووووووووووووو

الوو

يدخل "صبري" مسرعاً على صرخات "سعيد" التي سمعها كل من كان في الجوار..

- إيه يا باشا هتفضحني.. إيه اللي حصل.. مين اللي عصبك كده؟
- الرقم ده مين يعرف انه معاك وانك بتوصل ليه؟
- مفيش غيرك يا باشا والست هانم اللي بتكلمك.. مفيش حد تاني والله..
- لا يا خفيف.. في حد تاني.. حد يعرفني ويعرفك ويعرف كل حاجة أنا عملتها وباعملها.. حد عارف كل حاجة عني كأنه عايش معايا من يوم ما تولدت..
- تف من بقك يا باشا.. والله دي بس من الزعل. كل ده هيروح إن شاء الله.. أنا جبت لك حباية مهدئ باعتهالك معايا "محمود" باشا.. بيقولك خدها قبل ما تنام علشان تعرف تنام كويس..
- دي إيه دي كمان.. و"محمود" جابها منين؟
- والله علمي علمك يا باشا.. بس إنت عارف أنا محسوبكم ومقدرش أرجع حد منكم..
- طيب.. بص بقي.. أنا عاوز منك خدمه وهاديلك ربع أرنب..

انتفض "صبري" مذعوراً كمن لدغته حية..

- ربع إيه... ربع أرنب.. اللي هو ربع مليون جنيه يعني؟
- أيوة ربع أرنب.. تقدر تخلص ولا أشوف غيرك؟

ارتمي "صبري" أمام قدمي "سعيد"..

- أنا خدام مداسك يا "سعيد" باشا.. ربع مليون جنيه.. إنت تؤمرني أمر..
- لا يراجل قوم.. قوم بس.. أنا هفهمك هتعمل إيه.. بس تخلص وتديني التمام.. وتطلع تلاقي الشنطة مستنياك..

- يالهوي يا "سعيد" باشا.. إنت تؤمرني..
- هتطلع دلوقتي تجيب من أى صيدليه الأقراص دي.. وتطحنها كويس وتحلها في شوية ميه صغيرين.. وتحقنهم في علبة عصير تجيبها معاك من بره.. فاهم.. وتديهم "لشوقي" يشربهم..
- "شوقي" بيه.. وماله حاضر..
- مش عاوز تعرف الأقراص دي هتعمل فيه إيه؟
- متعمل اللي تعمله أنا مالي.. المهم الربع أرنب يبات في حضني...
- عفارم عليك.. بعد ساعة من شرب العصير تدخل عليه وتخلعه القميص بتاعه وتربط الدراعات دي حوالين رقبته جامد والقميص تشده على حديد الشباك.. فاهم..
- أيوة فاهم طبعا.. انتحار يعني.. بس كده حرس العنبر هيتشد فيها يا باشا..
- ليه بس !! مش واحد انتحر.. هم هايعملوا إيه؟
- لا.. مش هايتحلل له ويعرفوا انه شارب حاجة وساعتها تبقي سنتنا سوده..
- لا يا خفيف.. الحاجات دي بتروح خالص بعد 8 ساعات.. يعني على ما يتفتح الزنزانة الصبح يكون مات وتأثير الأقراص راح.. بس المهم متجيبش أى نوع تاني.. فاهم
- طيب والربع أرنب؟
- بكره الصبح وانت خارج من هنا هتلاقي الست اللي بتجيني هنا جايه زيارة.. هتسلمك شنطتك بره قبل ما تدخل الزيارة تاخدها وتخلع.. ماشي الكلام..
- كلامك على راسي يا سيد البشوات.. ساعة زمن يكون العصير عند "شوقي" بيه.. بيه إيه.. قصدي المرحوم "شوقي"..

****

يجلس "سالم" على كرسي خشبي وأمامه منضدة معدنية صغيرة تحمل كوباً من القهوة.. يسحب أنفاساً من الشيشة ثم ينفث دخانها محدثاً سحابة بيضاء كثيفه تحيط به..

يدخل "شريده" ورجاله الثلاثة منكسين الرأس يحملون أسلحتهم التي جمعها منهم "شريده" وتقدم بها نحو "سالم" ثم وضعها تحت قدميه قبل أن يتراجع مرة أخري للخلف ويقف مع باقي الرجال..

يسحب "سالم" نفساً عميقاً محدثاً جلبه من أثر قرقعة الماء داخل الشيشة، ثم يقف في مواجهة الأربعة وينفث دخانه في وجوههم جميعاً.. يرفع يده ويمسك "بشريده" ويجذبه بعنف حتى إقتربت أذن الأخير من فمه ثم همس بصوت خافت: خلَّص على العيال دي وتعالي نتفاهم..

أفلت "سالم" قبضته قبل أن يعتدل "شريده" وبدون أي نقاش أو مقاومه يتقدم ثم ينحني ليلتقط سلاحاً من الأرض.. يجذب أجزاءه ليصبح جاهز للإطلاق ثم يصوبه نحو الثلاثة المرتعدين.. وقبل أن يطلق أي رصاصة.. يرفع الصياد يده ليتوقف شريده عن الاطلاق..

- عفارم عليك.. إنت بتنفذ أهه من غير كلام.. وهتخلص على تلاته من رجالتي.. أومال بقي راجع لي بأيد ورا وإيد قدام ومعرفتش تجيب لي حتة بت مفعوصه..
- يا معلم أنا جُولتْ لك في التلافون اللي حصل.. ومخبرش الظابط ده طلع من وين؟

- أنا مش قولت لك يا صعيدي إنت.. يا تجيب لي جتتهم يا تجيب رقابيهم؟
- حصل يا معلمي.. أنا خدت الرجاله وطلعنا على المستشفى ولم الظابط خدهم في عربية النجدة وعربيته أنا كلمتك وطلعنا وراهم لحد ما وصلوا لبيت الظابط.. بس مقدرناش نطلع وراهم علشان كان العسكر مرشَّج في كل مطرح، مدخل العمارة وجِدامها أنا جُولت أرجع بدل ما حد من الرجالة ينصاب ولا يموت وتُبْجَي مصيبه..

يطلق "سالم" ضحكه عالية يصحبها نفس عميق من الشيشيه، ثم يقف في مقابل "شريده" ويسحب منه السلاح..

- يعني من شويه كنت عاوز تخلص على الرجاله والوقتي جات تقولي كنت خايف عليهم لحد فيهم يتصاب..

لم ينتظر "سالم" إجابة من "شريده" المتلعثم.. فقد سبقت إجابته رصاصات خرجت من فوهة السلاح الذي يحمله لتستقر في جسد الأخير مباشرة يسقط بعدها على الأرض جثة هامدة.. ثم يلتفت إلى باقي المرتعدين..

- لولا إني عارف إنكم ملكوش في الحوار وإن كلامي مع الكلب ده وبس كنت خلصت عليكم.. الوقتي شيلوا كل حاجة في المخزن وحملوها على العربيات.. واخفوا البتاع ده من هنا.. إرموه في أى مصيبه.. ولا أقولكم.. سيبوه هنا.. على الأقل لم الحكومة تيجي تلاقي تذكار من عندنا..

يرن هاتف "سالم" الذي أمسك به وبعدما تبين هوية المتصل سار بعض الخطوات قبل أن يجيب..

- أيوة يا "شيحة".. طمني..

يعني كله تمام.. مفيش أي قلق ولا حاجة مش طبيعيه..

اه.. اه.. ماشي.. وبعدين يعني.. مش فاهم؟

يعني مفيش أي حد في الشركة ولا حتى وردية الحراسة؟

طيب مبلغتنيش بكده من الأول ليه؟

يعني إيه كنت مستني يمكن حد يجي.. هي لعبة استغمايه يا "شيحة" إنت كمان؟

بص بقي.. الساعة عشرة.. ساعة كمان وتخلص..

هقولك.. خلص بقنبلة يدوي وكام ازازة مولوتوف مع الشنطة اللي جوه في الشركة..

أيوة زي ما بقولك..

هتدخل بالعربية الأولانيه هترمي القنبلة على الواجهة هتنزلها تراب..

اه.. تمام..

و بعدها تدخل بالعربية التانية وترمي كل المولوتوف اللي معاكم..و بعد ما تخلعوا خلص بالقنبلة اللي في الشنطة علشان تمسح..

أيوة.. عليك نور.. وسيبوها بقي تلاغي مع نفسها..

أيوة هتيجوا على المخزن.. ماشي احنا هنسبقكم على هناك..

اه تمام.. خلص وقبل ما تيجي بلغني. سلام

****

في الفندق..

يجلس "حاتم" و"فتحي" وانضم إليهم الثنائي "حسام" و"طارق".. الجميع في الجناح المخصص "لثابت" بيه يلتفون حول منضدة مستديرة عليها بعض أكواب العصير وأطابق تحمل قطع من الحلوي.. الجميع في انتظار صاحب الدعوي الكريمة..

يدخل "ثابت" وقد حمل في يده اليمني حقيبة سوداء وفي اليد اليسرى الظرف الأصفر.. ظرف الأسرار الخاص.. تقدم ملقياً السلام والتحيات على الجميع وخصوصاً الضيفان العزيزان..

ثابت: منورين يا بشوات.. مع إني كنت عاوز القعدة دي تبقي مع "حسام" باشا بس.. لكن "طارق" باشا حبيب ومفيش مانع يكون معانا في الإتفاق...

طارق: اتفاق إيه.. خير يا "جميل"؟

ثابت: لا يا "طارق" باشا.. "جميل المسيري" خلاص.. الله يرحمه من زمان وكل حاجة اتستفت.. والوقتي أنا "ثابت".. أيوة ياباشا أنا "ثابت محي الدين "..

حسام: ودا آخر كلام ولا ناوي تغير؟

ثابت: والله يا "حسام" باشا إنت ابن حلال.. القعده دي علشان هنغير.. بس همتكم معانا بقي علشان يبقي التغييره الأخيرة..

طارق: ازاي بقي فهمنا.. همتكم معنا ازاي؟

يضع "ثابت" المظروف الأصفر أمام الجميع.. ثم يعقبه برفع الحقيبة بجواره..

– ثابت: شوفوا يا بشوات.. طبعاً أنا المفروض أكون بره البلد دلوقتي.. بس أنا راجل أحب النور.. محبش أعيش عيشة المطاريد.. يعني عاوز أطلع من هنا وأنا صاغ سليم.. أطلع وأرجع وقت ما أحب..

– حسام: والمطلوب؟

– ثابت: مفيش مطلوب..

– حسام: يعني إيه مفيش مطلوب.. أومال لزمتها إيه اللمه دي؟

– ثابت: شوف يا "حسام" باشا.. "حاتم" وصلني الظرف ده.. جابه منين مش دا المهم يبقي يحكي لكم بعدين.. المهم إن الظرف ده يبرأ "حاتم" من قضيته ويخليها ولا كأنها موجودة.. يعني يرجع تاني "حاتم" ومفيش عنده أي مشكلة.. يبقي فاضل أنا..

– حسام: إنت إيه بقي؟

– ثابت: أنا كمان عاوز أرجع "جميل المسيري" يعني صاغ سليم.. يعني عاوز أرجع زي "حاتم"؟

– حسام: ازاي بقي؟ ماتفهمني؟

– ثابت: شوف يا "حسام" باشا.. إنت اللي كنت ماسك قضية "حاتم".. وانت اللي لبسته فيها لمجرد الشك وعلشان تستف ورقك وتخلّص القضية.. جريمة قتل وفي شقة لواء يبقي لازم أى حد يشيلها وإنت مصدقت لقيت زبون قمت مشيلها له.. بريء بقي ولا مش بريء مش دي القضية..

لم أكن أتخيل أن يتحدث" ثابت" بهذه الطريقة التي صدمت "حسام" وألجمته تماما.. بالرغم من ثباته إلا أن كلمات "ثابت" استطاعت أن ترسم التوتر والقلق على وجهه والتي فضحها قطرات العرق التي انسابت على جبينه.. ورأسه الذي نُكس من أثر الكلمات..

يفتح "ثابت" الظرف ليخرج أوراقاً وبعض الأسطوانات المدمجة وشرائط الكاسيت القديمة.. يضعها متجاورة ثم يفتح الحقيبة ويخرج منها جهاز كمبيوتر ويفتحه..

– ثابت: "حاتم" لم جاب لي الظرف ده.. أنا شخصياً كنت مش معتبره حاجة مهمه.. بس لم شوفت الورق ده وسمعت وشوفت.. لقيت إن الكلام بخصوص جماعه من الكبار وفيه تصفيه حسابات وناس بتتصنت على ناس، وحوار كبير.. المهم إن اللي جمَّع الحاجات دي مكنش ينفع يوديها بنفسه كان خايف ليتصفي.. بس أهو راح والظرف رجع لصاحب نصيبه.. وأنا بقي صاحب نصيبه.

ومن غير كلام كتير.. أنا دخلت السجن بلعبة مع الكبار واتأدبت فيها، وعلشان أرجع أعيش بين الناس فديت نفسي بالكتير وكان تأديب تاني.. المرة دي بقي عاوز أستفيد ودا بقي دوركم.. يعني أنا اتأدبت مرتين.. مرة بالسجن وبقيت رد سجون وهربان والتانية لم فديت نفسي بالمال.. دفعت كتير قوي علشان أفدي نفسي واعيش باسم مش اسمي..

– حسام: والمطلوب إيه بقي؟ برضه مش واضح!

– ثابت: شوف معالي الباشا.. الناس اللي هنا دي منها ناس في السجن وناس بره.. اللي في السجن يبقي خلاص ربنا معاه.. لكن اللي بره يعني خط أحمر.. يعني مش هنعرف نعض فيهم ولا نخبط فيهم.. يبقي المثل بيقول.. اليد اللي متعفرش تعضها.. إيه؟ نبوسها..

– طارق: كلامك مش صحيح ومفيش حد فوق القانون..

يمد "ثابت" يده ويأخذ كوب العصير الخاص به.. يشرب منه القليل.. يعود بظهره إلى الخلف ويمدد قدماه....

– ثابت: طارق باشا.. خلينا على أرض الواقع.. عاوزين نحسبها صح.. أنا الوقتي في واحد ضرب نار على عربيتي والدنيا مقلوبه هناك والمفروض إني أنا دلوقتي حتة فحمه مع العربية.. واللي عمل كده معروف.. وهو هو اللي رجالته واقفين عند شركتي ومنتظرين الليل علشان يخلوها كوم تراب.. وهو هو اللي هايتجنن علشان فاكر إني قتلت "حاتم".. وهو هو كمان اللي خطف "سمير" ومش بعيد يكون خلَّص عليه.. ولا إنت ولا غيرك تعرف تجيبه غير لم هو يقع لوحده.. متزعلش يا "طارق" باشا.. القانون عمله بشر ويوم ما كتبه حط نفسه فوق والقانون تحت.. علشان كده في ناس مينفعش تتحاكم بالقانون.. زي اللي في الورق ده.. وفي ناس حرام تتحاكم بالقانون.. زي "حاتم" وأمثاله..

– حسام: إنت تقصد "سالم الصياد".. مش كده؟

– ثابت: عفارم عليك.. أنا مش هعيد القصة تانى.. بس أنا دلوقتي عاوز خدمة قصاد "حاتم" والورق والحاجات دي..

– طارق: خدمة إيه بقي إن شاء الله؟

يشير ثابت إلى "فتحي" الذي تحرك من مكانه قاصداً حقيبة اليد الصغيرة..

– ثابت: دا جواز سفر باسم "جميل المسيري" وكل أوارقي باسم "جميل المسيري".. وبرضه كل حاجة باسم "ثابت محي الدين".. أنا عاوز أخفي "ثابت" وأرجع "جميل" ويبقي كده كتر خيركم..

- طارق: طيب ما إنت كده لو رجعت "جميل" هتتحبس ومش هتسافر غير لم تخلص القضية الأول..
- ثابت: كده إنت فهمت.. أنا عاوز ورقة رد اعتبار وبراءة رسمي.. بتقول إني "جميل المسيري" راجل زي الدهب.. يطلع ويدخل بمزاجه من البلد..
- حسام: دي مش من عندنا يا "ثابت" بيه.. دي من عند النائب العام.. هو اللي يقولك الكلام ده..
- ثابت: ماهو يقول كده لم حضرتك كظابط طلبت إنك تفتح القضية تاني لظهور أدلة وتروح له بالورق ده اللي جايلك من فاعل خير.. وتقعد معاه وتقوله الحكاية وإن القصة مش هنقدر نلمها يبقي نخلص الجدع ده بورقة تخرجه بره البلد.. وأنا عارف إن الورق ده والسيدهات دي هتخلي النائب العام يطلع لك الورقة وإنت قاعد.. هتسلمهالي هتستلم "حاتم" وعليه بوسه..
- حسام: طيب إفرض إن النائب العام رفض وقال مش هينفع؟
- ثابت: ولا أي حاجة.. يبقي ساعتها.. يفضل "جميل المسيري" ميت.. وأكمل "ثابت محي الدين"... و"حاتم" تعيش إنت، ويادار ما دخلك شر..
- طارق: طيب ليه وجع الدماغ ده.. ما تكمل "ثابت" وتخلص.. هتفرق إيه "ثابت" من "جميل" يعني.. كلها أسماء وخلاص..
- ثابت: يمكن بالنسبة لك عادي.. انما أنا طول مانا "ثابت" وأنا عيني مكسورة.. مش عارف أرفع راسي ولا اتكلم.. عايش مكسور وذليل.. اسمي بقلم رصاص أى لحظه أتمسح.. وأنا محبش كده وفرصتي جت لحد عندي.. ليه أعيش وأكمل حياتي باسم "ثابت" لم ممكن ارجع تاني "جميل

باشا المسيري" رجل الأعمال ورجل المجتمع.. مش "ثابت" المنبوذ المستخبي.. اللي ماشي عينه في الأرض وخايف حد من الكبار يغضب عليه يقوم يدوسه.. أنا عاوز أرجع كبير.. فاهمين.. أنا دفعت نص ثروتي وفديت نفسي.. أنا أدفع كل ثروتي وارجع تاني بهيبتي ومركزي.. آه أصل بيني وبينكم كده كنت عاوز أدخل مجلس الشعب الدورة اللي جايه.. يعني علشان يبقي رد اعتبار كامل.. فرصة بقي..

– حسام: طيب ولحد ما تجيلك الورقه دي.. "سالم" مش هيسيبك وحتى لو جت لك؟

– ثابت: بص يا باشا.. أنا مظبط كل أموري وكلها يوم ولا اتنين وتسمع إن "سالم" ورجالته خلاص.. خلصت عليهم كلهم.. المصيدة منصوبة ومستنيه الفار يدخل برجله.. سالم غلط مع الكبار والكل مستنيه يظهر بس.. هيقطعوه وهو حي..

– طارق: يبقي كده هناخد الورق ده ومن بكره على النائب العام وهو يتصرف..

– ثابت: كده عفارم عليك. وعلى فكره يا "حاتم".. علشان متفتكرش إني بعتك ولا بلعب بيك.. ليك عندي مفاجأة متحلمش بيها.. لو الموضوع ده تم.. وانت كمان يا "طارق" بيه ويا "حسام" بيه.. كلكم ليكم مفاجأت.. كلنا هنعيش ملوك....

– حسام: طيب سؤال أخير لو ممكن يعني..

– ثابت: اتفضل يا باشا.. أوي أوي..

– حسام: كنت هتعمل إيه لو الظرف ده مكنش جالك؟

– ثابت: شوف يا باشا.. أنا في الأساس كنت طالع من السجن وناوي أبيع كل حاجة وأخلص من هنا واخلع وكان الاتفاق مع "سالم" اني أظبطه في مبلغ كبير لم أخلص وأبيع.. بس لم اتصافيت مع الكبار وسويت أموري معدش "سالم" له عازه بقي.. فحبيت أوهمه إني ببيع وباستلم الفلوس علشان يعرف إني مش هابيعه وكنت ناوي أخلع وأسيبه ياكل في البلاط..

– طارق: طيب وإيه اللي رجعك بقي وخلاك تفضل وتشتري عداوته؟

– ثابت: اللي له ظهر في البلد دي مينضربش على بطنه.. وعموماً يا باشا "حاتم" يحكيلك بقي على رواقه أنا فهمته كل حاجة.. دلوقتي انتوا هتتفضلوا وبكره منتظر منكم اتصال.. آه متنساش الرقم اللي معاك ده متحاولش تعمله تتبع. مش هتعرف تجيبه.. ماشي.. يبقي معادنا لم الورقة تيجي.. سلام يا بشوات

****

الفصل الأخير

- هتتصرف ازاي دلوقتي ياعم "حسام"..
- شوف يا "طارق".. أنا دلوقتي تقريبا كل الخيوط في ايدي.. بس أنا عاوز أكسب بقي.. مش عاوز ابقي زي المراسلي.. "ثابت" يقولي أنا عاوز براءة والتاني يقولي أنا عاوز اعمل إيه وأنا زي الأهبل في النص..
- مش فاهم ياعم.. وضح..
- أقولك.. هنطلع من هنا على القسم عندي هناخد قوة ونطلع على الشركة.. وهناك هنتصرف..
- هتتصرف ازاي.. طيب ما نطلع على "قسم الشرطة السياحي" أقرب والمأمور قال مستعد يقدم أي خدمه، وأهو نسكب وقت..
- طيب.. أقولك.. استني...

يُخرج حسام جهاز اللاسلكي الخاص به.. ثم يبدأ في الحديث.. بعد أن سمع تشوشيش وصفير متقطع: أيوة يابني.. أيوة.. إنت سامعني

- أيوة يا "حسام" باشا.. معاك ابدأ الاشارة..
- إنت مين؟
- أنا الأمين "حمدي" يا باشا...
- طيب يا "حمدي".. جهز لي قوة بسرعة وقابلني عند جنينه الفسطاط.. هتقف عندها.. من ناحية شارع أحمد عمارة ومتتحركش غير لم أوصل لك.. فاهم..
- أوامر معاليك ياباشا..

- بسرعه يا "حمدي".... ماشي
- كده تمام.. هنطلع بقي نصطاد الفيران اللي قال عليهم صاحبك..

يتحرك "حسام" بسيارته.. دقائق ويصل إلى بوابة الحديقة حيث كانت بالفعل قد سبقته سيارتا بوكس وسيارة نجدة.. ينزل "حسام" من سيارته ويتركها "لطارق" لينضم للقوة مؤقتاً..

كان موقع الشركة يطل على ثلاثة شوارع.. شارع رئيسي من جهة الحديقة وشارع جانبي يمين وشارع آخر امتداد يسار.. كان لابد من إغلاق الثلاث جهات وهذا ما فعله "حسام".. فقد تفرقت السيارات الثلاثة بحث تقطع كل منها أحد الشوارع مما يمنع فرصة هروب أي شخص..

في صمت تام تم تحريك السيارتان بينما ظل "حسام" في الثالثة التي كانت في الشارع الرئيسي متجها بها نحو الشركة..

أخرج الجميع أسلحتهم وأعدوها لاحتمال حدوث اشتباك.. بينما أخذ "حسام" يدور ببصره في المكان.. حتى رن هاتفه المحمول.. كان رقم خاص. بالتأكيد هو رقم "ثابت"..

- أيوة.. خير يا "ثابت" بيه.. غيرت رأيك ولا إيه؟

إيه.. أيوة أنا فعلا واقف عند الشركة بس أنا بعيد عنها لسه..

إنت بتضحك على إيه.. وعرفت منين اني هناك؟

إيه.. مراقبه.. كاميرات مراقبه.. اه.. إنت عامل نظام مراقبه بالانترنت..

يعني كده إنت شايف كل حاجة!

كمان هتساعدني.. ازاي بقي؟

اه.. ماشي.. تمام..

أيوة يمين وشمال.. ماشي..

طيب لونهم إيه ولا نمرهم إيه؟

طيب تمام.. أنا هشوف وإنت تابع من عندك لو في حاجة بلغني..

والله حلو خالص الموضوع ده.

يغلق "حسام" هاتفه ويفتح جهاز اللاسلكي ليعطي إشارة لباقي السيارات للعودة لمكانها السابق..

بعد دقائق يتحرك "حسام" على قدميه وخلفه رجاله.. يقف ويدور ببصره في أرجاء المكان ليجد بالفعل سيارتان بنفس المواصفات التي أبلغه بها "ثابت".. تقفان على مقربة من الشركة.. لكن يتضح أنهما فارغتان.. ربما بفعل الظلام...

أعطي "حسام" أوامره للأفراد أن تفترق إلى مجموعتان وأن يداهما السيارتان من الخلف بحيث لا يشعر بهما أحد..

يتقدم الجميع لكن في نفس اللحظة يدار محرك السيارة الأولي وتتحرك ببطيء نحو الشركة وتبعتها الثانية مباشرة.. لم يجد "حسام" خيار آخر غير التصويب المباشر بسلاحه على إطارات السيارات المندفعة نحو المبني..

نجح "حسام" في إصابة إطار السيارة الاولي التي ألقي قائدها قنبلة يدويه على واجهة المبني لتحدث انفجاراً كبيراً ألقي "حسام" والجميع على الأرض.. بينما فشل قائد السيارة الثانية في التحكم في سيارته واصطدمت بأحد أعمدة الإنارة مما أعطي "لحسام" الفرصة للانقضاض عليها بعد أن أمطرها بوابل من الرصاص..

في نفس اللحظة كانت سيارة "حسام" تتحرك مباشرة بعد الاشتباك لتلاحق السيارة الأولي التي أصيبت أحد عجلاتها.. كان "طارق" هو من يقود السيارة مطارداً السيارة التي أفلتت من الكمين..

يرن هاتف "طارق".. يضغط على زر الرد ويفتح السماعة الخارجية..

- أيوة يا "حسام".. متقلقش أنا وراهم..

أيوة ممكن تحصلني.. أنا مش ضاغط عليه علشان ميعرفش اني ماشي وراه..

تمام.. أنا قولت كده..

طيب أنا دلوقتي وراهم وهم في اتجاه شارع الفسطاط..

لا.. استني يا "حسام".. متكلمش حد.. استني لم نشوف هيوصلوا على فين..

أيوة خليك بس معايا على طول وأول ما يصولوا مكان هبلغك.. إنت لو تعرف بس حاول تمشي ورايا وأنا أدلك ويمكن تحصلنا أو تسبقنا كمان..

يغلق "حسام" هاتفه ويتوجه إلى السيارة الثانية التي تمكن رجال الشرطة من القاء القبض على الرجلان اللذان آثرا تسليم أنفسهما بعد أن وجدا صعوبة في المواجهة..

يأمر "حسام" باصطحاب الرجلان إلى القسم بينما استقل هو وباقي الأفراد السيارات لينطلق خلف "طارق" وخلف السيارة الهاربة.

***

في نفس الوقت..

يتصل "شيحة" "بسالم" وقد تملكه الفزع مما حدث ومن السيارة التي تكاد تشتعل من أثر احتكاك الإطار المنفجر بالأسفلت..

- أيوة يا معلم.. العملية باظت..

أيوة البوليس كبس علينا واحنا لسه بنتحرك..

لا.. أنا رميت القنبلة وجريت بالعربية وجت طلقة في العجلة الورانية

العربية التانيه سيبتها ضربوا عليها نار...

الشنطة معرفش باينها منفجرتش.. مسمعتش أي حاجة

أنا فين؟ أنا في الطريق للمخرن زي ما قولت لي..

ازاي يا معلم.. العربية هتولع بينا!!

متولع ازاي بس يا معلم.. واختفي فين..

طيب يا معلم أنا هتصرف ومش هاجي على المخزن..

مع السلامة..

يغلق "شيحة" الهاتف بينما كان يصب جم غضبه ولعناته على "سالم" وعلى من كل يوم مر عليه معه.. ثم يلتفت "لمانو" الغارق في عرقه والمتشبس بسلاحه..

- شوفت يا "مانو".. معلمك بيبعنا، بيقول نشوف لنا مصيبه نترمي فيها..
- ازاي بس يا معلم "شيحة" وده إسمه كلام..
- إنت شايف إيه؟
- مفيش غير إننا نروح على هناك واللي يسري عليه يسري علينا..
- أنا قولت كده برضك.. بس نرمي العربية دي قبل المخرن بشويه.. وكويس إن محدش ورانا..

***

يرن هاتف "طارق"..

- أيوة يا "حسام".. أنا تقريبا كده عرفت هم رايحين فين!

أيوة.. فاكر الحارة اللي روحتها من فترة لم "حاتم" اتصل..

أيوة.. اللي عند "أحمد ابن طولون".. أنا مش فاكر اسمها.. بس الطريق اللي هم ماشيين فيه بيقول كده..

أيوة إنت كده ممكن تسبقنا على هناك..

ماشي.. لو غيروا طريقهم هقولك..

ينطلق "حسام" والقوة معه نحو العنوان القديم وساعدهم جهاز GPS فقد كان "حسام" يحتفظ بجميع العناوين التي يستخدم الجهاز في الوصول إليها.. وبالفعل مرت نصف ساعة تقريباً قبل أن تقف سيارات الشرطة على مقربة من المنزل، بينما أخذت قوة إضافية طريقاً خلف المنزل من شارع جانبي آخر حسب تعليمات "حسام" للتمكن من السيطرة على الموقف..

وما هي إلا دقائق حتى إقتربت السيارة المنشودة.. أوقفها قائدها على أول الحارة وبدأ الرجلان في السير على الأقدام متجهين نحو المنزل..

لم يكد يصل الرجلان حتى انقض عليهما "حسام" ومن معه وأحكموا وثاقهما، في الوقت الذي ظهر "سالم" ومعه رجاله وقد اعتلوا ظهر المنزل شاهرين أسلحتهم.. معلنين عن نيتهم في قتل كل من تطاله نيران أسلحتهم سواء من الشرطة أو من الموجودين..

أخذ "سالم" في الصياح والتهليل بهستريا وجنون مطلقاً بعض الأعيرة في الهواء...

- أيوة ياباشا.. مش عيب تيجي تاخد رجالتي كده من قدام بيتي.. دا حتى مش أصول..
- عيب إيه يا "سالم".. إنت خلاص انتهيت.. إرمي سلاحك وسلم نفسك أحسن لك..

يطلق "سالم" ضحكه شيطانية مجنونه يعقبها طلقات على الأرض أمام أقدام "حسام" ومن معه..

- أحسن لي إي.. أنا من هنا أصفي ألف من رجالتك دول يا باشا.. بس أنا قلبي أبيض.. وأفهم في الأصول.. بس قبل أي كلام عاوز أشوف سلاحكم كلكم كده على الأرض..
- وهو ده برضه الأصول يا بتاع الأصول إنت؟
- دا هو دا أصل الأصول.. أنا معدتش عاوز حاجة.. بس عيب قوي لم تبقي دي نهاية "الصياد"..
- يعني إيه مش فاهم؟ انجز قول عاوز إيه؟
- أشوف سلاحك على الأرض إنت ورجالتك وتسيب رجالتي.. قبل أي كلام..

يضع "حسام" سلاحه على الأرض ومن معه من القوة المصاحبة في الوقت الذي أشار فيه "حسام" بإطلاق سراح الرجلان..

في هذا الوقت كان بعض رجال القوة المصاحبة يتسللون عبر المنازل المجاورة وأخدوا مواقع تمكنهم من التعامل المباشر مع "سالم" ورجاله.. ساعدهم زيهم الأسود في التخفي في ظلماء الحارة..

يتقدم "شيحة" و"مانو" نحو باب البيت بعد أن أطلقهما "حسام".. خطوات قبل أن تنطلق رصاصات "سالم" لتشكل دائرة حولهما جعلتهما يقفزان كرقصة الهنود على ألسنه اللهب..

- أنا "الصياد".. ولم "الصياد" يقول كلمة يبقي تتسمع بالزوق أو بالدم.. فاهمين!
- إيه يا معلمي.. أنا عمري كسرت لك كلمه؟
- أيوة يا "شيحة".. أنا قولت متجيش على هنا.. وإنت كسرت كلمتي وجيت وجبت الخير معاك..
- يا معلم بس اسمعني..
- أنا معدتش باسمع.. أنا بموت بس..

وابل من الطلقات ينهمر من كل اتجاه يجبر الجميع على الإنبطاح والتستر بأي شيء.. أطلق "سالم" رصاصاته باتجاه "شيحة" و"مانو" بينما أطلق رجال الشرطة رصاصهم باتجاه "سالم" ورجاله وما هي إلا ثواني معدودة صمَّت فيها الآذان من وقع طلقات الرصاص كانت نتيجتها عدد من القتلي كلهم يسبح في بركه من الدماء..

توقف الرصاص ومعه اقتحم "حسام" ومن معه البيت وبدأوا في تمشيطه بحثاً عن أي شيء آخر.. لكن عبثاً فعلوا فقد تخلص "سالم" من كل شيء أو أخفي كل شيء.. فلم يكن "لسمير " أي أثر ولا لغيره.. فقط أسلحه وبعض المتعلقات بالإضافة إلى جثث لرجلان ملقاة في الشارع ورجلان على سطح المنزل.. فيما لم يتبين أي أثر للصياد بين الجثث أو المنزل.. فقط قطرات دماء في خط مستقيم تتبعها حسام حتى فقد أثرها مع نهاية سور السطح..

أما صاحبها فقد تبخر وسط الظلام ولم يعلم عنه أحد أي شيء...

****

نشرات الأخبار وعناوين الصحف.. صباح اليوم التالي..

انفجار قنبلة أمام أحدي الشركات الاستثمارية وتبادل لإطلاق نار في الشوارع المحيطة ومقتل أربعة من المجرمين الهاربين من تنفيذ أحكام تتراوح بين الخمسة عشر عاماً والمؤبد.. ظابط شرطه وضابط مصاب من مصلحة السجون يقومان بعمل بطولي أصبح حديث كل الصحف ونشرات الأخبار...

لم يتوقف هاتف "حسام" للحظة منذ أن انتهت المعركة وسقط رجال "الصياد" بين قتيل ومقبوض عليه..

أما "طارق" فقد تحول إلى بطل أسطوري قهر إصابته وجاهد بنفسه وخاطر بحياته ليعيد إلى السجن أشقياء استطاعوا الهرب مستغلين الانفلات الأمني الذي ضرب البلاد في فترة ما..

"إيمان" مع "أمها" وأبيها ومعهم "أم رامي" و"بهيرة" زوجة" سمير" وابنتها الصغيرة "سارة".. الجميع يترقب أمام شاشة التلفاز في منزل الحاج "إبراهيم" الذي عادوا إيه جميعهم بعد سهرة طويلة في شقة "طارق".. خرجوا بعدما عاد إليهم "طارق" و"حسام " من رحلة لقائهم "بحاتم" وطمأنوهم على الوضع وأنها مجرد مسألة وقت ويعود كل شيء لطبيعته.

العيون مثبته على الشاشة الصغيرة.. الأفواه مغلقة.. لا تكاد تسمع لهم أي صوت.. الكل ينتظر أن يصله أي خبر بخصوص الصفقة التبادلية التي أخبرهم بها "حسام" في الليل:

يرن هاتف "إيمان".. كان المتصل هو "حسام"..

- أيوة يا "حسام" باشا.. في جديد؟

أيوة أبويا الحاج عندي.. أهو جنبي أهه..

تعطي "إيمان" الهاتف لوالدها الذي تحرك خطوات باتجاه الشرفة والعيون ترقبه والآذان تنصت في وجل..

- أيوة يا سعادة الباشا.. خير..

أيوة.. كلنا تمام الحمد لله البركة في سعادتك وفي "طارق" باشا..

كلنا مؤمنين الحمد لله..

إيه.. بتقول إيه يا باشا..

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

إنت متأكد يا باشا؟

الحمد لله.. ربنا ييسر الأحوال ويصبرنا.. في أمان الله يا باشا..

يغلق الحاج "إبراهيم" الهاتف وهو مازال يردد.. "إنا لله وإنا إليه راجعون".. بالطبع الجميع يعرف معني هذه الكلمة ومتي تقال..

لم تصبر "أم رامي" حتى يتكلم الحاج "إبراهيم" أو يشرح أو يفسر.. فقد أطلقت صرخة هزت أرجاء المنزل واجتمع لها الجيران.. وانتفض لها الحاضرون جميعاً...

- خير يابو إيمان إيه اللي حصل متوقعش قلبنا إحنا مش ناقصين...
- اتكلم يابا مين اللي مات.. اتكلم..

يلتفت الحاج "إبراهيم" محاولا تمالك نفسه، يتقدم بخطوات متثاقلة نحو الطفلة الصغيرة "سارة" يحتضنها وقد انهمرت دموعه التي غالب على أن يخفيها لكنه فشل في هذا..

- "سمير" يا جماعه.. الأستاذ "سمير".. البقاء لله..

****

يدخل الشاويش "صبري" على "سعيد" في حبسه الانفرادي متهللا أساريره ترتسم على وجهه ابتسامه عريضة.. يمسك بهاتفه المحمول وكأنه يزف بشارة هامه..

- صباحك فل يا "سعيد" باشا.. يا باشا البشوات كلهم..
- خير يا "صبري".. عملت إيه؟
- كله تمام يا معالي الباشا.. زي ما قولت تمام..
- يعني إيه.. خلاص.. "شوقي" خلاص..
- خلاص وشبع خلصان كمان.. عيب يا باشا.. إهئ إهئ..
- إيه بتدحك على إيه؟
- بدحك على إيه يعني إيه.. الأرنوب.. الورك اللي هيبات في حضني
- اه.. إنت جاي وجايب التليفون علشان كده..

- أومال يا جناب الباشا..
- طيب أصبر دقيقه..

يأخذ "سعيد" الهاتف من الشاويش "صبري" الذي فتح فمه والابتسامه تكاد تشق وجهه إلى نصفين..

- أللووو.. أيوة.. صباح الخير..

أنا كويس.. إنتي خلصتي الموضوع ولا لسه..

طيب تمام.. يعني قدامك كتير..

طيب كويس..

هتطلعي بقي ربع مليون جنيه على جنب في شنطه..

أه.. جنيه.. وتجبيهم وتيجي على هنا..

أيوة في السجن طبعاً..

لا مش هتدخلي الفلوس السجن.. هيقابلك شاويش بره اسمه "صبري"

أيوةاا صاحب التليفون ده.. هتديله الفلوس قبل الزيارة..

تمام كده..

يعني قدامك ساعتين تقريبا من دلوقتي..

خلاص ماشي.. متتأخريش وطمنيني

سلام..

يعيد "سعيد" التليفون إلى المبتسم والمبتهج..

- كده اطمنت يا سيدي.. ساعتين زمن ويبقي أرنبك في حضنك..

- تمام يا "سعيد" باشا،.. أنا همشي بقي علشان محدش يحس بحاجة.. ولو عوزت أيوتها حاجة بلغني بس..
- شكراً يا سيدي كتر خيرك.. بس ياريت متكلمش أي حد بقي لحد ما تخلص..
- عيب يا باشا.. هو أنا عيل..

يخرج الشاويش "صبري" وما هي إلا دقائق ويسمع دوي جلبة في محيط السجن وأصوات ترتفع تدريجيا في محيط زنزنات الحبس الانفرادي..

تفتح زنزانة "سعيد" بشيء من العنف ويدخل مجموعة من العساكر يجذبون "سعيد" من ملابسه ويدفعونه للخارج ليجد مأمور السجن ومجموعة من قيادات السجون والوزارة تقف جميعها في تأهب كامل لملاقات "سعيد"..

يبتسم "سعيد" بجسد يترنح ثم يرفع يده بالتحية بشيء من السخرية..

- إيه اللي حصل.. هي الحرب قامت ولا إيه؟

يصرخ فيه أحد الضباط بكل حزم..

- إخرس يا مسجون واقف كويس..
- إخرس.. وكمان أقف كويس.. هو في إيه بقي بالظبط..

يتقدم أحد الرجال ويحمل رتبه عقيد.. يقف أمام "سعيد" مباشرة.. وبصوت معتدل..

- تقريبا كده إنت حد ضحي بيك يا "طحان".. كل حاجة عند النائب العام وفي أمر بترحيلك لسجن العقرب.. فوراً..

مجرد إن سمع "سعيد" هذه الكلمات حتى تحولت ضحكاته الساخرة إلى ضحك بصوت عالي تبعه حاله من الهياج الشديد..

– عقرب لا.. أنا ماروحش العقرب.. أنا طالع براءة.. أنا مفيش عليَّ دليل..

يجذبه العساكر بينما هو يتلوى بين أيديهم كالمجنون..

– أنا طالع براءة.. محدش يقدر يقعدني في السجن.. يا محمود بيه.. يا محسن بيه.. أحمد بيه.. يا كل الناس.. "الطحان" ميروحش العقرب.. الطحان طالع براءة.. دي كلها مسألة وقت.. الطحان ميروحش العقرب..

يجذبه الجنود ويقتادونه باتجاه حجرة يجتمع فيها رتبًا كثيرة.. يدخل عليهم "الطحان" وهو في شدة هياجه مردداً نفس كلماته..

يجذبه من قميصه مأمور السجن بشده..

– إهدا يا "طحان".. معدش يجي منه الهبل ده.. إنت عمال توقع نفسك في مصايب إنت مش قدها..

يدفع "سعيد" يد المأمور بعنف ويقف رافعاً رأسه شاداً هامته كمن يقف فى طابور عرض عسكري..

– أنا العميد "سعيد باشا الطحان"... الراجل الأول في الوزارة.. لا في مصر كلها.. أنا تحت إيدي بلاوي.. أنا مش هروح العقرب لوحدي.. هنروح كلنا..

يقطع الحديث طرقات على الباب يدخل بعدها عسكري يحمل مظروفاً أبيض ويسلمه للمأمور وينصرف..

يفتح المأمور الظرف ليجد فيه ورقه مكتوب فيها بعض الأسطر قرأها ثم ابتسم.. اقترب من "سعيد" وابتسامته تزداد على وجهه..

– الجواب ده علشانك يا "سعيد"..

يمد "سعيد" يده ليخطف الورقة من يد المأمور.. يطالع فيها.. يتلفت حوله بعيون تتسع وفم يسقط فكه السفلي.. يحرك رأسه يميناً ويساراً قبل أن تنزل الدموع من عيناه.. يخفض رأسه لأسفل ملوحاً بالورقة بحركة هستيرية إلى الجمع الواقف حوله.

– وادي كمان آخر سكينه في ظهر "سعيد".. أنا لسه قاتل "شوقي" علشان أخلص بالفلوس لوحدي.. تقوم الفلوس تروح كده.. لالالالالالالالالالالالالا

يمد المأمور يده ليضغط على زر بجوار مكتبه.. يدخل بعدها الحارس.. يقترب المأمور من الحارس ويهمس له بكلمات ينصرف بعدها.. ليعود ليطرق الباب بعد دقائق.. يفتح الباب ليدخل العسكري وبصحبته رجلان..

يرفع "سعيد" رأسه وما أن يري الرجلان حتى يقع جاثياً على ركبتيه ملوحاً بالورقة..

– لا.. كده كتير.. كده حرام.. كتير.. كده كتير.. أنا مش هروح العقرب لوحدي.. أنا مش هموت لوحدي.. كلكوا لازم تموتوا معايا..

يقترب الرجل الأول من" سعيد" ويمسك بكتفك ويجذبه..

– إنت فاكر إنك لوحدك اللي تقدر تشتري الناس.. إنت معاك وغيرك معاه برضه.. وكل كبير فوقه الأكبر منه وربنا فوق كل كبير..

- إنت لا.. أنت ميت.. مش كده.. الشاويش "صبري" قالي إنك ميت.. أيوة.. مش إنت "شوقي" شوقي مات.. أنا قولت للشاويش "صبري" أيوة.. أهوا ده.. تعالي يا "صبري" تعالي أقف هنا انتباه..

يقف أمام "صبري " الصامت ويجذبه من ملابسه بشده: إنت قولت لي انه بقي مرحوم.. مش كده.. يعني مات.. وهو دلوقتي أهه واقف بيكلمني، هو الميت بتكلم.. هاااااااهاهاهاها.. الميت بيتكلم.. يعني أنا الوقتي ميت.. مش كده.. أنا ميت وانتم ميتين و"سوزي" بعتالي بتقولي شكرا على الهديه.. يعني إيه.. هتاخد هديه 350 مليون جنيه.. هديه

هي تاخذ الهدية.. و"شوقي" مات وأنا أروح العقرب بس أنا كده هتأخر.. يعني البراءة هتيجي إمتي.. هتيجي بعد العقرب ولا قبل العقرب.. أنا في أجازه والعقرب مفيش فيه أجازه..

يدور "سعيد" بين الواقفين مهللاً ودموعه تنساب من عيناه.. يردد كلماته بصوته عالي.. يدور ويدور حتى وقف فجأة في وسط الغرفة والجميع ينظرون إليه..

- أنا مش هروح العقرب.. أنا هستني العقرب يجيلي لحد عندي.. أنا الطحان.. عارفين يعني إيه الطحان..

ينساب خيط من المياه يبلل بنطال "سعيد" ويخرج على الأرض مكوناً بقعة من ماء ينظر إليها الجميع وينظرون إلى "سعيد" الذي استمر في صياحه غير مكترث بما يحدث له.. يتدخل المأمور بضغط زر الجرس ليدخل الحارس الذي يصحب "سعيد" بملابسه المبللة ودموعه المنهمرة وصياحه إلى حجرة الطبيب.. الذي قرر على الفور تحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية..

****

قاعة أفراح في فندق موفمبيك الأهرام...

يقف "حاتم" و"إيمان" في قاعة الأفراح كبيرة يحيط بهما الأهل والأصدقاء.. "حسام" الذي حصل على ترقيه متميزة و"طارق" الذي افتتح شركة للأمن الخاص و"أم رامي" التي وقفت تستند إلى يد شاب ثلاثيني العمر تمسك في يده بشده وهي تتمايل فرحاً.. لم يكن هذا الشاب سوي ابنها "رامي" العائد من بلاد الغربة بعد سنوات طويله..

يقف الجميع فرحين يرقصون على أنغام الموسيقي المبهجة.. ترقص "إيمان" ويرقص" حاتم" وترقص "أم رامي" والحاج "إبراهيم" و"أم إيمان" و"بهيرة" بالرغم من فقدها "سمير" إلا انها أصبحت جزءا من هذه العائلة الكبيرة التي احتضنتها هي وابنتها.. ينضم إليهم أيضاً رجل الأعمال" جميل" باشا وصاحب الحفل الفخم والذي تقدم بهديته للعروسين أمام الجميع وهي سيارة وشقة تمليك كاملة الأثاث كهدية زواج..

في الوقت ذاته.. كانت "سوزي" تستقل الطائرة بصحبة "جمال البسيوني" لقضاء شهر العسل خارج البلاد...

أما "جميل المسيري" فقد قرر خوض الانتخابات البرلمانية كعضو مدافع عن حقوق الشعب بعد أن تسلم في يده خطاب من النائب العام بانقضاء التهم المنسوبة له ورد اعتباره..

أما مجموعة الكبار ومعهم شوقي فقد تساقطت التهم تباعاً لعدم توافر الأدلة وبدأت الأحكام بالبراءة تتساقط على الرؤوس ليخرجوا جميعاً مرة أخرى كل إلى منزله وإلى ماله.. جميعهم عاد لحياته ماعدا شخص واحد كان "شوقي" أو "الوزير" فقد ساقته أقدامه إلى المقابر.. ترب الغفير.. كانت مأواه بعد أن لفظه كل من يعرفه وضاقت به الأرض.. لم يجد سوي المقابر حيث استقبله عم "دسوقي" بالسباب واللعنات لما قدمه له في الماضي.. ولكنه عاد ليصفح عنه ويتركه يأوي إلى المقابر ينام فيها على أن يكون خادماً له.. يقضي باقي أيامه على الأرض جثة متحركة بين الأموات...

****

تمت بحمد الله 11 /7/ 2014

عصير
الكتب

رواية غير تقليدية .. هدفي أن أجعل من الورقة شاشة
عرض يتعايش فيها القارئ مع الحدث كأنه يراه حقيقة .. عشرات الشخصيات و الخيوط المتقاطعة والأحداث الغير متوقعه تم سردها في تسلسل منطقي لأقصي درجة ممكنه مع بناء درامي متكامل بدون إخلال أو تعتيم علي أي حدث ... تصوير و تفصيلات تأخذك لتعايش واقع الرواية و أحداثها و تتفعل مع الشخصيات.. ليست مجرد سرد أحداث و لكنها قراءة واقعية لرحلة خلال ثلاث سنوات من عمر الوطن ....

يتوقف قطار حياتي عند محطته الثالثة و الثلاثون ، أفقِدُ بيتي و عملي و حبيبتي و أهيم بين طرقات الزمن أبحث عن ذاتي من جديد .. عامان فقط كانت هدنة كافية بيني و بين القدر ما لبث بعدها أن عاود غرز أنيابه القاطعة في بقايا جسدي المتهالك فلم يتركني إلا جثة هامدة في ظلمات السجن الذي يقتل آخر ما بقي لي من أمل .. ولكن يعود الزمان فيلقي إلي بهديته التي انتزعتني من دائرة الضياع إلي دنيا الأمل و الأمان و العشق لأختتم حياتي وقد تبدل حالي من الأسود القاتم إلي الأبيض المشرق ...

قصة كفاح في طرقات قاهرة المعز منذ أحداث صخرة الدويقة ٢٠٠٨ وانتهاء بنتيجة صراع أصحاب المال و السلطة ٢٠١١ .

محمد رزق